تاريخ الحركة القومية
وتطور نظام الحكم
في مصر

بقلم

عبد الرحمن الرافعي بك

الجزء الأول

(يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث)
(وبيان الدور الأول من أدوارها فى عهد الحملة الفرنسية)

الطبعة الثانية

١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م

الثمن ٣٥ ص (خمسة وثلاثون قرشاً)

(يطلب من مكتبة النهضة المصرية شارع عدلى باشا بمصر)

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر



تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم في مصر

بقلم

عبد الرحمن الرافعي بك

الجزء الأول

(يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث)
(وبيان الدور الأول من أدوارها فى عهد الحملة الفرنسية)

الطبعة الثانية

١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م

الثمن ٣٥ ص (خمسة وثلاثون قرشاً)

(يطلب من مكتبة النهضة المصرية شارع عدلى باشا بمصر)

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

مقدمة الطبعة الثانية

هـذه هى الطبعة الثانية للجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » ، والحركة القومية كما عنيتها وأشرتُ إليها فى مقدمة الكتاب هى الجهود التى بذلتها الأمة فى سبيل تحرير مصر من النير الأجنبي ، وفكّ قيود الاستعباد عنها ، وتقرير حقوق الشعب السياسية ، هى التضحيات التى عانتها ، والآلام التى احتملتها فى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة .

لقد أتيح لى بعون الله أن أخرج من هذه المجموعة حتى الآن تسعة مجلدات ، تتناول تاريخ مصر القومي الحديث ، مبحوثاً ومعروضاً على ضوء الحركة القوميـة ، ذلك أن التاريخ الحقيق للأمم هو تاريخ نهضاتها القومية ، فهى أساس وجودها ، ومبعث تطورها ، ولقـد تبينتُ هـذه الحقيقة منذ بدأتُ أبحث فى تاريخ المغفور له « مصطفى كامل » ، إذ وجدتُ تلازماً وارتباطاً بين تاريخ الحركة القومية والتاريخ الحقيق لمصر ، ولم أشأ أن أقف بالحركة الوطنية الحديثة عند ظهور « مصطفى كامل » ، بل وجدتها تتألف من أدوار عدّة ، ينصل بعضها ببعض ، ويشتقّ بعضها من بعض ، وبذلك تطورت الفـكرة فى ذهنى ، من وضع تاريخ لبطل من أبطال النهضة ، إلى تاريخ للنهضة القومية الحديثة فى مجموعهـا ، وازددتُ اعتقاداً مع الأيام بالتلازم التام بين تاريخ الأمة وتاريخ نهضتها ، فمن هـذا التلازم يتألف التاريخ القومى ، والنهضة القومية هى معالم لهذا التاريخ ، وينبوعه الفياض ، والتاريخ القومى هو كالمرآة ، ينطبع عليها صور النهضة وأطوارها ، وحوادثها وأبطالها ، وأفراحها وأحزانها ، وأهدافها وآمالها

على هذا النحو كان بحثى ، وكانت دراستى ، وإنى معترف بأن هذه الطريقة قد وسعت أمامى آفاق البحث ، فإن دراسة الحركة القومية تقتضى ، إلى جانب اسـتقراء الحوادث فى كلياتها وجزئياتها ، تعرّف نُظم الحـكم التى تعاقبت على البلاد ، والإحاطة بعوامل التطور فى الأمة كافة ، من سياسية واقتصادية ، وعلمية وأدبية واجتماعية ، ولا يتسنى للباحث أن يلمّ بتاريخ الأمة إلماماً صحيحاً ، ويرسم منه صورة حية واضحة ، ما لم يتبين حالتها فى هذه النواحى ، وهذا ما دعانى إلى دراستها فيما أخرجت من حلقات هذه المجموعة

يشتمل الجزء الأول على ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ووقائع التاريخ القومي فى ذلك العهد

يليه الجزء الثانى ، وقوامه استمرار المقاومة الأهلية حتى جلاء الفرنسيين عن البلاد ، ونتائج بزوغ العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية ، خلال الحملة الفرنسية ، وبعد انتهائها ، إلى ارتقاء محمد على الكبير أريكة مصر بإرادة الشعب

يلى ذلك « عصر محمد على » ، وهو دور مجيد من أدوار الحركة القومية ، ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة ، وفيه تحقق استقلالها ، وتألفت وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، وفيه تأسس الجيش المصرى ، والأسطول المصرى ، والثقافة المصرية ، ووُضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية فى البلاد

يليه « عصر اسماعيل » ، وقد جعلتُه كتاباً مستقلا فى جزئين ، يشتملان على عهد عباس الأول ، ويصح اعتباره عهد الرجعية والنكسة ، لأن فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التى ظهرت على عهد محمد على الكبير ، فعهد سعيد ، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تُعَدّ من أدوار الحركة القومية ، ثم عهد إسماعيل ، ويتمثل فيه تاريخ مصر القومى فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويُعدّ عصراً هامًّا ، له أثره النافع ، كما له أثره الضار فى تطور الحركة القومية ، لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة وعمران ، ثم ما تخلله واقترن به من أخطاء وأرزاء أدت إلى التدخل الأجنبى وتصدّع لها بناء الاستقلال

وإلى عهد إسماعيل ترجع المقدمات الأولى للثورة العرابية ، التى ظهرت أوائل سنة ١٨٨١ ، واستمرت إلى نهاية سنة ١٨٨٢ ، وكان غايتها تحرير البلاد من التدخل الأجنبى ، ومن الحكم المطلق معاً ، ولكنها أخفقت فيما قامت من أجله ، وجاء الاحتلال الأجنبى فى أعقابها ؛ وقد أفردتُ لها كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى »

يليه كتاب « مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال » ، ويتناول عهد الانحلال القومى الذى أصاب البلاد فى السنوات العشر الأولى للاحتلال ، من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢

ثم كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ، ويتناول عهد البعث الوطنى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ ، فكتاب « محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية » ، ويشتمل على تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

ولم يبق إلا كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » ، ثم كتاب « فى أعقاب الثورة المصرية » ، وبهما تكمل هذه المجموعة ، أسأل الله أن يهيّئ لى إتمامها ، وأن يهدينا سبيل الحق والسداد ، ويلهمنا الإخلاص والرشاد .

مايو سنة ١٩٤٤

عبد الرحمن الرافعي

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة

— ١ —

لكل أمة صفحة من الحياة القومية تحتوى تاريخ الجهود التى بذلتها والآلام التى عانتها فى سبيل حريتها واستقلالها

تلك الصفحة أول ما تعنى كل أمة بتدوينه ، ففيها ذكريات لجهاد الماضى ، وعبر لجهاد الحاضر ، وعظات لجهاد المستقبل ؛ فيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة فى أداء الأمانة القومية ، تلك الأمانة المقدسة ، وديعة السلف للخلف ، ووصية الآباء للأبناء

وهذا كتاب دونت فيه تاريخ الحركة القومية المصرية ، أضع بين أيدى القراء الجزء الأول منه ، راجياً أن أتبعه بالأجزاء الباقية ، لأحقق أملا تعلقت به نفسى ، وأتم عملا شرعت فيه منذ سنين

— ٢ —

كان فى نيتى من سنوات عدة أن أضع تاريخاً لفقيد الوطن العظيم المغفور له « مصطفى كامل » على مثال كتاب « بول دُشَانِل » عن « جامْبِتَّا » ، خدمةً للقضية الوطنية ، وأداءً لواجب الوفاء نحو من تلقيت عنه مبادئ الوطنية الأولى

أعددت مواد الكتاب ، وكتبت بعض فصوله ، لكن تاريخ مصطفى كامل استتبع الكلام فى مبدأ ظهور الحركة القومية بمصر فى تاريخها الحديث ، والتطورات التى تعاقبت عليها ، فاستوقفنى هذا البحث ، وأخذت أعالج إدماجه فى الكتاب ، كفصل من فصوله ، فلم أستطع ، لتشعب الموضوع وانفساح مداه ، ورأيت الإيجاز فيه لا يشفى غليلا ولا يؤدى إلى الغاية التى أنشدها من وضع الكتاب ، فتغيرت وجهة نظرى فى العمل ، وتاقت نفسى إلى دراسة أدوار الحركة القومية من بدء ظهورها إلى اليوم ، فعزمت على تغيير برنامج الكتاب ، ووضعت له تبويباً يجعل تاريخ مصطفى كامل جزءاً من أجزائه

— ٢ —

إن مصطفى كامل يمثل دوراً من أدوار الحركة القومية ، سبقته أدوار وتلته أخرى ، ولا تكون دراسة الحركة القومية وافية إذا اقتصرت على عصر واحد من عصورها ، بل يجب أن يتناولها البحث بأجمعها ؛ من أجل ذلك عزمت على أن أقرن دراسة هذا العصر بالعصور التي خلت من قبله ، والأدوار التي تلت من بعده ، فإنما هي سلسلة متصلة الحلقات من جهاد الأجيال المتعاقبة لتحقيق آمال مصر وإدراك مطمحها الأسمى

— ٣ —

اعتزمت إذن أن أكتب عن تاريخ الحركة القومية في مصر ، فترامت شقة البحث ، وتشعبت أمامي مسالك العمل ، وطويت أوراقي الأولى ، وشرعت أبحث مواضيع الكتاب من جديد ، فأخذت في الرجوع إلى الأدوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل ، لأقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية ، رجعت إلى الحركة العرابية ، فإذا بها ترجع أسبابها ومقدماتها إلى حركة الاستياء من نظام الحكم القديم وإلى الحركة الفكرية والسياسية التي ظهرت على عهد إسماعيل ، وهذه الحركة الأخيرة لم تظهر فجأة ولم تكن الأولى في تاريخ مصر القومي ، بل هي تطور جديد للروح القومية التي بدأت تظهر في البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، فإلى هذا العهد يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية ، وأول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، فإن هذه المقاومة كانت أول شرارة أشعلت جذوة الروح القومية في نفوس المصريين ، وهي أول صفحة من صفحات الجهاد الأهلي في تاريخ مصر الحديث

— ٤ —

بدأ العامل القومي يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال الفرنسي بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ؛ وظل العامل القومي محتفظاً بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسي ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الإنجليز ، أن يهزموه ، أو يقهروه ، أو يبعدوه عن الميدان ، وكان من نتائجه بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالي التركي ، ثم المناداة بمحمد علي والياً مختاراً على مصر ، ثم إخفاق الحملة البريطانية التي جردتها إنجلترا لتحقيق أطماعها في وادي النيل ، وهزيمتها في (رشيد) و (الحماد)

فالحركة القومية المصرية يرجع ظهورها إلى مائة وثلاثين سنة ، من ذلك الحين ولدت

وظهرت ، ثم أخذت فى النمو والتطور شأن الكائن الحى ، وتعاقبت عليها الأدوار المختلفة ، فحيناً كانت تقوى ، وآونةً تضعف ، وطوراً تشتد وتنشط ، وتارة تخمد وتفتر ، على أنها طوالَ هذه السنين سائرة فى الجملة إلى الأمام ، ولئن أصابتها أطوار تراجع ، من ضعفٍ أو فتنة ، فإنها لا تلبث أن تعود إلى النشاط والتقدم ، مجددةً قواها ، منتفعةً من التجاريب ، طامحة إلى المثل الأعلى

— ٥ —

يرجع بدء الحركة القومية إذن إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولإثبات هذه الحقيقة ودراستها على ضوء الوقائع التاريخية وبحث مقدماتها ونتائجها قد خصصت الجزءين الأول والثانى من الكتاب ، فمنهما تتألف الحلقة الأولى من سلسلة الحركة القومية

وثمتَ بحث آخر استتبعه تاريخ الحركة القومية وهو دراسة نُظُم الحكم التى تخللت أدوارها ، ذلك أن سياسة الحكم وأساليبه كانت فى مختلف العصور والبلدان من الأسباب الرئيسية لظهور الانقلابات والحركات القومية ، كما أن لهذه الحركات أثراً فعالا فى تطور نظام الحكم ، بحيث تجد بينهما اتصالا طبيعياً يجعل الاشتراك فى بحثهما أمراً لا مندوحة عنه ، لذلك جعلت دراسة نُظُم الحكم فى مصر وتطورها قسما من أقسام الكتاب ، وأومأت إليها فى عنوانه

على هذا النحو شرعت فى بحث أقسام الكتاب ومواضيعه ، ومهدت له بدراسة الحركة القومية فى أوروبا وأمريكا للوقوف على ما بها من حقائق وعظات ، وما بينها وبين حركتنا القومية من ملابسات ومشابهات ، ووضعت سنة ١٩٢٢ كتاباً(١) فى تاريخ النهضات القومية فى بعض البلدان كمقدمة لدراسة الحركة القومية فى مصر

— ٦ —

ما هى الجهود التى بذلتها الأمة فى سبيل تحرير مصر من النير الأجنبى وفك قيود الاستبداد عنها وتقرير حقوق الشعب السياسية ؟ ما هى الجهود التى بذلتها والآلام التى احتملتها فى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة ؟ ما هى الحوادث التى ارتبطت بهذه الجهود أو وقعت خلالها وناصرتها أو عرقلتها ؟ ما هى الأدوار التى تطورت إليها الحركة القومية من بدء ظهورها إلى اليوم ؟ ما هى نُظُم الحكم التى تعاقبت على البلاد فى خلال تلك الأدوار

(١) « الجمعيات الوطنية ، صحيفة من تاريخ النهضات القومية »

وما مبلغ أثرها فى تطور الحركة القومية ؟

هذا هو موضوع الكتاب ، وتلك هى المسائل التى بحثتها جهد المستطاع على هدى الحقائق التاريخية

— ٧ —

وبعد ، فلست مدعياً فى هذا الكتاب أننى وفيت الموضوع حقه وكفايته من الدرس والبحث ، فإنى مقرٌّ بأن هذا التاريخ بعيد الأفق واسع المدى يحتاج إلى دراسة مستطيلة فى مباحث مستفيضة ومؤلفات عديدة ، وحسبك أن تلقى نظرة على ما لا يحصى من الكتب التى ظهرت ولا تزال تظهر إلى اليوم فى تاريخ الانقلابات والحركات القومية فى مختلف البلدان لترى أن كتاباً واحداً لا يمكن أن يفى بتدوين صفحات الجهاد القومى

والآن أقدم لمواطنىّ الأعزاء الجزء الأول من الكتاب ، وأرجو من القارئ أن يتجاوز عما به من زلاّت القلم وهفوات الكتابة ، والله يعصمنا من الشطط والهوى ويلهمنا الصدق والإخلاص فى خدمة الوطن العزيز

أول ينـاير سنة ١٩٢٩ عبد الرحمن الرافعى

اهداء الكتاب

إلى أخى العزيز المرحوم أمين بك الرافعى ، من فقَدْتُهُ أحوجَ ما أكون إلى حبه وعَطفه ، إلى ذكراه المجيدة ، إلى رُوحه الطاهرة أهدى هذا الكتاب

أهديك يا أخى العزيز كتابى وقد حال الحَوْل وانقضى العام على انتقالك إلى الرفيق الأعلى ، وكم كنت أرجو أن أهديه وأنت منى قريبٌ ، فى عالم الدنيا ، أمّا وقد فرق الموت بينى وبينك فَلْتَتَقَبَّلْ رُوحُك الطاهرة هدية أخيك الحزين

اللهم بارئَ تلك النفس العالية ، ومُرْسِلَها من نورك كوكباً إنسانياً ، ومُعيدَها إلى جوارك كوكباً أزلياً ، أدخِلْ عليها رَوْحاً من عندك ، وسلاماً منى ، يا قريب الدعاء ؟

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ عبد الرحمن الرافعى

الفصل الأول

نظام الحكم في عهد المماليك

يبدأ كتابنا بظهور الروح القومية المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر وتطور نظام الحكم من ذلك الحين ، على أن من الواجب أن نقول كلمة عن نظام الحكم فى مصر قبل ذلك العصر ، أى فى عهد البكوات المماليك[1] ، لتكون تلك الكلمة بمثابة تمهيد لبيان التطور الذى طرأ من بعدُ على ذلك النظام

دخلت مصر فى حوزة الحكم العثمانى ابتداء من سنة ١٥١٧ (٩٢٣ هـ) باستيلاء السلطان سليم على البلاد وزوال سلطنة المماليك الشراكسة منها . فاستتبع الفتح العثمانى وضع نظام جديد للحكم فى مصر وهو النظام الذى رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧ إلى سنة ١٧٩٨

من هو الواضع لهذا النظام

إن الفكرة السائدة فى هذا الصدد أن واضع هـذا النظام هو السلطان سليم ، وهذه الفكرة تراها مبسوطة فى معظم كتب التاريخ ، وفى رحلات الإفرنج الذين ساحوا فى مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ودونوا ما شاهدوه عن نظام الحكومة المصرية . لكن فريقاً من علماء الحملة الفرنسية الذين درسوا هـذا النظام أثناء إقامتهم بمصر يذهبون إلى أن السلطان سليمان هو الواضع له ، فالمسيو فورييه **Fourier** سكرتير المجمع العلمى المصرى فى عهد نابليون يقول إن السلطان « سليمان » هو الواضع لنظم الحكم التى عرفت فى مصر من عهد الفتح العثمانى ، وإن السلطان « سليم » لم يكن رجلا من رجال النظم والقوانين بل رجل حرب وكفاح ، ولم يطل مقامه فى مصر طويلا حتى يضع نظام الحكم فيها ، وإن السلطان سليمان الذى سن للدولة العثمانية نظمها وقوانينها حتى لقب بالقانونى هو أيضاً الواضع لنظم الحكم فى مصر ، لكن شهرة السلطان سليم فى الحرب وكون الفتح العثمانى تم على يده

---

(١) عبرنا عنهم بالبكوات المماليك تمييزاً لهم عن السلاطين المماليك الذين تألفت منهم الدولتان البحرية ، والبرجية (الشراكسة)

ودخوله فى مصر ظافراً كل ذلك جعل الناس ينسبون إليه هذه النظُم تسامحا وتجاوزاً[١] .
وقد أيد هذا الرأى كل من المسيو لانكرى Lancret[٢] والمسيو استيف Estève[٣] فى دراستهما لتلك النظم[٤].

ويقول استيف إن السلطان (سليم) لم يكد يشرع فى وضع نظام الإدارة المصرية حتى عاجلته منيته

هذا هو رأى علماء الحملة الفرنسية ، ولا يمكننا أن نقبل هذا الرأى على إطلاقه ، بل يجب أن نرجع إلى الوقائع التاريخية لنتبين مبلغه من الصحة ، وهنا يجب أن نرجع إلى المصادر العربية وبخاصة التى شهد أصحابها وقائع الفتح العثمانى أو عاشوا فى عهد الحكم التركى ؛ وأهم هذه المصادر تاريخ ابن إياس الذى أدرك الفتح العثمانى ، ومخطوطات ابن أبى السرور البكرى الذى عاش فى عهد الحكم التركى وكتب عنه لغاية سنة ١٠٥٥ هجرية (١٦٤٥ ميلادية)

فخلاصة ما ذكره ابن إياس فى تاريخه[٥] أن مدة إقامة السلطان سليم بمصر ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل ، وأنه لما استقر له الأمر فى مصر عين وزيره يونس باشا نائباً عنه ، وكان يلقب بنائب السلطنة ، وظل فى هذا المنصب فترة من الزمن مدة إقامة سليم فى مصر . لكن السلطان (سليم) قبل أن يغادر الديار المصرية بدا له أن يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة ويوسدها إلى « خير بك » . وخير بك هذا هو أحد أمراء السلطان الغورى وكان نائبه فى حلب لما وقعت الحرب ، فخرج على سيده وانضم إلى السلطان سليم وكان من عوامل انتصاره على الغورى ، فكافأه سليم على خيانته بتوليته نائباً عن السلطنة فى مصر ؛ وكان يلقب من عهد الغورى بملك الأمراء فلازمه هذا اللقب بعد تعيينه نائب السلطنة . ويقول ابن إياس إن السلطان (سليم) لما رحل من مصر ترك بها من عسكره بالقاهرة نحو خمسة آلاف فارس ومن الرماة بالبنادق نحو خمسمائة رام . وعين من أمراء جنده خير الدين باشا قائداً للحامية العسكرية وجعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل إلى المدينة . وكان الأمر والنهى لخير بك ، وسكن القلعة . لكن جنود الحامية ثاروا عليه غير مرة وكادوا يفتكون به . وذكر ابن

(١) انظر كتاب تخطيط مصر Description de l'Egypte وهو مجموعة مباحث علماء الحملة الفرنسية الجزء الأول

(٢) من مهندسى الحملة الفرنسية

(٣) مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية فى عهد الحملة الفرنسية

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الحادى عشر « إدارة مصر وحكومتها وضرائبها فى عهد البكوات المماليك » بقلم لانكرى ، والجزء الثانى عشر « النظام المالى لمصر » بقلم المسيو استيف

(٥) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن إياس المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور

إياس الفتن التى قامت بين الفريقين والتى شغلت جزءاً كبيراً من نيابة خير بك ، ومنها يتبين أن التنازع بين نائب السلطنة (الوالى) ورؤساء الجند قد ظهرت بوادره فى أوائل العصر العثمانى . وهذا ما كان يرمى إليه السلطان سليم من إيجاد سلطتين متنازعتين ليضمن بقاء الفوضى فى البلاد ويطمئن على تبعيتها للسلطنة العثمانية

وذكر ابن أبى السرور البكرى « أن السلطان (سليم) اختار من أمراء الجراكسة أربعين أميراً وجعل لكل منهم أربعين عثمانيا ، وأمر ألا يكتبوا فى سفر ولا سواه غير حراسة الجسور وهم الذين يقال لهم الآن أمراء الجراكسة »(١)

يؤخذ من ذلك أن السلطان « سليم » قد وضع فعلا قاعدة النظام السياسى للحكومة ، وهى إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى : الأولى سلطة نائب السلطان (الوالى) ، والثانية سلطة رؤساء الجند . ووضع أيضا نواة السلطة الثالثة وهى سلطة البكوات المماليك الذين رجع إليهم حكم مديريات القطر المصرى . فمن الحق إذن أن نقول بأن السلطان (سليم) هو واضع نظام الحكم السياسى فى مصر من عهد الفتح العثمانى . أما النظم المالية والقضائية فهى فى مجموعها من وضع السلطان سليمان لأنها احتاجت زمنا طويلا حتى استقرت قواعدها ، ولم يكن لدى السلطان سليم من الوقت ما يجعله يقرر هذه النظم

نظام الحكم السياسى

والآن فلنتكلم تفصيلا على السلطات الثلاث التى كانت أساسا لنظام الحكم السياسى من عهد الفتح العثمانى

الوالى — فالسلطة الأولى هى سلطة الوالى العثمانى ، ويلقب بالباشا ، ومقره القلعة . وهو نائب السلطان فى حكم البلاد . كان يمثله ويبلغ أوامره لرجال الحكومة ويراقب تنفيذها ، وله الرياسة على عمالها ، على أن سلطته محدودة مقيدة . ذلك أن السلطان (سليم) خشى لبعد مصر عن مركز السلطنة أن يطمح ولاتها إلى الاستقلال بها والخروج على حكومة الاستانة ، فجعل مدة الوالى سنة واحدة تنتهى ولايته بنهايتها ما لم يصدر فرمان بتجديدها لسنة أخرى

رؤساء الجند — والسلطة الثانية هى سلطة رؤساء الجند ، وهم قواد الفرق التى غادرها فى مصر بعد احتلالها . كانت الحامية العثمانية التى تركها السلطان سليم تتألف فى بدء الفتح العثمانى من نحو اثنى عشر ألفا ، وظيفتهم حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وكانوا

(١) الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة لابن أبى السرور البكرى

موزعين بين القاهرة وأمهات مدن القطر ، ومنتظمين فى ست فرق تسمى كل فرقة «وجاق» ، لكل وجاق اسم خاص . وإليك بيان أسمائها :

وجاق « المتفرقة » المؤلف من خيرة حرس السلطان ، ووجاق الانكشارية ويسمون بالمستحفظان (المستحفظين) لما عهد إليهم فى حفظ الأمن ، ووجاق العزب ، ووجاق الشاويشية ، ووجاق الهجانة ، ووجاق التفكجية ، وأضاف إليهم السلطان سليمان وجاقاً سابعاً وهو وجاق الشراكسة

وكان لكل فرقة ضباط يسمون « الوجاقلية » نسبة إلى وجاق . وهذه الكلمة سيرد ذكرها كثيراً فى فصول الكتاب . فكبيرهم يسمى « الأغا » أى رئيس الفرقة ، ونائبه يسمى الكخيا أو الكتخدا ؛ وأقدم الضباط ويسمى «باش اختيار» ، والدفتردار وهو مدير الشؤون المالية ، والخازندار أى أمين الخزانة ، والروزنامجى أى حافظ السجلات

ومن اجتماع أولئك الضباط أو « الوجاقلية » يتألف مجلس شورى الباشا المسمى (بالديوان)

ولهذا الديوان سلطة كبيرة فى إدارة الحكومة ، لأن الباشا (الوالى) لا يستطيع أن يبرم أمراً إلا بموافقة أعضائه ؛ وإذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه إلى أن يرفع إلى الاستانة ، ولهم أن يطلبوا عزله ، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة وإشراف على سلطة الوالى

ولما مات السلطان سليم أنشأ السلطان سليمان بدل مجلس شورى الباشا ديوانين : الأول الديوان الكبير ، والثانى الديوان الصغير ؛ فالديوان الكبير مؤلف من رؤساء الفرق (أغاواتها) ودفترداريها وروزنامجيتها وأمير الحج وقاضى مصر ورؤساء المشايخ والأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة . ولهذا الديوان سلطة البت فى شؤون الحكومة الرئيسية ، وله نقض أوامر الوالى ، ولا ينعقد إلا نادراً بأمر الوالى

والديوان الصغير ، أو الديوان فقط ، ويتألف من كتخدا (نائب) الباشا والدفتردار ، والروزنامجى ومندوب عن كل وجاق ، والأغا (الرئيس) وكبار الضباط من وجاق المتفرقة ووجاق الشاويشية ؛ وينعقد كل يوم فى قصر الوالى وينظر فيما تحتاج إليه البلاد . وكان الباشا يبلغ أمره للديوان الكبير والديوان الصغير بوساطة كتخدائه (نائبه) وعليه تنفيذ قرارات الديوانين ، وكان يحضر جلساتهما من وراء ستار دون أن يشترك فى مداولاتهما

وقد صار وجاق الانكشارية مع الزمن أهم الوجاقات ، فكان رئيسه المسمى (أغاة

الانكشارية) بمثابة القائد العام للحامية العسكرية [١] ، ومما يجدر ملاحظته أن الوجاقات بعد أن استقرت فى البلاد انتظم فيها كثير من المصريين ودخلوا فى عدادها فصار لها صبغة محلية وبخاصة بعد أن انصرفت تركيا فى عهد تقهقرها عن إرسال الجنود إلى مصر ، فسد المصريون على توالى السنين الفراغ الذى حدث فى صفوف الحامية العثمانية ، ومن بقى منها استوطنوا مصر واندمجت سلالاتهم فى أهلها . ويلاحظ أيضاً أن عدد الوجاقات قد تناقص مع الزمن أو اندمج بعضها فى بعض . فقد كتب المسيو دى مايبه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر فى أواخر القرن السابع عشر [٢] وأوائل الثامن عشر بياناً عن الوجاقات التى شاهدها فى ذلك العصر ، ووصفها كما رآها ، فقال إنها خمس وجاقات وهى :

١ — وجاق المتفرقة ، وذلك أعرقها أصولا ، وإن كان أقلها أهمية، وعدده من ألف إلى ألفين من الفرسان ، وهو مؤلف من حرس الباشا وبعض البكوات وبعض سراة التجار الذين يناصرون الباشا وينتمون إليه ، ومن بعض الأجناد الذين انفصلوا عن الوجاقات الأخرى . ومعظم أفراد هذا الوجاق ليسوا من الجنود المدربين على القتال

٢ — وجاق العزب وهو من المشاة ، وعدده يتراوح من ثلاثة إلى أربعة آلاف ؛ وهو دائم التنافس مع وجاق الانكشارية

٣ — وجاق الاسباهية وهم الفرسان ، وعددهم نحو ثلاثة آلاف ، وهذا الوجاق مستقل عن الباشا

٤ — وجاق الشاويشية وهو مؤلف من المشاة ، وعدده لا يتجاوز خمسمائة ، ويتبعه كتيبتان من الجنود لا يتجاوز عددهم خمسمائة أيضاً ، منهم بعض النساء اللاتى مات أزواجهن فى الخدمة العسكرية

٥ — وجاق الانكشارية وهم مستقلون عن الوالى ولهم فى القلعة معسكر منفصل عن

---

(١) كلمة « انكشارية » مأخوذة من الكلمة التركية «يكى جرى» أى الجند الجديد . والكاف التركية تنطق نونا . والجيم المعطشة تنطق شيناً . وابن أبى السرور البكرى يكتبها « ينكجرية » وكذلك الجبرتى . ويقول ابن أبى السرور فى كتابه « الروضة المانوسه فى أخبار مصر المحروسة » عن أصل كلمة « اغاة الينكجرية » ان السلطان سليم لما خرج من مصر « قرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا جعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل المدينة وهو الآن فى زماننا يسمى «اغاة الينكجرية» . وكتاب الروضة المأنوسة تنتهى حوادثه سنة ١٠٥٥ هجرية (توافق ١٦٤٥ ميلادية) فنى هـذا الزمن إذن كان رئيس وجاق الانكشارية أو « أغاة الينكجرية » هو قائد عموم الجند فى مصر ، ثم صار أيضا مع الزمن بمثابة محافظ القاهرة

(٢) فى كتابه وصف مصر — رسائل المسيو دى مايبه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٦٩٢

قصره ، ولهذا الوجاق استقلال حتى عن السلطان ، وله نفوذ كبير وسلطته واسعة ، وله أملاك فى مصر ، وينخرط فى سلكه كثير من التجار والأعيان ، وله عليهم إتاوات وعوائد يدفعونها له ؛ ونظامه قريب الشبه بنظام طائفة « فرسان مالطه »(١)

ويقول الرحالة ڤانسليب(٢) Vansleb الذى جاء مصر سنة ١٦٧٢ إن الوجاقات السبعة لم يبق منها إلا خمس وعدّد أسماءها بما لا يخرج عن رواية دى مايليه De Maillet وان وجاق الاسباهية يشمل (الهجانة) والتفكجية والشراكسة

المماليك — أوجد السلطان سليم بجانب سلطة الوالى ورؤساء الجند سلطة ثالثة تحفظ الموازنة بين الاثنين ، وهى سلطة الأمراء المماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان فعينهم حكاما للمديريات ، ويسميهم الجبرتى « الأمراء المصرية »

كانت البلاد مقسمة إلى مديريات أو (أقاليم) ، تسمى كل مديرية «أقليما» أو «سنجقية» ، يحكم كلا منها حاكم يقال له « سنجق » أو بك يعينه ديوان مصر من بين أمراء المماليك

إن المماليك الذين أقرهم السلطان سليم حكاما لمديريات مصر هم بقايا الدولتين اللتين كان كان إليهما الحكم فى مصر على التعاقب نيفاً و٢٦٧ سنة ، فالأولى هى دولة المماليك البحرية ، وأصلهم من سكان أواسط آسيا وشمالها الذين كان التتار يغزون بلادهم فيقعون أسرى فى أيديهم أو يفرون من بلادهم فيتفرقون فى الأقطار ويباعون فى أسواق الرقيق ؛ وكان الملك الصالح نجم الدين الأيوبى أحد سلاطين الدولة الأيوبية قد استكثر منهم وجعلهم خاصة جنده وحاشيته ، واتخذ منهم أمراء دولته وأسكنهم جزيرة الروضة بالنيل وبنى لهم قلعة وقصوراً بالقرب من المقياس ، وكان النيل يسمى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه ، ولذلك سمى هؤلاء المماليك البحرية ، وهم الذين حكموا مصر من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢

والثانية هى دولة المماليك البرجية ، وأصلهم من بلاد الشركس والقوقاز ، وسبب تسميتهم البرجية أن المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية عهد إليهم حماية القلاع والحصون وأسكنهم فى الأبراج فسموا البرجية ، ويسميهم بعض المؤرخين ملوك الشراكسة نسبة إلى أصلهم ، وهم الذين تولوا سلطنة مصر من سنة ١٣٨٢ إلى سنة ١٥١٧ ، وانقرضت دولتهم بالفتح العثمانى

فالمماليك من بقايا هاتين الدولتين هم الذين أقرهم السلطان سليم على حكم مديريات القطر

(١) انظر الكلام عن « فرسان مالطة » فى الفصل الثانى
(٢) رحله ڤانسليب فى مصر سنة ١٦٧٢ — ١٦٧٣

المصرى ، وجعل منهم السلطان سليمان ٢٤ بيكا أو سنجقاً تتألف منهم الإدارة المحلية للبلاد ، فمنهم حكام المديريات «السناجق»(١) ، ومنهم بعض كبار موظفى الحكومة وهم «الكخيا»(٢) أى نائب الوالى ، و «الدفتردار» ووظيفته إدارة الشؤون المالية وضبط الخرج والدخل ، وبيده سجلات ملكية الأراضى ، وهذه السجلات حجة الملكية وانتقالها ، وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية

والروزنامجى ووظيفته إدارة الخراج(٣) وضبط حساباته .

وأمير الحج ووظيفته مرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات والهدايا التى ترسل سنويا إلى الحرمين الشريفين

والخازندار (أمين الخزانة) وظيفته حمل الخراج سنويا إلى الاستانة .

والقبودانات الثلاثة قباطين ثغور دمياط والسويس والإسكندرية ، وكانت هذه الثغور على جانب عظيم من الأهمية لأنها بمثابة أبواب مصر .

ومنهم البكوات الخمسة حكام مديريات جرجا والغربية والشرقية والمنوفية والبحيرة ، أما مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم فكان حكامها يسمون الكشاف(٤) ، وهم وكلاء البكوات فى حكم المديريات ، والكشاف وإن كانوا أقل مرتبة من « السناجق » إلا أن سلطتهم واحدة

وكان لكل مديرية ديوان خاص بها مؤلف من الشوربجية وغيرهم من الوجاقلية (ضباط الفرق) يستشيره البيك أو الكاشف ، ولكن العمل جرى على غير ذلك ، فلم يكن ثمة دواوين ولا استشارة

وكان تعيين الكتخدا وقباطين ثغور دمياط والسويس والإسكندرية يصدر به رأساً مرسوم من السلطان ، أما باقى البكوات والسناجق فيعينهم الديوان بتصديق الوالى نيابة عن السلطان ، وإذا خلا مركز أحد البكوات عين بدله من بين الكشاف

---

(١) سموا سناجق لأنهم عند رفعهم إلى هذه المرتبة كانوا يتسلمون بيرقا أو سنجقا شارة البكوية

(٢) الكخيا محرفة كلمة كتخدا ومعناها الوكيل أو النائب

(٣) ضرائب الأطيان أو أموال الميرى

(٤) كلمة كاشف مأخوذة من فعل كشف لأن الأصل فى وظيفة الكشاف أن يكشفوا أحوال المديريات ، ولما اتسعت سلطتهم وصار إليهم الحكم وأخذوا المديريات التزاما بقى الاسم القديم ملازما لهم وصار الكاشف يحكم المديرية أو جزءاً منها باسم البيك

فالكاشف هو بمثابة (المدير) اليوم إذا كان يحكم المديرية كلها وبمثابة وكيل المديرية أو مأمور المركز إذا كان يحكم جزءا منها

والظاهر أن عدد البكوات كان ينقص فى بعض الأزمنة عن ٢٤ بيكا ، فقد ذكر الرحالة ڤانسليب Vansleb الذى ساح فى مصر سنة ١٦٧٢ أن عدد البكوات كانوا بمصر فى ذلك العهد ١٦ بيكا ، ويقول المسيو سونينى Sonnini الذى ساح فى مصر سنة ١٧٧٧ إن عددهم نقص فى القرن الثامن عشر[(١)]

ويقول الجبرتى إن السناجق صاروا ٢٤ سنة ١١٣٥ هجرية (١٧٢٣ ميلادية) وإنهم كانوا قبل ذلك اثنين وعشرين سنجقاً[(٢)]

تطور هذا النظام وانفراد المماليك بالحكم

لم يستمر نظام الحكم السياسى كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثمانى ، ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم فى إدارة الحكومة ، بل تركت البلاد تتقسمها أهواء رؤساء الجند والولاة ، وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون على الانفراد بالحكومة . فنظام الحكم السياسى فى مصر قد تطور مع الزمن ، وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى تغلب سلطة البكوات المماليك

حدث هذا التطور فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم ، وساعدهم على ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شؤونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها ، وزاد فى نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم فضعف شأنهم وتراجع نفوذهم فى حين أن المماليك احتفظوا بعصبيتهم بما استكثروا من الجند والأتباع الذين كانوا يشترونهم من بلاد الشركس والقوقاز والكرج ، واستمالوا إلى جانبهم أفراد الحامية العسكرية ، إذ كان رجال « الوجاقات » قد استوطنوا مصر واستقروا بها واندمجوا فى أهلها واقتنوا الأملاك وتأثلوا فيها ، فضعف ارتباطهم بعاصمة السلطنة العثمانية ، وكانت إدارة الحكومة المدنية والمالية بيد المماليك وإليهم توزيع الأعطية والأرزاق على الجنود ، فصار هؤلاء تبعاً لهم بحكم الروابط المادية ، ثم صار رؤساء الوجاقات وأغلب ضباطها من المماليك ، فانحصرت السلطة العسكرية والمدنية فى أيديهم . واتصل ضباط الوجاقات وأفرادها بالمماليك بأواصر المصاهرة ولحمة القربى فأصبحوا ضمن حزبهم ، ومن أهلهم وعشيرتهم وأتباعهم ، بعد أن

---

(١) رحلة فى مصر العليا والوجه البحرى سنة ١٧٧٧ بقلم سونينى
(٢) الجبرتى : الجزء الأول

كانوا معدين لحربهم وإخضاعهم . فتلاشت سلطة الولاة العثمانيين وعظم نفوذ البكوات المماليك ، واسترجعوا مع الزمن سلطة الحكم التي كانت للسلاطين البحرية والشراكسة . وصار لرئيس المماليك الذي يختارونه زعيما لهم ويلقبونه « شيخ البلد » النفوذ الذي لا يعارض والكلمة التي لا ترد . وصارت « مشيخة البلد » بمثابة إمارة مصر . وعبث المماليك بالولاة وأخذوا يعزلون من لا يرضون عنه ؛ فإذا اجتمعوا على عزله أنفذوا إليه رسولا اسمه « أوده باشي »[1] (من ضباط الوجاقات) يذهب إليه حاملا قرار الديوان بعزله ، فيدخل إلى مجلسه ويحييه بكل احترام ثم يثني طرف السجادة التي يجلس عليها الباشا ويعلن إليه قرار العزل بقوله « انزل ياباشا » ، فتكون هذه الكلمة بمثابة أمر الخلع . وينزل الباشا من القلعة ويصبح كأحد الأفراد لا حول له ولا طَوْل . وصارت القلعة في خلال القرن الثامن عشر بمثابة السجن للباشوات الذين كانت تعينهم تركيا ولاة لمصر . وأصبح الديوان مؤلفاً من الأربعة والعشرين بيكا الذين كانوا زعماء المماليك . وعبث المماليك أيضاً بالجزية فكانوا لا يدفعون منها إلا ما يروق لهم دفعه ، ويقتطعون منها ما يشاءون بحجة الإنفاق على مصالح البلد

قال الرحالة ڤانسليب Vansleb يصف ما شاهده في مصر سنة ١٦٧٢ من استئثار المماليك بالحكم :

« إن كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا يخالف لهم أمراً ، وكانوا يملكون عزله »

وقال المستشرق مارسل Marcel : « انحصر تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر إلى آخره في تعاقب الباشوات على ولايتها ، فتولاها ٢٢ والياً لم يكن لهم شأن يذكر في حكومتها . فكان الواحد منهم يشتري منصب الولاية من ديوان الآستانة ويبقى شاغلا هذا المنصب عاما أو عامين ، ولا يستقر هذه المدة في منصبه إلا إذا ترك الأمور للبكوات المماليك الذين كان منهم شيخ البلد وهو الحاكم الفعلي للبلاد . ويظل الباشا في منصبه لا عمل له إلا جمع المال واستصفاؤه من أهله بمختلف وسائل النهب إلى أن يغادر منصبه . وهو في الغالب لا يخرج منه إلا مسجوناً أو مطروداً أو منفياً أو مقتولا »

موظفو الحكومة في عهد المماليك

تتمثل السلطة الفعلية للحكومة في « شيخ البلد » فهو كبير المماليك ورئيس الحكومة

(١) اسمه عند العامة « أبو طبق » ، لأنه كان يلبس فوق رأسه لبادة سوداء كالقبعة ولها حافة تشبه الطبق

المحلية ، والباشا (الوالى) بجانبه لا حول له ولا قوة ، ويليه فى الأهمية أمير الحج ، ويليهما « الدفتردار » أو مدير الشؤون المالية ، فالروزنامجى وهو مدير إدارة الخراج ، فكتخدا الباشا وهو وكيل الوالى وكاتم أسراره ، ويلى هؤلاء البكوات حكام المديريات وأولهم حاكم جرجا وتمتد سلطته من المنيا لأسوان ، فباقى موظفى الحكومة الممتازين كالخزندار ، ومترجم الديوان

وأمين الضربخانة (دار الضرب التى تسك فيها النقود)

وأغاوات (رؤساء) الوجاقات . والمعمارجى باشا ، ووظيفته مباشرة بناء العمارات التابعة للحكومة وترميم القلاع

والقافله باشى ، ووظيفته التفتيش على القوافل القادمة إلى مصر أو الصادرة عنها

وأمين الاحتساب أو المحتسب ، ووظيفته مراقبة الأسواق والتفتيش على الباعة والتجار لمنع وقوع الغش فى المعاملات

وأمين العنابر ، وهو مدير المخازن التابعة للحكومة التى تخزن فيها الغلال من الضرائب التى تؤخذ نوعا

وسردار جرجا وهو نائب البك حاكم جرجا

وقومندانات (أغاوات) القلاع

وولاة الشرطة الثلاثة فى القاهرة ومصر القديمة ، ووظيفتهم إدارة قوة الدرك ، وهى تشبه وظيفة حكمدار البوليس ويسمى الواحد منهم « الوالى »

وأفندية الروزنامة أى كتاب إدارة الخراج

سياسة على بك الكبير

يتبين مما تقدم أن إدارة الحكومة العسكرية والمدنية كانت فى يد المماليك من أواخر القرن السابع عشر ، وقد ساعدهم على الاستئثار بالحكم تقهقر السلطنة العثمانية وانصرافها إلى محاربة النمسا والروسيا خلال القرن الثامن عشر ، فطمحت نفوسهم إلى التخلص من تركيا والاستقلال بمصر . وظهرت هذه السياسة جهرة فى عهد على بك الملقب بالكبير . وهو مملوك وصل بقوة أشياعه وأتباعه إلى مشيخة البلد سنة ١٧٦٣ ، وطمحت نفسه إلى الاستقلال بمصر . فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر ، وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ (١١٨٣هـ) ، وعزل الوالى التركى

ومنع ورود الولاة العثمانيين ، وضرب النقود باسمه[1] ودانت له مصر بحريها وقبليها ، وكان من مماليكه وأتباعه أحمد (باشا) الجزار ومحمد بك أبو الذهب واسماعيل بك وحسن بك الجداوى وابراهيم بك ومراد بك وغيرهم ممن كانت لهم الأدوار الكبيرة على مسرح الحوادث كما سيأتى ذكره فى فصول الكتاب

وكان على بك طموح النفس واسع المطامع ، فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة (سلطان مصر وخاقان البحرين) ، وأوفد محمداً بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها . لكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتى انقلب على على بك واتفق مع الباب العالى وعاد إلى مصر ليستأثر بالحكم فيها . وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل على بك سنة ١٧٧٣ . وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبى الذهب واستقر (شيخاً للبلد) ، وكافأته تركيا بفرمان تثبيته فى مشيخة البلد وتوليته حكم مصر . وصار له الأمر والنهى فى البلاد ، ورجعت تركيا إلى إرسال الولاة كما كان الأمر قديماً

غير أن الوالى كان محجوراً عليه مسلوبا حوله وقوته ، ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالى الذى يرتضيه ، والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة كافة مماليكه وأتباعه إلى أن مات سنة ١٧٧٥ (١١٨٩ هجرية) ، فخلفه فى مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك . ثم وقعت فتنة بين المماليك تولى على أثرها اسماعيل بك مشيخة البلد ، لكنه لم يلبث فيها إلا قليلا ثم خلعه إبراهيم بك ومراد بك وعادا إلى اقتسام سلطة الحكم ثانية . وكان إبراهيم بك شيخاً للبلد فكانت له الرياسة . ثم حاولت تركيا أن تسترجع سلطتها فى مصر فجردت سنة ١٧٨٦ حملة عسكرية بقيادة القبودان حسن باشا الجزائرلى انتهت بفرار إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد . وعاد اسماعيل بك إلى مشيخة البلد . لكن نشوب الحرب بين الروسيا وتركيا صرفها عن الاستمرار فى محاربتهم . ورجع حسن باشا إلى الاستانة ثم مات اسماعيل بك بالطاعون سنة ١٧٩١ (١٢٠٥ هـ) وعادت السلطة إلى إبراهيم بك ومراد بك وتلاشى بجانبهما نفوذ الوالى ، واستقر إبراهيم بك شيخا للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨

وخلاصة ما تقدم أن مصر فى خلال العصر العثمانى كانت ولاية عثمانية تتنازع الحكم فيها السلطات الثلاث التى تكلمنا عنها ، ثم آل الحكم فيها فى أواخر القرن السابع عشر إلى البكوات المماليك ، فصارت من جهة نظام الحكم السياسى أقرب ما تكون شبها بالممتلكات

---

(١) يلاحظ على نقود على بك الكبير أنه منقوش عليها سنة ١١٨٣ هجرية وهى السنة التى جاهر فيها باستقلاله عن تركيا

المستقلة التابعة الآن للإمبراطورية البريطانية والمعروفة بالدومنيون ، مع الفرق العظيم الذى تمتاز به المستعمرات الإنجليزية بأنها تتمتع بحكم دستورى قائم على قاعدة سلطة الأمة ، فالحاكم الإنجليزى فى المستعمرات المستقلة ليس له نفوذ أكبر مما كان للوالى العثمانى فى مصر ، لكن سلطة الحكم فى تلك المستعمرات مستقرة على نظام نيابى يجعل للشعب الأمر والنهى فى شؤون البلاد الداخلية ، أما مصر فكان زمام حكومتها إلى طائفة المماليك وفى أيديهم ، وليس للشعب عليهم من نفوذ أو سلطان

مظاهر الحكم فى ذلك العصر

كما وصفها شهودها

بينا فيما تقدم القواعد العامة لنظام الحكم فى مصر ، والآن نضع أمام القارئ صورة لبعض مظاهر ذلك الحكم نقلا عمن شاهدوها ووصفوها من شهود العيان

كيف يعين الولاة

قال المسيو دى ماييه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٧٩٢[١]

« إن مصر يحكمها أحد الباشوات يعينه السلطان ، ومدة ولايته سنة واحدة ويجوز تجديدها ، وجرت العادة أن تدوم ولايته ثلاث سنوات ، واستمر بعض الباشوات فى الولاية أربع سنوات والبعض لم يبق بها إلا سنة أو سنتين ، وولاية مصر من أهم ولايات السلطنة العثمانية ، ولذلك لا يحصل عليها الباشوات إلا فى مقابل إتاوة من المال ، والباشا يدفع على الأقل من أربعمائة إلى خمسمائة ألف ريال قبل أن يصل إلى القاهرة ، ولا يوفق الباشا إلى تجديد مدة ولايته سنة أخرى دون أن يرسل للاستانة هدايا تربو على مائة ألف ريال ، وعلى الباشا أن يرسل الخراج السنوى إلى الاستانة وقدره ستمائة ألف ريال ، وعليه أن يرسل هدايا من السكر والبن والأرز والشراب والحلوى والغلال لا تقل قيمتها عن ستمائة ألف ريال ، عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود فى مصر

وفى مقابل هذه النفقات يتصرف الباشا فى الإيرادات التى تخص السلطان فى مصر ويحصل منها كل سنة بعد سد نفقات الجند على أكثر من اثنى عشر مليون فرنك ، وإلى الباشا تؤول تركات المتوفين بلا عقب ، ويكثر دخله من هذه الناحية إذا وقع وباء فى البلاد »

---

(١) فى كتابه وصف مصر

وصف استقبال الوالى

ترى فى الجبرتى وصف استقبال الولاة فى القرن الثامن عشر ، ومحصل ما ذكر أن الوالى كان يصل عن طريق النيل من رشيد أو الإسكندرية ويرسو فى بولاق ، فتذهب إليه الملاقاة لاستقباله ، ثم يصعد إلى القلعة فى موكب حافل ، وتضرب له المدافع عند قدومه ، ولم يصف الجبرتى هذا الاحتفال تفصيلا لأن حضور الولاة واستقبالهم كان أمراً عادياً ومألوفاً فى ذلك العصر ، لكن كتاب الإفرنج عنوا بوصفه وصفاً دقيقاً فى رحلاتهم

ذكر الرحالة الفرنسى سافارى[1] Savary ما شاهده فى استقبال الوالى فى المدة التى قضاها فى مصر من سنة ١٧٧٧ إلى نهاية سنة ١٧٧٩ قال :

« عند ما يصل الباشا الجديد إلى الإسكندرية يبلغ الديوان نبأ وصوله ، فيرسل شيخ البلد (رئيس المماليك) وفداً من أذكى البكوات لاستقباله والحفاوة به ، فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة ، وفى خلال ذلك يتحسسونه ويستطلعون نياته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ، ويتعرفون الأمور التى جاء بها من الاستانه ، فإذا رأوا أنه لا يوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا إلى شيخ البلد فى القاهرة ، فيعقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لا يريدونه ؛ ثم يرسل إلى الباب العالى بأن الباشا الجديد جاء بنيات عدائية تؤول إلى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين إذا هو أطلق له منصبه ، ويطلبون استدعاءه ، فلا يرفض الباب العالى لهم طلباً ، أما إذا آنس الرسل من الباشا أن لا خيفة منه فإنهم يدعونه إلى القاهرة ، فيركبه الوفد سفينة فخمة ، وينحدرون فى معيته تحيط به المراكب المزينة بالأعلام وفيها الطبول والزمور ، فيتقدم الباشا هذا الأسطول مستقلا سفينة تختال فى سيرها ، وما صادفهم فى النيل من مراكب انحدر معهم وماج فى حاشيتهم ، إلى أن يصلوا إلى الحلى (ببولاق) ، وهناك ترسو المراكب ، وينفذ شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا فى الميناء أو يستقبله بنفسه ، فيهنئه أمراء المماليك بالقدوم ، ويقدم له أغا الانكشارية (محافظ المدينة) مفاتيح القلعة ويدعوه إلى الإقامة فيها . قال : وقد شاهدت بعينى وصول الباشا ودخوله المدينة فى موكبه وزينته ؛ رأيت الموكب تتقدمه فصائل من الجنود المشاة يسيرون صفين ، وموسيقاهم أمامهم وأعلامهم تخفق فوق رؤوسهم ، يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس يسيرون بنظام حسن ويحملون الرماح الطويلة ، تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة وشواربهم الكبيرة ، فكان لهم منظر حربى يبعث الروعة فى النفوس ، ويلى هؤلاء « البكوات » مرتدين الملابس

(١) فى كتابه (رسائل عن مصر)

البديعة ، وحولهم حاشيتهم من المماليك يمتطون صهوات الجيـاد العربية الأصيلة وعليها غواشٍ موشاة بالذهب والفضة ، رأيت أعنة خيول الأمراء مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة ، وعلى خيولهم السروج تتلألأ من الذهب ، وكل بيك يسير فى موكب على هذه الصفة ، فكانت مواكبهم مجتمعة غاية فى الرونق والفخامة ، يزينها جمال الفرسان وشكل ملابسهم وحسن استوائهم على متون جيادهم ، ويليهم الباشا يسير الهوينا وتتقدمه كوكبة من مائتى فارس وفرقة من الموسيقى ، وأمامه أربعة من الجياد يقودها أربعة من السواس وعليها غواشيها موشاة بالذهب مرصعة بالأحجار الكريمة ، وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً قد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة يتوهج سناها فى أشعة الشمس . رأيت فى هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التى كانت تحيط بملوك آسيا وسلاطينها عندما يبرزون للجماهير ؛ وبدأ الموكب فى الساعة الثامنة صباحا واستمر إلى الظهر ، وفى اليوم التالى جمع الباشا الديوان بالقلعة ودعا البكوات إلى حضوره ، وجلس هو على منصة قد نصّت له أمام شباك ، فكأنه السلطان على عرشه ، وتلا كخياه (وكيله) كتاب الباب العالى ، فطأطأ السناجق (البكوات) احتراماً لولى الأمر وأمره ، وتعهدوا بتنفيذ مالا يعارض امتيازاتهم

وبعد انفضاض الديوان أهدى الباشا إلى شيخ البلد كرك سمور فاخراً ، وجواداً مطهماً ، وخلع على كل بيك قباء (قفطاناً) ، وبذلك تمت حفلة تنصيب الباشا »

سلطة الوالى

قال المسيو سافارى يصف مدى سلطة الباشا بعد الاحتفال الفخم الذى دخل به المدينة :

« إن منصب الباشا هو فى الواقع نوع من أنواع النفى ، فهو لا يستطيع أن يخرج من القلعة إلا بإذن من شيخ البلد ، وهو سجين يرى نفسه قد أحيط بمظاهر الأبهة ، ومن خلال هذه المظاهر يشعر بثقل القيود التى يرسف فيها ؛ فهو لا يد له فى شؤون الحكومة ، ومرتبه محدود بما يدخل من رسوم جمرك السويس والمتاجر التى ترد من البحر الأحمر ، على أن البكوات يبذلون له أكثر من ذلك ، فالباشا الحاذق يستطيع بمهارته ودسائسه أن يستجلب عطف الحزب الغالب من المماليك فيدر عليه أخلاف الثروة ، وللباشا منبع آخر للمال ، فإن المماليك الذين يعينهم الديوان سناجق يدفعون إلى الباشا إتاوة لإقرار هذا التعيين ، وإليه يؤول ميراث الملاك الذين يموتون بلا عقب ، وبهذه الطريقة يستطيع الباشا أن يستقر فى مركزه ويجد منه الغنى فى سنوات قليلة ، لكنه فى حاجة إلى الحذر الشديد فى كل ما يأتى وما يدع ، لأن أصغر هفوة تورده موارد الحتف ؛ وقد يحدث أحياناً أنه مع حذره ودهائه ينقلب عليه قصده ،

وذلك إذا طغى بعض السناجق على الحزب الغالب من البكوات الذى ينتمى إليه الباشا فيسلبه السلطة ويرتفع إلى مشيخة البلد ، ومن ثم لا يكون إلا أن يطرد الباشا فيخرج منها مذؤوماً مدحوراً »

عزل الوالى

ذكر المسيو ساڤارى طريقة عزل الوالى ، وهى طريقة فى غاية السهولة والفوضى : « يجتمع الديوان المؤلف من البكوات المماليك ، فإذا رأى عزل الوالى أنفذ إليه رسولا يلبس رداء أسود (ويسمى الأوده باشى) ، فيحمل قرار العزل ويذهب إلى قاعة الاستقبال حيث يوجد الوالى ، فيدخل عليه ويطأطئ احتراماً له ، ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ويقول منادياً للوالى: انزل يا باشا (وقد ذكرها ساڤارى بنطقها العربى) ، ثم يخرج من المجلس ، فمنذ تسلك هذه الكلمة سمع الباشا يعلم أنه أصبح معزولا ، ويبدأ فى حزم أمتعته والتوجه إلى بولاق فى مدة لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة ، على أن ينتظر ما يؤمر به من الاستانة ، وفى حالة العزل لا يمس شخص الوالى المعزول بسوء ، ولكن يحدث أحياناً إذا كان للبكوات شكاوى على الوالى أن يحاسبوه حساباً شديداً عما وقع فى حوزته مدة ولايته من الأموال والهدايا ، وكثيراً ما يقتسمون ما جمعه قبل عزله ؛ وبعد أن يعزل الوالى يعين الديوان (قائمقاما) يتولى هذا المنصب إلى أن يصل الباشا الجديد ، وهلم جرا »

انعقاد الديوان

قال المسيو دى مايبه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٦٩٢ يصف انعقاد الديوان فى عصره : « إن مصر على فقدها سلاطينها قد استبقت شيئاً من الأبهة التى كانت من مميزات السلطنة ، وقد شاهدت مراراً انعقاد الديوان بالقلعة ، وهذا الديوان ينعقد مرتين كل أسبوع (الأحد والثلاثاء) ، ففى يوم انعقاده يغص الفناء الذى بين يدى قاعة الديوان — وتبلغ مساحته نصف حديقة التويلرى بباريس — بالفرسان من اتباع البكوات وكبار الضباط راكبين جيادهم العربية المطهمة على سروج مغشاة بالذهب ، مموهة بالفضة ، مرصعة بالأحجار الكريمة ، وإن أبهة هذا المنظر لتبعث الإعجاب فى النفس ، وقد سمعت فى مصر أن السلطان (سليما) منع انعقاد الديوان فى القاعة التى كان يجلس بها سلاطين مصر قبل الفتح العثمانى ، وذلك رجاة أن يقلل من أبهته ، والواقع أن الديوان لا ينعقد الآن فى قاعة سلاطين مصر ، ومع ذلك فديوان القاهرة أكثر أبهة من ديوان الاستانة ؛ وقد أتيح لى أن أشهد انعقاد الديوان بالقلعة فى جلسة غير اعتيادية ، وهو ما لا يتيسر لأحد القناصل إلا نادراً ،

فدعيت إلى حضور الديوان لأسأل عن شكاوى بعض التجار الإفرنج الذين صودرت متاجرهم في جمرك الإسكندرية ، فشكوا أمرهم إلى السلطان فأمر بالفحص والتحقيق ، وطلب من قاضي العسكر (قاضي قضاة مصر) أن يقضي في الشكوى ، وقد رأيت بقاعة الديوان نحو أربعة آلاف شخص مجتمعين ، وبعد تلاوة أمر السلطان وبيان الباشا صاح هذا الجمع بأن السلطان قد خدع وأنه من الواجب رفع الحقيقة إليه ، فهلع التجار الإفرنج والتراجمة الذين حضروا الديوان من تعسف القوم وعدوانهم ، وارتعدت فرائصهم ، وظنوا أنه قضي عليهم ، لكن الباشا كان حريصاً ألا يمس أحد منا بسوء ، وكان متفقاً معي قبل الديوان على أن يكون الغرض من هذا كله تبرير مركزه أمام السلطان ، وانتهى الاجتماع بحسم الخلاف على طريقة رضيناها ورضوا عنها »

نظام الملكية والضرائب

لم يكن النظام المالي في مصر خيراً من النظام السياسي ؛ فقد اعتبر السلطان سليم نفسه مالكاً لأراضي مصر ، وسار على هذا الاعتبار ابنه السلطان سليمان ، وبهذه النظرية كان صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة ، غير أن لورثته ردها إلى حوزتهم لقاء مبلغ معين تقدره أهواء الولاة ، على أن مزاعم السلاطين في تملكهم رقبة الأراضي ما لبثت أن تلاشت مع الزمن تلقاء نفوذ المماليك ، فكانوا يتصرفون في الأراضي على ما شاءوا ، ويبسطون أيديهم على ما يروق لهم منها ، فصار معظم أراضي مصر مقسمة بينهم ، وآلت إليهم بهذه الوسيلة ملكية ثلثي ما يزرع من الأراضي أو نحو ذلك ، أما الباقي فموزع بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف

أنواع الملاك

فالفلاحون يملكون النزر اليسير من الأراضي ينتفعون بها ويتوارثونها ، ولهم أن يتصرفوا فيها ، لكن ملكيتهم لها معلقة على دفع الضرائب والإتاوات المفروضة عليها ، وهذه الضرائب والإتاوات تدفع للملتزمين ، والملتزمون هم الملاك الذين يأخذون القرى « التزاماً » ويتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه ، على أن يتكفلوا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب

نظام الالتزام

وأصل نظام الالتزام أنه لما فسدت إدارة الحكومة انصرف الناس عن الزراعة ، وتعطلت الأعمال وهبطت قيمة الأراضي ، فانكسر الخراج وقلت الجباية ، فعمد الحكام إلى طريقة

(الالتزام) وهى تضمين الضرائب لأناس يتولون جمعها عن الحكومة ويشاركونها فيما يغلونه من الأهلين ؛ وكانت الحكومة تعرض جباية الخراج بالمزايدة لمن يضمنه من ذوى النفوذ ، فمن يقع عليه المزاد سمى «الملتزم» ، ويلتزم بضريبة بلد أو عدة بلاد عن سنة أو أزيد ، ويدفع للحكومة سلفا مال سنة

والالتزام يقرر إما بالمزايدة كما تقدم ، وإما بالاتفاق على الثمن بين الملتزم وإدارة (الروزنامة) بالنيابة عن الحكومة ، فإذا تمت الصفقة أعطاه كبير المماليك المسمى شيخ البلد عهداً بذلك يسمى «تقسيطاً» أى عقد الالتزام ، ويصحبه بأمر يسمى «فاميك» وهو خطاب من الحكومة إلى أهل البلد الداخل فى التزام الملتزم تفرض عليهم أن يطيعوه ويؤدوا له الخراج ، ثم يكون له الحق أن يحصل من أصحاب الأرض على المال الذى عجله للحكومة زائداً فيه الربا وملحقاته حسبما يشاء ويهوى ، وتطور الالتزام : فبعد أن كان يعطى لسنة أو عدة سنوات جعلوا يعطونه للملتزمين مدى الحياة ، فلا ترجع البلاد إلى الحكومة إلا بعد وفاة الملتزم بها

وإذا مات الملتزم فلورثته أن يستبقوا البلاد فى أيديهم إذا دفعوا الإتاوة للحكومة وإلا صارت حقا لبيت المال ، وتوصل بعض الملتزمين إلى إبقاء الالتزام إرثا لذراريهم بما دفعوا للحكومة من هذه الإتاوة

وللملتزمين سلطة مطلقة على الفلاحين ، فكانوا يعسفونهم ويسومونهم الظلم والجور ، ويفرضون على أملاكهم ما شاءت أهواؤهم من ضرائب وإتاوات ، ولهم أن يبيعوا حق الالتزام لغيرهم من الملتزمين ، وإذا مات أحد الفلاحين بلا عقب آل ما يملكه إلى الملتزم

ولهذا الملتزم أن ينتزع الأرض من يد الفلاح ويعطيها لفلاح آخر إذا ضاقت يده أو قصر فى دفع الضرائب ، ولما كانت الضرائب والإتاوات تجرى على أهواء الملتزمين فملكية الفلاحين كانت تحت رحمة هؤلاء ، وهناك نوع آخر من الأملاك يعرف بأطيان (الوسية) وجمعها «أواسى» ، وهى الأراضى التى تعطيها الحكومة للملتزمين منحة لمساعدتهم على واجبات الالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس وإيواء المسافرين والموظفين وضيافتهم فى دائرة التزامهم ، وهذه الأطيان معفاة من كل ضريبة ، وعلى فلاحى الجهة أن يعملوا فيها سخرة للملتزم بلا أجر ولا جزاء

وعدا أطيان الأواسى توجد أطيان أخرى معفاة من الضرائب ، وهى أراضى الرزق جمع (رزقة) ، وهى التى كان ينعم بها السلاطين على بعض الناس يتصرفون فيها كيف شاءوا ، وهذه الأراضى معفاة من الضرائب ، ولذلك تسمى «أرض رزقة بلا مال» ؛ وكانت إدارة الروزنامة

تعطى المنعم عليه بمثل هذه الأراضى « تقسيطاً » أو سند التمليك يخوله ملكها ملكا مطلقاً والتصرف فيها

ويقول المسيو استيف[1] إن السلطان « سليا » لما فتح مصر وجد أطيان الرزقة مخصصة لجهات البر فأبقاها كما هى ولم يعطها للملتزمين وظلت فى أيدى مالكيها

يتبين مما تقدم أن نظام الملكية العقارية بالمعنى الصحيح لم يكن معروفاً فى ذلك العصر ، فملكية الفلاحين عرضة لأن تنزع منهم فى كل وقت ، وملكية الملتزمين كانت تحت رحمة البكوات المماليك ، بحيث كانت تنزع منهم إذا تصدى لهم من هم أوسع نفوذاً وأعظم ناصراً وأقوى سلطاناً ، ونظام الالتزام يشبه أن يكون كنظام الإقطاعات الذى رزحت أوروبا تحت نيره القرون المتوالية

أما الوقف فيشمل الأملاك المحبوسة أصلا على المساجد وأعمال البر والخير ، وقد انتشر الوقف فى العصر العثمانى لأنه كان الوسيلة التى يأمن بها الملاك على أملاكهم من عسف المماليك ، فعمدوا إلى الوقف يحبسونه على جهة من جهات البر والإحسان ، ويجعلون لأبنائهم أو من يوصون إليهم من ذى نسب أو صلة أو خدمة حق الانتفاع بالأرض بعد وفاتهم ، فيجد الموقوف عليهم من ريعها غلة ثابتة لا تمتد إليها مطامع المماليك بالسلب والاغتصاب

هذه هى أنواع ملكية الأطيان فى ذلك العصر ، فلنبحث الآن عن أنواع الضرائب المفروضة عليها

الضرائب

كانت الأراضى مثقلة بالضرائب والإتاوات . ومعظمها واقع على كاهل الفلاحين . والمقرر أصلا من الضرائب ثلاثة أنواع :

الأولى ضريبة الخراج ، وتسمى المال الميرى أو الميرى فقط ، وهى المخصصة أصلا للسلطان

والثانية ضريبة الكشوفية ، وهى مخصصة للبك أو الكاشف حاكم المديرية

والثالثة الفائض أو فائض الالتزام ، وهو ما يستولى عليه الملتزمون بعد وفاء الميرى والكشوفية ، ومجموع هذه الضرائب الثلاث يسمى « المال الحر » ، وهو المقرر أصلا على الأطيان أو الضرائب القانونية ، يدفعها الفلاحون للملتزمين ، وهؤلاء يدفعون الميرى والكشوفية وما بقى فهو لهم

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء ١٢

لـكن الملتزمين لم يكتفوا بهذه الضرائب ، بل فرضوا على أطيان الفلاحين إتاوات أخرى ضربتها أهواؤهم ومطامعهم ، فمنها « المضاف » و «البرانى» ، والمضاف على نوعين : المضاف القديم ، والمضاف المستجد ؛ والبرانى على نوعين : البرانى القديم ، والبرانى الجديد ، وهذه الضرائب يقدرها الملتزمون بحسب الظروف والأهواء

وللملتزمين سلطة مطلقة فى القرى الداخلة فى التزامهم ، ولـكل منهم فيهـا وكيل يسمى « قائمقام » ينوب عنهم ، وهم الذين يعينون فيها مشايخ البلاد ، وهؤلاء هم وسطاء الملتزمين فى جباية الضرائب من الفلاحين ، أما البكوات المماليك وكبار الملتزمين فلهم مع مشايخ البلاد وكلاء يسمون « المباشرين » تمتد سلطتهم على عدة قرى ومقاطعات ، وقد اختص الأقباط بهذه الوظائف ، وتحت سلطتهم الصيارف والـكتبة والمساحون فى القرى ، وكل أولئك يعينون بمعرفتهم وإرشادهم ، وبأيديهم سجلات الضرائب

الـكشوفية والميرى

كان البكوات المماليك يتداولون حكم المديريات ، والعادة أن يبقى البيك فى المديرية لمـدة سنة ، ووظيفتهم حفظ الأمن وحسم المنازعات التى تنشأ بين القرى ، وحماية الفلاحين من سطوة العربان ، وحمـاية الملتزمين فى تحصيل الضرائب ليدفعوا لهم نصيبهم منها ، ولـكل بيك عدة كشاف أو وكلاء فى حكم المديرية أو جزء منها ، والبيك يقضى فى المديرية التى يحكمها ثلاثة أو أربعة أشهر ثم يعود إلى القاهرة حوفا أن تؤدى غيبته إلى دس الدسائس من زملائه ومنافسيه من المماليك ؛ وفى أثناء إقامته بالقاهرة يقوم عنه بالأمر كشافه الذين يجوبون أنحاء المديرية لتحصيل الضرائب وضبط الأمن ومعهم القوة الـكافية من الجنود

فالـكشوفية هى نصيب البيك وكشافه من الضرائب على الأطيان ، يدفع معظمها الفلاحون ويدفع الملتزمون جزءاً منها ؛ أما الميرى فهو مخصص أصلا للسلطان ، وله إدارة مستقلة بتحصيله وضبط حسابه تعرف بالروزنامة رأسها «الروزنامجى» الذى يعينه الباشا (الوالى) بناء على طلب الديوان ، وبعد تعيينه يصبح بحكم وظيفته عضواً بالديوان ، وتحت يديه جماعة من الـكتبة يسمون «الأفندية» أو أفندية الروزنامه ، ومن بينهم يعين الروزنامجى ، فوظيفة الروزنامجى هى إدارة الخراج أو أموال الميرى ، وهى تقرب أن تـكون كوظيفة مدير الأموال المقررة فى العصر الحاضر ، وفى يد الأفندية سجلات الأراضى التى تدفع الميرى لمعرفة مقدار ما هو مفروض عليها وما يحصل منهـا وما يصرف على تحصيلها ومقدار ما يخلص بعد ذلك ، والروزنامجى مسئول عن حساب الميرى ، وعليه تقديم هذا الحساب كل سنة للوالى (الباشا) وللدفتردار

(مدير الشؤون المالية) ولشيخ البلد (زعيم المماليك) ، وبعد أن يخلص صافى الميرى من حساب النفقات المختلفة يرسل إلى الاستانة ، وهذا الصافى هو المعروف بالخزنة وهو من حق السلطان ، ويحمله إلى الاستانة أحد البكوات المماليك ، ويسمى «خزنة دار» أى أمين الخزنة ، وحرفت إلى «خازندار» ، وقد تناقص صافى الميرى بعد استئثار المماليك بحكم البلاد حتى أنه فى بعض السنين لا يكاد يبقى منه شيء يذكر ، ذلك أن الميرى تؤخذ منه الأموال الآتية :

(أولا) نفقات الباشا والبكوات ، وجامكية العسكر ، أى عطاء الجنود والوجاقلية ، ونفقات المؤن والذخائر ، ورواتب أفندية الروزنامة ، ومعاشات الأرامل والأيتام والمكفوفين

(ثانياً) ما يخرج للحرمين الشريفين

(ثالثاً) نفقات المحمل وأمير الحج

(رابعاً) المصاريف الأخرى التى لا تدخل فى حساب ، كإصلاح الترع وتطهيرها وترميم القلاع (ولم يكن يصرف فى ذلك شيء) ، والإنفاق على الأزهر وصيانة المساجد والأضرحة ، وأرزاق المشايخ ، ومصاريف مقياس النيل وحفلة وفاء النيل وغير ذلك ، وكانت تدبر كل هذه الأوضاع الحسابية بحيث لا يبقى من الميرى إلا النزر اليسير يرسل إلى الآستانة ، وانقطع فعلا إرسال الخزنة فى عهد على بك الكبير ، ثم استؤنف إرسالها بطريقة غير منتظمة فى عهد مراد بك وإبراهيم بك ، وكان صافى ما يرسل سنويا إلى الاستانة فى عهدهما يبلغ ٢٦٤,٥٥٠ فرنك[1] أى نحو ١٠,٥٨٠ جنيها

الضرائب الأخرى

ومقدار دخل الحكومة

كانت البيوت والمنازل معفاة من الضرائب ، لأن الخراج فى الأصل مقرر على الأطيان ، على أن الحكومة فرضت الضرائب غير العقارية والمكوس والإتاوات على الصناعات والمأكولات والمتاجر بما فى ذلك رسوم الجمارك ، وعلى الوكائل والسفن والقوافل ، وكذلك على الرؤوس وعلى الوظائف الرئيسية

وقد أحصى المسيو استيف دخل الحكومة السنوى فى أواخر عهد المماليك بمبلغ ٣١,١٩٩,١٠٦ فرنك ، أى ١,٢٠٣,٤٦٧ جنيه تقريباً ، وقدره الجنرال رينيه Reynier

(١) إحصاء المسيو استيف مدير الشؤون المالية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية . كتاب تخطيط مصر الجزء الثانى عشر

أحد قواد الحملة الفرنسية فى كتابه[1] بمبلغ يتراوح بين ٣٥ إلى ٤٠ مليون فرنك فى السنة ، ومن ذلك يتبين أنه مع إسراف حكومة المماليك فى المظالم وإرهاق الأهلين بمختلف الإتاوات والضرائب ، فإن مقدار دخل الحكومة يدل على ما كانت عليه حالة البلاد الاقتصادية والمالية من التأخر والفاقة ، على أنه من الواجب أن نعجل بالقول بأن حالة البلاد الاقتصادية والمالية قد ازدادت سوءاً فى عهد الحملة الفرنسية ، وقد بسطنا الكلام فى هذا الصدد بالفصل السادس من الجزء الثانى من هذا الكتاب

النظام القضائى

بقى النظام القضائى فترة من الزمن كما كان قبل الفتح العثمانى ، فكان يتولى القضاء قضاة أربعة من المذاهب الأربعة ، يسمى كل منهم «قاضى القضاة» : الحنفى ، والمالكى ، والشافعى ، والحنبلى ، ولم يغير السلطان سليم شيئاً من هذا النظام ، وإنما عين قاضياً عثمانيا جعله « أميناً على قضاة مصر »[2]

ولكل من أولئك القضاة الأربعة أن يعين نوابه فى القضاء ، ذكر ابن إياس أن ملك الأمراء خير بك أنقص عدد نواب القضاة ، فرسم لقاضى القضاة الشافعى بخمسة من النواب وقاضى القضاة الحنفى بأربعة ، وقاضى القضاة المالكى بثلاثة ، وقاضى القضاة الحنبلى باثنين من غير زيادة على ذلك[3]

ولما تولى السلطان سليمان أبطل نظام قضاء القضاة الأربعة وأمر بتنصيب قاض تركى من درجة « قاضى عسكر » يسمى « قاضى مصر » يرسلونه من الاستانة ، وهو بمثابة قاضى القضاة

قال ابن أبى السرور البكرى : « إن أول من ولى قضاء مصر من « قضاة العسكر » مصطفى أفندى الرومى (التركى) ، وانه استولى على قضاء مصر سنة ٩٢٩ هجرية فى المحرم منها ، بعد أن أرسل السلطان سليمان أمره الشريف لحاكم الديار المصرية بإبطال القضاة الأربعة

(١) مصر بعد واقعة عين شمس

(٢) قال ابن إياس (الجزء الثالث) فى حوادث سنة ٩٢٤ هجرية (١٥١٨ ميلادية) انه لما تزايدت مظالم الجنود الأتراك فى القاهرة ، « دخل جماعة من الناس إلى القاضى الذى جعله ابن عثمان فى المدرسة الصالحية أميناً على قضاة مصر ، فشكوا له من أفعال العثمانية وما يفعلونه بالناس ، فلما سمع هذا الكلام ركب وتوجه إلى بيت الأمير قايتباى الدوادار وأركبه وطلع به إلى القلعة ، وأخبروا ملك الأمراء خير بك بهذه الأحوال التى تصدر من العثمانية » . وقال ما خلاصته ان خير بك وعد القاضى والأمير قايتباى بالفحص والتحقيق .

(٣) ابن إياس الجزء الثالث

فنفذ أمره الشريف ، وجاء مصطفى أفندى إلى مصر وجُعل له نواباً من الثلاثة المذاهب مالكى وشافعى وحنبلى »[(١)]

واستمر قضاة العسكر يهبطون من الاستانة فى عهد الحكم التركى ، ولم ينازع المماليك الحكومة العثمانية فى هذه الناحية من السلطة ، ولم يتعرضوا لها لأنهم لم يخشوا بأساً من قضاة الاستانة ، ولم يكن هؤلاء ينافسونهم النفوذ والجاه كما كان يفعل الولاة ، فتركهم المماليك وشأنهم ، وكانت مراسيم التعيين تصدر من الاستانة لقاضى القضاة ولعدد من القضاة يشبه أن يكونوا رؤساء محاكم يبلغون خمسة وثلاثين قاضياً [(٢)] ، ومراسيم التعيين لا تصدر إلا فى مقابل إتاوة من المال يدفعها طلاب مناصب القضاء لحكومة الاستانة ، وبعض هؤلاء القضاة كانوا زمناً ما أتراكا ، فكانوا يستعينون بالتراجمة ، ولذلك عمت الفوضى فى إدارة القضاء ، على أن مناصب القضاء ، خلا منصب قاضى القضاة ، قد آلت مع الزمن إلى القضاة المصريين ؛ ذلك أن القضاة الأتراك الذين تصدر لهم مراسيم التعيين كانوا يتنازلون عن هذه المناصب لمن يطلبها من المصريين تلقاء جُعل من المال ، ثم صارت مراسيم التعيين تصدر رأسا للقضاة المصريين

كانت مناصب القضاء تباع وتشرى وتعرض فى سوق المساومة فترسو على من يدفع الثمن الأعلى ، ولا يمكن أن يصل النظام القضائى فى بلد من البلدان إلى مثل هذا الدرك من التدهور ، فلا جرمَ كانت وظيفة القضاء فى ذلك العصر موضع الزراية فى نظر الجمهور والعلماء

وكان قاضى القضاة فى الغالب تركياً لا يعرف العربية ، فكان يتخذ ترجماناً يترجم له الأوراق وينقل أقوال الخصوم ، والترجمان على ذلك هو صاحب الحول والطول ، ومدة القاضى سنة واحدة أوسنتان متى جاء أجلها تعين حكومة الاستانة قاضياً آخر أو تمد مدة القاضى القديم ، ويجوز أن تمتد مدة قاضى القضاة بنزول القاضى الجديد له عن مدته ببيعه إياها بالثمن عن تراض بينهما ، وبهذه المساومة يجوز أن تمتد مدة قاضى القضاة إلى أربع أو خمس سنوات متعاقبة ؛ وله أن يعين من دونه من النواب ، ولمن يصدر له أمر التعيين أن ينزل عنه لغيره ، وغنى عن البيان أن هذا النظام كان مصدراً للجور وأكل أموال الناس بالباطل ؛ ذلك أن القضاة الذين

---

(١) كتاب الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة لابن أبى السرو البكرى ، وفى ابن إياس أن أول قاضى عسكر عينه السلطان سليمان هو القاضى جلبي وذلك سنة ٩٢٨ هجرية ، وروايته كما ترى تختلف ورواية ابن أبى السرو البكرى فى تاريخ التعيين واسم القاضى ، على أننا نرجح رواية ابن أبى السرو لأن كتابه خاص بالبحث فى أسماء وأخبار ولاة مصر وقضاتها فى عهد الحكم العثمانى (لغاية سنه ١٠٥٤ هجرية)

(٢) تخطيط مصر الجزء الثانى عشر

يشترون مناصبهم إنما ينظرون إليها كوسيلة لابتزاز الأموال ، فالفرق كبير جداً بين مكانة القضاة في ذلك العصر ومكانتهم قبل الفتح العثماني ، فإن قضاة القضاة الأربعة كانوا موضع إجلال السلاطين ، كما أنهم كانوا على جانب عظيم من العلم والتقوى[1] ، أما في عهد الحكم التركي فقد وصل النظام القضائي إلى درجة لا نظير لها من الانحطاط ، لذلك كان كبار العلماء يتورعون عن تقلد مناصب القضاء ، اعتبر ذلك في تراجم العلماء المعدودين الذين ذكرهم الجبرتي في وفياته ، فإنك لا ترى من بينهم عالماً معدوداً تولى منصب القضاء في مصر ، وهذا وحده دليل كاف على انحطاط منزلة القضاء في عهد الحكم التركي

ويحكم قاضي القضاة في الخصومات التي تعرض عليه في القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، وله أن يعين نواباً في خطط القاهرة ، فكان بها تسعة نواب ، وببولاق نائب ، وبمصر القديمة نائب ؛ وهؤلاء النواب يحكمون بين الناس بالنيابة عن قاضي القضاة ويشترون منه مناصبهم بالمال ، وإذا تغير قاضي القضاة أمكنهم أن ينالوا إذناً بإقرارهم على مناصبهم لقاء جُعل يدفعونه للقاضي الجديد !

ولم يكن للتقاضي رسوم معلومة ولا مرتب محدود ، بل كان كل قاض يتقاضى في كل دعوى ما يقدره من الأجر بحسبها وكما يقدر ، يدخل في ذلك أجور الكتبة أو التراجمة ، وإذا كان قاضي القضاة متورعا فإنه لا يطلب أجراً معلوما بل يكتفي بما يعرضه أرباب القضايا ، وبذلك ينال احترام الناس ومحبتهم ، وكان القضاة لقلة بضاعتهم من العلم يرجعون إلى فتاوى العلماء للفصل في القضايا ، فكانت هذه الفتاوى تقدم كمستندات في الدعوى ، ولفتاوى العلماء قيمة في نقض الأحكام بعد صدورها ، ومن ذلك جاءت كثرة الفتاوى في ذلك العصر

وكان القضاة بمصر متعددي المذاهب ، فمنهم الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي ، وكل قاض يحكم بحسب أحكام مذهبه وبحسب القول الذي يختاره من أقوال المذهب ؛ ولا ريب أن تعدد مذاهب القضاة وتعدد الأقوال في كل مذهب من أسباب الفوضى في الأحكام والمعاملات ، ذلك أن المتقاضين لم يكونوا يعرفون مصير دعاواهم أمام مختلف المحاكم ، وبخاصة مع ما جرى عليه العمل من أن للمدعي الخيار في أن يذهب إلى أي قاض أراد جريا على بعض الأقوال ، فكان المدعي يختار القاضي الذي يعرف عن مذهبه أو القول الذي يأخذ به من أقوال هذا المذهب ما يؤيد دعواه ، وهذا النظام من شأنه أن يزعزع الثقة في المعاملات ، وقد ظل تعدد مذاهب القضاة في مصر إلى أن تخصص القضاء بمذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وذلك في عهد محمد علي باشا

(١) كانوا في الأغلب هم أئمة مذاهبهم علما وفقها واجتهادا وبصرا بالحكم

ذكر الجبرتى طرفا من شكوى الناس من فساد النظـام القضائى ، وكلامه وإن كان منصرفا إلى أوائل عصر محمد على إلا أنه يتضمن وصف هذا النظام فى عهد البكوات المماليك ، وكيف كانت وظائف القضاء تباع وتشرى ، وكيف زادت الحالة سوءاً لما عادت السلطة للأتراك بعد انقراض حكم المماليك ، وانتهاء عصر الحملة الفرنسية ، وإليك ما ذكره الجبرتى ننقله لما فيه من تفصيل لبعض ما أجملناه وتوضيح للنظام القضائى فى عصر الحـكم التركى ، كما وصفه شاهد عيان ، قال :

« فى يوم الخميس (٢٠ ربيع الثانى سنة ١٢٣١)[(١)] حصلت جمعية ببيت البكرى ، وحضر المشايخ وخلافهم ، وذلك بأمر باطنى من صاحب الدولة (محمد على باشا) ، وتذاكروا ما يفعله قاضى العسكر من الجور والطمع فى أخذ أموال الناس والمحاصيل ، وذلك أن القضاة الذين يأتون من باب السلطنة كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتعدونها فى أيام الأمراء المصريين (المماليك) ، فلما استولى هؤلاء الأروام (الأتراك) على الممالك والقاضى منهم ، فحش أمرهم وزاد طمعهم ، وابتدعوا بدعاً ، وابتكروا حيلا لسلب أموال الناس والأيتام والأرامل ، وكلما ورد قاض ورأى ما ابتكره الذى كان قبله أحدث هو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه ، حتى فحش الأمر وتعدى ذلك لقضايا أكابر الدولة وكتخدا بيك بل والباشا (محمد على) ، وصارت ذريعة وأمراً محتما لا يحتشمون منه ، ولا يراعون خليلا ولا كبيراً ولا جليلا

« وكان المعتاد القديم أنه إذا ورد القاضى فى أول السنة التوتية التزم بالقسمة بعض المميزين من رجال المحـكمة بقدر معلوم يقوم بدفعه للقاضى ، وكذلك تقرير الوظائف كانت بالفراغ أو المحلول ، وله شهريات على باقى المحاكم الخارجة كالصالحية وباب سعادة والخرق (باب الخلق) وباب الشعرية وباب زويلة وباب الفتوح وطيلون وقناطر السباع وبولاق ومصر القديمة ونحو ذلك ، وله عوائد وإطلاقات وغلال من الميرى ، وليس له غير ذلك إلا معلوم الإمضاء وهو خمسة أنصاف فضة ، فإذا احتاج الناس فى قضاياهم ومواريثهم أحضروا شاهداً من المحـكمة القريبة منهم فيقضى فيها ما يقضيه ، ويعطونه أجرته ، وهو يكتب التوثيق أو حجة المبايعة أو التوريث ، ويجمع العدة من الأوراق فى كل جمعة أو شهر ثم يمضيها من القاضى ويدفع له معلوم الإمضاء لا غير ، وأما القضايا لمثل العلماء والأمراء فبالمسامحة والإكرام[(٢)]

---

(١) يوافق ٢٠ مارس سنة ١٨١٦

(٢) معنى ما تقدم أن دخل قاضى القضاة يتألف من الموارد الآتية : ١ — ما يدفعه له كل سنة =

« وكان القضاة يخشون صولة الفقهاء وقت كونهم يصدعون بالحق ولا يداهنون فيه ، فلما تغيرت الأحوال وتحكمت الأتراك وقضاتها ، ابتدعوا بدعاً شتى ، منها إبطال نواب الحاكم ، وإبطال القضاة الثلاثة خلاف مذهب الحنفى ، وأن تكون جميع الدعاوى بين يديه ويدى نائبه ، وبعد الانفصال يأمرهم بالذهاب إلى كتخداه (نائبه) ليدفع المحصول ، فيطلب منهم المقادير الخارجة عن المعقول ، وذلك خلاف الرشوات الخفية ، والمصالحات السرية ، وأضاف التقرير والقسمة لنفسه[1] ، ولا يلتزم بها أحد من الشهود كما كان فى السابق ، وإذا دعى بعض الشهود لكتابة توثيق أو مبايعة أو تركة فلا يذهب إلا بعد أن يأذن له القاضى ويصحبه بجوخدار (وكيل) ليباشر القضية ، وله نصيب أيضاً ، وزاد طمع هؤلاء الجوخدارية حتى لا يرضون بالقليل كما كانوا فى أول الأمر ، وتخلف منهم أشخاص بمصر عن مخاديمهم ، وصاروا عند المتولى لما انفتح لهم هذا الباب

« وإذا ضبطت تركة من التركات وبلغت مقداراً أخرجوا للقاضى العشر من ذلك ومعلوم الكاتب والجوخدار والرسول ، ثم التجهيز والتكفين والمصرف والديون ، وما بقى بعد ذلك يقسم بين الورثة ؛ فيتفق أن الوارث واليتيم لا يبقى له شىء

« ويأخذ (القاضى) من أرباب الديون عشر ديونهم أيضاً ، ويأخذ من محاليل وظائف التقارير معلوم سنتين أو ثلاثة[2] ، وقد كان يصالح عليها بأدنى شىء وإلا إكراماً

« وابتدع بعضهم الفحص عن وظائف القبانية والموازين ، وطلب تقاريرهم القديمة ومن أين تلقوها ، وتعلل عليهم بعدم صلاحية المقرر ، وفيها ما هو باسم النساء وليسوا أهلا لذلك ، وجمع من هذا النوع مقداراً عظيما من المال ، ثم محاسبات نظار الأوقاف والعزل والتولية فيهم والمصالحات على ذلك ، وقرر على نصارى الأقباط والأروام قدراً عظيما فى كل سنة بحجة المحاسبة على الديور والكنائس

« وما هو زائد الشناعة أيضاً ، أنه إذا ادعى مبطل على إنسان دعوى لا أصل لها ، بأن قال أدعى عليه بكذا وكذا من مال وغيره ، كتب المقيد (كاتب المحكمة) ذلك القول ، حقا كان أو باطلا ، معقولا أو غير معقول ، ثم يظهر بطلان الدعوى أو صحة بعضها ، فيطالب الخصم

= موظفوا المحكمة ٢ — جعل شهرى يدفعه له قضاة أخطاط العاصمة ٣ — ما تؤديه له الحكومة من العوائد والغلال ٤ — رسوم الإمضاء ٥ — الهدايا الاختيارية التى يقدمها له الأعيان والعلماء « بالمسامحة والإكرام» بعد الفصل فى قضاياهم

(١) أى أضاف لنفسه الرسوم التى تدفع على ذمة إثبات الوراثة وقسمة المواريث .

(٢) معناه أن القاضى كان يأخذ من الموظفين الجدد معلوم سنتين أو ثلاثة

(المدعى عليه) بمحصول (رسوم) القدر الذى ادعاه المدعى وسطره الـكاتب ، يدفعه المدعى عليه للقاضى[١] على دور النصف الواحد أو يحبس عليه حتى يوفيه ، وذلك خلاف ما يؤخذ من الخصم الآخر ، وحصل نظير ذلك لبعض من هو ملتجئ لـكتخدا بك (نائب محمد على باشا) فحبس على المحصول ، فأرسل الـكتخدا يترجى فى إطلاقه والمصالحة عن بعضه ، فأبى ؛ فعند ذلك حنق الـكتخدا بيك وأرسل من أعوانه من استخرجه من الحبس

« ومن الزيادات فى نغمة الطنبور كتابة الإعلامات ، وهو أنه إذا حضر عند القاضى دعوى بقاصد من عند الـكتخدا أو الباشا (محمد على) ليقضى فيها وقضى فيها لأحد الخصمين طلب المقضى له إعلاماً بذلك إلى الـكتخدا أو الباشا يرجع به مع القاصد تقييداً وإثباتاً ، فعند ذلك لا يكتب له ذلك الإعلام إلا بما عسى لا يرضيه إلا أن يسلخ من جلده طاقا أو طاقين ، وقد حكمت عليه الضرورة ؛ وتابع الباشا أو الـكتخدا ملازم له ويستعجله ، ويساعد كتخدا القاضى عليه ويسليه على ذلك الظفر والنصرة على الخصم ، مع أن الفرنساوية الذين كانوا لا يتدينون بدين ، لما قلدوا الشيخ أحمد العريشى القضاء بين المسلمين فى المحـكمة ، حددوا له حداً فى أخذ المحاصيل لايتعداه ، بأن يأخذ على المائة اثنين فقط له منها جزء والـكتاب جزء

« فلما زاد الحال وتعدى إلى أهل الدولة رتبوا هذه الجمعية ، فلما تكاملوا بمجلس بيت البكرى كتبوا عرضاً محضراً ذكروا فيه بعض هذه الاحداثات ، والتمسوا من ولى الأمر رفعها ، ويرجون من المراحم أن يجرى القاضى ويسلك فى الناس طريقاً من إحدى الطرق الثلاث : إما الطريقة التى كان عليها القضاة فى زمن الأمراء المصريين ، وإما الطريقة التى كانت فى زمن الفرنساوية ، أو الطريقة التى كانت أيام مجيء الوزير[٢] وهى الأقرب والأوفق ، وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه الآن من الجور ، وتمموا العرض محضراً وأطلعوا عليه الباشا فأرسله إلى القاضى فامتثل للأمر وسجل بالسجل على مضض منه ، ولم تسعه المخالفة »[٣]

نتائج نظام الحكم

فى حالة مصر السياسية والعمرانية

كان لنظام الحـكم الذى رزحت تحته البلاد من عهد الفتح العثمانى أسوأ الأثر فى حالتيها

(١) أى أن المدعى عليه إذا حكم لصالحه يلزم مع ذلك بدفع رسوم الدعوى ، وهذا يخالف القاعدة المشهورة أن المدعى إذا حكم برفض دعواه يلزم هو بمصاريفها ولا يلزم المدعى عليه بشىء منها .

(٢) يوسف باشا ضيا الذى جاء عند جلاء الفرنسيين

(٣) الجبرتى الجزء الرابع

السياسية والعمرانية ، فقد زال عنها الاستقلال الذى كان مصدر عزها وعظمتها ، وصارت مسرحاً للفتن والمشادة بين السلطات الثلاث التى تنازعت الحكم فيها ، فحال ذلك دون قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الأمن بين ربوعها وتعنى بمرافقها ، فلا غرو أن اقترن نظام الحكم بعد الفتح العثمانى بتأخر البلاد وتقهقرها وتناقص عدد سكانها ، ولو قارنت بين حالتها فى ذلك العهد وحالتها من قبل ، حينما كانت مملكة مستقلة فى عهد الدول الفاطمية والأيوبية والبحرية والبرجية ، لرأيت أن البلاد قد رجعت القهقرى خطوات واسعة

فى الحالة الاقتصادية

فقد أهمل الولاة العثمانيون والبكوات المماليك أمر الرى وتوزيع المياه وإقامة القناطر والجسور وحفظ الأمن ، فجفت الترع ، وتلفت الأراضى ، وتعطلت الزراعة ، وفقد الأمن ، وذهبت ثروة البلاد ، وهاجر الكثير من سكان القطر إلى البلاد المجاورة

واضمحلت الصناعات والفنون التى كانت تزدان بها مصر فى سالف العصور ، بدأت فى الاضمحلال عقب الفتح العثمانى مباشرة بسبب اضطراب الأحوال ، وكثرة الفتن ، وفقد الأمن ، وإسراف الجنود العثمانية فى السلب والنهب ، أضف إلى ذلك أن السلطان (سليما) بعد أن استقر له الأمر فى القاهرة جمع رؤساء الصناعات المتخصصين فى الفن والصناعة ونقلهم إلى الاستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، فكان ذلك سبباً فى نضوب معين الصناعة والفن فى البلاد ، وتلاشت صناعات كانت عامرة ؛ وفى ذلك يقول ابن إياس :

« إن السلطان سليم خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة من الذهب والفضة ، فضلا عن التحف والسلاح وأعمدة الرخام والصينى والنحاس ، وأخذ من مصر من كل شىء أحسنه ، وذلك عدا ما غنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره ، فإنهم غنموا من النهب ما لا يحصى ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة » (١)

وجاء الولاة والحكام المماليك الذين تركت لهم إدارة البلاد ، فكان حكمهم آفة على الصناعة والتجارة ، وكانت مصادرتهم لأموال التجار من أهم أسباب ركود الحركة التجارية ، فاختفت رؤوس الأموال من أيدى الأهالى ، وغلب عليهم الفقر ، وصار الشعب إلى حالة محزنة من الضنك والفاقة

---

(١) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن إياس

فى الحالة الصحية

وفتكت بهم الأمراض والأوبئة التى كانت تتحيف البلاد وتجتاح مئات الآلاف من الناس وتأخذهم أخذاً وبيلا ، كل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن مقاومتها [(١)] وليس فى البلاد طب ولا أطباء ، والناس متروكون لرحمة المنجمين والحلاقين

فى العلوم والآداب

وفشا الجهل فى البلاد ورزح الشعب تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذى كان قائماً قبل عصر البكوات المماليك وبعض المدارس الملحقة بالمساجد ، فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذى تدرس فيه العلوم ، ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم فى مصر ؛ وكان بالقاهرة وبعض البنادر والثغور كتاتيب ينفق عليها من أموال الصدقات والأوقاف ، لكنها كانت قليلة النفع ، ضعيفة الأثر فى تبديد ظلام الجهالة فى البلاد .

وذوت العلوم والآداب فى مصر بعد أن كانت زاهية زاهرة ، فقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية (الشراكسة) حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل ، وإليهم يرجع الفضل فى إنقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق ، فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان ، وبقيت لغة حكومتها عربية فى عهد تينك الدولتين ، واستظلت العلوم والآداب بحماية الملوك والسلاطين فى مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء ، كالبوصيرى صاحب البردة ، والسراج الوراق ، وابن نباته المصرى ، والقلقشندى صاحب صبح الأعشى ، والأبشيهى صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوى العظيم الذى يقال فيه إنه أنحى من سيبويه ، وابن

(١) فى سنة ١٠٢٨ هـ أصيبت مصر بطاعون جارف فى زمن الوزير جعفر باشا لبث أربعة أشهر مات فيه ستمائة ألف نفس . وفى سنة ١٠٣٥ أصيبت البلاد بوباء مات فيه ٣٠٠ ألف نفس . وفى سنة ١٠٥٠ (١٦٤١ ميلادية) فى زمن مقصود باشا حصل طاعون لم يسمع بمثله ، وخرب بهذا الطاعون ٢٣٠ بلدة من الوجه البحرى كما قال ابن أبى السرور البكرى . وحدث طاعون آخر فى شياخة ذى الفقار بك سنة ١١٤٢ (١٧٢٩ ميلادية) وطاعون فى شياخة عثمان بك ، وفى سنة ١٢٠٥ (١٧٩١ ميلادية) أصيبت البلاد بطاعون فظيع سماه أهل مصر طاعون إسماعيل لأنه وقع فى عهد مشيخته ، كان يموت به فى القاهرة زيادة على ألف نفس فى اليوم . ومات به إسماعيل بك ومعظم مماليكه ، وتغيرت الحكام فى اليوم الواحد ثلاث مرات لموتهم ، ومات به من سكان القاهرة نحو ستين ألفا

عبد الظاهر ، والنواجى[١] صاحب حلبة الكميت ، والقسطلانى المحدث المشهور ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان ، والصفدى صاحب الوافى ، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين فى زمانه ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن وصيف شاه ، وابن دقماق ، والمقريزى صاحب الخطط ، والمكين بن العميد ، وأبو الفداء[٢] المؤرخ الجغرافى المشهور صاحب تقويم البلدان ، والذهبى ، والنويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، وابن عقيل ، وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة ، وجلال الدين السيوطى صاحب التآليف الشهيرة فى التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والأدب واللغة ، وهو آخر من ظهر فى ذلك العصر من كبار العلماء بمصر ، والدميرى صاحب حياة الحيوان ، وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى

وقد استضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق ، كالإمام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون

أما فى عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب العربية وجمدت القرائح وركدت حركة العلم ، ولاغرابة فى ذلك ، فإن القاهرة صارت مركز ولاية تابعة للاستانة بعد أن كانت عاصمة دولة مستقلة ، بل عاصمة العالم العربى كله ، وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة لغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية ، وتقهقرت البلاد وساءت إدارتها ، فأثرت هذه الأسباب مجتمعة فى حالة العلوم والآداب ، وآلت إلى الاضمحلال والذواء ، واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عهد الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية ، وتبددت خزائن الكتب التى يرجع إنشاؤها إلى عهد الفاطميين ، ولم يبق منها إلا بعض المكاتب الملحقة بالمساجد كمكتبة الأزهر التى كان بها إلى عهد الحملة الفرنسية نحو ٣٣٫٠٠٠ مجلد

قال المرحوم على باشا مبارك يصف إهمال شأن المدارس فى مصر مدة ثلاثة قرون متوالية:

«من ابتداء القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر[٣] ، يعنى مدة ثلاثة قرون : قد أهمل أمر المدارس وامتدت أيدى الأطماع إلى أوقافها ، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها ،

---

(١) نسبة إلى نواج إحدى قرى مديرية الغربية

(٢) هو الملك المؤيد صاحب حماه ، ويلاحظ أن الدولة المصرية كانت فى ذلك العصر تضم سوريا إلى أملاكها

(٣) وهذه المدة يقع معظمها فى عهد الحكم العثمانى

وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا فى مفارقتها ، وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس فيها بالكلية ، وبيعت كتبها وانتهبت ، ثم أخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها ، فامتدت أيدى الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها ، حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة فى أغلب الأيام ، وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك ، ولله عاقبة الأمور (١) »

هذه صورة لما آلت إليه العلوم والآداب من الاضمحلال والذواء فى عهد الحكم العثمانى ، من أجل ذلك قلما نبغ من عهد الفتح التركى شاعر أو عالم أو أديب ، ولا تكاد تعد فى هذا العصر سوى شهاب الدين الخفاجى ، والسيد محمد مرتضى الزبيدى العالم اللغوى المشهور صاحب تاج العروس فى شرح جواهر القاموس ، وأصله من اليمن واستوطن مصر وتوفى بها ، وعبد الوهاب الشعرانى صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة ، وابن أبى السرور البكرى الصديق صاحب الروضة المأنوسة ، والصبان ، وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ، ولو تأملت فى تراجم من ذكرهم الجبرتى فى كتابه من علماء ذلك العصر لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالما نابها فى الفلسفة أو العلوم والآداب ، واقتصر التدريس فى الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية ، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التى كان يدرسها أسلافهم ، والتى كانت تزدان بها جامعات بغداد وقرطبة فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، واعتزل الأزهر النهضة العلمية الأوروبية الحديثة ، فبعدت الشقة بينه وبين التقدم العلمى القديم والحديث؛ واقتصر المؤلفون من علمائه على النقل ووضع الشروح والحواشى والتقارير والتعليقات ونحوها مما لا يمكن أن يكون أساساً لنهضة علمية صحيحة ؛ وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية ، وكان المجيدون من الكتاب والأدباء لا يتوخون فى كتابتهم إلا تنميق العبارات بالسجع الركيك والمحسنات البديعية كالجناس والتورية ، واضمحلت روح البلاغة ، ولم يبق فى متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبى زيد الهلالى وعنترة والزناتى خليفة وما إلى ذلك ؛ وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لدرجة أن كلمة « شاعر » كانت تطلق على جماعة يجلسون فى القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبى زيد والظاهر بيبرس وينشدونها على نغمات الربابة

هذا التقهقر هو نتيجة حكم الولاة الأتراك والبكوات المماليك ، ومن الواجب أن تفرق

(١) الخطط التوفيقية الجزء الأول

بين عهد البكوات المماليك وعهد السلاطين المماليك من الدولتين البحرية والبرجية ، فإن عهد هؤلاء كان عهد عمران وحضارة ، وعلى ما كان يتخلله من المظالم فقد كان كثير من السلاطين ذوى علم وأدب وثقافة لقرب عهدهم بعصر الحضارة الإسلامية .

أما حكم البكوات المماليك فكان عصر تأخر وجهالة ، وكانوا هم والولاة الأتراك علة ما أصاب البلاد من التقهقر ، ومن الخطأ أن يظن بعض المؤرخين أن البكوات المماليك ظلوا على توالى السنين سلالة الدولتين البحرية والبرجية ، فإن المعروف أن أفواج المماليك كانت ترد إلى مصر من بلاد الشركس والقوقاز ، فالصلة التى كانت تربط المماليك بالدولتين البحرية والبرجية عند الفتح العثمانى قد انقطعت مع الزمن ؛ أضف إلى ذلك أن المماليك كان معروفا عنهم العقم وقلة النسل ، وكانت ذريتهم تنقرض ونسلهم ينقطع فى جيل أو جيلين ، فكانوا يسدون النقص الذى يبدو فى صفوفهم بشراء أفواج الأرقاء من أسواق الرقيق ، وإذا تأملت فى تراجم البكوات المماليك الذين ذكرهم الجبرتى فى تاريخه تجد أنهم ليسوا من سلالة الدولتين البحرية والبرجية ، بل هم مجلوبون من أسواق الرقيق ، وليس فيهم أحد لم يكن أصله مملوكا اشتراه أحد المماليك

والآن وقد انتهينا من الكلام على نتائج نظام الحكم فى ذلك العصر ، فلننتقل إلى وصف الحالة فى مصر عند مجىء الحملة الفرنسية

الحالة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر

عند مجىء الحملة الفرنسية

من الواجب أن ندرس الهيئة الاجتماعية التى كانت تتألف منها الأمة المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر ، لأن فى هذه الهيئة نبتت الفكرة الأولى للروح القومية فى مصر عند اصطدامها بالحملة الفرنسية .

يبلغ عدد سكان مصر فى ذلك الحين ثلاثة ملايين ، ينقسمون إلى حكام ومحكومين ، فالمحكومون هم الشعب المصرى ، والحكام هم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد ، وكان عدد المقاتلة منهم يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف مملوك (١) ما بين مقدمين وأمراء وكشاف وضباط وجاقات ، وأجناد وأتباع ، وكان عددهم لا يزيد بالتناسل لأنهم قليلو النسل كما قدمنا ، فكانوا يتممون نقصهم ويحفظون عددهم وعصبيتهم بالأرقاء يشترونهم فتياناً وفتيات من

(١) تجد تفصيلا وافياً عن عدد المماليك فى الفصل السابع

الشركس الذين كانوا يُباعون فى أسواق الرقيق بالاستانة ، فيعتنون بتربيتهم ، وكثيراً ما يعتقونهم فيصبحون أحراراً ، ولكنهم يحفظون عهد أسيادهم ويكونون من حزبهم وعصبيتهم ، فمن هؤلاء المماليك أحراراً أو أرقاء يتكون جيش المماليك فى مصر

أما الشعب المصرى فهو سلالة الفراعنة والعرب ، امتزج به الدم المصرى القديم بالدم العربى ، وكان يتألف من عدة طبقات اجتماعية نذكر حالة كل منها

العلماء

فأولاها طبقة العلماء ورجال الشرع ، وكان لهم فى ذلك العهد تأثير عظيم فى نفوس الأمة وقيادة أفكارها ، ولهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير ، وإليهم يرجع تدبير الحركات التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، كما تراه مبسوطاً فى فصول الكتاب

الملاك والتجار

وطبقة الملاك والتجار ، وهى تشمل الحضريين سكان المدن والأقاليم ذوى الثروات المتوسطة ، وفيهم عدد قليل من أغنياء الملاك والتجار ، ويلحق بهذه الطبقة بعض «الوجاقلية» أى ضباط الفرق ، وكذلك « الأفندية » كتاب الدواوين ، وغيرهم من سلالة العثمانيين الذين استوطنوا البلاد واقتنوا بها البيوت والأملاك ، وصاهروا أهلها وناسبوهم فاندمجوا مع الزمن فى الشعب المصرى وصاروا فى عداد أفراده ؛ ويعد كثير من العلماء من طبقة الملاك بما كانوا يملكون من الدور والأراضى ، ومن الملاك طبقة الأعيان فى البنادر والأقاليم ، وفيهم فئة من كبار الأعيان عرفوا بسعة الثروة وبسطة الجاه ، وهم سلالة البيوت المصرية القديمة الذين احتفظوا بعصبيتهم بما استكثروا من الأتباع والأشياع والأرقاء ، وما اقتنوه من الأملاك والضياع الواسعة التى كانت تعد بالقرى ، وسيرد أسماء بعضهم فى خلال فصول الكتاب ، وكانت لهم سطوة يرهبها الحكام المماليك ، فكانوا يتقونهم ويجاملونهم بالمداراة ويتركون لهم فى مناطقهم شبه استقلال ذاتى

أما التجار فكانوا يشغلون حيزاً كبيراً فى المجتمع المصرى ، وكانوا أغنى طبقات الشعب ، ذلك أن الزراع كانوا أكثر استهدافاً لمظالم الحكام وفداحة الضرائب التى تحرمهم ثمرة كدهم وتجعلهم فى حالة فقر مستمر ؛ والصناع كانوا عادة من الطبقات الفقيرة ، لكن شأن التجار

غير هذا ، فكانوا إلى حدٍ ما أحسن حالا وأرقى مستوى من الطبقات الأخرى ، ووصل بعضهم إلى درجة عظيمة من الثراء والجاه ، وابتنوا القصور والوكالات ، واتسعت تجارتهم الخارجية ، وكانوا يستمدون ثروتهم من نشاطهم ومن مركز مصر التجارى ؛ فغير خاف أن مركز مصر الجغرافى يجعل منها الملتقى الطبيعى للقارات الثلاث ، افريقيا وآسيا وأوروبا ، وكانت متاجر الهند لا تصل إلى أوروبا إلا معرّجة بمصر ، فنالت مصر من هذه الوجهة مركزاً تجاريا ممتازاً ، وصارت تجارة الشرق بيدها وربحت منها المكاسب الطائلة ، لكنها بدأت تفقد هذا المركز الممتاز من يوم أن تم للرحالة البرتغالى فاسكو دى جاما الطواف حول القارة الافريقية واجتياز طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند (سنة ١٤٩٧ — ١٤٩٨) ، فقد أخذت تجارة الهند تتحول من مصر إلى المحيط الاطلنطى ، فبدأت منزلة مصر التجارية تضمحل من أوائل القرن السادس عشر ، وزاد فى اضمحلالها زوال الاستقلال عنها بدخولها فى حوزة الحكم العثمانى سنة ١٥١٧ ، وضياع أسطولها الذى كان لها فى عهد السلطنة المصرية ، وتقهقرها فى عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك ، على أنها وإن أصابها ما أصابها من التقهقر والاضمحلال ، كانت فى ذلك العهد سوقاً للمتاجر الواردة إليها من الشرق والغرب ، فكانت ترفأ إليها السفن قادمة من أوروبا وسوريا والأناضول وثغور البحر الأحمر ، وتصل إليها قوافل التجارة من السودان والحبشة وبطن افريقية ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس ، وكذلك كانت تصل إليها القوافل والسفن من فلسطين وسوريا وبلاد العرب ، فكانت بكل ذلك ملتقى التجارة من سائر الأقطار ، تجيئها القوافل من السودان ودارفور حاملة العاج والتبر والصمغ العربى وريش النعام والتمر الهندى والجلود والرقيق والكحل وقرن الخرتيت والشب والنطرون ، وتنقلب حاملة منسوجات مصر وحاصلاتها وحاصلات البلاد الأخرى التى تستوردها ؛ وكذلك تجيء القوافل من فزان وبلاد المغرب حاملة الأصواف والشيلان البيضاء والطرابيش والأحذية (البلغ) والأردية الصوفية المعروفة (بالبرانس) وأغطية الصوف المعروفة بالأحرمة ، وزيت الزيتون ، والعسل والشمع والسمن ، وتجلب من الهند ومن بلاد السلطنة العثمانية (الأناضول وسوريا واليمن والحجاز) الحرير والبن والبهار وأنواع الطيب والعطور والتوابل والأبازير والعقاقير والتبغ والخشب والصابون والزيت والشيلان الكشمير والفواكه ، وتستورد من أوروبا الأجواخ والقطيفة والحرير والساتان والورق والجواهر والحلى والحديد والنحاس والخشب والرخام والزجاج والمرايا والخزف والصينى والأسلحة وغير ذلك ، كما كانت تصدر إلى أوروبا الأرز والغلال وبعض المنسوجات القطنية

التى كانت تصنع فى القاهرة والمحلة الكبرى ورشيد ، وتصدر إليها كذلك الحاصلات والبضائع التى كانت ترد إليها من افريقيا وآسيا ، وأهم هذه الأصناف البن الذى كان يرد لها من اليمن

قال المسيو جيرار Girard وكيل إدارة الرى فى عهد الحملة الفرنسية يصف مركز مصر التجارى فى أواخر القرن الثامن عشر :

« إن الحاصلات التى تنتجها أنحاء القطر المصرى تتبادلها المدن والقرى فتأخذ منها حد كفايتها ، وما فضل منها يصدر من مصر مع ما تنتجه الصناعة المصرية إلى الأقطار الافريقية وبعض البلاد الأوروبية ، فيباع فيها بثمنه أو يعوض منه بضائع من التجارة أو عروضها ، وقد كان لمركز مصر فضل كبير فى جعلها ملتقى ومستودعاً للتجارة الخارجية »

وقد اجتذب هذا المركز التجارى عدداً من الجاليات الأجنبية ، سوادهم من الإيطاليين وبخاصة سكان البندقية (فينسيا) والفرنسيين والأروام ، وكانوا يقيمون فى القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط

ثم كان لمصر جمارك فى ثغورها التجارية وهى القاهرة ، ومصر القديمة ، وبولاق ، والقصير ، والسويس ، ودمياط ، ورشيد ، والإسكندرية ، فأما جمرك القصير فكان متروكا لحكام الجهات القبلية ، وأما جمارك باقى الثغور فكانت مقسمة بين مراد بك وإبراهيم بك ، فاختص مراد بك بجمارك القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، ورشيد ، ودمياط ، والإسكندرية ، واختص إبراهيم بك بجمرك السويس وكان أكثر حركة وإيراداً ، لأن إليه ترد معظم بضائع الهند وبلاد العرب ، وكان إيراده وحده يعدل إيراد جمارك القاهرة ودمياط ورشيد والإسكندرية جميعاً ؛ وكان إبراهيم بك يقيم من أتباعه عمالا يحصلون مكوس الجمرك ، بخلاف مراد بك فإنه أعطى جمارك الثغور التى كانت فى قسمته لأربعة «ملتزمين» ، وجعل على كل منهم خراجاً معيناً يؤدى إليه فى أوقاته ، وينالون هم إيراد الجمارك لأنفسهم ويتكفلون بمصاريف إدارتها كمرتبات الكتبة والعمال ، وكان إيراد جمارك القطر المصرى وقتئذ نحو ثلاثة ملايين فرنك[(١)] (١٢٠,٠٠٠ جنيه) تحتسب فيها المصاريف وأرباح الملتزمين

طبقة المزارعين « الفلاحين »

ومنهم يتكون الشطر الأكبر من الأمة ، وكانوا فى حالة يرثى لها من الجهل والفاقة ، وكانت الزراعة فى تقهقر وتأخر بسبب حرمان البلاد من منشآت للرى والصرف تضمن

---

(١) كما يقدرها المسيو استيف فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثانى عشر

استخدام مياه النيل وتوزيعها ، ولحرمان البلاد من حكومة عادلة توطد الأمن وتصون حقوق الأفراد . كانت الزراعات المعروفة فى مصر هى الحبوب وما إليها ، كالقمح والأرز والذرة والشعير والفول ، والعدس ، والحمص ، والترمس والحلبة ، والحناء ، والزعفران ، والبرسيم ، والنيله ، والقنب (التيل) والـكتان ، والبصل ، والسمسم ، والسلجم ، والقرطم ، والعصفر ، والخضر ، والفواكه ، والثمار ، كالبلح على اختلاف أنواعه ، والعنب ، والبطيخ ، والشمام ، والضميرى ، والموز ، والرمان ، والتين ، والبرتقال ، والليمون ؛ وكان البلح — ولم يزل — أكثر فواكه مصر وفرة

وكان القطن يزرع فى بعض جهات الوجه البحرى والصعيد ، ذكر المسيو (جيرار) Girard فى رسالة له عن حالة الزراعة فى مصر عهدئذ أنه شاهد زراعة القطن فى الدلتا والوجه القبلى ، فقطن الوجه القبلى كان يزرع ويبقى قائماً على سوقه مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنوات ، ففى السنوات الثلاث الأولى يزرع بين شجيراته بعض الخضر وبخاصة البامية ، وفى السنوات السبع الباقية تبقى شجيرات القطن قائمة وحدها ؛ وقال عن قطن الدلتا إنه كان يزرع سنويا ، وكان يروى ثلاث مرات فى السنة فى خلال خمسة أشهر ، وقال إن محصول الفدان بجهة سمنود يغل قنطاراً ونصفاً أو قنطارين ، كل قنطار ١٢٠ رطلا ، وان ثمن القنطار ١٦ ريالا

وقال إن قطن الوجه القبلى كان ينسج فى مصانع الأقمشة فى القطر المصرى[(١)] ، وذكر طريقة حليج القطن فقال إنها غاية فى البساطة ، يتخذ لها اسطوانتان تدوران حول محورهما متقابلتين ، وهذه المشاهدات رآها جيرار فى خلال رحلاته إلى الوجه البحرى والقبلى سنة ١٧٩٩ وسنة ١٨٠٠ وأوائل سنة ١٨٠١

وغنى عن البيان أن هذا القطن كان من صنف ردىء ، أما القطن الحديث فلم تدخل زراعته فى مصر إلا فى عهد محمد على الـكبير حوالى سنة ١٨٢٠

وكذلك كان يزرع قصب السكر ولـكن بمقادير قليلة ، ذكر المسيو جيرار فى رسالته المتقدمة أن زراعة القصب كانت كثيرة النفقات لا يقبل عليها إلا قليل من الزراع ، وكانت منحصرة تقريباً فى مديرية جرجا بجهات فرشوط[(٢)] واخميم وفيها مصانع للسكر ، وكان يزرع أيضاً فى مديرية أطفيح بمقادير كثيرة ، ويزرع القليل منه فى بعض بلاد الوجه البحرى ،

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء ١٧

(٢) فرشوط التابعة الآن لمديرية قنا

ولكنه لا يصنع منه السكر ، بل يباع كفاكهة ، وكانت مصر تصدّر السكر لبعض بلاد السلطنة العثمانية ، ويزرع التبغ فى بعض جهات الصعيد ، ويزرع الورد بكميات وافرة فى الفيوم ، ومنه يستقطر ماء الورد فى مدينة الفيوم والقاهرة

الصناع والصناعات

لم تكن البلاد تعرف الصناعات الكبرى ، واقتصر الشأن فيها على الصناعات الصغرى ، وكان الصناع والعمال ينتظمون فى طوائف تشبه نقابات الصناع الحالية ، لكل حرفة طائفة يرأسها شيخ يسمى (شيخ الطائفة) وإليه النظر فى شؤونها ، ولمشايخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالنقباء ، يختارهم إما حكام المدن التى يقيمون بها وإما السلطة العليا فى القاهرة ، فكلما أرادت الحكومة النظر فى نظام تلك الطوائف أو تحصيل ما تفرضه عليها من الفرض ، خاطبت فى ذلك مشيختها فيتولون توزيع الغرم المطلوب على أفراد الطائفة ، وكان لنظام الطوائف بعض المزايا فى ترقية شؤون الصناعة والصناع وتعليم المبتدئين منهم أسرار الصنعة ، فكان لكل صناعة مدة تمرين يتدرب العمال خلالها على العمل فيها ، فإذا أراد الصبى المتعلم أن يصير « معلماً » أو « أوسطى » بعد حذقه الصنعة التى اختارها ، ذهب إلى شيخ الطائفة مصحوباً بمعلمه ويشهد له المعلم بأنه أتقن الصنعة ومهر فيها ، وعندئذ ينادى به الشيخ عضواً من أعضاء الطائفة

وكانت الصناعات الصغرى منتشرة ومتفرعة إلى فروع عدة[1]

فمنها الصناعات والمهن المتعلقة بالمواد الغذائية ، كطحن القمح والذرة وخبزهما ، وضرب الأرز وتبييضه ، وطحن البن ، واستفراخ البيض ، واستخراج السكر من القصب ، واعتصار الزيت من السمسم ومن بذر الكتان ومن القرطم والسلجم ؛ وحرفة القصابة (الجزارة) ، وتدميس الفول (المدمس) ، واستخراج الخل من البلح أو الزبيب ، واستقطار ماء الورد والعرق ، واشتيار العسل من خلايا النحل ، وصناعة الفطير والحلوى والمربات

والصناعات الخاصة بالملبس ، وهى غزل القطن والكتان والصوف ، كان يغزله الرجال والنساء بالمغازل اليدوية وينسجون منه الأقمشة الكتانية والصوفية والقطنية التى تكفى حاجة البلاد ، ونسج الأقمشة الحريرية وقد اشتهرت به مدن القاهرة والمحلة الكبرى ودمياط

---

(١) رجعنا فى هذا التقسيم (مع شىء من التصرف) إلى بحث للمسيو جومار الذى شاهد صناعات مصر فى ذلك العصر

(واحتفظت بهـذه الشهرة إلى اليوم) وصناعة الفرو (الـكرك) وصناعة اللباد ومنه كانت تصنع الطرابيش واللبد (جمع لبدة) ، وصناعة البسط المعروفة بالأكلة (جمع كليم) ، وقلوع المراكب ، ثم صناعة الأقمشة وقصرها وتبييضها ، والتطريز وكانت صناعته على جانب من الإتقان ، وكان المطرزون المصريون موضع إعجاب الإفرنج ولا سيما تطريزهم الحرير والجوخ والموسلين وتطريز الجلود بأسلاك الذهب والفضة .

وكذلك العقادون فقد برعوا فى صـناعة القيطان (الـكردون) والشراريب من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة ، ودباغة الجلود ، وصناعة الأحـذية وسروج الخيل وكل ما تحتاجه دواب الركوب ، وصناعة خياطة الملابس للرجال والنساء

والصناعات المتعلقة بالعمران كضرب الطوب ونحت الأحجار وصنع الجير والجبس والمصيص ، والبنـاء ، وقطع البلاط وتركيبه ، وصـناعة أوانى الزجاج ، وتنجيد الأثاث ، وصناعة الفخار والخزف ، وصنع الشمع ، والسبح (جمع سبحة) ، وعمل أحجار الشبكات التى يدخن فيها وأنابيبها ، وصناعة الحصير والمـكاتل (القفف والغلقان) ، والنجارة ، وبناء السفن ؛ وصناعة البارود والجلل ، وصنع الأسلحة وإصـلاحها ، وصناعة النحاس وتبييضه ، والحدادة والخراطة وكانت هذه الصناعة رائجة فى ذلك العصر رواجا عظيما وبخاصة فى استخدام قطع الأخشاب المخروطة فى عمـل النوافذ والأبواب والمشربيات ، وكان الخراطون أحذق صناع القطر المصرى ، وصناعتهم من أكثر الصناعات المصرية تقدماً ، ونبغ الـكثير منهم فى خرط (الـكهرمان) والعاج ، والتفنن فى إتقان أنابيب الشبكات التى كانت الوسيلة الوحيدة لتدخين التبغ .

ومن الصناعات الأخرى الصياغة وتركيب الأحجار الـكريمة ، وسك النقود ، ويدخل فى عداد الصناع السقاؤون وكان عددهم كبيراً جداً فى ذلك العهد ، لأنهم يحملون ماء النيل إلى جميع السكان فى القاهرة والبنادر ، والمـكارون ، والحمالون ، والنوتية فى النيل

المسلمون والأقباط

كان المسلمون والأقباط يشتركون على السواء فى احتمال ظلم الحـكام وسوء الإدارة ، وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين فى الزراعة والصناعة والتجارة ؛ وتخصص الأقباط فى الأعمـال الحسابية والمـالية ، فعهد إليهم البكوات المماليك والـكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الأطيان والحاصلات ، فكانت لهم فى هـذه الناحية من إدارة الحـكومة سلطة

مطلقة لاينازعهم فيها منازع ، ذلك أن بأيدى الصيارفة سجلات الأطيان والضرائب فى القرى ، وإليهم تقدير ما على كل ذى مال من الضريبة ، ومعرفة الأطيان المزروعة والبور أى ما يؤخذ عنها الخراج وما لا يؤخذ ، وبيان من دفع من الفلاحين ومن لم يدفع ، وكانت سلطتهم فى هذا المجال مطلقة لا رقابة عليها ، وما يثبتونه فى دفاترهم حجة لا جدال فيها ، ورؤساؤهم يسمون « المباشرين » وهم أصحاب النفوذ والسلطة عليهم ؛ وكان هؤلاء المباشرون هم وكلاء المماليك وكبار الملتزمين وقواما عليهم فى إدارة أملاكهم وتحصيل الضرائب من الأطيان الداخلة فى التزامهم ، فكان لهم نفوذ كبير فى إدارة الحكومة ، وسلطة لا منازع فيها فى القرى ، ورئيسهم يسمى « كبير المباشرين » ، وله نفوذ عظيم يستمده من اتساع أعمال وظيفته وتفرعها فى الأقاليم وسلطته على من تحت يده من المباشرين والصيارفة والكتبة والمساحين ، ووصل بعضهم إلى أرفع مراتب النفوذ والجاه ، كالمعلم رزق ، والمعلم إبراهيم الجوهرى ، وأخيه جرجس الجوهرى ؛ فالمعلم رزق كان كاتب سر على بك الكبير ومدير حسابات الحكومة فى عهده ، وكان بمثابة مستشاره ومرجعه فى شؤون الدولة ، فكان له من النفوذ والسلطة ما لم يتوافر لأحد من رجال الحكومة ، وقد خلفه فى نفوذه المعلم إبراهيم الجوهرى . ذكره الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٠٩ هجرية (١٧٩٥ ميلادية) ، فقال عنه إنه : « رئيس الكتبة الأقباط بمصر ، وإنه أدرك فى الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه » ، قال : «وأول ظهوره من أيام المعلم رزق كاتب على بك الكبير ، ولما مات على بك والمعلم رزق ظهر أمر المترجم ونما ذكره فى أيام محمد بك أبى الذهب ، فلما انقضت أيام محمد بك وترأس إبراهيم بك قلده جميع الأمور ، فكان هو المشار إليه فى الكليات والجزئيات ، حتى دفاتر الروزنامة والميرى وجميع الإيراد والمنصرف ، وجميع الكتبة والصيارف تحت يده وإشارته ، وكان من دهاقين العالم ودهاتهم ، لا يعزب عن ذهنه شىء من دقائق الأمور »

وذكر الجبرتى أيضاً فى وفيات سنة ١٢٢٥ هجرية (١٨١٠ — ١٨١١ ميلادية) ترجمة المعلم جرجس الجوهرى فقال : « مات المعلم جرجس الجوهرى كبير المباشرين بالديار المصرية ، وهو أخو المعلم إبراهيم الجوهرى ، ولما مات أخوه فى زمن رياسة الأمراء المصرية (المماليك) تعين مكانه فى الرئاسة على المباشرين والكتبة ، وبيده حل الأمور وربطها فى جميع الأقاليم المصرية ، نافذ الكلمة وافر الحرمة ، وتقدم فى أيام الفرنسيس فكان رئيس الرؤساء ، وكذلك عند مجىء الوزير (يوسف باشا) والعثمانيين ، وقدموه وأجلسوه لما يسديه إليهم من

الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس أفندى ، ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو[1] بجانب شريف أفندى الدفتردار (مدير الشؤون المالية) ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره ، ويراعون جانبه ويشاورونه فى الأمور ، وكان عظيم النفس ، ويعطى العطايا ، ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوى والبن ، ويعطى ويهب ، وبنى عدة بيوت بحارة الونديك والأزبكية ، وأنشأ داراً كبيرة وهى التى يسكنها الدفتردار الآن ويعمل فيها الباشا (محمد على باشا) وابنه (إبراهيم باشا) الآن الدواوين عند قنطرة الدكة ، وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم » ، هذا وقد بقى المعلم جرجس الجوهرى حافظاً مكانته إلى أيام محمد على باشا حيث ظهر المعلم غالى وتقرب إلى محمد على فجعله فى مكانه ، وتوفى جرجس الجوهرى سنة ١٨١١

التقسيمات الإدارية

كانت مصر مقسمة من الوجهة الإدارية إلى ست عشرة مديرية ، تسمى كل منها « إقليما » أو سنجقية ، تسعة منها فى الوجه البحرى وهى : البحيرة ، ورشيد ، والغربية ، والمنوفية ، والمنصورة ، ودمياط ، والشرقية ، والقليوبية ، والجيزة ؛ والباقى فى مصر الوسطى ومصر العليا وهى : اطفيح ، وبنى سويف ، والفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وقنا

وهذا التقسيم هو الذى كان معمولا به فى أواخر عهد البكوات المماليك ، وكانت منفلوط وإسنا زمناً ما كل منهما إقليما قائماً بذاته

كلمة عن القاهرة وأمهات مدن مصر

كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصرى وعاصمته ومقر حكومته ، وكانت حدود العمران فيها تنتهى شمالا من الحسينية إلى باب الحديد ، وجنوباً من القلعة إلى باب عرب اليسار ، إلى باب السيدة عائشة ، إلى جامع السيدة نفيسة ، فباب طولون ، فباب البغالة ، فباب السيدة زينب[2] ، وشرقاً من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية ، وغرباً من باب الحديد إلى الأزبكية ، فباب اللوق ، فباب الشيخ ريحان ، فباب الناصرية ، فباب السيدة زينب .

وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطىء النيل وبينها وبينه مزارع

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها فى ذلك العصر وحدوده فى العصر الحاضر ،

(١) والى مصر ، وسيأتى الكلام عنه فى الفصل الخامس عشر من الجزء الثانى
(٢) على مقربة من مسجد السيدة زينب رضى الله عنها

فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة فى العصرين ، فجامع الظاهر مثلا وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مبانى القاهرة ، وكان باب الحديد نهاية حدود مبانى القاهرة من الشمال الغربى ، والأزبكية والمبانى التى حولها نهاية العمران غرباً ؛ والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران ، لذلك كانت بولاق تعد من ضواحى العاصمة ، كما كانت مصر القديمة أيضاً ، وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق ، ولم يكن على شاطئ النيل سوى بعض مبان قليلة كقصر إبراهيم بك (قصر العينى) تجاه الروضة ، وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطى ، وعن شماله بيت لمصطفى بك

وكانت بولاق مرفأ القاهرة فى الشمال ، ومصر القديمة مرفأها من الجنوب ، فبولاق هى فرضة تجارة الوجه البحرى ، ومصر القديمة فرضة تجارة الوجه القبلى ؛ وكانت بولاق مقراً لجمرك القاهرة ، وصفها المسيو جومار أحد مهندسى الحملة الفرنسية فى رسالته عن تخطيط القاهرة ، ومما لفت نظره فيها كثرة وكائلها التجارية ، ووفرة الغلال التى كانت تتكدس على ساحل النيل دون حراسة وبغير أن توضع فى مخازن ، قال المسيو جومار : إن الثقة بين الناس فى مصر كانت على أتم ما يكون ، بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يد إلى تلك الغلال[1] ، وهذا يدلك على أن الصدق والأمانة كانا من فضائل الخلق المصرى

وكانت شوارع القاهرة ضيقة كثيرة التعاريج ، وأطولها هو الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر متراً ، ولم يكن بها سوى أربعة ميادين ، وهى ميدان قراميدان تحت القلعة ، وميدان الرميلة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه باب قراميدان ، وميدان بركة الفيل ، وميدان الأزبكية ويسمى بركة الأزبكية ، وعفت الميادين والرحاب والمتنزهات التى تكلم عنها المقريزى فى خططه ، كما درست قصور الخلفاء والسلاطين وما شيدوه من العمائر والمناظر والدواين والمدارس ودور الكتب وغيرها من معالم الحضارة والعمران .

وكان ميدان الأزبكية (أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها) أجمل الميادين الأربعة ، تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان ، وفى أيام الفيضان يمتلئ بمياه النيل فيصير لجة من الماء يتنزه فيها الناس بالزوارق فى النهار والليل ، وفى المساء توقد المصابيح من البيوت المطلة عليه فيكون منظر الميدان من أبهج المناظر ، ولا سيما فى الليالى المقمرة ، وقد نقل الجبرتى فى كتابه ما قاله الشيخ حسن العطار أحد أدباء ذلك العصر فى وصف ميدان الأزبكية ، قال :

---

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

« وأما بركة الأزبكية فهى مسكن الأمراء ، وموطن الرؤساء ، قد أحدقت بها البساتين الوافرة الظلال ، العديمة المثال ، فترى الخضرة فى خلال تلك القصور المبيضة ، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة ، يوقد بها كثير من السرج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور »

فهذا الوصف يعطيك فكرة عما كانت عليه الأزبكية فى ذلك العصر ، وأنها كانت كما هى الآن مثابة الحظوظ والمسرات

وكان بالقاهرة كثير من الأبنية المتخربة ، ولا غرو فقد تناقص عمرانها فى خلال حكم الولاة الأتراك والبكوات المماليك ، واستمر الهدم والتخريب فى عهد الحملة الفرنسية كما سيجىء بيانه ، وكانت مقسمة إلى أثمان وأخطاط ، كل خط يحتوى على شوارع ، والشوارع بها دروب وحارات وعطفات ، وأغلب الحارات والعطفات غير نافذة إلا إلى الدرب ، فكانت المدينة أشبه بعدة قرى مجتمعة ؛ والدروب والعطفات والحارات عليها (بوابات) كل بوابة تغلق عند العشاء وينام خلفها بواب يؤجر من أهلها ، ولا يتأخر أحد بعد العشاء وراء الحارة إلا لضرورة ، ولم يكن للحكام أية فكرة فى العناية بأمر النظافة والصحة العامة ، فساءت حالة المدينة من هذه الجهة وشاعت فيها الأمراض

وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر فى خلال العصور ، فإن عظمتها القديمة قد تغلبت على عوامل الفناء وسوء الإدارة ، فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبة بعد الاستانة ، وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة ، وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات ، وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن (الوكائل) التى تجلب إليها البضائع من مختلف الأقطار

ويبلغ عدد سكان القاهرة فى ذلك العصر حوالى ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، وهذا الإحصاء مأخوذ عن تقدير الإفرنج الذين كانوا يسكنون العاصمة قبيل الحملة الفرنسية ، وفيه بيان الطبقات التى يتألف منها هذا العدد كما يلى (١)

١٢,٠٠٠ جهادية ومماليك
٦٠٠٠ ملاك وفيهم العلماء
٤٠٠٠ تجار الجملة

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر .

٢٥,٠٠٠ صناع ورؤساء حرف

٥,٠٠٠ صغار التجار

٢,٠٠٠ قهوجية ، وكان بالقاهرة ١٢٠٠ قهوة ، وفى بولاق ١٠٠ ، وفى مصر القديمة ٥٠

٣٠,٠٠٠ سقاءون وخدم وأتباع وسرارى وجوارى

١٥,٠٠٠ عمال وحمالون

١٣٦,٠٠٠ نساء

٧٥,٠٠٠ أطفال ذكور وإناث

٣٠٠,٠٠٠ المجموع

ويقول المسيو جومار Jomard[١] إن فى هذا العدد شيئاً من المبالغة ، لأنه لم يكن مبنيا على إحصاء فعلى ، ويقدر هو عدد سكان العاصمة بـ ٢٦٣,٠٠٠ نسمة[٢] ؛ ويقدرهم الكولونيل جاكوتان Jacotin[٣] بـ ٢٥٣,٢١٠ نسمة ، وكان أهم المدن بعد العاصمة الإسكندرية وعدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة ، ورشيد ١٣٠٠٠ نسمة ، ودمياط ٢٠٠٠٠ ، والمحلة الكبرى ١٧٥٠٠ ، وسمنود ٥٠٠٠ ، والمنصورة ٧٥٠٠ ، وقليوب ٤٥٠٠ ، وبلبيس ٣٠٠٠ ، ومنوف ٤٠٠٠ ، وطنطا ١٠٠٠٠ ، وأسيوط ١٢٠٠٠ ، وجرجا ٧٠٠٠ ، وبنى سويف ٥٠٠٠ ، ومدينة الفيوم ٥٠٠٠ ، واطفيح ٤٠٠٠ ، والجيزة ٣٠٠٠ ، وقنا ٥٠٠٠ ، وإدفو ٢٠٠٠

وهذا التعداد مأخوذ معظمه عن إحصاء مهندسى الحملة الفرنسية

(١) أحد مهندسى الحملة الفرنسية . انظر ترجمته فى الفصل الرابع
(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر
(٣) من مهندسى الحملة الفرنسية . انظر ترجمته فى الفصل الرابع

الفصل الثانى

تطور نظام الحكم

فى عهد الحملة الفرنسية

تبدلت الحال غير الحال فى عهد الحملة الفرنسية ، وطرأ على نظام الحكم فى مصر تغييرات ذات خطر وشأن كان لها نتائج بعيدة المدى فى حالة البلاد السياسية والاجتماعية .

قبل أن نتكلم على هذه التغييرات يجمل بنا أن نقول كلمة عن الحملة الفرنسية ووقائعها لنقرن الأسباب بمسبباتها ، ونصل النتائج بمقدماتها .

أسباب الحملة الفرنسية

الحملة الفرنسية هى دور من أدوار التنازع الذى قام بين فرنسا وإنجلترا على الفتح والاستعمار ، ذلك التنازع الذى يرجع عهده إلى القرن السابع عشر ، واستمر خلال القرن الثامن عشر ، ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية

إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم فى فرنسا ، وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢

تألبت الدول الملكية فى أوروبا على الجمهورية الفرنسية وائتمرت بها للقضاء على الثورة وقتلها فى مهدها قبل أن يطغى تيارها ، ولما دخلت انجلترا فى الميدان كانت هى روح التحالف وقوام تلك المؤامرة ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين إلى سنة ١٧٩٥ ، فلما جاءت سنة ١٧٩٦ زحفت الجنود الفرنسية على شمال إيطاليا بقيادة نابليون بونابرت[1] ، فظهرت عبقرية

(١) ولد نابليون بونابارت فى مدينة أجاكسيو Ajaccio عاصمة جزيرة قرشقه (كورسيكا) فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ ، واسم أبيه كارلو ماريا دى بونابارته Carlo Maria di Buonaparte ، وهو من أسرة أصلها إيطالى ، وكانت جزيرة كورسكا تابعة لجمهورية جنوى ، واستولت عليها فرنسا سنة ١٧٦٨ أى قبل ولادة نابليون بسنة ، فهو إيطالى الأصل فرنسى المولد ، والجبرتى يسميه (بونابارته) ؛ وهذه التسمية تنطبق كما ترى على النطق الإيطالى لاسمه واسم والده ، وقد عرف فى مصر بهذا الإسم ، ولم يذكره الجبرتى باسم نابليون قط ، لأنه إلى ذلك العهد كان يعرف بالجنرال بونابارت ، ولم يغلب عليه اسم نابليون إلا من يوم أن نودى به امبراطوراً سنة ١٨٠٤ ، ثم صار هذا الاسم علماً له فى التاريخ

تلقى نابليون دروسه الأولى فى مدرسة أجاكسيو ثم التحق بمدرسة بريين Brienne الحربية بفرنسا ، وكانت مخايل الذكاء والنبوغ تبدو عليه فى صباه ، ثم دخل مدرسة باريس الحربية سنة ١٧٨٤ وانتظم =

ذلك القائد العظيم فى ميادين القتال بما أحرزه من الانتصارات الساحقة على الجيوش النمسوية فى «حروب إيطاليا» . تجلت مواهبه الحربية وبهر القواد القدماء بخططه الحديثة وابتكاراته العظيمة ، وذاع صيته فى الآفاق بما ناله من الفوز فى وقائع عديدة أهمها واقعة منتنوت Montenotte (أبريل سنة ١٧٩٦) ، ولودى Lodi (مايو) ، وكاستجليون Castiglione (أغسطس) وأركول Arcole (١٥ — ١٧ نوفبر) وريفولى Rivoli (١٤ يناير سنة ١٧٩٧) (١) وفتح مملكة البيمونت Piemont ، واكتسح سهول لومبارديا ، ودانت له إيطاليا ؛ وظل يتابع انتصاراته حتى تهدد فينا عاصمة النمسا ، فاضطرت إلى طلب الصلح وعقدت وإياه هدنة ليوبن فى ١٨ أبريل سنة ١٧٩٧ ، وأملى عليها شروط الصلح فى كامبوفورميو Campo Formio (١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧) فخرجت فرنسا من الحرب وقد تملكت بلاد البلجيك ومايانس Mayence ، وامتدت حدودها إلى نهر الرين ، وبسطت نفوذها فى ربوع إيطاليا ، وامتدت سلطتها إلى شواطئ بحر الادرياتيك ، واستولت على الجزائر الإيونية Ioniennies ، وأصبح لها المقام الأسمى فى القارة الأوروبية ، كل ذلك بفضل الانتصارات التى أحرزها نابليون وهو بعد لم يتجاوز الثامنة والعشرين

فازت فرنسا على الحلفاء فى القارة الأوروبية ، لكن انجلترا التى كانت أقوى الحلفاء شكيمة وأشدهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافى وسيادتها فى البحار بمأمن من ضربات نابليون وانتصاراته ، ففكر فى ميدان حرب يقهر فيه انجلترا ، فوجد أن مصر هى ذلك الميدان .

اتجهت أطماع نابليون إلى فتح مصر عقب انتصاراته فى حروب إيطاليا ، وحدثته نفسه

= فى سلك المدفعية ، وجاز الامتحان سنة ١٧٨٥ والتحق بالجيش ، ولما شبت الثورة الفرنسية انضم إليها وبعد أن أعلنت فرنسا الحرب على النمسا ثم على انجلترا وهولانده واسبانيا تحرج مركز فرنسا وأحاط بها الأعداء من كل جانب ، واحتل الإنجليز سنة ١٧٩٣ طولون ، ميناء فرنسا البحرية على البحر الأبيض المتوسط ، فظهر نبوغ نابليون الحربى فى حصار طولون ، وكان له الفضل فى استرجاعها ، وعهدت إليه الحكومة بمهمة الدفاع عن الجمعية الوطنية وإخماد فتنة الخارجين عليها سنة ١٧٩٥ ، فأخمد الفتنة وأنقذ الجمعية الوطنية ، ثم عينته الحكومة قائداً للجيش الفرنسى فى حرب إيطاليا سنة ١٧٩٦ ، فظهرت فيها عبقريته الحربية ، وبعد انتهاء الحملة على إيطاليا أعقبتها الحملة على مصر كما ترى فى سياق الكلام ، وبعد أن عاد نابليون من مصر سنة ١٧٩٩ ، قلب نظام الحكم فى فرنسا ، ونودى به قنصلا أول ثم امبراطوراً سنة ١٨٠٤ ، وساق جيوشه على أوروبا فغلبها على أمرها إلى أن أخذ نجمه فى الأفول ، وانتهت حروبه بهزيمته فى واقعة واترلو سنة ١٨١٥ ووقوعه أسيراً فى يد الإنجليز فنفوه إلى سنت هيلين ، وبقى فى هذه الجزيرة النائية بالأوقيانوس يعانى غصص النفى وإدبار الدهر ، إلى أن مات بها سنة ١٨٢١

(١) أسر نابليون من الجيوش النمسوية فى تلك الوقائع ١٥٠٫٠٠٠ أسير ، وغنم منهم ١٧٠ راية و ٥٥٠ مدفعاً من مدافع الحصار ، و ٦٠٠ مدفع من مدافع الميدان ، عدا السفن الحربية التى استولى عليها

أن يعد المعدات ويمهد الطريق لإنفاذ حملة كبيرة تخترق البحر الأبيض المتوسط ، وتحتل مصر فتتخذها قاعدة عسكرية تصل منها إلى الأملاك الانجليزية فى الهند ، وهو مشروع بعيد المدى كثير العقبات ، يكاد يكون أقرب إلى الأمانى والأحلام ، ولا غرو فإن انتصارات نابليون فى إيطاليا قد مكنت له فى الأرض وطيرت ذكره فى الخافقين ، وجعلته يطمح إلى انتصارات أعظم ، وفتوحات أكبر ، فاتجهت آماله إلى الشرق موطن الفتوحات العظيمة ؛ ولعل مقامه فى إيطاليا موطن يوليوس قيصر ، وعلى مقربة من مقدونية موطن الإسكندر ، قد أوحى إليه أن يقلد قيصر الرومانى والإسكندر المقدونى فى فتوحاتهما الواسعة ، فاختار مصر ليجعلها ميداناً لانتصارات جديدة ، واجتذبته عظمة مصر القديمة ، فخيل له أن يشيد على ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش فى صدره من الآمال الكبار ، ويصل منها إلى ضرب انجلترا عدوة فرنسا اللدود فى ذلك الحين ، فالحملة الفرنسية كما ترى هى دور من أدوار التنازع بين فرنسا وإنجلترا

اختمرت الفكرة فى ذهن نابليون وهو بعد فى إيطاليا ، وأخذ يكد فكره ويعد الوسائل لتحقيق مشروعه العظيم ، فوجه عنايته إلى كل ما يمهد له سبيل الحملة على مصر ، فرأى أن يضمن لفرنسا السيادة على البحر الأبيض المتوسط ليتخذه سبيله إلى مصر ويجعله « بحيرة فرنسية » كما يقول فى مذكراته ؛ وتحقيقاً لهذه الغاية استولى على أسطول جمهورية البندقية وضمه إلى أسطول فرنسا ، واستولى على انكونا ، وسيطر على جنوا ؛ واحتل كورفو والجزر الأخرى من الجزائر الأيونية ليتخذها قاعدة بحرية لفرنسا فى البحر الأبيض ، وطمح إلى الاستيلاء على جزيرة مالطه للغرض نفسه ، وأفضى إلى حكومة الديركتوار[1] وهو بعد فى إيطاليا بمشروعه فى الحملة على مصر

فكتب إليها من ميلان بتاريخ ١٦ أغسطس سنة ١٧٩٧ ، أى قبل عقد صلح كامبوفورميو بشهرين وبعد احتلاله الجزائر الأيونيه يقول :

« إن المواقع التى نحتلها على شواطىء البحر الأبيض المتوسط تجعل لنا السيادة على هذا البحر ، والآن يجب علينا أن نرقب تطورات السلطنة العثمانية التى أخذت تنهار دعائمها من كل جانب ، فعلينا إما أن نؤيدها ونمنع انحلالها ، أو نأخذ ما نستطيع من أسلابها ، ويمكننا

(١) يطلق اسم حكومة الديركتوار (الإدارة) على الحكومة التى تأسست فى فرنسا على نظام دستور سنة ١٧٩٥ ، وتجد تفصيل هذا النظام فى كتابنا (الجمعيات الوطنية) ص ٨٠ ، وقد بقيت قائمة إلى أن أسقطها نابليون بعد عودته من مصر سنة ١٧٩٩ ، وحل محلها نظام القنصلية حيث صار نابليون فيها القنصل الأول

أن نحرم انجلترا مزايا سيادتها فى الاقيانوس الأعظم ، فإذا كانت نازعتنا طريق رأس الرجاء الصالح فى مفاوضات « ليـل » ، فلنتجاوز عنه ولنحتل مصر ، فسيكون لنا فيهـا الطريق المفضي إلى الهند ، ويسهل علينا أن ننشىء بها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم ، وإذا أردنا أن نهاجم انجلترا فلنهاجمها فى مصر »

وكتب إلى المسيو تاليران Talleyrand وزير الخارجية الفرنسية رسالة بهذا المعنى

وكان يفوه فى بعض المواطن بتصريحات تنم عما يجيش فى صدره من المشروعات والآمال ، قال يخاطب جنوده فى باسانو[1] Bassano يوم ١٠ مارس سنة ١٧٩٧ :

« إن أعلام فرنسا تخفق لأول مرة على ضفاف الادرياتيك على مقربة من مقدونية القديمة التى نبت فيها الإسكندر واتجـه منها إلى الشرق ، وإن مهمة كبيرة تنتظركم ، فلم تنته بعد مأموريتكم ، وإن عليكم أن تعاقبوا سكان تلك الجزيرة الخبثاء (يعنى الانجليز) الذين لم تصبهم حروب القارة بسوء وظلوا يهزأون لمصائبها »

وقال فى سبتمبر سنة ١٧٩٧ مخاطباً رجال أسطول الأميرال برويس Brueys :

« أيها الرفقاء . عندما ننتهى من إخضاع القارة سنجتمع بكم لنحصل على حرية البحار ، وبدونكم لا نستطيع أن نحمل مجـد فرنسا إلا فى مكان ضيق من القارة ، أما بكم فسنجتاز البحار وننشر عظمة الوطن فى البلاد النائية »

ففى إيطاليا إذن فكر نابليون فى مشروع الحملة على مصر ، واختمرت الفكرة فى ذهنه قبل أن يعود إلى فرنسا ، وكانت موضع دراسته وأبحاثه ومطالعاته ، ففى أثناء مفاوضات الصلح التى انتهت بمعاهدة كامبوفورميو كان يستحضر من مكتبة ميلان جميع الكتب الخاصـة بالشرق ، ويكبّ على مطالعة كل ما له علاقـة بالديار المصرية فى دور كتب ميلان وبولونى وفلورانس

وقد لوحظ على معظم تلك الكتب بعد ردها أن بها إشارات وملاحظات بقـلم نابليون على ما ورد فيها خاصاً بمصر ، واستقدم كذلك من فرنسا بعض وثائق وزارة البحرية الخاصة بمصر وأخذ يراجعها ويدرسها ، وكان فى خلال المفاوضات شـديد الاهتمام بأن يصل إلى اعتراف النمسا بتملك فرنسا للجزائر الأيونية تحقيقاً لبرنامجه ، ونجح فى مسعاه واعترفت النمسا فى المعاهدة بأن هذه الجزائر أصبحت ملـكا لفرنسا

---

(١) بلدة فى ولاية البندقية (ڤنيسيا) على نهر البرنتا

فكرة الحملة الفرنسية فى خلال العصور

رجع نابليون إلى باريس عقب إمضاء معاهدة الصلح ، واحتفلت فرنسا باستقبال قائدها العظيم ؛ وأخذ يتابع فكرة الحملة على مصر ، وأكب على محفوظات وزارة الخارجية والبحرية يطالع الوثائق الخاصة بالقطر المصرى والإغارة عليه .

إن فكرة الحملة الفرنسية على مصر لم تنبت فى رأس نابليون وحده ، بل كانت تتردد فى الأذهان فى مختلف العصور

فى عهد لويس التاسع

ففى القرن الثالث عشر تملكت هذه الفكرة مشاعر لويس التاسع ملك فرنسا مدفوعا إليها بعامل الدين ، وجرد فعلا جيشاً جراراً بقصد الإغارة على مصر فى حملة عرفت فى التاريخ بالحرب الصليبية السابعة ؛ ونزل لويس التاسع إلى دمياط سنة ١٢٤٩ فى نحو خمسين ألفاً من المقاتلة ، فملكها ، ثم زحف على المنصورة واشتبك مع جيش المسلمين فى معركة كبيرة عرفت بواقعة المنصورة (سنة ١٢٥٠) انتهت بهزيمة الفرنسيين ، وقتل منهم نحو ٣٠ ألفاً ، وغرق كثير منهم فى النيل ، وأسر ملكهم لويس التاسع وسجن بالمنصورة فى دار ابن لقمان التى لا تزال باقية إلى الآن ، ثم افتدى لويس نفسه وبقية جنوده بمبلغ عشرة ملايين فرنك ، وخرج من دمياط مهزوما ، وانتهت تلك الحملة بالخيبة والفشل

فى عهد لويس الرابع عشر

ثم تجددت الفكرة فى القرن السابع عشر ، إذ نصح الفيلسوف الألمانى الشهير ليبنتز Leibniz إلى الملك لويس الرابع عشر أن يغزو مصر ، ذلك أن فرنسا كانت فى ذلك الحين على أهبة الزحف على هولاندا بسبب ما بينهما من التنافس على السيادة ، فقدم ليبنتز إلى لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ تقريراً يرغب إليه العدول عن الزحف على هولاندا ، ويشير عليه بالزحف على مصر بحجة أن امتلاك فرنسا للقطر المصرى يؤدى إلى استحواذها على متاجر الهند ، وبذلك يتوصل لويس الرابع عشر إلى هزيمة الهولانديين الذين كانوا يصرّفون زمام التجارة الهندية فى ذلك العصر

قال ليبنتز فى تقريره إلى لويس الرابع عشر[١] : « إنكم لا تهزمون الهولنديين فى عقر

(١) بقى هذا التقرير محفوظاً فى مكتبة هانوفر إلى سنة ١٨٠٣ ، حيث عثر عليه الجنرال مورتيه قائد جنود الاحتلال فى هانوفر فبعث به إلى نابليون حيث كان (قنصلا أول)

دارهم ، فإنكم لا تستطيعون تخطى السدود التى تحيط ببلادهم ، وإذا أعلنتم عليهم الحرب فإن أوروبا تنضم إلى جانبهم ، لكن مصر هى الميدان الذى تضربونهم فيه ، فهناك تجدون الطريق الحقيق لتجارة الهند ، وهناك تستطيعون امتلاك زمام تلك التجارة وانتزاعها من يد الهولنديين ، وتضمنون بسط سلطان فرنسا وسيادتها فى بلاد المشرق إلى ماشاء الله ، وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها ، وهنالك لا تخسرون عطف أوروبا بل تجدونها مجمعة على الإعجاب بكم »

ولم يكد ليبنتز يقدم تقريره حتى كانت الجيوش الفرنسية قدأغارت على الحدود الهولندية ، على أن لويس الرابع عشر لم يفته التفكير فى الحملة على مصر ، لكنه رغب عنها لما رآه وقتئذ من أن الزحف عليها يفقد فرنسا صداقة تركيا أو على الأقل حيدتها ، ويحملها على الانضمام إلى الدول الأوروبية المعادية لها ، وكانت تركيا فى ذلك العصر لم تزل مرهوبة الجانب يحسب لصداقتها وعداوتها حساب كبير

فى عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر

وفى خلال القرن الثامن عشر طافت الفكرة بأذهان بعض رجال الدولة فى فرنسا ، وترددت فى تقاريرهم ومذكراتهم ، ذلك حين أخذت الدولة العثمانية فى الاضمحلال وطمعت الروسيا والنمسا فى أملاكها ففكروا فى أن تشترك فرنسا فى اقتسام أسلاب تركيا وأن تكون مصر نصيبها من ولايات السلطنة العثمانية

ففى عهد لويس الخامس عشر كان الدوق دى شوازل De Choiseul كبير وزرائه من أنصار فكرة احتلال فرنسا لمصر ، لكنه فى الوقت نفسه كان متبعاً خطة فرنسا القديمة فى المسألة الشرقية ، وهى مصادقة تركيا وموالاتها ، فكان يطمع فى أن تحتل فرنسا مصر عن طريق المفاوضة مع تركيا والاتفاق معها ، ولم يكن يرى غضاضة على تركيا فى هذا التنازل ، لأن الحكومة العثمانية لم يبق لها فى مصر سلطة فعلية فى ذلك الحين

كتب المسيو تاليران Talleyrand فى هذا الصدد يقول : « إن الدوق دى شوازل الذى يعد بين رجال السياسة فى القرن الثامن عشر أبعدهم نظراً وأقواهم فكراً كان يسعى سنة ١٧٦٩ (١) فى أن تتنازل تركيا لفرنسا بطريق المفاوضات السياسية عن مصر لتستعيض بها من مستعمراتها فى أمريكا وتجد فى حاصلاتها وتجارتها ما يغنيها عن تلك المستعمرات (٢) »

(١) أى عقب نشوب الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨

(٢) تقرير تاليران الذى تلاه بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٧٩٧ عن المزايا التى تعود على فرنسا من مستعمرات جديدة

لكن الفكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، ولم يفاتح شوازل تركيا يوماً فى هذا الصدد ، وظل المشروع أملا يهجس فى صدره إلى أن سقطت وزارته سنة ١٧٧٠

ثم تجددت الفكرة فى عهد لويس السادس عشر [١] ، ذلك حين كان سفير فرنسا فى الاستانة الكونت سان بريست Saint Priest من أشد أنصار الفكرة ، فكتب عنها عدة مذكرات إلى وزارة الخارجية الفرنسية

وكان التنافس التجارى بين فرنسا وإنجلترا قد بدأ يتجه إلى الديار المصرية لمحاولة كل منهما احتكار متاجر الهند عن طريق مصر والاستغناء بها عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فلفت هذا التنافس أنظار فريق من رجال السياسة وأخذوا يبحثون عن الوسائل الفعالة لتوطيد مركز فرنسا التجارى فى مصر ، وقد ظهر رجلان اتجهت مساعيهما إلى تحقيق فكرة الدوق دى شوازل ، وهما الكونت سان بريست والبارون دى توت De Tott

تولى سان بريست سفارة فرنسا فى الاستانة سنة ١٧٦٨ وأقام بها نحو ستة عشر عاما [٢] يرقب شؤون السلطنة العثمانية ويشهد أعراض اضمحلالها ، ويتنبأ بقرب تفككها واقتسام أسلابها ، فهو بحكم مركزه السياسى كان كثير الاهتمام بمصير مصر وتطور الأحوال فيها ، فكتب إلى حكومته غير مرة يرغب إليها احتلالها ، أما البارون دى توت فهو نبيل من سلالة أسرة من المجر استوطن فرنسا وأخلص لها ، فأوفدته إلى تركيا ، ولما عاد منها سنة ١٧٧٦ قدم تقريراً إلى الحكومة الفرنسية بسط فيه رأيه فى حالة تركيا ، وانتهى إلى أنه لا سبيل إلى الحيلولة دون تفككها ، ونصح إلى الحكومة الفرنسية أن تحتل مصر لتوطيد تجارة فرنسا فى الشرق

كان من نتائج هذه الفكرة أن أوفدت الحكومة الفرنسية البارون دى توت إلى ثغور السلطنة العثمانية بقصد التفتيش على مراكز التجارة الفرنسية فيها ، والغرض الحقيقى هو درس سواحل مصر ومواقعها ومشروع احتلالها

بدأ توت رحلته سنة ١٧٧٧ [٣] وكان يرافقه ضابط فى البحرية يدعى سونينى له كتاب عن مصر [٤] ، ولما عاد من رحلته قدم إلى الحكومة تقريراً بين فيه مزايا مشروع احتلال مصر وسهولة إنفاذه

---

(١) تولى عقب وفاة لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤

(٢) انتهت سفارته سنة ١٧٨٤

(٣) تجد وصف رحلته فى مصر فى الجزء الرابع من كتابه المسمى « مذكرات البارون دى توت عن الترك والتتار » Memoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares

(٤) سياحة فى مصر العليا والوجه البحرى للمسيو سونينى Sonnini سنة ١٧٧٧

لكن الحكومة الفرنسية انصرفت عن هذا المشروع لدخولها فى الحرب المعروفة بحرب استقلال أمريكا سنة ١٧٧٨ ، فطوى المشروع مؤقتاً وظلت فرنسا ترقب تطور المسألة الشرقية دون أن تقدم فيها على عمل يتهدد كيان السلطنة العثمانية

ولما انتهت سفارة سان بريست وعاد من الاستانة قدم تقريراً جديداً إلى حكومته عاد فيه إلى تأييد فكرته القديمة وهى احتلال مصر ، ونصح حكومته بأن تحقق هذه الفكرة قائلا إنها تكسب فرنسا مركزاً ممتازاً فى العالم

وكذلك قدم المسيو مور Mure الذى كان قنصل فرنسا فى الإسكندرية تقريراً إلى وزارة الخارجية سنة ١٧٨٣ ، تنبأ فيه بقرب تفكك السلطنة العثمانية ونصح بضرورة احتلال مصر ، فجاء مؤيداً لتقارير دى سان بريست والبارون دى توت ، على أن الكونت فرجين Vergennes وزير خارجية فرنسا فى ذلك العهد لم يوافق على الفكرة ، وكان يعتقد أن السلطنة العثمانية لم تكن وشيكة الانحلال بالسرعة التى يومئ إليها سان بريست فى تقاريره ، فضلا عن أنه كان مؤيداً لسياسة فرنسا القديمة نحو تركيا وهى سياسة الصداقة والود ، ولذلك أعرض عن فكرة الاشتراك فى اقتسام تركيا ، وعلى العكس عارض فيها ، وأخذ فى مساعدة تركيا على الاحتفاظ بكيانها ، وأوفد إليها بعثة من الضباط والمهندسين لتقوية جيشها وأسطولها وثغورها ، على أن وزارة الخارجية الفرنسية أخذت تعنى بتنشيط تجارة فرنسا فى مصر والشرق وسعت لدى حكومة الاستانة من جهة ، ولدى البكوات المماليك من جهة أخرى لحماية المتاجر الفرنسية فى مصر ووقايتها من عبث الحكام المماليك ، وسعت كذلك لضمان مرور متاجرها من أوروبا والهند عن طريق مصر ؛ لكن تصرفات الحكام المماليك حيال التجار من سائر الأجناس ، وفرضهم الإتاوات المختلفة على متاجرهم ، جعل التجار الفرنسيين يشكون إلى حكومتهم سوء معاملتهم

وقفت الحكومة الفرنسية وقفة المتردد حيال مصر والمسألة الشرقية ، وبخاصة بعد أن تولى الكونت مونتموران Montmorin وزارة الخارجية ، ذلك حين بدأت أحوال الحكومة الملكية تضطرب لارتباك شؤونها المالية وظهور أعراض الثورة الفرنسية ، فانصرفت عن نية الفتح والاستعمار

ولما قامت الثورة وسقطت الملكية انصرفت حكومة الثورة اضطراراً إلى الدفاع عن كيان فرنسا فى وجه الدول الملكية المتحالفة وإخماد الفتن الداخلية ، على أن التجار الفرنسيين فى مصر ما فتئوا يرفعون شكاواهم إلى حكومتهم الجديدة من سوء معاملة الحكام المماليك ،

ويطلبون إليها العناية بشأنهم ، فأصغت إلى شكواهم وعينت المسيو شارل مجالون Magallon قنصلا عاما لفرنسا فى مصر سنة ١٧٩٣ ؛ والمسيو مجالون هذا تاجر فرنسى من سكان مرسيليا رحل إلى مصر وأقام بها نيفاً وثلاثين سنة مشتغلا بالتجارة ، فاكتسب خبرة واسعة فى الشؤون المصرية ، وكان من أنصار احتلال فرنسا لمصر ، فلما عينته الحكومة قنصلا عاما لها أخذ يرسل إلى وزارة الخارجية التقارير والمذكرات أبان فيها عبث الحكام المماليك بمصالح التجار الفرنسيين فى مصر ، وصرح بأن هذا العبث لا يمكن أن يزول إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة حيالهم ، ورغب إلى حكومته أن تعمل على احتلال مصر ، ونوه بما تناله فرنسا من المزايا السياسية والاقتصادية ، من استثمار مواردها ، ومد سلطانها إلى البحر الأحمر ، وتهديد إنجلترا فى الهند

مهد مجالون بتقاريره الأفكار لمشروع الحملة الفرنسية ، وذهب إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ ، وأخذ يدعو رجال الدولة إلى تحقيق هذا المشروع ويبين لهم سهولة إنفاذه ، وقدم لوزارة الخارجية تقريراً جديداً فى هذا الصدد ؛ وكان المسيو تاليران Talleyrand السياسى الشهير قد تولى وزارة الخارجية الفرنسية ، فاقتنع بآراء مجالون وأخذ يدافع عنها ، والتقى فى هذه الفكرة مع نابليون بونابارت ، وقدم عنها تقريراً إلى حكومة الديركتوار استند فيه إلى تقرير المسيو مجالون ، ونصح فيه إلى الحكومة بإنفاذ الحملة

من هذه الخلاصة الوجيزة يتبين كيف تطورت فكرة الحملة الفرنسية على مصر فى خلال العصور إلى أن نفذت على يد نابليون بونابارت

نابليون وإنفاذ الحملة

وموقف إنجلترا

فاتح نابليون حكومة الديركتوار فى إنفاذ الحملة على مصر ، ودافع عنها وأوضح لها المزايا التى تعود منها على فرنسا ، وكانت حكومة الديركتوار تفضل غزو إنجلترا فى جزيرتها ، وقد قررت فعلا تأليف جيش أسمته « جيش إنجلترا » واختارت نابليون لقيادته ، وكانت راغبة عن الحملة على مصر لعدة أسباب ، منها أن هذه الحملة ستكون عرضة للاصطدام بالأسطول الإنجليزى فى طريقها إلى مصر ، وأنها ستثير غضب الحكومة العثمانية ، وتفقد فرنسا صداقة تركيا القديمة ، وتحمل الروسيا على التدخل فى المسألة الشرقية ، كما أنها تبعد عن فرنسا

جيشاً من خيرة جيوشها ، قد تكون فى حاجة إليه إذا تجدد القتال بينها وبين أعدائها فى القارة الأوروبية

لكن نابليون كان معارضاً فى مشروع غزو إنجلترا ، مقتنعاً باستحالة نجاحه ، لعظم استعداد الإنجليز فى الدفاع عن جزيرتهم ، وحشدهم الأساطيل فى البحار المجاورة لها ، وكان يرى أن انصراف إنجلترا إلى رد غزوة فرنسا يصرفها عن جمع قواتها فى البحر الأبيض المتوسط ، وبذلك تستطيع العمارة الفرنسية أن تسلك سبيلها إلى سواحل مصر ، وكانت وجهة نظره أن الحملة الفرنسية إذ دهمت مصر سهل عليها فتحها وإنشاء مستعمرة فيها فى مدة لا تتجاوز بضعة أشهر ، وأن فرنسا تجنى مزايا كبيرة من توطيد قدمها فى مصر ، لأنها بطبيعة موقعها الجغرافى مركز الاتصال بين الشرق والغرب ، وملتقى المتاجر التى تتبادلها القارات الثلاث ، أوروبا وآسيا وإفريقية ، وأنه بإنشاء قناة تصل مياه البحر الأحمر بالبحر الأبيض يمكن السفن الفرنسية أن تصل إلى البحر الأحمر وتهاجم أملاك الإنجليز فى الهند ، وعلى كل حال تستطيع فرنسا أن تنشئ فى مصر مستعمرة ترسل إليها متاجرها ومصنوعاتها وتتحول إليها تجارة الهند والشرق ، وتكون طريقاً لها إلى أوروبا بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح ، فتصبح مصر مستودعاً لمتاجر العالم وتعوض فرنسا ما فقدته من المستعمرات ، وتكون فى الوقت نفسه قاعدة لضرب إنجلترا فى الهند وبسط سيادة فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط ، وقد أشاد نابليون فى حججه للحكومة بعظمة مصر القديمة ، وقال إنها أخصب بلاد العالم وإنها كانت أهراء الغلال للعالم القديم ، وفى الإمكان ترقية زراعتها وغرس الحاصلات الأمريكية بها وإعادة منزلتها القديمة إذا وجدت بها حكومة حديثة وإدارة صالحة ، وفى مذكرات نابليون ، التى أملاها فى منفاه بسانت هيلين ، أنه حين عزم على إنفاذ مشروع الحملة على القطر المصرى كان يقصد إنشاء دولة شرقية كبيرة ، وينوى بعد توطيد مركزه فى مصر أن يغزو الهند ، وكان يقدر لوصوله إليها شهر مارس سنة ١٨٠٠

اقتنعت حكومة الديركتوار بحجج نابليون ، وكانت شخصيته وانتصاراته فى إيطاليا أكبر مؤيد له فى وجهة نظره ، وأخيراً قررت الحكومة فى ٥ مارس سنة ١٧٩٨ إنفاذ الحملة ، وتكتمت أمر المشروع حتى لا يتسرب خبره إلى الحكومة الإنجليزية ، وتمت معدات الحملة دون أن يعلم أحد فى فرنسا وجهتها إلا نابليون ورؤساء حكومة الديركتوار والمسيو تاليران وزير الشؤون الخارجية ؛ وتولى المسيو مرلين Merlin الذى كان رئيساً للديركتوار كتابة العهود والقرارات بخط يده ، وكتبت القرارات بعبارات عامة لا يفهم منها غرض الحملة ،

ويؤخذ من ظاهرها أن الغرض منها تحصين شواطئ فرنسا على البحر الأبيض المتوسط

ومع ذلك بقيت هذه القرارات فى طى الكتمان ، وظل المشروع سراً مكتوماً حتى عن القواد الذين اختارهم نابليون لمرافقته ، وبالغت الحكومة فى كتمان وجهة الحملة حتى أنها أطلقت على الجيش الذى أعدته لها اسم « الجناح الأيسر لجيش إنجلترا » لتوهم الحكومة الإنجليزية أنها مصممة على غزوها فى جزيرتها

ولما أوشكت معدات الحملة أن تتم أصدرت حكومة الدير كتوار قرارها بتاريخ ١٢ أبريل سنة ١٧٩٨ بتسمية الجيش المعد لها « جيش الشرق » ، وأسندت قيادته إلى الجنرال نابليون بونابارت ، وأصدرت فى اليوم نفسه قراراً عهدت إليه فيه بالحملة على مصر ، وبينت فى مقدمة القرار أسباب الحملة بقولها : « إن حكومة الدير كتوار لما رأته من أن البكوات المماليك الذين استولوا على حكومة مصر قد اتصلوا بالإنجليز بأمتن الروابط ، وجعلوا أنفسهم تحت مطلق تصرفهم ، وأنهم يرتكبون الأعمال العدائية والمظالم الفظيعة ضد الفرنسيين ، ويضطهدونهم وينهبون أموالهم ويعتدون على أرواحهم ؛ ولما كان من واجب الحكومة أن تقتص من أعداء الجمهورية أينما وجدوا ، وإذ كانت الطريقة المنطوية على الغدر التى استولت بها إنجلترا على رأس الرجاء الصالح ، قد جعلت وصول السفن الفرنسية إلى الهند محفوفاً بالمصاعب فى الطريق المعتادة ، فمن المهم فتح طريق جديدة لقوات الجمهورية للوصول إلى الهند »(١)

هذه خلاصة ما ذكرته حكومة الدير كتوار فى أسباب الحملة ، ومنه يتبين أن التنازع بين إنجلترا وفرنسا هو المحرك الأول للحملة الفرنسية ، وأن الغرض النهائى منها كان الوصول إلى الهند ، وعهدت الحكومة فى قرارها إلى نابليون « بتسيير القوات البرية والبحرية التى تحت قيادته إلى مصر والاستيلاء عليها ، وطرد الإنجليز من جميع البلاد الشرقية التى يستطيع الوصول إليها ، وهدم المراكز التجارية التى لهم فى البحر الأحمر ؛ وعهدت إليه حفر برزخ السويس واتخاذ كل الوسائل اللازمة ليضمن للجمهورية الفرنسية امتلاك البحر الأحمر »(٢) وقررت الحكومة عدم نشر هذا القرار أو طبعه حتى يبقى فى طى الكتمان ، وظل نابليون يصدر أوامره الخاصة بالحملة على مصر باسم بونابارت القائد العام (لجيش إنجلترا)

ظنت إنجلترا أن فرنسا عقدت عزمها على غزوها فى جزيرتها ، وأنها أعدت لهذا الغرض أسطولها فى الاقيانوس ، وأن استعداداتها فى ثغور البحر الأبيض المتوسط كان الغرض منها

---

(١) و (٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٤٩٥

إمداد ذلك الأسطول عن طريق بوغاز جبل طارق ، فعهدت إلى الأميرال اللورد سان فنسان Saint Vincent مراقبة بوغاز جبل طارق وتعقب أسطول فرنسا فى الأقيانوس ومواصلة حصار أسطول أسبانيا فى قادس ، وعهد اللورد سان فنسان إلى الأميرال نلسن Nelson بأن يتجول فى البحر الأبيض المتوسط لمراقبة حركات الأسطول الفرنسى به

ففكرة إنجلترا كانت إذن متجهة فى ذلك الحين إلى توقع الحملة على جزيرتها

معـــدات الحملة

ووقائعها الأولى

أخذ نابليون عقب قرار الحكومة يعد معدات الحملة ويبذل فى سبيل ذلك ما أوتى من المقدرة وقوة التنظيم ، فاختار معظم جنوده من « جيش إيطاليا » الذى خاض به المعارك وأحرز به الانتصارات العظيمة ، وضم إليهم بعض كتائب من جيش الرين ، وبلغ عدد من تألفت منهم الحملة ٣٦,٠٠٠ مقاتل(١) ، ووقع اختيار نابليون على صفوة القواد الذين ظهرت كفايتهم وخبرتهم وتجلت مواهبهم فى حروب إيطاليا وحروب الرين ، أمثال برتييه Berthier وكافريللى Caffarelli ، وكليبر Kleber ، ورينيه Reynier ، وديزيه Desaix ، ودوجا Dugua ، وفوبوا Vaubois ، وبون Bon ، ولان Lannes ، وموراMurat ، وبليار Belliard

واختار الجنرال كافاريللى Caffarelli رئيساً لفرقة المهنـدسين ، والجنرال دومارتن

---

(١) جاء فى تقرير وزير الحربية الفرنسية إلى حكومة الديركتوار المؤرخ ٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ إحصاء دقيق لجيش الحملة بعد إقلاعه يؤيد الإحصاء الذى ذكرناه ، ومنه يتبين أن عدده ٣٦٫٨٢٦ مقاتلا ، وهذا التقرير نشره القومندان دى لاجونكيير فى كتابه (حملة مصر) نقلا عن وثائق وزارة الحربية الفرنسية ، ويؤيده كذلك إحصاء المسيو مارتان Martin أحد مهندسى الحملة وشاهد عيان لوقائعها ، فقد ذكر فى كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية على مصر) أن جيش الحملة كان مؤلفاً من ٣٦٫٠٠٠ مقاتل ، وهذا العدد يختلف عن إحصاء نابليون فى مذكراته التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين ، فنابليون يقول إن عدد جيش الحملة هو ٣٢٫٣٠٠ مقاتل ، وفى اعتقادنا أن إحصاء نابليون فى مذكراته لا يمكن أن يكون موضع الدقة ، لأن المعروف أن نابليون أملى مذكراته عن مصر فى سانت هيلين بعد أكثر من ستة عشر عاما من وقوع الحوادث التى كتب عنها مذكراته ، ولم يكن تحت يده الوثائق التى يمكن الرجوع إليها فى ضبط الأرقام ، هذا فضلا عن أن نابليون كان يميل فى بعض المواطن إلى ذكر إحصاءات عن جيشه أقل من العدد الحقيقى ، وربما كان الدافع له على ذلك التباهى بكفاية جيشه وبعبقريته الحربية ، وقد ذكر المسيو مارتان فى كتابه أن نابليون فى تقريره إلى حكومة الديركتوار عن واقعة شبراخيت يقول إنه كان يقاتل قوات أكثر منه عددا ، مع أن الواقع كما يقول مارتان إن قوى المماليك كانت أقل عدداً من الجيش الفرنسى

Dommartin لقيادة المدفعية ، والجنرال برتييه Berthier الذى كان رئيساً لأركان حرب الجيش الفرنسى بإيطاليا رئيساً لأركان حرب الحملة ، وعهد بالإدارة الصحية للحملة إلى الطبيبين الشهيرين لارّى Larrey كبير الجراحين وديجنت Desgenette كبير أطباء الحملة ، وعهد إلى القوميسير سوسى Sucy بإدارة مهمات الجيش ، وإلى القوميسير لروا Le Roy بإدارة مهمات البحرية ، وجهز الحملة بمطبعة عربية وأخرى فرنسية وأخرى يونانية

واصطحب معه طائفة من علماء فرنسا ونوابغها فى الرياضة والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء والاقتصاد السياسى والآثار والمعادن وطبقات الأرض والحيوان والنباتات وفن المعمار وهندسة الرى والقناطر والجسور والميكانيكا ، وطائفة من رجال الفنون من المصورين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والمثالين ، فبلغ عدد هؤلاء ١٤٦ عضواً ما بين عالم وأديب ومهندس ومثال ، تتألف منهم لجنة العلوم والفنون[1] التى كان لها شأن يذكر فى تاريخ الحملة كما سيجىء بيانه ، وجهزهم بمجموعة كاملة من الآلات الطبيعية والرياضية ؛ وكان من بينهم جماعة من أقطاب العلوم ممن يشار إليهم بالبنان فى فرنسا أمثال مونج Monge العالم الرياضى ، وبرتوليه Berthollet العالم الكيميائى ، وهما اللذان عهد إليهما نابليون اختيار أعضاء البعثة ، وفورييه ، ودلوميو ، وجوفروا سان هيلير ، وغيرهم ممن سنأتى على ذكرهم ونتكلم عن أشخاصهم عند الكلام على المجمع العلمى[2]

قال المسيو تيرس[3] : « إن نوابغ فرنسا فى الحروب والعلوم والفنون قد صحبوا نابليون فى الحملة ، وجذبتهم إليها ثقتهم فى قائدها الفتى العظيم ، وركبوا البحر دون أن يعرفوا إلى أى جهة يقصدون »

اجتمعت العمارة الفرنسية المعدة لنقل الحملة فى « طولون » وفى ثغور « جنوا » و « أجاكسيو » و « سيفيتافكيا » وعددها نحو ثلثمائة سفينة يحرسها أسطول الفنس أميرال برويس Brueys المؤلف من ٥٥ سفينة حربية[4]

---

(١) نشرنا فى قسم الوثائق فروع هذه اللجنة وأسماء أعضاء كل فرع منها

(٢) انظر الفصل الرابع

(٣) فى كتابه تاريخ الثورة الفرنسية الجزء العاشر

(٤) منها ١٣ بارجة كبيرة إحداها السفينة « أوريان » (الشرق) وسلاحها ١٢٠ مدفعاً ، وهى سفينة الأميرال التى أقلته وأقلت نابليون القائد العام وأركان حربه وياورانه وبعض العلماء ، والاثنتا عشرة بارجة الأخرى يتراوح سلاح كل منها بين ٨٠ و ٧٤ مدفعاً ، وخمس فرقاطات كبيرة سلاح كل منها أربعون مدفعاً ، وثلاث أخرى سلاح كل منها ٣٦ مدفعاً ، وسفينتان أخريان من نوع البريق ، وسفينتان كبيرتان ، وست فرقاطات غير مسلحة ، والباقى من المراكب الخفيفة المسلحة بالمدافع

أقلعت العمارة من طولون يوم ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ، وانضم إليها باقى السفن القادمة من جنوا وأجاكسيو وسفيتافكيا ، وجرت كلها تمخر عباب البحر ، ورست بجزيرة مالطة يوم ٩ يونيو ؛ وكانت هذه الجزيرة يحكمها من عهد شارلكان طائفة من الرهبان يعرفون بفرسان القديس حنا الأوشليمى ، ثم عرفوا بعد ذلك (بفرسان مالطة) ، وكان موقعها على جانب كبير من الأهمية الحربية ، فاحتلها نابليون بعد دفاع ضعيف واحتل حصونها ومعاقلها ، ونظم حكومتها ، وترك بها قوة من ثلاثة آلاف جندى بقيادة الجنرال فوبوا Vaubois لتوطيد سلطة فرنسا فى الجزيرة والدفاع عنها إذا ما أراد الإنجليز احتلالها ، وقد استعاض نابليون من هذه القوة بجزء من الجنود المالطيين الذين ضمهم إلى جيشه ، وساروا معه إلى مصر وألف منهم (الكتيبة المالطية) وكان عددهم نحو الألفين

أقلعت العمارة من مياه مالطة يوم ١٩ يونيه ، ووصلت تجاه الإسكندرية يوم أول يوليه (١٧ محرم سنة ١٢١٣) أى بعد شهر ونصف من إقلاعها من طولون

***

أخذ جنود الحملة ينزلون غرب الإسكندرية ليلة ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ (١٨ محرم سنة ١٢١٣) ، وزحفوا على المدينة فاحتلوها فى ذلك اليوم ، وبعد أن ثبّت نابليون قدمه فى الإسكندرية أخذ يزحف على القاهرة بطريق دمنهور

كان أمام الجيش الفرنسى طريقان يسلكهما من الإسكندرية إلى القاهرة يلتقيان فى الرحمانية على النيل : الأول من الإسكندرية إلى رشيد براً على ساحل البحر ، ومن رشيد إلى القاهرة على شاطىء النيل ؛ والثانى من الإسكندرية إلى الرحمانية بطريق دمنهور مخترقا جهات كانت فى ذلك العهد صحراء قاحلة ، ثم من الرحمانية إلى القاهرة على البر الغربى للنيل ، وكان الطريق الأخير أقصر من الأول[1] وإن كان أكثر مشقة ، فآثره نابليون ليصل إلى القاهرة بأسرع ما يمكن ، فأمر جنوده بالزحف بطريق دمنهور ، وفى الوقت نفسه كلف الجنرال دوجا بأن يحتل رشيد ويتقدم إلى الرحمانية ليلتقى هناك بالجيش القادم من طريق دمنهور

وفى مساء ٣ يوليه سنة ١٧٩٨ — غداة نزول الجنود بالإسكندرية — بدأت طلائع الجيش تتحرك نحو « البيضاء »[2] ، وتبعتها بقية الفرق المعدة للزحف على القاهرة ، فغادرت

---

(١) الطريق الأول يسير من الإسكندرية إلى رشيد ماراً بأبو قير ، وكانت بحيرة « أبو قير » تتصل بالبحر ببوغاز اسمه المعدية لا بد أن تجتازه الجنود فى سيرها ، فكان هذا البوغاز يعطل سير الجنود

(٢) البيضاء بلدة صغيرة تابعة الآن لمركز كفر الدوار على الشاطىء الغربى لترعة المحمودية ، وتنطق « البيضا »

الإسكندرية فى الأيام التاليـة قاصدة دمنهور ، ومر الجيش بالبيضاء والعكريشة [1] والكريون [2] وبركة غطاس [3] محاذياً الترعة المعروفة وقتئذ بخليج الإسكندرية (ترعة المحمودية الآن) والتى كانت فى ذلك الوقت جافة لأن النيل لم يكن يمدها بمائه إلا فى زمن الفيضان ، فلاقى الجنود عناء كبيراً من القيظ والعطش ، ولم يكن فى تلك الجهات من الماء سوى مياه الآبار ، ومع ذلك فقد غوَّر الأهالى معظم الآبار التى فى الطريق وأتلفوها

تلاقت الفرق فى دمنهور يوم ٧ يوليه ، وفى الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم تحرك نابليون وأركان حربه من الإسكندرية فبلغ دمنهور فى صباح اليوم التالى ، ثم غادر الجيش دمنهور ليلة ١٠ يوليه قاصداً إلى الرحمانية ، فبلغها يوم ١٠ واحتلها فى ذلك اليوم

أما الجنرال دوجا فقد سار من الإسكندرية إلى رشيد فاحتلها يوم ٦ يوليه ، ثم سار منها إلى الرحمانية وانضم بفرقته إلى باقى قوات الجيش

التقى مراد بك بالجيش الفرنسى بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨ (٢٩ محرم سنة ١٢١٣) ، فهزمه نابليون واضطره إلى التقهقر ، فانثنى مراد راجعاً إلى القاهرة استعداداً للمعركة الفاصلة ؛ فالتقى الجيشان فى « إمبابه » ، وهناك على مقربة من الأهرام هزم جيش مراد بك فى معركة فاصلة كان فيها القضاء على قوة البلاد الحربية ، وهى المعركة المعروفة عند المصريين بواقعة إمبابة وعند الفرنسيين بواقعة الأهرام [4] (٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ — ٧ صفر سنة ١٢١٣)

فرّ مراد بك بالبقية الباقية من فلول جيشه المهزوم إلى الجيزة ، أما إبراهيم بك الذى كان مرابطاً بالبر الشرقى من النيل فإنه لما رأى الهزيمة قد حلت بصاحبه غادر القاهرة ومعه من تبعه من مماليك ومصريين ويبلغ عددهم نحو ألف وخمسمائة ، واصطحب معه أبا بكر باشا الوالى التركى وانسحبوا جميعاً قاصدين بلبيس ، وخلت العاصمة من قوة الدفاع ، وصارت وجهاً لوجه أمام الجيش الفرنسى

---

(١) و (٢) و (٣) العكريشة والكريون من بلاد مركز كفر الدوار الآن ، وبركة غطاس بمركز أبى حمص

(٤) إن تسمية الواقعة بواقعة إمبابة أقرب إلى الحقيقة لأنها وقعت حول قرية إمبابة ، ولكن الفرنسيين أسموها واقعة الأهرام تفخيما لها وتخليداً لاسمها فى التاريخ ، وقد ورد اسمها فى يوميات الجنرال كليبر بأنها واقعة « إمبابه » أو « الأهرام » ، ولكن الاسم الذى صار علما لها فى التاريخ هو معركة الأهرام ، ولذلك سميناها باسمها التاريخى

سياسة نابليون إزاء الشعب

وقاعدة الحكم التى وضعها فى منشوره

لم تكن مهمة نابليون فى مصر حربية فحسب ، بل كان مفروضاً عليه أن يواجه أمة شرقية ذات حضارة قديمة تختلف كل الاختلاف عن الشعوب الأوروبية التى عرفها وخالطها ودرس عاداتها وطباعها وأخلاقها

كان مطلوباً منه أن يواجه الأمة المصرية ، يحكمها البكوات المماليك الذين استبدوا بإدارة شؤونها السنين الطوال ، وعلى رأس حكومتها وال عثمانى يمثل تبعية البلاد الاسمية لسلطان تركيا دون أن يكون له نفوذ فعلى بجانب سلطة المماليك ، فكان من المفروض على نابليون أن يرسم لنفسه سياسة يتبعها حيال هذه العناصر المشتبكة فى أرض الفراعنة

إن الغرض الذى كان يرمى إليه هو توطيد سلطة فرنسا على ضفاف النيل ، وتحقيقاً لهذا الغرض رأى أن خير سياسة يتبعها إزاء مصر أن يجامل تركيا بقدر المستطاع ، وأن يجتذب إليه قلوب الشعب ويتحبب إلى الأهالى بإفهامهم أنه إنما جاء لمحاربة طائفة المماليك الغرباء عن البلاد الذين يستنزفون ثروة مصر ويظلمون أهلها ، وأنه يرمى إلى إنشاء « حكومة أهلية » يكون النفوذ فيها للمصريين ، هذه هى الخطة السياسية التى رسمها نابليون وجعلها أساساً لمشروعه العظيم ، وهو تأسيس دولة عربية فى مصر تساعده على تحقيق آماله وأطماعه فى الشرق والغرب

ظهرت هذه الخطة فى منشوراته وبياناته الأولى للمصريين ومفاوضاته لزعمائهم ومسلكه حيالهم ، وفى النظم الحكومية التى أسسها فى مصر

أمر نابليون عند ما احتل الإسكندرية بإذاعة أول منشور له باللغة العربية إلى أهل البلاد ، أوضح فيه أغراضه من الحملة الفرنسية وضمنه نداء إلى الشعب يدعوهم فيه إلى الاطمئنان على مصيرهم ، ويعدهم بأن تكون حكومة البلاد فى أيديهم

كتب نابليون هذا المنشور يوم ٢٧ يونيه سنة ١٧٩٨ على ظهر البارجة (أوريان) ، أى قبل أن ترسو العمارة بعدة أيام ، وصاغه فى قالبه العربى جماعة المستشرقين والتراجمة الذين أحضرهم معه ، وبخاصة المسيو فانتور والمسيو مارسل ، وطبع على ظهر البارجة بالمطبعة العربية التى جاء بها ؛ وقد أمر بطبع المنشور قبل رسو العمارة ، فكان أول وثيقة عربية طبعت على هذه المطبعة ، وأمر قبل مغادرته الإسكندرية أن تنقل المطبعة العربية والمطبعتان اليونانية والفرنسية من البارجة (أوريان) إلى منزل قنصل البندقية بالإسكندرية ، وأن تهيأ هذه المطابع

بحيث تكون معدة للعمل فى ثمان وأربعين ساعة ، وأن يطبع على المطبعة العربية أربعة آلاف نسخة من المنشور ، عدا ما طبع منه على ظهر البارجة (أوريان) ؛ وأمر كذلك بالإفراج عن البحارة الترك والعرب والمغاربة الذين فك إسارهم فى مالطة [1] وأحضرهم معه على ظهر العمارة الفرنسية وسمح لهم بالذهاب أنى شاؤوا ، ومع كل منهم عدد من المنشورات لتفريقها فى أنحاء البلاد

إن تاريخ هذا المنشور هو ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ و ١٤ مسيدور من السنة السادسة للجمهورية الفرنسية ، أى أن نابليون بادر بإذاعة هذا المنشور يوم احتل ثغر الإسكندرية ، وكان المنشور معداً ومطبوعاً على المطبعة العربية قبل رسو العمارة الفرنسية ، وهذا يدلك على مبلغ اهتمامه بتبليغ المصريين مقاصده من الحملة ورغبته فى اكتساب قلوبهم

وإليك صورة المنشور ننقله هنا كما هو وارد فى الجبرتى مع مقارنته بالأصل الفرنسى

منشور نابليون إلى المصريين

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ولا شريك له فى ملكه ؛ من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية [2] ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية

(١) هم البحارة المسلمون الذين كانت تأسرهم سفن مالطة فى جولاتها فى البحر الأبيض ويعتبر فرسان مالطة أن أسرهم واجب دينى ، وكانوا يقضون عليهم بالسجن على ظهر السفن الحربية ويجبرونهم على الأشغال الشاقة فيقضون بقية عمرهم فى هذا الشقاء ، فلما احتل نابليون مالطة أمر باطلاق سراح هؤلاء الأسرى وكان عددهم نحو السبعمائة ، وأحضرهم معه إلى الإسكندرية وسمح لهم بالذهاب أنى شاءوا ، فحفظوا للفرنسيين هذا الجميل ، وكان غرض نابليون من إطلاق سراحهم أن يظهر للبلاد الإسلامية مبلغ عطفه على المسلمين

وإليك ما كتبه الجبرتى عن أولئك الأسرى وعن منشور نابليون إلى المصريين : « كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندرية كتبوا مرسوما وطبعوه وأرسلوا منه نسخاً إلى البلاد التى يقدمون عليها تطميناً لها ، ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم ، وحضر منهم جملة إلى بولاق ، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ، ومعهم منه عدة نسخ ، ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار مالطة ويعرفون باللغات »

(٢) هذه العبارة ليست واردة فى الأصل الفرنسى ، وإنما وردت فى النسخة العربية التى وزعت فى البلاد والواردة فى الجبرتى ، ولعلها عنوان للنسخة العربية للمنشور ، أما الأصل الفرنسى فيبتدأ بالعبارة الآتية : « المعسكر العام بالاسكندرية فى ١٤ مسيدور من السنة السادسة الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هجرية ، بونابرت عضو المجمع العلمى الأهلى والقائد العام » ، وكلمة التسوية يقصد منها المساواة ، ومعروف أن الحرية والمساواة شعار للجمهورية الفرنسية ، والسر عسكر كلمة تركية معناها رئيس العسكر أو القائد العام ، والمنشور كما يراه القارىء مملوء بالأغلاط والعبارات العربية الركيكة ؛ أما أصله الفرنسى فبليغ وهو منشور فى مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٢٣ ، ولم نشأ أن نعربه عن الأصل ، لأن الصيغة العربية التى نشرت فى البلاد والواردة فى الجبرتى أصبحت وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها فنقلناها كما هى

بونابرت ، يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق[١] الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة[٢] والجراكسة يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها ؛ فأما رب العالمين القادر على كل شىء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم ، يا أيها المصريون ، قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ؛ وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم ؛ وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساوون عند الله ، وإن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها ، من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ؛ فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ؛ ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعد لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور[٣] وبذلك يصلح حال الأمة كلها ، وسابقاً كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان[٤] الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك

« أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون[٥] ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى روميه الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا[٦] الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة

---

(١) حكام المديريات جمع سنجق ، راجع الفصل الأول

(٢) الأبازة من شعوب القوقاز ، وفى الأصل الفرنسى للمنشور «المجلوبون من جورجيا والقوقاز» ، وجورجيا من بلاد القوقاز واقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين

(٣) فى الأصل الفرنسى « سيتولون الحكم » Gouverneront

(٤) الترع

(٥) فى الأصل الفرنسى « محبون للمسلمين المخلصين » Que noue sommes amis dea vrais musulmans

(٦) يشير إلى الحملة الفرنسية التى زحفت على روما أثناء حرب إيطاليا وطردت البابا من روما

مالطة وطردوا منها الكواليريه[1] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه[2] ، ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم

طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ، فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم

طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ؛ فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب ؛ لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ، ولا يبقى منهم أثر

المادة الأولى : جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات[3] عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية ، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا ، وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر

المادة الثانية : كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضاً تنصب صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه

المادة الرابعة : المشايخ[4] فى كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك ، وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شىء منها

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئناً ، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى

---

(١) الكواليريه أو الكفاليريه مأخوذة من الكلمة الفرنسية Chavaliers ، وهم طائفة دينية كانت تعرف بفرسان القديس حنا الأورشليمى ، وقد تولوا حكم مالطة من عهد شارلكان ، وصار اسمهم « فرسان مالطة » ، فلما رست العمارة الفرنسية بمالطة فى طريقها إلى مصر احتلها الفرنسيون وانقضى حكم فرسان مالطة واستولى الفرنسيون على ما بالجزيرة من استحكامات ومهمات وذخائر وتحف ثمينة ومجوهرات مما كان يهدى إلى الطائفة من أنحاء العالم ، وقد أحضر نابليون معه إلى مصر الكثير من هذه النفائس لينتفع بثمنها

(٢) ترجمة الأصل الفرنسى هكذا : ألسنا نحن الذين كنا على الدوام فى خلال العصور أصدقاء السلطان العثمانى أدام الله ملكه

(٣) فى الأصل الفرنسى ثلاثة فراسخ

(٤) المقصود هنا مشايخ البلاد وكانوا بمثابة العمد الآن

الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك ، قائلين بصوت عال : أدام الله إجلال السلطان العثمانى ، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية . تحريراً بمعسكر اسكندرية فى ١٣[1] شهر مسيدور من إقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية »

* * *

هذا هو المنشور الذى أذاعه نابليون فى مصر وأوضح فيه السياسة التى عزم على اتباعها ، فهو أولا أراد أن يفهم المصريين أنه إنما جاء ليحارب المماليك دون سواهم ، عقاباً لهم على معاملاتهم الفرنسيين بالإذلال والاحتقار ، واعتدائهم على التجار وإساءتهم إلى أهل البلاد بالمظالم التى يرتكبونها ، وأظهر من جهة أخرى أنه يحترم شعور الأهالى ويحترم الإسلام ونبيه الكريم والقرآن العظيم ، وأشاد بعظمة مصر القديمة ونوّه بما كان لها فى العصور الماضية من حضارة وعمران ، كل ذلك ليستميل إليه قلوب المصريين

ووضع فى منشوره أساس حكومة أهلية يدير شؤونها « العلماء والفضلاء ، وبذلك تصلح حال الأمة كلها »

إن فكرة إنشاء حكومة أهلية من المصريين هى أظهر ما فى المنشور من الوعود التى أراد أن يجتذب بها قلوب المصريين ؛ والواقع أن نابليون فى هذا المنشور قد استثار الروح القومية المصرية ، ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ، ويوجه خطابه إلى المصريين ، ويعدهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد فى البلاد

على أنه لا يفوتنا القول بأن منشور نابليون مع ما فيه من الوعود والعبارات الجميلة قد حوى مبدأ التهديد والوعيد ، وإنذار المصريين باستهدافهم لأشد أنواع الأذى إذا هم لم يذعنوا للحكم الفرنسى ، لأن إنذار القرى بإحراقها بالنار إذا هى خرجت على الجنود الفرنسية أمر لا يتفق والقواعد الإنسانية فى معاملة الشعوب ؛ ولم نر فى منشورات نابليون للإيطاليين أثناء حروب إيطاليا تهديداً من هذا النوع ، وسيرى القارئ فى خلال الفصول القادمة أن الفرنسيين قد استعملوا طريقة إحراق القرى فى كثير من المواطن ، فكان ذلك تنفيذاً لما حواه منشور نابليون من التهديد والوعيد ، ولنا أن نفهم من هذا أن نابليون كان ينظر إلى الأمة المصرية

---

(١) الواقع أنه ١٤ مسيدور ، وربما كان رقم ١٣ خطأ من الجبرتى فى النقل ، وحقيقة التاريخ الهجرى ١٨ محرم

بغير العين التى ينظر بها إلى الأمم الأوروبية ، وأنه مع رغبته فى إظهار الود نحو المصريين فإنه أعقب هذه الرغبة بتهديدهم بهذا الإنذار الرهيب ، وهذا وحده كاف ليصرفهم عن الاطمئنان لوعود نابليون ، وقد أورد ريبو فى كتابه[1] منشور نابليون وحذف منه هذه المادة وأشار إليها إشارة مبهمة ، ولعله تعمد حذفها ليكتم عن القارئ مبلغ ما فيها من القسوة والخروج على قواعد الحضارة والإنسانية

المفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب

غداة معركة الأهرام

قام المصريون بقسطهم فى الدفاع عن البلاد كما تراه مفصلا فى الفصل الخامس والفصول التى تليه ، لكنهم غلبوا على أمرهم ، وأصبحت القاهرة بعد واقعة الأهرام مفتحة الأبواب أمام الجيش المغير ، فساد فيها الذعر ، وعم أهلها الفزع والاضطراب ، لتوقعهم المكاره واحتمال العنت والأذى عند دخول الفرنسيين المدينة ، وكان رؤساء المماليك قد فروا تاركين العاصمة بلا دفاع ، فأخذ علماؤها وأعيانها يفكرون فى الخطة التى يتبعونها حيال هذه الكارثة لتخفيف مصاب التسليم بالأمر الواقع ، شأن كل مدينة كبيرة هزم الجيش المدافع عنها

فى صباح يوم الأحد ٢٢ يوليه سنة ١٧٩٨ (غداة معركة الأهرام) اجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فى الأمر ، وكان الجيش الفرنسى لم يزل بالبر الغربى للنيل ولم يدخل المدينة بعد ، فاتفق رأيهم على أن يبعثوا برسالة إلى الفرنسيين يستفهمون فيها عن قصدهم وينتظرون ما يكون جوابهم ؛ فقام رسولان يحملان الرسالة إلى معسكر الجيش الفرنسى بالجيزة[2] ، ثم عادا فأخبرا أنهما قابلا القائد العام وأعطياه الرسالة وقرأها عليه ترجمانه ، فقال على لسان الترجمان : « وأين عظماؤكم ومشايخكم ، ولم تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة » ، وطمأنهم وبش فى وجوههم ؛ فقالوا نريد أماناً منكم ؛ فقال أرسلنا لكم كتاباً سابقاً[3] ، فطلبوا وثيقة أخرى لأجل اطمئنان الناس ، فكتبوا لهم رسالة

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) اتخذ نابليون قصر مراد بك فى الجيزة معسكراً للقيادة العامة يصدر منه الأوامر إلى أن انتقل إلى القاهرة فى يوم ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨

(٣) يقصد المنشور الذى أذاعه فى الإسكندرية ووصلت منه عدة نسخ إلى القاهرة قبل معركة الأهرام ، ولعله يقصد كذلك بياناً آخر نشره عقب معركة الأهرام لم يرد ذكره فى الجبرتى ، وقد ورد نصه =

أخرى هذا مضمونها كما جاء فى الجبرتى :

« من معسكر الجيزة خطاباً لأهل مصر ، إننا أرسلنا لكم فى السابق كتاباً فيه الكفاية ، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه ، وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم ، ونحن فى طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالقطر المصرى ؛ وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين ، وفى مساكنهم مرتاحين »

ثم قالوا للرسولين : « لا بد أن يحضر إلينا المشايخ والشوربجية لنرتب لهم ديواناً ننتخبه من سبعة أشخاص من العقلاء يدبرون الأمور » ، ورجع الرسولان بهذا الجواب إلى القاهرة فاطمأن الناس ، وركب وفد مؤلف من الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى (من العلماء) إلى الجيزة ، فتلقاهم نابليون بالترحاب وسألهم : « هل أنتم كبار المشايخ » ، فأجابوه أن المشايخ الكبار قد غادروا المدينة خوفاً من الاحتلال ، فكلفهم بأن يكتبوا لهم بالحضور لتأسيس الديوان « لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة » ، فاستكتبوه عدة مكاتبات بالحضور والأمان ، ثم عادوا من معسكر الجيزة بعد العشاء ، وحضروا إلى مصر واطمأن برجوعهم الناس ، وكانوا فى وجل وخوف لغيابهم ، وأرسلوا الأمان إلى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والمشايخ ومن انضم إليهم من الفارين من ناحية المطرية ؛ أما السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فإنه لم يحضر وهاجر إلى سوريا صحبة أبى بكر باشا الوالى وإبراهيم بك

هذه خلاصة ما رواه الجبرتى عن مفاوضة نابليون لزعماء الشعب غداة معركة الأهرام ،

= فى مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨١٨

« من معسكر الجيزة فى ٤ ترميدور (٢٢ يوليه) إلى أهل القاهرة :

« إنى مسرور من سلوككم وقد أحسنتم صنعاً بعدم مقاومتى ، إنى جئت لإبادة جيش المماليك وحماية التجارة وأهالى البلاد الأصليين ، فليطمئن الخائفون ، وليرجع الفارون إلى بيوتهم ، وليستمر الأهالى على إقامة الشعائر الدينية كالمعتاد ، اطمئنوا على عائلاتكم وبيوتكم وأملاككم ، واطمئنوا على دينكم الذى أحترمه ؛ ولما كان من غرضى أن لا يختل الأمن وأن يسود النظام فسيتألف (ديوان) من سبعة أعضاء يجتمع فى الأزهر يتصل منهم اثنان بقومندان الموقع ، ويتخصص أربعة بالمحافظة على الراحة والنظام وتدبير شؤون البوليس »

ويجدر بنا أن نذكر رواية المراجع الفرنسية عن هذه المفاوضات ، ونقارن بينها وبين رواية الجبرتى

يقول ريبو[1] إن مراد بك أمر قبل واقعة الأهرام باعتقال التجار الفرنسيين فى القاهرة وكان ينوى قتلهم لولا تدخل المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا فاكتفى باعتقالهم[2] ، وفى غداة وقعة الأهرام قابل المسيو بودوف Baudeuf أحد التجار الفرنسيين فى القاهرة مصطفى بك (نائب الوالى) ومعه جماعة من التجار الأجانب وطلبوا منه أن يتوجه لمقابلة نابليون بالجيزة وعرضوا وساطتهم لديه ، وجاء ترجمان من المعسكر الفرنسى ، فسار مصطفى بك مصحوباً بوفد وقابل نابليون وعرض عليه تسليم المدينة فى مقابل عهد منه بحماية الأرواح والأموال وطمأنينة السكان ، فصارحه نابليون بأن أول أغراضه المحافظة على سعادة الشعب المصرى واحترام شعائره الدينية وأمواله ، وانتهت المقابلة وكانت على صفاء ؛ وبعد انتهائها سار الجنرال ديبوى Dupuy على رأس طليعة من الجنود لاحتلال المدينة ، وفى اليوم التالى (٢٣ يوليه) دخل الجيش المدينة على أثر تلك الطليعة ، وفى أثناء عبور الجنود النيل استدعى نابليون بعض علماء الجامع الأزهر وأغا الانكشارية (المحافظ) لمقابلته بمعسكره بالجيزة ، وناولهم منشوره إلى سكان القاهرة . فهذه الرواية تختلف فى بعض وقائعها عن رواية الجبرتى وإن كانت تتفق فى جوهرها ، على أن رواية الجبرتى فى هذا الصدد أدعى للثقة لأنها رواية شاهد عيان لحوادث ذلك العصر كان يدون معظم مشاهداته فى حينها ، أما رواية ريبو فقد دونت عقب وقوع تلك الحوادث بمدة طويلة ، وليس يخلو هذا التدوين من خطأ أو تحريف ، وقد رجعنا إلى مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى منفاه بسانت هيلين فوجدناه يروى عن هذه المفاوضة أن ترجماناً من قبله ذهب غداة معركة الأهرام لمقابلة علماء الأزهر ومشايخه ، وأن هؤلاء تولوا زمام الحكومة بعد المعركة واجتمعوا ليتشاوروا فاتفقوا رأياً على التسليم ، فذهب وفد من المشايخ على رأسه كخيا الباشا (نائبه) وقابلوا نابليون بالجيزة ؛ وهذه الرواية كما ترى أقرب إلى رواية الجبرتى ولا تنافيها ، والذى يفهم من تقارب الروايتين أن نابليون أرسل ترجمانه لمقابلة العلماء باعتبارهم زعماء الشعب ، ولمقابلة الوالى باعتباره نائب السلطان (وكان نابليون كثير الاهتمام باستبقاء علاقات الود مع سلطان تركيا) ، فقابل الترجمان العلماء الذين كانوا بالأزهر ، ولم يقابل الوالى لأنه ارتحل عقب معركة الأهرام إلى سوريا صحبة

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) يقول الجبرتى فى هذا الصدد : « طلب الأمراء (المماليك) التجار من الإفرنج فحبسوا بعضهم بالقلعة وبعضهم بأماكن الأمراء وصاروا يفتشون فى محلات الإفرنج على الأسلحة وغيرها »

إبراهيم بك رئيس المماليك ، ولا بد أن يكون الترجمان قابل مصطفى بك (نائب الوالى) فذهب الرسولان اللذان أشار إليهما الجبرتى ، ولما عادا وسمع العلماء حديثهما مع نابليون أرسلوا وفداً منهم لمقابلته فقابلوه وجرى بينهم الحديث الذى رواه الجبرتى

وترى من خلال المناقشة التى دارت بين نابليون والمشايخ أن أول ما فكر فيه هو تأسيس (الديوان) من كبار العلماء والأعيان «لتدبير الأمور والنظر فى راحة الرعية وإجراء الشريعة» أى أنه فاوضهم فى فكرة تأسيس حكومة أهلية يكون العنصر السائد فيها من المصريين

فلنبحث إذن تفصيلا فى نظم الحكومة التى أسسها نابليون تنفيذاً لهذه الفكرة ، وما استتبعها من تأسيس الهيئات واللجان الأخرى

الفصل الثالث

نُظم الحكم التى أسسها نابليون فى مصر

ديوان القاهرة — دواوين الأقاليم — الديوان العام — المجمع العلمى

١

ديوان القاهرة

انتقل نابليون من معسكره بالجيزة وعبر النيل ودخل القاهرة يوم ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨[(١)] مصحوبا بضباطه وأركان حربه ، ونزل بقصر محمد بك الألفى بالأزبكية وشرع فى تأسيس الديوان

تأليف الديوان

يؤخذ من رواية الجبرتى فى تأسيس الديوان ، أنه بعد أن استقر نابليون فى القاهرة أمر باستدعاء المشايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر ، « فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم فى انتخاب عشرة من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ مصطفى الدمنهورى ، والشيخ أحمد العريشى ، والشيخ يوسف الشبرخيتى ، والشيخ محمد الدواخلى »

ومفهوم رواية الجبرتى أن المشايخ والوجاقلية هم الذين اختاروا أعضاء الديوان ، أى أن هذا الديوان تألف بطريقة تشبه طريقة الانتخاب ذى الدرجتين ، وهو يمثل فى تأليفه المصريين الأصليين من أهالى البلاد ، وأن عدد أعضاء الديوان عشرة ؛ لكن إذا رجعنا إلى النص

---

(١) ذكر « ريبو » فى كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية أن دخول نابليون القاهرة كان يوم ٢٥ يوليه ، والصحيح ماذكره القومندان دىلاجونكيير فى كتابه « حملة مصر » أن دخوله كان يوم ٢٤ يوليه ، وهى الرواية التى اعتمدناها ، لأنها مؤيدة بالوثائق الرسمية ، وذلك أن نابليون أرسل عقب دخوله القاهرة إلى حكومة الديركتوار تقريراً عن واقعتى شبراخيت والأهرام ، وتاريخ هذا التقرير ٢٤ يوليه كما هو ثابت فى مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٣٤ ، وكذلك الأمر الذى أصدره بإعداد المستشفيات والوارد فى مراسلاته (وثيقة رقم ٢٨٣٥) صدر فى القاهرة بتاريخ ٢٤ يوليه ، فالوثائق الرسمية تدل على أن نابليون دخل القاهرة يوم ٢٤ يوليه لا ٢٥ ، والجبرتى يقول إن نابليون عدى إلى القاهرة يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ١٢١٣ ، وهذا يوافق ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨ ، فرواية الجبرتى كما ترى صحيحة تؤيدها الوثائق الأصلية

الفرنسى للأمر الذى أصدره نابليون بتأليف الديوان(١) نجده يختلف ورواية الجبرتى فى بعض النقط ومنها عدد الأعضاء وبيان أسمائهم

وهذا نص الأمر نثبته هنا للمقابلة بينه وبين ما ذكره الجبرتى

« معسكر القاهرة فى ٧ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٥ يوليه سنة ١٧٩٨)

« بونابرت عضو المجمع العلمى الأهلى(٢) والقائد العام للجيش يأمر بما يأتى :

(أولا) تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أعضاء

(ثانياً) يتألف هذا الديوان من المشايخ : السادات ، والشرقاوى ، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، والسيد عمر نقيب الأشراف ، ومحمد الأمير . وعليهم أن يجتمعوا اليوم فى الساعة الخامسة مساء فى منزل كخيا الشاويشية ، وعليهم أن ينتخبوا من بينهم رئيساً لهم وأن يختاروا سكرتيراً (كاتم سر) من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية .

ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجند) لإدارة البوليس ، وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتموين المدينة ، ولجنة من ثلاثة آخرين يكلفون بمهمة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها إلى فرسخين منها .

(ثالثاً) يجتمع الديوان كل يوم من الظهر ويبقى ثلاثة أعضاء على الدوام بدار المجلس .

(رابعاً) يقام على باب الديوان حرس فرنسى وآخر تركى .

(خامساً) على الجنرال برتييه Berthier (رئيس أركان الحرب) وقومندان المدينة (الجنرال ديبوى) أن يكونا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لإجراء ما يلزم لاعضائه ولكى يأخذا عليهم عهداً ألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش » .

فهذا الأمر كما ترى ينص على أن الديوان مؤلف من تسعة أعضاء لا من عشرة كما رواه الجبرتى ، وأن هؤلاء الأعضاء هم السادات ، والشرقاوى ، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، والسرسى ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، ومحمد الامير ، فهناك إذن اختلاف بين رواية الجبرتى وأمر نابليون فى عدد الأعضاء وفى أسمائهم ، فإن فى أمر نابليون ثلاثة لم يرد ذكرهم فى رواية الجبرتى وهم السادات ، والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ محمد الأمير ، ونعتقد أن السبب فى ذلك أن هؤلاء الثلاثة قد اختارهم المشايخ

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٣٧

(٢) يريد المجمع العلمى الفرنسى الذى كان نابليون عضواً به منذ ديسمبر سنة ١٧٩٧ ، وكان يفتخر بعضويته فيه كما تراه من تقديم عضويته بالمجمع على مرتبة القائد العام فى أوامره

والوجاقلية يوم اجتماعهم ، وأصدر نابليون أمره بإقرارهم أعضاء للديوان ، لـكنهم لم يقبلوا العضوية ، إما لرفضهم الاشتراك فى مهزلة الحـكم مع الفرنسيين أو لأى سبب آخر ، ولذلك لم ترد أسماؤهم فى رواية الجبرتى ، يؤيد ذلك أن السيد عمر مكرم كان من بين الأشخاص الذين لم يرضوا البقاء فى القاهرة عند دخول الفرنسيين فيها فإنه خرج منها والتقى بإبراهيم بك وأبى بكر باشا الوالى وارتحـل معهما إلى بلبيس ثم إلى سوريا ، ولم يعد إلا بعد احتلال الفرنسيين يافا كما سيجىء بيانه فى الفصل الثانى من الجزء الثانى ، والظاهر أنه وقع الاختيار عليه ليكون عضواً بالديوان دون أن يعلم نابليون بنيته فى الرحيل إلى سوريا ، فلما تحقق رحيله خلا محله فى العضوية كما خلا محل السادات والأمير ، فتعين بدل هؤلاء الثلاثة ، الدمنهورى والشبراخيتى والدواخلى الذين وردت أسماؤهم فى رواية الجبرتى ، والمعروف عن الشيخ السادات أنه لم يكن عضواً فى هذا الديوان ولا فى الديوان الذى تألف فى أواخر دسمبر سنة ١٧٩٨ ، مع ان السادات كان من كبار العلماء فى ذلك الحين ، وكان له من النفوذ والجاه ما لم يكن لأحد من أعضاء الديوان ، فيظهر لنا أنه لم يقبل عضوية الديوان مع صدور أمر نابليون باعتماد عضويته ، ولعله تورع عن قبول هذه العضوية لأنها لا تتناسب مع مقامه فى البلاد ، على أنه كان مع ذلك موضع احترام نابليون ، اعتبره ذلك فيما أمر به من تعيينه على رأس لجنة عهد إليها فحص شكاوى الأفراد من مصادرة أموالهم ، وهذه اللجنة مؤلفة من الشيخ السادات والمسيو روستى قنصل النمسا والجـنرال جونو [1] ، وقد زاره نابليون فى بيته وكان يحترمه احتراماً عظيما ؛ وذكر الجبرتى عن موقفه حيال الفرنسيين « أنه لما قدمت الفرنساوية إلى الديار المصرية لم يتعرضوا له فى شىء وراعوا جانبه وأفرجوا عن تعلقاته ، وقبلوا شفاعته وتردد إليه كبيرهم وأعاظمهم [2] »

على أن نابليون مع احترامه له لم يطمئن يوماً إليه ، وقد اتهمه بزعامة ثورة القـاهرة كما سيجىء بيانه فى موضعه [3] ، ثم اضطهده الفرنسيون اضطهاداً شديداً فى عهد كليبر ثم فى عهد منو ، كما تراه مفصلا فى الفصل التاسع من الجزء الثـانى ، فالسادات إذن مع انتخابه عضواً بالديوان لم يقبل هذه العضوية أنفة وتورّعا

بقى أن نعرف السبب فيما ذكره الجبرتى أن عدد أعضاء الديوان عشرة مع أن أمر التأسيس ينص أنهم تسعة ، وأن منهم المهدى مع إنه لم يذكر فى الأمر ، ويظهر أن الجبرتى ذكر الشيخ

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٩٣ ، وليس فى المراجع الفرنسية ما يدل على أن هذه اللجنة انعقدت أو عملت عملا ما ، ولعل السادات لم يقبل أيضاً عضوية تلك اللجنة

(٢) الجبرتى الجزء الثالث

(٣) انظر الفصل الثالث عشر

محمد المهدى باعتباره عضواً من الأعضاء فصاروا على روايته عشرة أعضاء ، وهذا خطأ فى رواية الجبرتى ، والصحيح أنهم تسعة أعضاء لا عشرة ، أما الشيخ المهدى فلم يكن عضواً بالديوان وإنما كان سكرتيراً له ، وكان أمر نابليون يقضى بأن يعين الأعضاء سكرتيراً للديوان « من غير الأعضاء » ، فوقع الاختيار على الشيخ محمد المهدى ، فهو لم يكن من الأعضاء التسعة ، وعذر الجبرتى فى هذا الخطأ أن الشيخ المهدى وإن لم يكن عضواً بالديوان إلا أنه كان له من النفوذ فى الديوان وفى غير الديوان أكثر مما كان للأعضاء ؛ فقد ذكر الجبرتى عن نفوذه فى ذلك العصر أن الفرنسيين أحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار إليه فى دولتهم مدة إقامتهم بمصر وعلى يده تقضى عندهم حوائج الناس وقضاياهم ، وكانت أوامره نافذة عند ولاة أعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر ، ولما رتبوا الديوان كان هو المشار إليه فيه والموظفون فى الديوان من دونه ، وإذا ركب حفوا به ومشوا حوله وبين يديه وفى أيديهم العصى يوسعون له الطريق[1] ؛ فالمهدى كان إذن السكرتير العام المعين للديوان ، ومن ذلك كانت له الرياسة على موظفى الديوان « وإذا ركب يمشون حوله » كما يقول الجبرتى ، لكنه لم يكن عضواً به .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن المهدى صار بعد ذلك عضواً فى الديوان الذى تأسس فى دسمبر سنة ١٧٩٨ على نظام آخر ، كما سيأتى بيانه فى الفصل الأول من الجزء الثانى .

اختصاص الديوان

قضى أمر نابليون « بإسناد حكومة القاهرة إلى الديوان » أى أن السلطة المدنية للحكومة كانت من اختصاصه بوجه عام ، لكن لا يعزب عن الذهن أنه لم تكن له سلطة قطعية فى أى أمر من الأمور ، بل كان المرجع الأعلى للسلطة العسكرية الممثلة فى جيش نابليون

ويقضى الأمر الصادر بتأسيس الديوان أن للأعضاء حق اختيار رئيس من بينهم وتعيين سكرتير (كاتم السر) من غير الأعضاء ، وسكرتيرين مترجمين اثنين يعرفان الفرنسية والعربية ؛ وللديوان صوت مسموع فى تعيين كبار الموظفين ، فقد ذكر الجبرتى أنهم عينوا محمد المسلمانى أغات مستحفظان[2] « محافظ المدينة » ، وعلى أغا الشعراوى والى « رئيس » الشرطة ، وحسن محرم « أمين احتساب » ، وذلك بإشارة أعضاء الديوان ؛ وقال الجبرتى إن الفرنسيين كانوا معارضين فى تقليد هذه المناصب لأولئك الأشخاص لأنهم من جنس المماليك ؛ لكن

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) وكان يسمى « الأغا » فقط

أعضاء الديوان أقنعوهم بأن هؤلاء المذكورين من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم ، وبأن السوقة لا يخافون إلا منهم ، فاقتنع الفرنسيون بهذه الحجة ، ويقول «ريبو[1]» إن هذا التعيين كان بنصيحة المسيو ماجالون Magallon قنصل فرنسا فى مصر ، والمسيو فانتور Vanture كبير تراجمة نابليون ، وبودوف Baudeuf التاجر الفرنسى بالقاهرة ، ومعنى ذلك أنهم وافقوا أعضاء الديوان على رأيهم وأيدوه لدى نابليون

ويقضى الأمر بأن من حق الديوان تعيين اثنين من الأغاوات (رؤساء الجند) لإدارة البوليس ، وتعيين لجنة من ثلاثة أشخاص يتولون الإشراف على الأسواق وملاحظة تموين المدينة ، وهى وظيفة المحتسب القديمة ، ولجنة أخرى تتولى دفن الموتى فى القاهرة وما حولها ، وأصدر نابليون أمراً آخر فى ٢٨ يوليه سنة ١٧٩٨[2] بأن يعين الديوان « أغا » (رئيساً) للإنكشارية لكل من بولاق ومصر القديمة يكونان تابعين لأغا القاهرة ، وأن يعين « أغا » (رئيساً) يتولى إدارة الشرطة فى النيل ، وأمر بأن يكون هذا الأغا تحت رآسة الكونترأميرال بيرى Perrée الذى عهد إليه بشؤون الملاحة النهرية

فتعيين رؤساء الموظفين يدخل إذن فى خصائص الديوان ، على أن هؤلاء الموظفين كانوا تابعين للرؤساء الفرنسيين ومجردين من كل سلطة

وقد احتفظ الفرنسيون بتعيين بعض كبار الموظفين دون استشارة الديوان ، فعهد نابليون إلى المسيو بوسليج إدارة الشؤون المالية للحكومة ، ويقول عنه الجبرتى (مدير الحدود) ويعبر عنه بالروزنامجى أى مدير الروزنامة ، وعينوا برتلمى الرومى[3] كتخدا مستحفظان (وكيل المحافظ) ، وقسموا القاهرة وبولاق ومصر القديمة إلى عشرة أخطاط ، عينوا لكل خط حاكما (قومندانا) فرنسيا

ويقول الجبرتى إنهم عينوا أحد الإفرنج أمين البحرين (مدير الجمارك) ، وآخر « أغا الرسالة » أى مدير البريد ؛ وفى مراسلات نابليون[4] أن نابليون عهد إلى المسيو سوسى مدير مهمات الجيش أن ينظم مكاتب للبريد فى القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط والرحمانية والمنصورة ومنوف والمحلة الكبرى ، على أن يتولى إدارة البريد مدير يتصل بالجيش ، وجاء

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث
(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٦٧
(٣) سيأتى الكلام عنه فى الفصل الثالث عشر
(٤) الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٣٩ و ٢٩٤٠

فى تقويم الجمهورية الفرنسية عن السنة الثامنة (١٨٠٠) أن مدر البريد فى مصر وقتئذ هو المسيو مونتيكو Monticault

نظام الديوان

يجتمع الديوان ظهر كل يوم ، ويبقى من الأعضاء ثلاثة على الدوام فى دار المجلس ، ويقوم على حراسة الديوان حرس فرنسي وآخر تركى

وقد أبلغ نابليون نص الأمر القاضى بتأسيس الديوان إلى الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى ، وأصدر إليه التعليمات الآتية :

« يجب أن تعنى أولا بأن تستكتب أعضاء الديوان رسالة إلى أمير الحج بالحضور بالحجاج فى أمان ، وأن يكتبوا إلى زعماء العرب بالإخلاد إلى السكينة والكف عن محاربة الفرنسيين ، وأن يصدروا منشوراً إلى الشعب يدعونه إلى الطمأنينة ويبينون له مقاصدنا الحسنة نحو الأهالى »

وأصدر أمره فى ٢٧ يوليه بتعيين الادجودان جنرال بوفوازان Beauvoisins قوميسيراً لدى الديوان ، وعهد إليه حضور جلساته على الدوام وأن يرفع إليه عقب كل جلسة كل ما يدور فيها ؛ وكان نابليون حريصاً على تتبع مداولات الديوان حتى فى أثناء تغيبه عن العاصمة ، فإنه لما ارتحل عن القاهرة لتعقب جيش إبراهيم بك ببلبيس أصدر أمره إلى الجنرال ديزيه Desaix بأن ينوب عنه فى شؤون القيادة ، وكلفه بأن يتلقى من بوفوازان تقارير يومية عن جلسات الديوان [١] ، ولما أوفد نابليون بوفوازان فى مهمة لدى الجزار عين بدله المسيو تاليان Tallien قوميسيراً لدى الديوان (٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨) ؛ ويؤخذ من أمر نابليون القاضى بهذا التعيين أن مهمة القوميسير هى التجسس على الأعضاء ، فإن نابليون يقول فى أمره [٢] : « على الستويان [٣] تاليان أن يحضر جميع جلسات الديوان وأن يسعى فى معرفة أخلاق أعضائه ومبلغ الثقة التى يمكننا أن نوليهم إياها ، وعليه أن يبلغنى كل يوم بالشكاوى التى ترفع إلى الديوان والمسائل التى بحث فيها والطلبات التى يبديها »

هذه هى الأوامر والعهود الخاصة بتأسيس الديوان وبيان اختصاصاته ، ومنها يتبين أن سلطته لم تكن تتعدى مدينة القاهرة ، وأن هذه السلطة لم تكن إلا استشارية ومقيدة بتعهد

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٩٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠٧

(٣) كلة ستويان مأخوذة من الفرنسية Citoyen ومعناها « مواطن » وهى من مصطلحات الثورة الفرنسية ، وتؤدى معنى كلة « مسيو » الحالية

الأعضاء أن لا يعملوا شيئاً ما ضد مصلحة الجيش ، فضلا عن أنهم كانوا يعملون ويتداولون بعين من الفرنسيين تحت المراقبة المستمرة

وقد جعل مقر الديوان ببيت قائد أغا بالأزبكية قرب الرويعى[١] وسكن به رئيس الديوان ، وتداول المجلس فى جلسته الأولى فى الوسائل اللازمة لإعادة الأمن والنظام إلى المدينة

٢
دواوين الأقاليم

عمم نابليون نظام الديوان فى مديريات القطر المصرى ، فأصدر فى ٢٧ يوليه سنة ١٧٩٨ الأمر الآتى[٢] :

أولا — يتألف فى كل مديرية من مديريات القطر المصرى ديوان من سبعة أعضاء ، يسهرون على مصالح المديرية ويعرضون عليه كل الشكاوى التى تصل إليهم ويمنعون اعتداء القرى بعضها على بعض ، وعليهم مراقبة الأشخاص السيِّئى السيرة ومعاقبتهم ، والاستعانة على ذلك بالقوات التى تحت إمرة القواد الفرنسيين ، وإرشاد الأهالى إلى ما تقتضيه مصلحتهم

ثانياً — يعين فى كل مديرية أغا (رئيس) الانكشارية يتصل دائماً بالقومندان الفرنسى ، ويكون تحت إمرته قوة مسلحة من ستين رجلا من الأهالى يحافظ بهم على النظام والأمن والسكينة

ثالثاً — يعين فى كل مديرية « مباشر » لجباية أموال الميرى والضرائب وإيراد أملاك المماليك التى صارت ملكا للجمهورية ، ويكون تحت رياسته العمال الذين يحتاجهم العمل

رابعاً — يعين بجانب هذا المباشر وكيل فرنسى للمخابرة مع مدير المالية ومراقبة تنفيذ الأوامر التى يصدرها وتكون من اختصاص الإدارة المالية

وأرسل نابليون صورة هذا الأمر إلى قواد الجيش الفرنسى الذين تولوا حكم المديريات فى عهد الحملة الفرنسية

---

(١) يبتدئ شارع الرويعى من أول شارع البكرية وينتهى لشارع وجه البركة ، وجامع الرويعى بأوله ؛ ويقول العلامة على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية عن جامع الرويعى إنه بالقرب من جامع البكرى أنشأه السيد أحمد الرويعى رئيس تجار مصر فى القرن التاسع ، وأما قائد أغا فهو من مماليك محمد بك أبى الذهب وكان أغات مستحفظان (محافظ القاهرة) سنة ١١٩٨ هجرية

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٥٨

٣

الديوان العام

أراد نابليون أن يستنير بآراء أعيان العاصمة والأقاليم فى المسائل التى تفرعت عن النظام الجديد ، ففى ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ دعاهم إلى الاجتماع فى جمعية عامة تمثل أعيان البلاد ليستشيرها فى النظام النهائى للدواوين التى أسسها ، وفى إدارة الحكومة ووضع نظامها الإدارى والمالى والقضائى ، وحدد لانعقاد هذه الجمعية بالقاهرة يوم أول أكتوبر ، ثم عدل الميعاد إلى ٥ أكتوبر وسميت هذه الجمعية « الديوان العام » تمييزاً لها عن ديوان القاهرة

توخى نابليون اختيار هؤلاء الأعيان من « الأشخاص الذين لهم نفوذ بين الأهالى ومن الذين امتازوا بمركزهم العلمى وكفايتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين »[١]

احتوت هذه الجمعية العامة مندوبين من القاهرة ومن الإسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، والبحيرة ، والغربية ، والمنصورة ، والشرقية ، والمنوفية ، والقليوبية ، والجيزة ، واطفيح ، وبنى سويف ، والفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وكان مندوبو كل مديرية مؤلفين من ثلاثة من العلماء ، وثلاثة من التجار ، وثلاثة من الأهالى (مشايخ البلاد ورؤساء العربان) ، وكان مندوبو القاهرة فى الديوان العام ثلاثة أمثال كل مديرية ، ولكل من الشرقية والمنوفية الضعف

رسالة نابليون فى الغرض من الديوان

أصدر نابليون أمره إلى العالمين مونج Monge وبرتوليه Berthollet عضوى المجمع العلمى بالاشتراك فى جلسات « الديوان العام » على أن يكون لهما صفة « قوميسيرين » لحضور المناقشات وعرض مشروعات الحكومة على الأعضاء ، وتلقيا منه تعليماته فى رسالة قال فيها[٢] :

« إن الغرض من عقد « الديوان العام » هو تعويد الأعيان المصريين نُظُم المجالس الشورية والحكم ، فقولوا لهم إنى دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آرائهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية ، وما يفكرون فى عمله إذا كان لهم حق الفتح الذى حزناه فى ميدان القتال

« اطلبوا من الديوان العام أن يبدى رأيه فى المسائل الآتية :

أولا — ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس « الديوان » فى المديريات ، وما هو المرتب الذى يجب تحديده للأعضاء

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٣٨

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٢٣

ثانياً — ما هو النظام الذى يجب وضعه للقضاء المدنى والجنائى

ثالثاً — ما هو التشريع الذى يكفل ضبط المواريث ومحو أنواع الشكاوى والإجحاف الموجودة فى النظام الحالى

رابعاً — ما هى الإصلاحات والاقتراحات التى يراها الديوان لإثبات ملكية العقارات وفرض الضرائب

« ويجب أن تفهموا الأعضاء بأننا لا نقصد إلا توفير السعادة والرفاهية للبلاد التى تشكو من سوء نظام الضرائب الحالى كما تشكو من طريقة تحصيلها ، وعليكم أن تضعوا للديوان نظامه الداخلى كما يأتى : أن ينتخب الأعضاء رئيساً له ، ونائب رئيس ، وسكرتيرين مترجمين اثنين ، وثلاثة مراقبين ، وأن يكون ذلك بطريقة الاقتراع وبكل مظاهر الانتخاب ، وعليكم أن تتتبعوا المناقشات وتدونوا أسماء الأعضاء الذين يمتازون عن زملائهم فى الديوان ، سواء بنفوذهم أو بكفايتهم »

من هذه الرسالة نعرف بيان المسائل الأربع التى عرضها نابليون على الديوان العام لأخذ رأيه فيها ؛ وقد رجعنا إلى الجبرتى فوجدناه قد أوجز كثيراً فى الكلام عن الديوان العام ومداولاته ، ولذلك اعتمدنا على المراجع الفرنسية لأنها فى هذا الصدد أوفى وأدق بياناً ، قال الجبرتى فى بيان المسائل الأربع المطروحة عليه : « ولما تكامل الجمع شرع القاضى ملطى فى قراءة المنشور ، وتعداد ما به من الشروط مسطور ، وذكر من ذلك أشياء منها أمر المحاكم والقضايا الشرعية ، وحجج العقارات ، وأمر المواريث ، وتناقشوا فى ذلك حصة من الزمن ، وكتب هذه الأربعة أشياء أرباب ديوان الخاصة (أعضاء الديوان) يدبرون رأيهم فى ذلك ، وينظرون المناسب والأحسن وما فيه الراحة لهم وللرعية ، ثم يعرضون ما دبروه يوم الخميس »

اجتماع الديوان العام وقراراته

فى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ حضر إلى القاهرة نواب الأقاليم الذين دعوا إلى حضور الديوان العام ، ففى يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨ (٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢١٣) نبه عليهم وعلى نواب القاهرة من المشايخ والأعيان والتجار بالحضور إلى الديوان العام فى اليوم التالى (السبت) بدار محكمة القضايا ببيت مرزوق بك بحارة عابدين ، لكن الديوان لم ينعقد بهذا المكان ، وأعيد التنبيه على الأعضاء بالاجتماع بدار ديوان القاهرة وهو بيت قائد أغا بالأزبكية

ذهب الأعضاء إلى دار الديوان ، وحضر الاجتماع المسيو مونج والمسيو برتوليه مندوبين من قبل نابليون لافتتاح الديوان والاتصال بالأعضاء وعرض أفكار الحكومة ومشروعاتها عليهم لأخذ رأيهم فيها

خطبة الافتتاح

ولما استقر بالاعضاء المقام شرع القاضي ملطى رئيس محكمة القضايا فى قراءة (فرمان الشروط) ، وقام كبير المندوبين (مونج) وناول الترجمان خطبة الافتتاح وتليت مترجمة إلى اللغة العربية ، ننقل هنا خلاصتها كما وردت فى الجبرتى لأن هذه الخلاصة هى التى تليت بالديوان

« إن قطر مصر هو المركز الوحيد [١] ، وإنه أخصب البلاد ، وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة ، وإن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول ، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه ، فملكه أهل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن ، إلا أن دولة الترك شددت فى خرابه لأنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروقها ، فلذلك لم يبقوا بأيدى الناس إلا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب ، الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم ؛ ثم إن طائفة الفرنساوية بعدما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة ، فقدموا وحصل لهم النصر ، ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة ، وإن غرضهم تنظيم أمور مصر وإجراء خلجانها التى دثرت ، فيصير لها طريقان طريق إلى البحر الاسود [٢] وطريق إلى البحر الأحمر فيزداد خصبها وريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك استجلابا لخواطر أهلها وإبقاء للذكر الحسن ، فالناسب من أهلها ترك الشغب وإخلاص المودة ، وإن هذه الطوائف المحضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة لأنهم أهل خبرة وعقل ، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج لصارى عسكر (نابليون) من ذلك ما يليق صنعه » [٣] .

هذا هو الخطاب الذى افتتح به «الديوان العام» ، والمتأمل فيه يرى نابليون يشيد بعظمة

---

(١) ترجمة الأصل الفرنسى . . . « إن مصر بلاد لا نظير لها » ، وفى الترجمة الواردة فى الجبرتى بعض عبارات ركيكة أبقيناها لأنها وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها

(٢) كذا فى الجبرتى ، والصحيح البحر الأبيض كما جاء فى الأصل الفرنسى

(٣) الجبرتى الجزء الثالث

مصر القديمة ومركزها الممتاز فى العالم ، ويعترف بأن مصر كانت معلّمة الأمم وحاملة لواء الحضارة والعرفان ، وجميل أن يصدر هذا الاعتراف من قائد دانت له الممالك وخضعت له الرقاب ؛ على أن هذه اللهجة من شأنها أن تبعث فى نفوس سامعيها من أعضاء الديوان روح العزة القومية فتحدو بهم إلى التطلع لإحياء عظمة مصر القديمة وتصرفهم عن الإذعان لحكم الفرنسيين وغير الفرنسيين ، والواقع إن مصر لم تذعن للحملة الفرنسية كما سيراه القارىء فيما يلى .

وفى خطاب نابليون إشارة إلى طمع الدول فى مصر ، وتصريح بما اقترن به الحكم التركى فى مصر من الظلم والخراب ، وهذا الوصف لا يخالف الحقيقة فى شىء ، ولكن الأمر الذى يلفت النظر أن نابليون فى خطابه هذا قد خالف خطته القديمة فى مجاملة تركيا والتظاهر بالمودة للسلطان العثمانى ، فجاهر لأول مرة فى خطاب رسمى علنى بعدائه لتركيا ؛ والسبب فى تغيير خطته بالنسبة لتلك الدولة أنها اتحدت مع إنجلترا والروسيا لمحاربة فرنسا وإخراج جنودها من مصر ، وأعلن الباب العالى الحرب على فرنسا فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فلم ير نابليون بداً من أن يجاهر بعدائه للأتراك ويصارح المصريين بالطعن فى تركيا ويذكرهم بما اتصف به حكمها من الظلم والجهل والغباوة ليصرفهم عن التعلق بها ؛ على أن المصريين كانوا يرون أن تركيا تعمل وقتئذ بمساعدة حلفائها على إجلاء الفرنسيين من مصر ، وجلاؤهم عنها يؤدى إلى ترك البلاد لأهلها ، وقد حققت الأيام صحة هذا النظر ، لأن محمد على لم يحقق استقلال مصر إلا بعد طرد الفرنسين ثم الإنجليز من البلاد .

رآسة الديوان العام

كتب الجبرتى ما يأتى فى وصف انتخاب رئيس الديوان العام ننقله لأنه كمحضر جلسة أو مضبطة لما دار بشأن انتخاب الرئيس : « قال الترجمان : نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصاً منكم يكون كبيراً ورئيساً عليكم ممتثلين أمره وإشارته ، فقال بعض الحاضرين « الشيخ الشرقاوى » فقال نونو (لا لا) وإنما ذلك يكون بالقرعة ، فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى ، فقال حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس ، فلما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس فأذنوا لهم فى الذهاب » .

فانتخاب الرئيس كان إذن بالاقتراع السرى كما يحصل فى المجالس النيابية ، ومن كلام الجبرتى يتبين أن طريقة الاقتراع السرى لم تكن مألوفة للأعضاء ، وأنهم أرادوا انتخاب

الشرقاوى رئيساً بالتصويت العلنى ولـكن الترجمـان نبههم إلى أن يكون الانتخاب سرياً ، ومن أظرف ما فى أسلوب الجبرتى أنه ذكر ما دار بالجلسة حرفياً حتى كلمة (نو نو) ، وهذا يدلك على دقته فى الوصف والرواية .

قرارات الديوان

من الواجب أن نعرف أن الديوان العام لم تكن له سلطة قطعية فى الأمور التى عرضت عليه ، بل كان الغرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه .

إن خطاب افتتاح الديوان مفهوم منه أن عمل الأعضاء مقصور على الإجابة عما يسألون عنه من النُـظم المراد وضعها ، ويكون لنابليون القول الفصل فيما « يليق صنعه » ، وعلى هذه القاعدة انعقد الديوان .

ومن جهة أخرى فقد كانت المسائل التى تعرض على الديوان تدرس فى الوقت نفسه فى لجنة ألفها نابليون برآسته وبعضوية مدير مهمات الجيش[1] ومدير الشؤون المالية[2] وكبير المباشرين[3] ، وأمر بأن تنعقد هذه اللجنة يومياً وتقرر القرارات النهـائية فيما يتداول فيه « الديوان » .

فقرارات الديوان كانت أشبه « برغبات » تعرض على اللجنة التى ألفها نابليون ، ولهذه اللجنة القول الفصل .

(المسألة الأولى) — نظام مجالس الديوان

لم يقل الجبرتى شيئاً عما قرره الديوان فى المسألة الأولى وهى (ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس « الديوان » فى المديريات) .

ويقول دى لاجونكيير[4] إن رأى الديوان العـام فى هذا النظام أن يكون لـكل من الإسكندرية ودمياط ورشيد «ديوان» مؤلف من ١٢ إلى ١٥ عضواً ، وذلك نظراً لأهمية هذه الثغور ، أما باقى المديريات فيكون بكل منها ديوانان أو ثلاثة أو أربعة «دواوين» ، ينعقد كل ديوان فى بندر من البنادر المهمة فيهـا ، ويوفد كل ديوان ثلاثة مندوبين لتمثيله فى الديوان العام بالقاهرة .

---

(١) المسيو سوسى Sucy (٢) المسيو بوسليج

(٣) هو المعلم جرجس الجوهرى الذى كان كبير المباشرين فى عهد المماليك فأبقاه نابليون فى منصبه ، وتجد فى مراسلات نابليون الجزء الرابع أمر نابليون بتعيينه كبيراً للمباشرين (وثيقة رقم ٢٨٩٠)

(٤) كتاب حملة مصر . الجزء الثالث

وقد عرض هذا الرأى على نابليون فعدل فيه بعض التعديل ، وقرر بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أن يكون نظام الديوان كما يأتى :

أن يكون الديوان العام مؤلفاً من ٢٥ عضواً ، منهم تسعة عن القاهرة ، وواحد عن كل مديرية من المديريات الست عشرة التى كان يتألف منها القطر المصرى ، ويكون للديوان اثنان من السكرتيرين المترجمين ، واثنان من الحجاب ، و١٠ من الحراس ، ويكون ثلث أعضاء الديوان العام من مشايخ البلاد ، وثلثهم من التجار ، والثلث من العلماء ؛ ويجتمع كلما دعاه القائد العام إلى الاجتماع ، ويختار من بينه تسعة أعضاء يتألف منهم الديوان الخصوصى الذى يجتمع باستمرار فى القاهرة(١) ، ويكون فى كل مديرية ديوان مؤلف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة فى كل مديرية من العلماء والأئمة ومشايخ البلاد وأكابر وأعيان التجار والصناع ، وهؤلاء يعينهم قومندان المديرية ، ويكون لديوان القاهرة الرآسة على دواوين المديريات ، ولكل ديوان فى مديريته الرآسة والإشراف على القضاة ومشايخ البلاد

(المسألة الثانية) — النظام القضائى المدنى والجنائى

رأى الديوان أن يبقى نظام القضاء على ما كان عليه ، وألا يتغير شىء من ترتيب المحاكم ونظامها ، لكنه طلب أن تحدد رسوم التقاضى التى تدفع للقضاة وموظفى المحاكم ، وطلب أيضا أن يكون تعيين القضاة فى كل مديرية من حقوق « الدواوين » المؤلفة بها

هذا ما ورد فى المراجع الفرنسية ، وإليك ما قاله الجبرتى فى هذا الصدد :

« واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الخميس الموعود سنة ١٢١٣(٢) ، واجتمعوا بالديوان ومعهم ما لخصوه واستأصلوه فى الجملة ، فأما أمر المحاكم والقضايا فالأولى إبقاؤها على ترتيبها ونظامها ، وعرفوهم عن كيفية ذلك ، ومثل ذلك ما عليه أمر محاكم البلاد ، فاستحسنوا ذلك ، إلا أنهم قالوا يحتاج ضبط المحاصيل وتقريرها إلى أمر لا يتعداه القضاة ولا نوابهم ، فقرروا ذلك ، وهو انه إذا كان عشرة آلاف فما دونها يكون على كل ألف ثلاثون نصفاً ، وإذا كان المبلغ مائة يكون على الألف خمسة عشر ، فإن زاد على ذلك فعشرة ، واتفقوا على تقرير القضاة والنواب على ذلك »

---

(١) لم ينفذ هذا التعديل لقيام ثورة القاهرة وإبطال الديوان كما تراه فى الفصل الثالث عشر من هذا الجزء ، ولما أعيد الديوان فى شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ أدخل نابليون فى نظامه تعديلا آخر كما تراه فى الفصل الأول من الجزء الثانى

(٢) ١١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

المسألة الثالثة — التشريع الخاص بالمواريث

تباحث الديوان العام فى نظام التوريث ، فسئل العلماء من الأعضاء عن قسمة المواريث ، فقالوا إنها تقسم بحسب القواعد الشرعية فى تقسيم الميراث ، فسألهم القاضى ملطى عن مصدر تلك القواعد ، فقالوا من القرآن الكريم ، وتلوا بعض آيات المواريث ، فقال المندوبان الفرنسيان إن لهم فى تقسيم المواريث قواعد أخرى ، ويظهر أن الجدال فى هذه المسألة قد طال ، فتداخل ميخائيل كحيل أحد أعضاء الديوان وأيد وجهة نظر العلماء ، وقال نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون ؛ فطلب المندوبان الفرنسيان أن يكتب العلماء قواعد تقسيم المواريث طبقاً لأحكام الشريعة الغراء ومراجعها من الآيات ، فوعدوا بتقديم هذا البيان بجلسة أخرى ، وفعلا قدموه بالجلسة التالية ، وفيه فروض القسمة الشرعية وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك ، فأقرهم نابليون على نظام التوريث الشرعى .

ويقول الجبرتى فى هذا الصدد : « فى يوم الأحد ٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ — ١٣ اكتوبر سنة ١٧٩٨ — اجتمعوا بالديوان وأخذوا فيما هم فيه ، فذكروا أمر المواريث ، فقال ملطى : يا مشايخ أخبرونا عما تصنعونه فى قسمة المواريث ، فأخبروه بفروض المواريث الشرعية ، فقال : ومن أين لكم ذلك ؟ فقالوا من القرآن ، وتلوا عليه بعض آيات المواريث ؛ فقال الإفرنج نحن عندنا لا نورث الولد ونورث البنت ، ونفعل كذا وكذا بحسب تحسين عقولهم ، لأن الولد أقدر على الكسب من البنت ، فقال ميخائيل كحيل الشامى ، وهو من أهل الديوان أيضاً ، نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون ؛ ثم التمسوا من المشايخ أن يكتبوا لهم كيفية القسمة ودليلها ، فسايروهم ووعدوهم بذلك وانفضوا ، وفى يوم الاثنين عملوا لهم ديواناً وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث وفروض القسمة الشرعية وقصص الورثة والآيات القرآنية المتعلقة بذلك فاستحسنوا ذلك » .

المسألة الرابعة — تسجيل عقود الملكة والضرائب العقارية

كان نابليون قبل أن ينعقد الديوان العام قد فكر فى ابتكار الوسائل والنظم لزيادة ما يجبى من الأهالى من الأموال والضرائب المختلفة ، ومن هذه الوسائل أنه وضع نظاما جديداً لإثبات الملكية على قاعدة تسجيل مستندات التمليك فى مقابل رسوم تدفع للتسجيل ، وقد مهد لهذا النظام بإنشاء محاكم جديدة تسمى « المحاكم التجارية » ، ويسميها الجبرتى « محكمة القضايا » أو « محكمة النظام » .

صدر أمر نابليون فى ١٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بإنشاء هذه المحاكم فى كل من القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد ، وتختص بالفصل فى المنازعات التجارية والمدنية ، ويختار أعضاؤها من التجار على اختلاف جنسياتهم ، يعينهم القائد العام لمدة ثلاث سنوات ؛ وقد ألفت محكمة القاهرة من ستة أعضاء من تجار المسلمين وستة من الأقباط برياسة القاضى القبطى ملطى ، وحدد الأمر رسوم التقاضى باثنين فى المائة من قيمة المنازعات التى تطرح أمام المحاكم

وأصدر نابليون أمراً آخر فى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بإنشاء إدارة لتسجيل مستندات التمليك [1] ، وأمر بأن يقدم جميع ملاك العقارات حجج تمليكهم القديمة والجديدة لتسجيلها فى مقابل رسوم ٢ فى المائة من قيمة العقارات يدفعها الملاك أجمعون

وإليك خلاصة الأمر : « ينشأ فى عاصمة كل مديرية مكتب لتسجيل جميع سندات التمليك والعقود ، ويدفع عن التسجيل رسم نسبى طبقاً للائحة الرسوم [2] ، ولا يعترف بالملكية إلا للعقود والسندات المسجلة ، وإذا لم تسجل تصادر الملكية لجانب الجمهورية ، وعلى جميع الملاك أن يسجلوا سندات ملكيتهم فى مدى ثلاثين يوما من نشر هذا الأمر [3] ، وإذا لم يتم التسجيل فى هذه المدة يدفع الملاك ضعف الرسم المقرر للتسجيل ، وإذا انقضى شهر آخر ولم يقع التسجيل تصادر الملكية لجانب الجمهورية (الفرنسية) ؛ ومن الآن فصاعداً يجب تسجيل عقود البيع والبدل والتنازل والهبة فى مدى عشرة أيام من تحرير العقد وإلا يعتبر باطلا ؛ وكذلك يجب تسجيل الوصايا فى مدة ثلاثة أشهر على الأكثر من وفاة الموصى ، وتسجيل عقود التخارج والقسمة بين الورثة فى مدة عشرة أيام من تاريخ تحريرها ، ويحصل التسجيل بقيد ملخص العقود فى دفاتر تعدها إدارة التسجيلات لهذا الغرض »

ضج الأهالى من هذه الرسوم لأنها كانت أشبه بضريبة جديدة لم يكونوا يدفعونها من قبل ، والواقع أن نابليون كان يرمى من وضع هذا النظام إلى ابتكار وسيلة جديدة لجمع المال من الأهالى

وفرض كذلك ضرائب سنوية على جميع أصحاب الحرف والصنائع ، فسخط الصناع وأصحاب الحرف من هذه الغرامات

---

(١) سميت هذه الإدارة « مصلحة التسجيلات وإدارة أملاك الحكومة » وجعل مقرها فى بيت مرزوق بك بعابدين ، وأعلن عنها فى جريدة (كورييه دليجبت) بالعدد الصادر فى ٢٥ فاندميير من السنة السادسة للجمهورية (٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨)

(٢) قدر الرسم فى اللائحة باثنين فى المائة عن معظم المعاملات

(٣) بالنسبة لسكان القاهرة وشهرين بالنسبة لسكان الأقاليم

وإليك ما قاله الجبرتى عن محكمة القضايا ونظام التسجيل :

« وفيه شرعوا فى ترتيب ديوان آخر سموه محكمة القضايا ، وكتبوا فى شأن ذلك طوماراً (منشوراً) وشرطوا فيه شروطاً ، ورتبوا فيه ستة أنفار من القبط وستة أنفار من تجار المسلمين ، وجعلوا قاضيه الكبير ملطى القبطى الذى كان كاتباً عند أيوب بك الدفتردار ، وفوضوا إليهم القضايا فى أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى ، وجعلوا لذلك الديوان (المحكمة) قواعد وأركانا من البدع السيئة ، وكتبوا نسخاً فى مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد ، وشرطوا ضمنه شروطا ، ومن ضمن تلك الشروط شروط أخرى بتعبيرات سخيفة يُفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية ، ومحصله التحايل على أخذ الأموال كقولهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم (مستنداتهم) الشاهدة لهم بالتمليك ، فإذا أحضروها وبينوا وجه تملكهم لها إما بالبيع أو الانتقال لهم بالإرث لا يكتفى بذلك ، بل يؤمر بالكشف عليها فى السجلات ، ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه ، فإن وجد تمسكه مقيداً بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت ، ويدفع على ذلك الإشهاد بعد ثبوته وقبوله قدر آخر ، ويأخذ بذلك تصحيحاً ، ويكتب له بعد ذلك تمكين ، وينظر بعد ذلك فى قيمته ، ويدفع على كل مائة اثنين ، فإن لم يكن له حجة أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد فإنها تضبط لديوان الجمهور (الجمهورية) وتصير من حقوقهم » (١) .

ولا شك أن مثل هذا النظام يؤدى بالناس فى ذلك العهد إلى العنت والإرهاق ، وكثيراً ما يفضى إلى ضياع الملكية ومصادرتها لجانب الحكومة ، لأن الملكية قد تنشأ عن الميراث وقد يتعذر إحضار الشهود عليها فتصادر وتسلب من صاحبها ؛ ولم يسمع فى أى نظام من نظم التسجيلات العقارية أن يسرى على العقود القديمة ، لأن القوانين لا تسرى على الماضى ، وليس مما تسيغه العدالة اعتبار أن عدم إثبات الملكية بالطرق التى يفرضها النظام الجديد يؤدى إلى مصادرتها وضمها للحكومة ، فالغرض من وضع هذا النظام هو كما يقول الجبرتى : « التحايل على أخذ الأموال » .

وضع نابليون هذا النظام قبل انعقاد الديوان العام ، فلما اجتمع الديوان للمباحثة فيه أبدى الأعضاء استياءهم منه ، واعترض المشايخ على إكراه جميع الملاك على تقديم مستندات تمليكهم القديمة لتسجيلها ، وقالوا إذا كان الغرض وضع ضريبة على الأملاك فلتفرض على العقارات نفسها ، وقد وافقهم نابليون على اعتراضهم ، وكانت موافقته بنصيحة المسيو بوسليج

(١) الجبرتى جزء ٣

Poussielgue مدير الشؤون المالية ، فإنه أشار على نابليون فى تقرير قدمه فى هذا الصدد بإجابة الديوان إلى طلبه ، وأوضح فى تقريره بأنه يتعذر تسجيل مستندات التمليك القديمة عن البيوت والمنازل لأن معظمها بناها ملاكها وليس بأيديهم حجج بها ، ولأن إجراء التحقيق عن مصدر الملكية لكل منزل عمل شاق لا يمكن أن يؤدى إلى نتيجة ، ولا يمكن أن يتم فى الثلاثين يوما المحددة لتقديم الحجج وتسجيلها ، وقد ذكر فى تقريره أن عدد منازل القاهرة وبولاق ومصر القديمة فى ذلك الحين زهاء مائة ألف منزل ، وعدد الملاك من خمسين إلى ستين ألف مالك ، واستنتج فى تقريره استحالة تنفيذ مشروع التسجيل ، فاستعاض الفرنسيون عن هذا المشروع بفرض ضريبة على العقارات ذاتها

وخلاصة هذه الضريبة أنهم قسموا المبانى إلى أنواع ، وكل نوع إلى درجات ، لكل نوع ضريبة تقدر بحسب درجاته كما تراه فى البيان الآتى (١) :

	الدرجة الأولى		الثانية		الثالثة	
الوكائل	١٨	ريال	٩	ريالات	٤	ريالات
الحمامات	١٥	«	١٠	«	٥	«
معاصر الزيت	٨	«	٤	«	١	«
معاصر السمسم	٣	«	١	«	١	«
طواحين الغلال	٢	«	١	«	٠	«
الأحواش	٢	«	١	«	٠	«
الحوانيت	٢	«	١	«	½	«
القهوات	٢	«	١	«	½	«
الجباسات	٢	«	١	«	٠	«
البيوت والغرف	٨	«	٤	«	٢	«

وقرروا على بيوت الدرجة الرابعة ربع ريال

ويقضى الأمر بأن تدفع الضريبة فى السنة على قسطين ، وبأن يعين مدير الشؤون المالية المهندسين لتقسيم المبانى والعمارات إلى الدرجات التى تناسبها ، وبأن تعمم هذه الضريبة فى الإسكندرية ورشيد وفوه ودمياط مع انقاصها فى هذه المدن إلى النصف ، وعدا ذلك تؤخذ رسوم تتراوح بين ٢ و ٥ فى المائة عن العقود الجديدة فى البايعات ، وعقود نقل الملكية والتنازل عنها ، والتصرفات والإيجارات والمداينات والهبات وعقود الزواج ، ورسوم أخرى محددة ع

(١) نقلنا هذا البيان عن الأمر الذى أصدره نابليون فى ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، فى جريدة كوريه دليجبت

التوكيلات وجوازات السفر وشهادات الميلاد وإثبات الوفيات والتركات والإشهادات وغير ذلك ، أصدر نابليون أمره بهذه الضرائب الجديدة دون أن ينتظر رأى الديوان فيها ، وصدر الأمر والديوان منعقد فى جلسته الأخيرة

وإليك ما قاله الجبرتى فى هذا الصدد : « وفى يوم السبت ١٠ جمادى الأولى (٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨) عملوا (عقدوا) الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار ، فجعلوا على الأعلى (الدرجة الأولى) ثمانية (ريالات) فرانسه ، والأوسط ستة ، والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معاف ؛ وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين(ريالا) بحسب الخسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتميز الأعلى من الأدنى ، وشرعوا فى الضبط والإحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها »

ورواية الجبرتى فيما يتعلق بقيمة الضرائب تختلف كما ترى عن نص الأمر الذى أصدره نابليون فى صددها ، ولعل سبب الاختلاف أن المنشورات التى أصدرها الفرنسيون بهذه الضرائب وألصقوها بالمفارق والطرق واطلع عليها الجبرتى قد حوت من الضرائب أكثر مما فرضه نابليون فى أمره

وظاهر من رواية الجبرتى أنه لم تحصل مناقشة فى الديوان بشأن هذه الضريبة وقيمتها ، لأن الفرنسيين كانوا مصممين على فرضها فلم يسمحوا بمناقشة فيها ووضعوا الديوان أمام الأمر الواقع

كان تقرير هذه الضرائب الفادحة من أهم الأسباب التى نفرت المصريين من حكم الفرنسيين ، لأن هذه الضرائب على فداحتها قد عمت الأغنياء والفقراء ، ولم يكن أصحاب الدكاكين والحوانيت يدفعون ضريبة عقارية فى عهد المماليك ، فعظم استياؤهم واشتد سخطهم وهم أغلبية السكان ، وتجاوز الاستياء إلى الأغنياء لأن الضرائب الجديدة أثقلت العبء على الملاك ، وفرضت عليهم أموالا لم يكونوا يغرمونها فى عهد المماليك ، فكانت فداحة تلك الضرائب من أكبر العوامل التى أدت إلى ثورة القاهرة

انفضّ الديوان العام يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ (١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣) دون أن يستطيع تخفيف فداحة الضرائب التى استحدثها الفرنسيون ، لذلك لم يكد ينفض حتى شبت نار الثورة فى القاهرة كما نراه فى الفصل الثالث عشر

نفسه

الآن وقد انتهينا من الكلام عن الديوان العام ، فلنتكلم على المجمع العلمى ، وقد أفردنا له

الفصل الرابع

المجمع العلمى

معهد للعلوم ومجلس استشارى للحكومة

أسس نابليون بجانب الديوان مجلساً له صبغة علمية وله علاقة بإدارة الحكومة وهو (المجمع العلمى المصرى) Institut d'Egypte ، اختار لعضويته خلاصة أعضاء « بعثة العلوم والفنون» التى صحبها معه إلى مصر ، وتكلمنا عنها فى الفصل الثانى (ص ٥٩)

تضم هذه البعثة علماء الحملة الفرنسية ورجال الفن فيها ، وقد كانوا منتظمين فروعاً بحسب العلوم والأعمال التى انقطعوا لها أو توفروا عليها ؛ وإلى القارىء بيان هذه الفروع : الرياضة والهندسة ، الفلك ، الميكانيكا ، الكيمياء ، طبقات الأرض والمعادن ، النباتات ، حياة الحيوان ، الطب والجراحة ، الصيدلة ، الاقتصاد السياسى ، الآثار القديمة ، هندسة المعمار ، التصوير ، الرسم ، هندسة الرى والطرق والجسور ، الهندسة الجغرافية ، الهندسة البحرية والميكانيكية ، النقش ، الحفر ، الأدب ، الموسيقى ، طلبة مدرسة الهندسة العالية ، الترجمة ، الطباعة العربية والفرنسية

فلما جاء أعضاء البعثة إلى الإسكندرية صحبة الحملة بقوا فيها بلا عمل حتى انتهت الحركات الحربية ودخل نابليون القاهرة ، فاعتزم بعد موقعة الأهرام الانتفاع بمواهب أولئك العلماء والفنيين وتمكينهم من العمل فى النواحى التى تخصصوا لها ، فاستدعاهم إلى القاهرة وفكر فى إنشاء «المجمع العلمى المصرى» على مثال المجمع العلمى الفرنسى الذى كان هو عضواً فيه[1] ، وانتخبه من نوابغ البعثة وضم إليهم نخبة من كبار القواد والضباط ممن لهم باع فى العلوم

عزم نابليون على إنشاء هذا المجمع عقب انتهائه من مطاردة إبراهيم بك إلى سوريا وعقب وصول نبأ كارثة العمارة الفرنسية فى موقعة « أبو قير » ، وعهد إلى سبعة من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقواد الجيش اختيار أعضائه ، وهؤلاء السبعة هم العلماء مونج Monge وبرتوليه Berthollet ، وجوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire ، وكوستاز Costaz ، والطبيب ديجنت Desgenettes ، وكل من الجنرالين كافريللى Caffarelli وأندريوسى Andreossi

---

(١) أنشىء المجمع العلمى الفرنسى سنة ١٧٩٥ ، وانتخب نابليون عضواً به فى ديسمبر سنة ١٧٩٧

ثم أصدر أمره بإنشاء هذا المجمع فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١) وضمنه الغرض من إنشائه وبيان اختصاصاته ، وهذا الأمر يتألف من ست وعشرين مادة تتلخص فيما يلى :

الغرض من المجمع — يتألف فى مدينة القاهرة مجمع للعلوم والفنون الغرض منه :

(١) تقدم العلوم والمعارف فى مصر . (٢) دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشر هذه الأبحاث . (٣) إبداء رأيه للحكومة فى المسائل التى تستشيره فيها

أقسام المجمع — يتألف المجمع من أربعة أقسام : قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعيات ، وقسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الآداب والفنون

ويتألف كل قسم من اثنى عشر عضواً

انعقاد المجمع — يجتمع المجلس مرتين فى الشهر ، ويجوز لقواد الجيش الفرنسى وضباطه أن يحضروا جلساته

مكتب المجمع — ينتخب المجلس بين أعضائه هيئة مكتب المجلس ، وتتألف من الرئيس ، ونائب الرئيس ، ويعاد انتخابهما كل ثلاثة أشهر ، وسكرتير دائم ، ومدير يعاد انتخابه كل سنة ، وأمين دائم لمكتب المجلس ، ومترجم عربى ، ويجوز أن يكون من الأعضاء

أبحاث المجمع — ينشر المجلس مجموعة أبحاثه كل ثلاثة أشهر ، وتشمل هذه المجموعة مذكرات أعضائه وتقارير اللجان التى يؤلفها لدرس المسائل التى تعرضها عليه الحكومة

يقرر المجلس إعطاء جائزتين كل سنتين ، الأولى لأهم بحث خاص بتقدم الحضارة والمدنية فى مصر ، والثانية لأهم بحث خاص بتقدم الصناعة ، وتتألف لتوزيع الجائزتين لجنة تنتخب بالاقتراع مؤلفة من خمسة أعضاء يدرسون الأبحاث المقدمة فى المسابقة ويقررون البحث الذى يستحق الجائزة ، وتطبع الأبحاث التى أجيزت فى مجموعة المجلس ، وكذلك الأبحاث التى لم تنل الجائزة متى رأت اللجنة أنها جديرة بالنشر

أعضاء المجمع العلمى

قلنا إن نابليون اختار لعضوية المجمع العلمى خلاصة أعضاء بعثة العلوم والفنون الذين صحبهم معه حين مجيئه إلى مصر ، وانتظم هو معهم فى سلك المجمع ، فصار مؤلفاً من ستة وثلاثين عضواً موزعين على أربعة أقسام

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٨٣

قسم الرياضات — : مونج Monge ، نابليون بونابارت ، فورييه Fourier ، كوستاز Costaz ، نوي Nouet ، كينو Quesnot ، لوبير Le Père ، جيرار Girard ، لروا Le Roy ، الجنرال أندريوسي Andreossi ، ساي Say ، مالوس Malus

قسم الطبيعيات — : برتوليه Berthollet ، دولوميو Dolomieu ، كونتي Conté ، جوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire ، ديكوتيل Descotils ، سافيني Savigny ديبوا Dubois ، ديجينت Desgenettes ، شامبي Champy ، دليل Delile

قسم الاقتصاد السياسي — : الجنرال كافاريلي Caffarelli ، جلوتييه Gloutier ، سوسي Sucy مدير مهمات الجيش ، سولكوسكي Sulkowsky ، تاليان Tallien ، بوسليج Poussielgue

قسم الآداب والفنون — : برسفال دجرانميزون Perseval De Grandmaison عضو الأكاديمي الفرنسية ، فانتور Venture ، نوري Norry ، دوترتر Dutertre ، فيفان دينون Vivant Denon ، ريجل Rigel ، ردوتي Redouté ، القسيس رفائيل دموناخيس Raphael de Monachis

وقد تغير بعض أعضاء المجمع العلمي وحل محلهم غيرهم ، وهذه هي التغييرات التي حدثت مدة وجود نابليون في مصر :

قسم الرياضيات — : عين المهندس لانكري Lancret بدلا من ساي الذي قتل في الحملة على سوريا

قسم الطبيعيات — : عين الدكتور لاري Larrey رئيس الجراحين بدلا من ديبوا ، وأضيف عضو جديد وهو بوشان Beauchamps

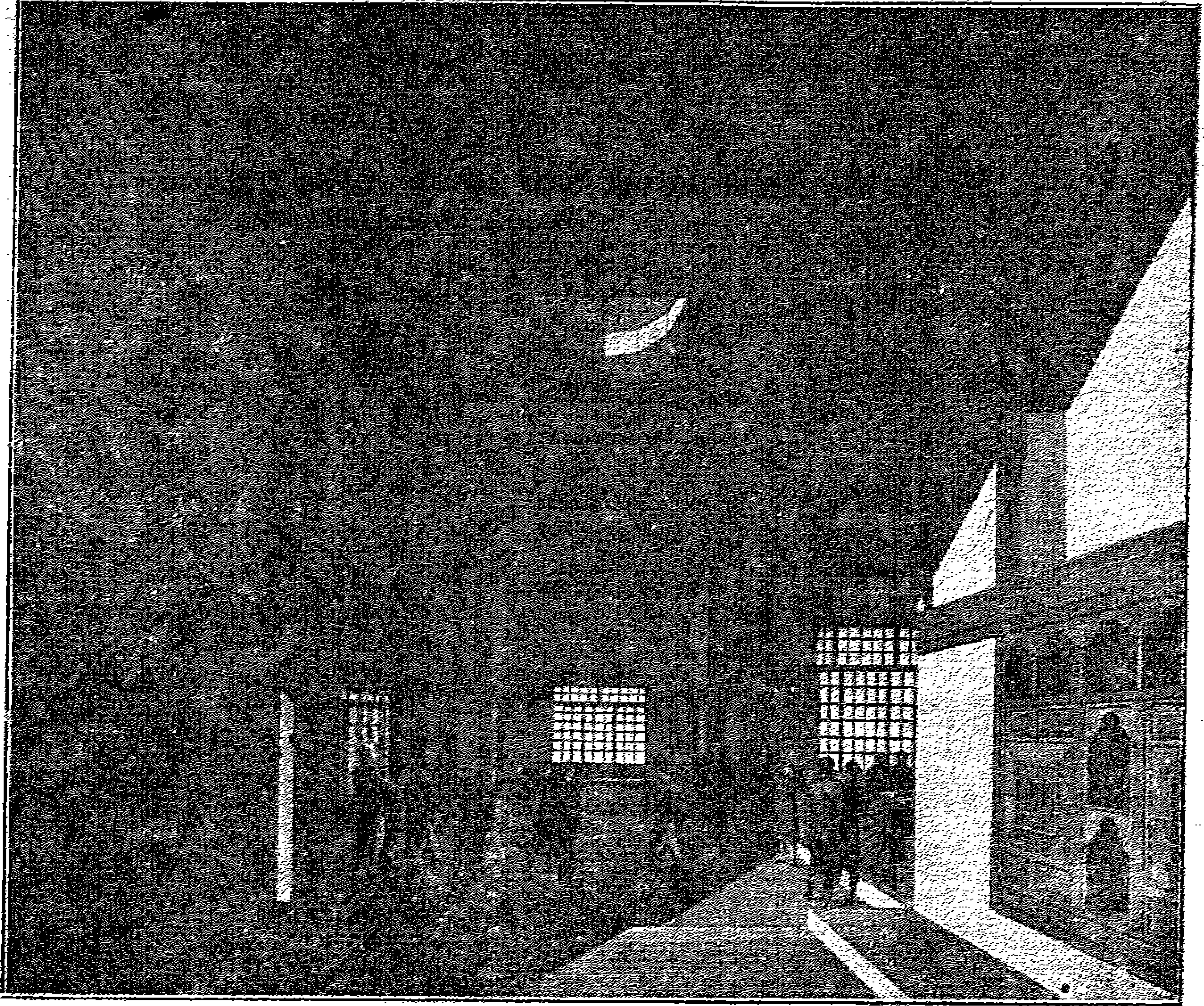
قسم الاقتصاد السياسي — : عين كورانسز Corrancez بدلا من الجنرال كافاريلي الذي قتل في حصار عكا ، وبوريين Bourrienne سكرتير نابليون الخاص بدلا من سوسي

قسم الآداب والفنون — : عين المهندس المعماري لوبير Lepère بدلا من نوري ، وعين ريبول Ripault أمين مكتبة المجمع بدلا من فانتور وأضيف إليهم الرسام ريجو Rigo

دار المجمع العلمي

اختار نابليون قصر حسن كاشف شركس بالناصرية مقراً للمجمع العلمي ، وألحق به القصور المجاورة له التي ابتناها المماليك ، وخصصها لسكن أعضاء المجمع وبعثة العلوم والفنون ،

كقصر قاسم بك[1] ، وبيت إبراهيم كتخدا السنارى ، وبيت أمير الحج المعروف بأبى يوسف



المجمع العلمى بالقاهرة سنة ١٧٩٨
(سراى حسن كاشف شركس بالناصرية حيث المدرسة السنية الآن)
وترى نابليون واقفاً فى قاعة الجلسات يحيط به لفيف من أعضاء المجمع

كانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور المماليك بالقاهرة (ومكانها الآن المدرسة السنية بالناصرية) ، وصفها الجبرتى خلال كلامه عن حسن كاشف فقال : «إنه عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالا عظيمة ، وقبل بياضها وصل الفرنسيس إلى الديار المصرية فسكنها الفلكيون والمدبرون وأهل الحكمة والمهندسون (أعضاء المجمع العلمى) ، فلذلك صينت من الخراب كما وقع لغيرها من الدور لكون عسكرهم لم يسكنوا بها» ، وذكرها المسيو جوفروا سان هيلير أحد كبار أعضاء المجمع العلمى فى رسائله المنشورة بكتابه (رسائل من مصر) ، وظاهر مما كتبه عنها أنها كانت غاية فى الفخامة ، فقد كتب بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة إلى العلامة كوفييه Cuvier يقول فيها :

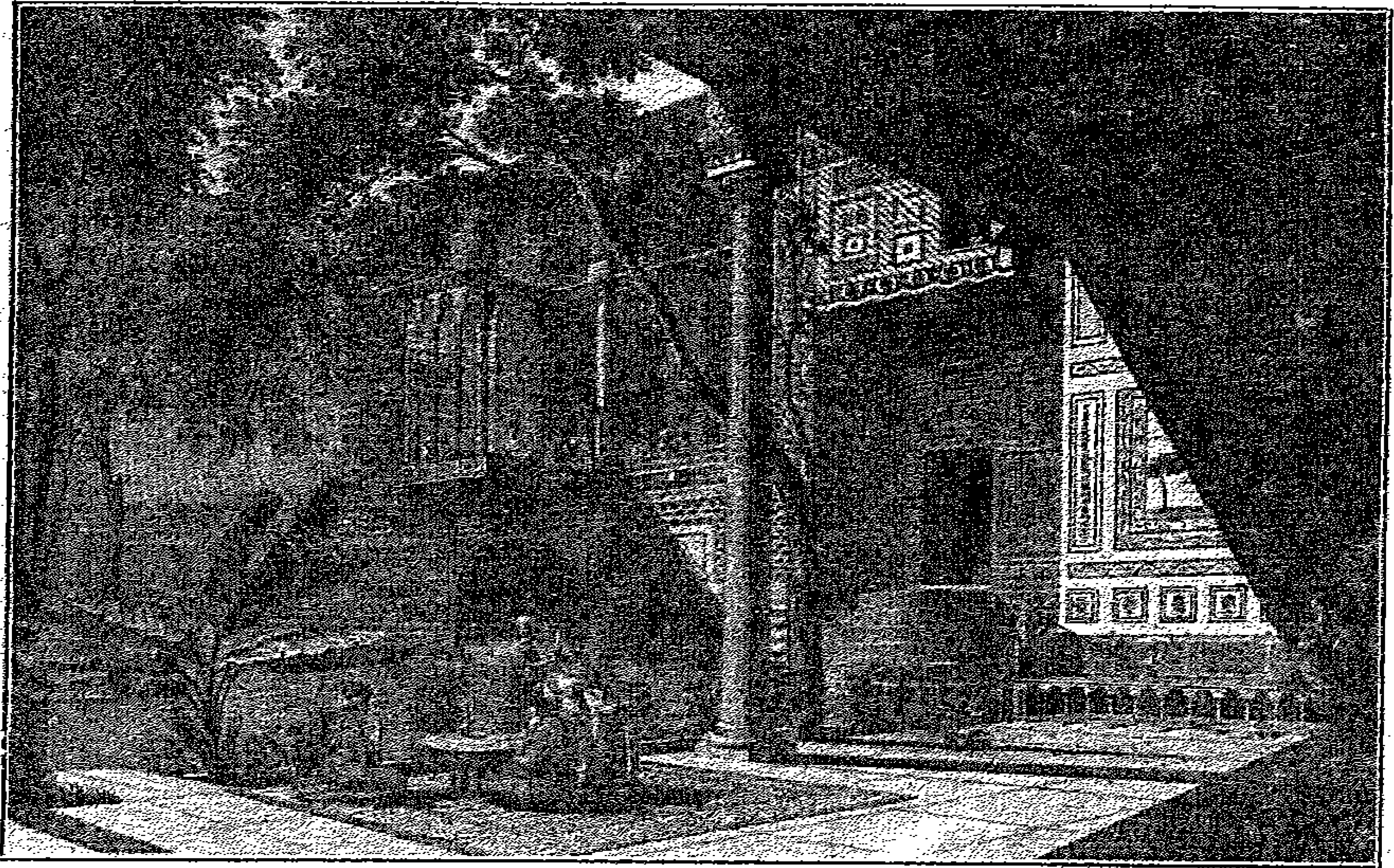
---

(١) مكان قصر قاسم بك الآن عمارة الأوقاف الكائنة بشارع الكومى ، جاء فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر أن بيت قاسم بك كان يسكنه أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وأنه مجاور لقصر حسن كاشف الذى كان مقراً للمجمع العلمى .

«عدت من المجمع العلمى بالقاهرة ، وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات (قصر حسن كاشف وقصر قاسم بك) وبيتين من بيوت الأغنياء ، وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنيون ، وفيها من أسباب الفخامة ما لا يقل عن اللوفر ، وإنا لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما فى اللوفر ، وبجوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فدانا جيدة الغراس ، وقد خصصناها للزراعة والنبات ؛ أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزدانة بأجمل ما فى قصور المماليك من الأثاث»

وباسم حسن كاشف سميت الحارة المعروفة الآن بحارة حسن الكاشف الواقعة بجوار المدرسة السنية ، وتنتهى هذه الحارة قريباً من دار إبراهيم كتخدا السنارى [١] التى خصصها أعضاء المجمع العلمى للرسم والتصوير والباقية إلى اليوم ، وسميت الحارة التى بها هذه الدار حارة مونج Monge تخليداً لاسم المسيو مونج الذى كان رئيساً للمجمع العلمى فى عهد بونابارت

وقد أنشأ المسيو جلياردو بك سنة ١٩١٧ فى دار ابراهيم كتخدا السنارى متحفا أسماه (متحف بونابارت) ، وبقى هذا البيت إلى الآن كما بناه صاحبه إبراهيم كتخدا السنارى وهو مثال قائم لبيوت المماليك ، وقد أدخلته لجنة حفظ الآثار العربية ضمن الآثار التى تعنى بها وتحافظ عليها ، وصرحت للمسيو جلياردو بك بأن ينشئ به متحفه وهو يحوى كثيراً من الصور والخرائط والطرف والآثار والكتب والمستندات والوثائق والمخطوطات عن عهد الحملة الفرنسية فى مصر ، وقد زرت هذا المتحف غير مرة ، وأطلعنى المسيو جليياردو بك على ما جمعه فيه من النفائس ، وأذن لى بأن أنقل بعض الصور التى يزين بها متحفه وبعض الوثائق التى جمعها [٢]



سراى قاسم بك بالناصرية حيث كان يسكن أعضاء لجنة العلوم والفنون

(١) هو وكيل مراد بك ولذلك سمى (كتخدا) ، وسنارى نسبة إلى سنار بتشديد النون وهى بلدة بالسودان على النيل الأزرق.

(٢) توفى المسيو جلياردو بك سنة ١٩٢٧

طائفة من أعضاء المجمع العلمى

ولجنة العلوم والفنون

نذكر هنا طرفا من حياة بعض من اشتهروا أو ترددت أسماؤهم فى فصول الكتاب من أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون ، ليكون لدينا فكرة عامة عن أشخاصهم

علماء الرياضيات والمهندسون .

مونج

سنة ١٧٤٦ — ١٨١٨

هو جاسبار مونج Gaspard Monge أكبر علماء الرياضيات بفرنسا فى ذلك العصر ، وله فيها شهرة عالية ، وهو مؤسس الهندسة الوصفية ، وأحد مؤسسى مدرسة الهندسة بفرنسا وأحد أساتذتها المشهورين ، وعضو بالمجمع العلمى بفرنسا ، تقلد زمناً وزارة الحربية فى عهد الجمعية التشريعية ، وقد تلقى عليه نابليون علوم الطبيعة فى مدرسة باريس الحربية ، وكان موضع احترامه وإجلاله ، ووقع عليه الاختيار لرآسة المجمع العلمى بمصر ، وكان هو روح أبحاث المجمع العلمية ؛ ولما عاد إلى فرنسا رجع إلى التدريس فى مدرسة الهندسة وبذل جهداً كبيراً فى جمع أبحاث علماء الحملة الفرنسية ، وعينه نابليون فى عهد الإمبراطورية عضواً بمجلس الشيوخ ، ومنحه لقب « كونت بيلوز » تذكاراً لأعماله وأبحاثه فى مصر ؛ وله مؤلفات ومذكرات عديدة فى العلوم الرياضية وبخاصة الهندسة ، وباسمه سميت (حارة مونج) بالناصرية بجوار المدرسة السنية الآن

كوستاز Costaz

١٧٧٦ — ١٨٤٢

من علماء الرياضيات وعضو بالمجمع العلمى الفرنسى ، كان مدرسا بمدرسة الهندسة العالية (السنترال) بفرنسا حينما اختاره نابليون لعضوية لجنة العلوم والفنون ، وبعد انتهاء الحملة عاد إلى فرنسا ، وعين سنة ١٨١٣ مديراً عاما لإدارة الرى والقناطر والجسور بفرنسا ، ومنح لقب بارون .

لوبير Le Père

١٧٦٣ — ١٨٤١

هو كبير مهندسى الرى والطرق والجسور فى عهد الحملة الفرنسية ، وواضع التقرير المشهور عن إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ؛ عهد إليه نابليون أن يدرس هذا المشروع ، فقضى عامين فى فحصه ودراسته ، وعاونه فيه بعض مهندسى الحملة ، وقدم به تقريراً إلى نابليون بعد مغادرته مصر (وكان «قنصلا أول») ، وتصميم المشروع كما وضعه المسيو لوبير أن تحفر ترعة من السويس إلى البحيرات المرة ويعاد حفر الخليج القديم المعروف بخليج أمير المؤمنين (١) إلى أن يتلاقى مع بحر مويس بقرب بوباسط(٢) ، ومن بحر مويس إلى فرع دمياط ، ومنه إلى الترعة الفرعونية ، ومنها إلى فرع رشيد ، ومنه إلى الإسكندرية بواسطة ترعة الإسكندرية ، وقد حبذ المسيو لوبير كذلك فكرة وصل البحرين رأسا بواسطة ترعة أخرى تخترق برزخ السويس فيما بين بيلوز(٣) (الطينه) على البحر الأبيض ومدينة السويس على البحر الأحمر ، غير أنه اعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر مشروعه فى كتاب «تخطيط مصر» الجزء الحادى عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترعة الفراعنة القديمة وخليج أمير المؤمنين وتخطيط الجهات التى ينفذ فيها المشروع ونفقات إنفاذه ، ويقع هذا البحث فى أكثر من ثلثمائة صفحة وهو من أجل الأبحاث التى وضعها علماء الحملة الفرنسية ، والمسيو لوبير هو الذى تولى إصلاح بناء المقياس بالروضة وكتب له الديوان لمناسبة عمله كتاب شكر نشرناه فى قسم الوثائق التاريخية ، وله بحث مستفيض عن مقياس الروضة نشر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثانى عشر

جراتيان لوبير Gratien Le Père

هو أخو المسيو لوبير المتقدم ذكره ، وهو من مهندسى الحملة الفرنسية ، شارك أخاه فى بعض

---

(١) هو الخليج الذى حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الأحمر ، يبدأ من مصر القديمة حيث يبتدئ خليج مصر اليوم حتى القاهرة ومنها إلى المطرية ومنها إلى العباسية ؛ ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة التى كانت تخرج من فرع النيل البيلوزى القديم وتسير بمحاذاة وادى الطميلات ، ثم تنثنى جنوباً فتخترق البحيرات المرة ، ثم تصب فى البحر الأحمر

(٢) قرب الزقازيق

(٣) شرقى الموضع الذى به بور سعيد الآن

أبحاثه ، وله بحث خاص مستفيض فى تخطيط مدينة الإسكندرية نشر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر ، وبحث آخر فى بحيرات مصر وصحاريها نشر فى الجزء السادس عشر ، وقد رسم لوبير الكبير خريطة الإسكندرية الحديثة ورسم المسيو جراتيان لوبير خريطة الإسكندرية القديمة ، وكلتاهما مطبوعة فى مصور كتاب تخطيط مصر

جيرار Girard

١٧٦٥ — ١٨٣٦

زميل المسيو لوبير كبير المهندسين ووكيله فى إدارة أعمال الرى ، درس ترع القطر المصرى ، وله رسالة بديعة عن حالة مصر الزراعية والصناعية والتجارية نشرت فى كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر ، وانتخب عضواً فى المجمع العلمى الفرنسى

جومار

١٧٧٧ — ١٨٦٢

هو المسيو إدم فرنسوا جومار Edme François Jomard ، ولد سنة ١٧٧٧ ، وتعلم الهندسة فى مدرسة القناطر والجسور ثم فى مدرسة الهندسة ، وجاء إلى مصر ضمن المهندسين الجغرافيين من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وله فى مصر أبحاث جغرافية وأثرية على جانب كبير من القيمة ، وقد اشترك فى رسم خريطة مصر ، وعاد إلى فرنسا سنة ١٨٠١ بعد مقتل الجنرال كليبر ، واشترك من سنة ١٨٠٣ فى وضع كتاب (تخطيط مصر) ، وكان عضواً من أهم أعضاء اللجنة التى ألفتها الحكومة للعمل فى وضع هذا الكتاب الجليل ، وتولى تنظيم العمل بعد وفاة المسيو لانكرى ، وقضى سبعة عشر عاماً مشتغلا فى إظهار الكتاب ؛ وله فيه أبحاث ممتعة هندسية وجغرافية وأثرية شغلت عدة أجزاء من الكتاب ، ومن أهمها بحث مستفيض عن تخطيط القاهرة القديمة والحديثة نشر فى الجزء التاسع عشر منه ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى مكافأة له على أبحاثه فى الآثار المصرية ، واشترك فى إنشاء الجمعية الجغرافية بفرنسا ، وكان من يوم أن عاد من مصر لا يألو جهداً فى دراسة الأبحاث العلمية الخاصة بها ، وفى سنة ١٨٢٦ تولى رآسة أول بعثة مصرية أرسلها محمد على الكبير إلى فرنسا لتلقى العلوم فى مدارسها ، فأمد تلاميذ هذه البعثة والبعثة التى تلتها برعايته العلمية والأدبية ، وقد أنجبت هذه البعثات طائفة من علماء مصر الذين كان لهم فضل كبير فى نهضتها ، وكان للمسيو جومار مكانة كبيرة عند محمد على باشا وكذلك عند سعيد باشا ، وأنعم عليه بلقب بك ، فكان

يعرف فى مصر باسم « جومار بك » وأنعم عليه كذلك بالوسام المجيدى ، ولما أعيد إنشاء المجمع العلمى المصرى أسندت إليه رياسته الفخرية سنة ١٨٦١ ، فكان صلة الاتصال الباقية بين المجمع العلمى المصرى القديم وبين الحديث ، وظل مكباً على أبحاثه العلمية إلى أن توفى سنة ١٨٦٢ وله من العمر خمس وثمانون سنة ، وهو معدود فى فرنسا من كبار علماء الجغرافية والآثار القديمة

فوريه Fourier

١٧٦٨ — ١٨٣٠

من علماء الرياضيات ، كان مدرساً فى مدرسة الهندسة قبل انتظامه فى سلك لجنة العلوم والفنون ، وانتخب سكرتيراً دائماً للمجمع العلمى ، وتولى رآسة الإدارة القضائية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية ، وله أبحاث ممتعة فى كتاب تخطيط مصر ، وهو واضع مقدمة الكتاب ؛ أنعم عليه نابليون برتبة بارون ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٨١٦ ، ثم عضواً بأكاديمية الآداب سنة ١٨٢٧ ، وأقيم له تمثال فى بلدة أوكسير Auxerre مسقط رأسه

لانكرى Lancret

١٧٧٤ — ١٨٠٧

من علماء الرياضيات ومن مهندسى القناطر والجسور ومن علماء الآثار ، وله أبحاث مستفيضة عن آثار الوجه القبلى وتخطيطها نشرت فى كتاب تخطيط مصر ، وله بحث جغرافى عن الفرع الكانوبى من فروع النيل القديمة ، نشر فى الجزء الأول من كتاب تخطيط مصر ، وتولى إدارة العمل لتأليف الكتاب بعد وفاة كونتى سنة ١٨٠٥ ، ومات هو سنة ١٨٠٧

كورانسز Corrancez

من خريجى مدرسة الهندسة العالية (السنترال) ، انتخب عضواً فى المجمع العلمى المصرى خلفاً للجنرال كافريللى ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٨١١ ، وله كتاب فى تاريخ الوهابية من بدء ظهورها إلى سنة ١٨٠٩

جالوا Jallois

١٧٧٦ — ١٨٤٢

مهندس رى تخرج فى مدرسة الهندسة بفرنسا ، ومنقب فى الآثار ، وله « يوميات » عن الحملة ، وله عدة أبحاث عن الآثار المصرية نشرت فى كتاب تخطيط مصر

دفيلييه De Villiers

١٧٨٠ — ١٨٥٥

مهندس قناطر ورى وآثار ، وله يوميات[1] دوّن فيها ما شاهده فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، نشرها حفيده البارون مارك دى فيلييه ، وكان جالوا ودفيلييه متلازمين فى أبحاثهما الأثرية ، وأبحاثهما المشتركة منشورة فى كتاب تخطيط مصر .

الكولونل جاكوتان Jakotin

١٧٦٥ — ١٨٢٧

هو من المهندسين الجغرافيين الذين جاءوا مع الحملة ، وقد تولى رآستهم بعد مقتل كبيرهم المسيو تستفيود فى ثورة القاهرة ؛ وعهد إليه نابليون فى وضع خريطة مصر العامة ، فاشترك فى تخطيطها مع المهندسين الجغرافيين ومهندسى الرى فى عهد الحملة الفرنسية ، وهى عبارة عن مجموعة خرائط كبيرة مفصلة طبعت فى مصورات كتاب تخطيط مصر ، وقد تم وضعها بعد انسحاب الفرنسيين من مصر ، وقدمت إلى نابليون (وكان قنصلا أول) فى شهر اكتوبر سنة ١٨٠٣ فأمر بطبعها على نفقة الحكومة الفرنسية واستدعى ذلك جهداً كبيراً لإعداد معدات الحفر والطبع وتدوين أسماء البلاد والمواقع باللغة الفرنسية والعربية ، وإلى الكولونل جاكوتان يرجع الفضل فى إخراج هذه الخريطة ولذلك نسبت إليه وسميت (خريطة جاكوتان) وهى مؤلفة من ٤٧ خريطة كبيرة طوبوغرافية غاية فى الدقة والتفصيل ، منها ٤٢ خاصة بمصر ، وخمس بالأقاليم السورية التى فتحها نابليون ، وثلاث خرائط أخرى جغرافية عن مصر ، وخريطة أخرى عامة تجمع الخرائط الطوبوغرافية

وللكولونل جاكوتان بحثان جغرافيان جليلان فى كتاب تخطيط مصر ، الأول عن تخطيط خريطة القطر المصرى نشر فى الجزء السابع عشر ، والثانى عن مساحة القطر المصرى نشر فى الجزء الثامن عشر ، وقد عين وهو فى مصر عضواً بالمجمع العلمى بالقاهرة

ديبوا إيمى Dubois Aymé

من مهندسى الحملة الفرنسية ، له بحث جغرافى مستفيض عن فروع النيل القديمة ، نشر فى الجزء الثامن من كتاب تخطيط مصر ، وله خريطة دقيقة عن تخطيط هذه الفروع

---

(١) يوميات وذكريات عن حملة مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١)

نوى Nouet

١٨١١ — ١٧٤٠

من علماء الفلك ، ويعتبر أكبر علماء الحملة الفرنسية فى الفلك والميقات ، نشرت أبحاثه الفلكية الخاصة بمصر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الأول ، وعلى بياناته اعتمد مهندسو الحملة فى وضع المصورات التى رسموها فى مصر

نورى Norry

١٨٣٢ — ١٧٥٦

مهندس معمارى ، عينه نابليون رئيس مكتب الفنون ، وعاد إلى فرنسا فى خلال الحملة لاعتلال صحته ، تخلفه فى المجمع العلمى المصرى المهندس المعمارى لوبير ؛ وله بحث مستفيض عن عمود السوارى نشر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس ، وله رسالة عن الحملة الفرنسية[1] ، وله رسوم عديدة فى كتاب تخطيط مصر

لوبير Lepère

١٨٤٤ — ١٧٦٢

مهندس معمارى ، وهو الذى خلف نورى فى المجمع العلمى ، وله رسوم كثيرة فى كتاب تخطيط مصر

علماء الطبيعيات

برتوليه Berthollet

١٨٢٢ — ١٧٤٨

عالم من كبار علماء الكيمياء ، يضارع فى شهرته الكيميائى الشهير لافوازيه ويليه فى المنزلة ، وهو صديق حميم للمسيو مونج ، وقد اشتركا معاً فى تأسيس مدرسة الهندسة بباريس ، وإليهما عهد نابليون اختيار علماء الحملة الفرنسية ، وكان من أعضاء المجمع العلمى الفرنسى قبل حضوره إلى مصر صحبة نابليون ؛ وبعد رجوعه إلى فرنسا دأب على أبحاثه واكتشافاته فى الكيمياء ، وله فيها نظريات واكتشافات وأبحاث ومؤلفات جعلته فى عداد كبار علماء الكيمياء

---

(١) تاريخ حملة مصر . وهى رسالة وجيزة طبعت سنة ١٧٩٩ بباريس إذ عاد إليها قبل انتهاء الحملة

جوفروا سان هلير Geoffroi Saint Hilaire

١٧٧٢ — ١٨٤٤

هو أتيين جوفروا سان هيلير ، عالم كبير فى التاريخ الطبيعى ، ومن أساتذة حياة الحيوان فى معهد التاريخ الطبيعى بباريس ، وزميل كوفيه Cuvier ولامارك Lamark فى العلوم الطبيعية ، وله أبحاث مستفيضة ورسوم عديدة فى حيوانات مصر وحشراتها وأسماكها ، عين بعد عودته من مصر أستاذاً لعلم الحيوان فى السوربون علاوة على تدريسه فى معهد التاريخ الطبيعى ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى ، وله شهرة عالمية فى التاريخ الطبيعى ، وله رسائل عن مشاهداته فى مصر ، جمعت وطبعت سنة ١٩٠١ باسم (رسائل من مصر)

سافينى Savigny

١٧٧٧ — ١٨٥١

عالم فى التاريخ الطبيعى ، ومساعد لجوفروا فى أبحاثه بمصر ؛ درس حيوانات مصر وطيورها وحشراتها ونباتها ، وله فيها أبحاث مستفيضة ورسوم عديدة غاية فى الدقة طبعت فى كتاب (تخطيط مصر) ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٨٢١ ، وضحى ببصره فى سبيل بحوثه ورسومه

دولوميو Dolomieu

١٧٥٠ — ١٨٠٢

من علماء طبقات الأرض والمعادن ، كان أستاذاً فى مدرسة المناجم وعضواً بالمجمع العلمى الفرنسى قبل مجيئه إلى مصر ، عاد إلى فرنسا أثناء الحملة لمرض أصابه ، وانكسرت به السفينة التى تقله وجنحت على شاطئ (تارنت) جنوب إيطاليا ، فأسر وألقى فى السجن ، وبقى سجيناً إلى أن انتصر نابليون فى معركة مارنجو سنة ١٨٠١ فجعل إطلاق سراحه من شروط الصلح ، ولكن صحته ساءت من أثر السجن فلم يعش بعد خروجه طويلا ، وكتب فى السجن رسالة فى فلسفة علم المعادن ، وهى من أهم مؤلفاته

دليل Delile

١٧٧٨ — ١٨٥٠

هو العالم دليل المشهور فى علم النبات ، وله فى النباتات المصرية كتاب يرجع إليه العلماء ، عين مديراً لحديقة النباتات فى القاهرة (فى عهد منو) ، واشترك فى وضع كتاب تخطيط مصر

وتولى التدريس فى كلية العلوم بمونبلييه بفرنسا، وهو أول من درس نباتات مصر فى العصر الحديث وله فيها رسوم بديعة، وأكمل عمله من بعده العلماء فى عصر محمد على وعصر إسماعيل

كونتى Conté

١٧٥٥ — ١٨٠٥

عالم كيميائى وميكانيكى ومبتكر لطائفة من المخترعات الميكانيكية، استخدم المناطيد فى حروب الثورة الفرنسية قبل مجيئه إلى مصر وعين قومندانا لكتيبة الطيران ومديراً لمدرسة الطيران فى مودون Meudon؛ ولما جاء إلى مصر أسس عدة مصانع تولى إدارتها، وأنشأ طواحين الهواء فى القاهرة، وأنشأ مصنعا ميكانيكيا؛ وعهد إليه نابليون صب أحرف الطباعة وكان يعتمد عليه كثيراً فى استثمار موارد مصر الطبيعية لاستيفاء حاجات الجيش وبخاصة بعد تحطيم العمارة الفرنسية فى واقعة (أبوقير)؛ وقد شرع فى صنع منطاد يطير فى القاهرة، لكنه لم يوفق فى طيرانه، وروى الجبرتى حكاية هذا المنطاد وما صار إليه من الفشل، وشبهه بالطيارة التى يعملها الفراشون فى المواسم والأفراح، قال فى هذا الصدد:

«وفى عشرين جمادى الثانية سنة ١٢١٣[1] كتبوا[2] عدة أوراق مطبوعة وألصقوها بالأسواق، مضمونها أنه فى يوم الجمعة حادى عشرينه قصدنا أن نطير مركبا ببركة (ميدان) الأزبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية، فكثر لغط الناس فى هذا كعادتهم، فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الإفرنج ليروا تلك العجيبة، وكنت بجملتهم، فرأيت قماشاً على هيئة الاوية على عمود قائم، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثال دائرة الغربال، وفى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها إلى الدائرة، وهى مشدودة ببكر وأحبال، وأطراف الأحبال بأيدى أناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها؛ فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها إلى ذلك القماش وملأه، فانتفخ وصار مثل الكرة، وطلب الدخان الصعود إلى مركزه فلم يجد منفذاً، فجذبها معه إلى العلو، فجذبوها بتلك الأحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض، فقطعوا تلك الأحبال، فصعدت إلى الجو مع الهواء، ومشت هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة، وسقط أيضاً ذلك القماش، وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المبصومة؛ فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون

---

(١) يوافق ٢٩ نوفبر سنة ١٧٩٨ (٢) الفرنسيون

فيها إلى البلاد البعيدة لـكشف الأخبار وإرسال المراسلات ، بل ظهر أنها مثل الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح ... »[١]

وقد أعاد المسيو كونتى تجربة المنطاد لـكنه أخفق فى تجربته الثانية ؛ قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وفى يوم الأربعاء ٩ شعبان سنة ١٢١٣[٢] كتبوا أوراقا بتطيير طيارة ببركة الأزبكية مثل التى سبق ذكرها وفسدت ، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر وطيروها ، وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت ، ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم[٣] »

ولما رجع كونتى إلى فرنسا بذل جهداً كبيراً فى إخراج كتاب تخطيط مصر ، وهو الذى تولى إعداد معدات طبع خرائطه ورسومه ومصوراته العديدة

شامبى Champy

عالم فى الـكيمياء ومدير مصنع البارود الذى أنشأه الفرنسيون فى الروضة ، وبعد انتهاء الحملة عين فى فرنسا مديراً لمصانع البارود بها ، ومات سنة ١٨١٦

وابنه شامبى الصغير كان يعاونه فى مصر ومات بها بالطاعون سنة ١٨٠١

ديكوتيل Descotiis

١٧٧٣ — ١٨١٥

عالم فى الـكيمياء ، عين بعد الحملة الفرنسية كبيراً لمهندسى المناجم بفرنسا

روزيير Rozière

مهندس مناجم ، له أبحاث مستفيضة عن أحجار مصر ومعادنها وجيولوجيتها نشرت فى كتاب تخطيط مصر ، وقد رسم أحجارها وصخورها ومعادنها

الاقتصاديون

بوسليج Poussielgue

ولد فى باريس سنة ١٧٦٤ وتقلد بعض المناصب المـالية فى عهد الثورة الفرنسية ، وكان قوميسيراً للإيرادات سنة ١٧٩٤ ، وفى سنة ١٧٩٥ عين سكرتيراً للوزير فيبول Faypoult ،

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) يوافق ١٦ يناير سنة ١٧٩٩

(٣) الجبرتى الجزء الثالث

وجاء إلى مصر ضمن الحملة الفرنسية مراقباً لنفقات الجيش ؛ وعهد إليه نابليون إدارة الشؤون المالية ، وكان يثنى عليه ، لـكنه غضب عليه بعد عودته إلى فرنسا لما اطلع على رسائله إلى حكومة الدير كتوار انتقد فيها سياسته ، ولما عاد إلى فرنسا أهمله نابليون ؛ ويسميه الجبرتى بوسليك مدير الحدود ، ويعبر عنه بالروزنامجى

استيف Esteve

مدير خزانة الحملة أولا ، ثم مدير الشؤون المالية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية ، وقد درس مالية الحـكومة فى عهد المماليك وكتب عنها بحثا مستفيضاً فى كتاب تخطيط مصر

تاليان Tallien

١٧٦٧ — ١٨٢٠

هو أحد أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية ، وخصم روبسبير الشهير ، ومثير غبار الحملة التى انتهت بإسقاطه فى الجمعية الوطنية[١] ، وانتظم فى سلك أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وعهد إليه نابليون وقتاً ما بمهمة مندوب (قوميسير) لدى الديوان ، فـكان بمثابة جاسوس على أعضائه لـكنه لم يكن موضع ثقة نابليون ولا احترامه ، وغادر مصر فى عهد الجنرال منو ، وفقد بعد عودته إلى فرنسا مكانته السياسية

القواد والضباط

كافريللى Caffarelli

هو الجنرال كافريللى ، من أسرة إيطالية استوطنت فرنسا فى عهد لويس الثالث عشر ، وهو من أكفأ قواد الجيش الفرنسى وأغزرهم علماً ، ضرب بسهم وافر فى الفلسفة والتشريع ، وقاتل فى حروب الثورة الفرنسية ، وفقد إحدى قدميه فى حصار مايانس Mayence سنة ١٧٩٥ فجاء مصر بقدم واحدة ، ولذلك يسميه الجبرتى « كفرلى المسمى بأبى خشبة » ، وقد اختاره نابليون رئيساً لفرقة المهندسين فى الجيش ، وهو مركز يتطلب كفاية فنية كبيرة ، وهو من أفراد الحملة القلائل الذين تكلم عنهم الجبرتى بالاسم ، وإليك ما قاله فى صدده : « ومن جملة من انتقل من الدرب الأحمر إلى الأزبكية كفرلى المسمى بأبى خشبه ، وهو يمشى بها بدون معين ، ويصعد الدرج ويهبط منها أسرع من الصحيح ، ويركب الفرس ويرمحه

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا (الجمعيات الوطنية) ص ٦٥

وهو على هذه الحالة ، وكان من جملة المشار إليهم فيهم والمدبر لأمور القلاع وصفوف الحروب ، ولهم به عناية عظيمة واهتمام زائد »(١) ، وقد قتل فى حصار عكا ، كما سيجىء بيانه فى الفصل الثانى من الجزء الثانى

الجنرال اندريوسى Andreossi

١٧٦١ — ١٨٢٨

من القواد ومن رجال السياسة معاً ، وله أبحاث ورحلات جغرافية فى مصر أهمها رحلاته إلى بحيرة المنزلة ووادى النطرون ، وقد كتب عنها أبحاثاً تلاها فى المجمع العلمى ونشرت فى كتاب تخطيط مصر ، الجزء الحادى عشر والثانى عشر

عاد إلى فرنسا مع نابليون وعاونه على قلب نظام الدير كتوار ، وعينه بعد معاهدة (أميان) سفيراً لفرنسا فى لندن ثم فى فيينا ثم فى الأستانة حيث بقى بها إلى سنة ١٨١٤ ، وانتخب عضواً فى أكادمية العلوم (المجمع العلمى) وفى مجلس النواب

هوراس ساى Horace Say

رئيس أركان حرب فرقة الهندسة ، كان أستاذاً لفن الاستحكامات فى مدرسة الهندسة بفرنسا ، وهو أخو جان باتست ساى العالم الاقتصادى المشهور ، ومن أكفأ ضباط الجيش الفرنسى وأكثرهم علماً ، وله عدة رسائل فى المجمع العلمى المصرى عن الحالة الاقتصادية والطبوغرافية فى مصر ، قتل فى حصار عكا

مالوس Malus

١٧٧٥ — ١٨١٢

عالم فى الطبيعيات وضابط كبير فى الجيش الفرنسى ، تلقى العلوم فى مدارس الهندسة بفرنسا وانتظم فى سلك فرقة الهندسة بالجيش ، وجاء إلى مصر ضمن هذه الفرقة ، وكان صديقاً للجنرال كافريللى وتلميذاً للعلامة مونج ومعدودا من أعضاء المجمع العلمى المصرى النابهين ؛ ولما عاد من مصر ظل فى فرقة الهندسة مع اشتغاله بالأبحاث الطبيعية ، وله فيها رسائل ومؤلفات عظيمة القيمة ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٨١١ بقسم الطبيعيات ، وله يوميات(٢) عن الحملة الفرنسية نشرت سنة ١٨٩٢ تحوى وقائع الحملة إلى جلاء الفرنسيين عن مصر ، وله عدا ذلك « أفكار » ضمنها خواطره فى مصر

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) يوميات مالوس «Agenda de Malus»

الأطباء والجراحون

ديجنت Desgenttes

١٧٦٢ — ١٨٣٧

كبير أطباء الحملة الفرنسية فى إيطاليا وفى مصر ، وله عدة أبحاث طبية عن مصر ، وله كتاب قيم اسمه «التاريخ الطبي لجيش الشرق» ، وقد وضع فى مصر رسالة فى مرض الجدرى طبعها فى المطبعة العربية التى أحضرها الفرنسيون وأهداها إلى أعضاء الديوان وهى الرسالة التى يشير إليها الجبرتى بقوله :

« وفى شعبان سنة ١٢١٥ أرسل رئيس الأطباء الفرنساوى نسخا من رسالة ألفها فى علاج الجدرى لأرباب الديوان ، لكل واحد نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلها الناس ويستعملوا ما أشار إليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال ، فقبلوا منه ذلك وأرسلوا له جوابا شكراً له على ذلك ، وهى رسالة لا بأس بها فى بابها »(١)

وله احصاءات دورية عن وفيات القاهرة فى مدة الحملة الفرنسية ، نشرت فى كتاب تخطيط مصر الجزء السادس عشر ، ومنح بعد الحملة لقب بارون وعين كبير أطباء الأنفاليد

لارى Larrey

١٧٦٦ — ١٨٤٢

كبير جراحى الحملة الفرنسية وله شهرة عالمية فى الطب والجراحة ، وظل بعد الحملة كبير جراحى الجيش الفرنسى فى عهد نابليون ، وكان موضع ثقته وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى وبأكاديمية الطب ، وأنعم عليه نابليون برتبة بارون فصار يعرف بالبارون لارى ، وهو من كبار الأساتذة فى العلوم الطبية ، عين كبيراً لجراحى مستشفى الأنفاليد ، وله مؤلفات عظيمة فى الطب والجراحة ، منها كتاب خاص بمصر نشر سنة ١٨٠٣

وله فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثالث عشر أبحاث مستفيضة عن الأمراض الخاصة بمصر

ديبوا Dubois

١٧٥٦ — ١٨٣٧

من نوابغ الأطباء فى الجراحة وبخاصة الولادة ، ولم يطل مكثه فى مصر أمداً لمرضه فعاد

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث . وجاء فى كتاب (التاريخ الطبي لجيش الشرق) لمؤلفه الدكتور ديجنت أنه أهدى ٢٥٠ نسخة من رسالته فى الجدرى إلى الديوان و ٥٠ نسخة إلى السيدة نفيسة المرادية

إلى فرنسا ، وخلفه فى المجمع العلمى الجراح لارى ، وصار ديبوا طبيب نابليون الخاص .

الأدباء والمترجمون والفنانون

فيفان دينون Vivant Denon

١٧٤٧ — ١٨٢٧

كاتب وفنان ، صحب نابليون فى حملة مصر وعاد بمجموعة نفيسة من الصور التى رسمها ، وله فى رحلته بمصر كتاب نفيس «رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابارت» نشر بعد عودته من مصر وطبع لأول مرة سنة ١٨٠٢ وأهداه إلى نابليون وكان إذ ذاك « قنصلا أول »

وأهمية هذا الكتاب راجعة إلى المصور الكبير الملحق به ويتضمن رسوماً عظيمة القيمة عن مصر والآثار المصرية جعلت لكتابه مكانة كبيرة وترجم إلى الانجليزية والألمانية

وقد رسم فى كتابه بعض معارك الحملة الفرنسية التى شهدها ورسمها أثناء وقوعها

وكان دينون من المولعين بالفنون الجميلة وتولى فى عهد إمبراطورية نابليون إدارة المتاحف وانتخب عضواً فى المجمع العلمى الفرنسى

فانتور Venture

هو المستشرق فانتور أكبر أعضاء المجمع العلمى سنا وكبير تراجمة الحملة الفرنسية ومستشار نابليون ومرجعه فى المسائل الخاصة بالشرق والشرقيين ، قضى نحو أربعين سنة فى بلاد الشرق

وكان قبل حضوره لمصر ترجماناً لسفارة فرنسا فى الاستانة ، ثم مترجماً للحكومة الفرنسية فى اللغات الشرقية ومدرساً للتركية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ومن تلاميذه المسيو مارسل والمسيو جوبير وسيأتى ذكرهما ، مات بالدسنطاريا فى الحملة على سوريا ونعاه نابليون إلى الديوان ، وذكره الجبرتى فى كتابه فقال عنه : « إن فانتوره هذا ترجمان سارى عسكر ، وكان لبيباً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطليانى والفرنساوى »

مارسل Marcel

١٧٧٦ — ١٨٥٤

هو المستشرق مارسل مدير المطبعة الفرنسية والعربية التى أحضرها نابليون إلى مصر ، وقد درس اللغة العربية واشترك فى تأليف كتاب تخطيط مصر وكتاب التاريخ العلمى والحربى

للحملة الفرنسية ؛ وله رسالة عن المارستان الكبير بالقاهرة ويسميه الناصرى نسبة للملك الناصر محمد بن قلاون الذى أتم بناءه ، وله أبحاث مستفيضة عن مقياس الروضة وعن الآثار العربية بمصر وما عليها من الخطوط الكوفية منشورة فى الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وكان فى خلال الحملة الفرنسية مديراً للمطبعة الأهلية التى أنشأها نابليون وعضواً بالمجمع العلمى بالقاهرة ، وعين بعد عودته من مصر مديراً للمطبعة الأهلية بفرنسا

جوبير Jaubert

١٨٤٧ — ١٧٧٩

اختاره نابليون كبيرا لتراجمة الحملة الفرنسية بعد وفاة المستشرق فانتور ، وله بحث عن العرب وقبائلهم فى مصر ، منشور فى الجزء السادس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وعين بعد الحملة مدرساً للتركية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم مدرساً للفارسية فى الكوليج دى فرنس ، ثم ناظراً لمدرسة اللغات الشرقية

برسفال دجرنميزون Perseval De Grandmaison

١٨٣٤ — ١٧٥٩

عضو بالأكاديمية الفرنسية ، عين وقتاً ما فى عهد الحملة الفرنسية مديراً لجمرك السويس ، وغادر مصر ضمن من صحبوا نابليون فى عودته إلى فرنسا

رفائيل

قسيس شرقى عين « ترجماناً أول » للديوان ، وبعد الحملة عين مدرساً للعربية الدارجة فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس

فيلوتو Villoteau

١٨٣٩ — ١٧٥٩

موسيقى فنان ، برع فى فنون الموسيقى علماً وعملا ، ودرس فى مصر الموسيقى المصرية القديمة والحديثة والموسيقى الشرقية فى مختلف بلاد الشرق ، وله فى ذلك أبحاث مستفيضة شغلت بعض الجزء السادس ومعظم الجزء الثالث عشر وكل الجزء الرابع عشر من كتاب تخطيط مصر

ريجو Rigo

هو الرسام ريجو ، ويسميه الجبرتى « أريجو » ، وهو الذى عهد إليه نابليون بإقامة أقواس

النصر والأعمدة فى ميدان الأزبكية احتفالا بعيد الجمهورية سنة ١٧٩٨ ورسم الرسوم الفنية على قواعدها ، وعهد إليه نابليون أيضاً برسم رجالات مصر فى ذلك العصر على اختلاف مراكزهم وأزيائهم ، وترى هذه الرسوم فى كتاب (تخطيط مصر)

ردوتيه Redouté

مصوّر فى التاريخ الطبيعى ، وأخو المصور المشهور « ردوتيه » الملقب بمصور الزهور ، رسم معظم حيوانات مصر وأسماكها ، وترى رسومه البديعة كتاب (تخطيط مصر)

دوترتر Dutertre

١٧٥٣ — ١٨٤٢

رسم معظم أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وترى صور النابهين منهم فى كتاب « يوميات » المسيو دفيلييه De Villiers المتقدم ذكره ، وله رسوم عديدة عن الآثار المصرية القديمة فى كتاب (تخطيط مصر)

أعمال المجمع العلمى

هى المسائل التى بحثتها هيئة المجمع ، وكذلك أعمال أعضائه جماعة أو فرادى فى المدة التى انقضت بين تأسيس المجمع ورحيل الفرنسيين ، وهى الأعمال التى نستعرضها فى هذا البيان

كانت أولى جلسات المجمع العلمى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ [١] ، فاجتمع الأعضاء وانتخبوا المسيو مونج العالم الرياضى رئيساً للمجمع ، ونابليون بونابارت نائب الرئيس ، وفورييه سكرتيراً دائماً ، وكوستاز نائب السكرتير ، وعرض نابليون على المجمع فى هذه الجلسة درس المسائل الآتية :

أولا — ما هى الوسائل التى يمكن اتباعها لتدبير مواد الوقود اللازمة لأفران الجيش ؟

وقد أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من : برتوليه ، وكافاريلى ، ومونج ، وساى

ثانياً — هل يوجد وسيلة يمكن اتباعها فى مصر لاستبدال حشيشة الدينار فى صنع البيرة ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه ، وكوستاز ، وديجنيت ، وجلوتييه

ثالثاً — ما هى الوسائل الناجعة لترشيح وتبريد ماء النيل ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه ، وكوستاز ، ومونج ، وفانتور

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٩١

المسألة الرابعة — ما هو الأنفع للبلاد بحسب الحالة الراهنة فى مصر ، طواحين الماء أم طواحين الهواء ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من اندريوسى ، وكافاريللى ، وكوستاز ، ومالوس ، وساى

المسألة الخامسة — هل فى مصر مواد أولية لصنع البارود وما هى هذه المواد ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من أندريوسى ، وبرتوليه ، ومالوس ، ومونج ، وفانتور

المسألة السادسة — ما هى حالة التشريع والقضاء المدنى والجنائى فى مصر ، وحالة التعليم ، وما هى الإصلاحات التى يمكن إدخالها على هذه النظم ويرغبها أهالى البلاد ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من كوستاز ، وسولكوسكى ، وسوسى ، وتاليان

وعرضت على المجلس فى جلسات متعاقبة مسائل أخرى فنية لدراستها ، كالوسائل التى يجب اتخاذها لزراعة العنب فى مصر ، ودرس طريقة زراعة القمح فى مصر ومقارنتها بطريقة زراعته فى أوروبا ، وتموين القلعة بمياه النيل والتذرع إلى ذلك بإصلاح قناطر السباع ، وحفر الآبار فى الصحراء ، والاستفادة من المواد المتخلفة من مدينة القاهرة وسائر مدن القطر المصرى ، وإنشاء مرصد ، وبحث هزات الابرة المغناطيسية فى مصر

وبحث نابليون كذلك فى إمكان جلب الأخشاب من الحبشة بطريق النيل لصناعة السفن فى مصر

وكان أعضاء المجمع العلمى وبعثة العلوم والفنون لا يدخرون وسعاً فى متابعة جهودهم العلمية فى مختلف الفروع والفنون ، فأنشأوا فى المجمع مكتبة تحوى أنفس الكتب التى أحضروها من فرنسا أو جمعوها من خزائن الكتب فى القاهرة ، وأنشأوا به معملا للطبيعة والكيمياء جهزوه بالآلات والأدوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية ؛ وأخذوا يجوبون البلاد ، فاكتشفوا الآثار وأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ورسموا خرائط مفصلة للبلاد ونيلها وترعها وسواحلها ؛ وبحثوا فى طبائع الحيوانات والنباتات والمعادن المصرية ودرسوا مياه النيل وطميه وطبقات الأرض ، وجابوا واحاتها وبحيراتها .

الطباعة

وأنشأوا بالقاهرة مطبعة عربية وفرنسية وهى التى أحضرها نابليون إلى مصر بعد أن جمع لها الأحرف الفرنسية والعربية واليونانية من باريس واستكمل لها الأحرف العربية من مطبعة

البروباجندا بروما ، وعهد بإدارتها إلى المسيو مارسل المستشرق أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وجعل للمستشرق فانتور الإشراف على مطبوعاتها [(١)] وكانت تسمى (مطبعة جيش الشرق) ولما نقلت من الإسكندرية إلى القاهرة أمر بتسميتها (المطبعة الأهلية) واتخذ لها دار عثمان بك الأشقر بالأزبكية على مقربة من بيت الألفي الذى سكنه نابليون ، ثم نقلت إلى الجيزة أثناء ثورة القاهرة الثانية ، ثم إلى القلعة إلى أن جلا الفرنسيون عن مصر ، وفى هذه المطبعة كانت تطبع منشورات نابليون بالعربية وجريدة الكورييه دليجبت ، والديكاد ، وبعض المطبوعات العربية والفرنسية

وكان للفرنسيين مطبعة أخرى خاصة حروفها افرنجية فقط لصاحبها المسيو مارك أوريل Marc Aurel طبعت الأعداد الأولى من جريدة (كورييه دليجبت) إلى أن نقلت المطبعة الرسمية من الإسكندرية إلى القاهرة ، ولما عاد مارك أوريل إلى فرنسا فى خلال الحملة باع مطبعته إلى الحكومة

و (المطبعة الأهلية) هى أول مطبعة أنشئت فى مصر فى العصر الحديث ، وقد أخذها الفرنسيون معهم عند جلائهم عن البلاد ، ولم تعد الطباعة إلى مصر إلا فى عهد محمد على الكبير

الصحافة

وأنشأوا جريدتين فرنسيتين إحداهما سياسية والأخرى علمية ، فالأولى هى جريدة « كورييه دليجبت » Courrier de l'Egypte (الجوائب المصرية) وهى جريدة سياسية تصدر بالفرنسية كل أربعة أيام فى أربع صفحات من القطع الصغير ، طبع منها بمطبعة مارك أوريل الثلاثون عدداً الأولى ، ثم طبع باقى ما ظهر منها فى المطبعة «الأهلية» وصدر منها ١١٨ عدداً ، ظهر العدد الأول منها فى ١٢ فركتيدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٩ أغسطس سنة ١٧٩٨) والأخير فى يونيه سنة ١٨٠١ قبيل جلاء الفرنسيين عن البلاد ؛ وتولى تحرير الأعداد الأولى المسيو كوستاز Costaz أحد أعضاء المجمع العلمى ، ثم فورييه سكرتير المجمع ثم ديجنت Desgenettes كبير أطباء الحملة ، وكانت هذه الجريدة هى الصحيفة شبه الرسمية للحملة الفرنسية

وجريدة «لاديكاد اجييسين» La Decade Egyptienne (العشرية المصرية) تصدر مرة

---

(١) ورد فى أمر نابليون الرقيم ١٤ يناير سنة ١٧٩٩ المنشور فى (مراسلات نابليون) الجزء الخامس أنه جعل المسيو فانتور مفتشاً للمطبعة بحيث لا يطبع فيها شىء إلا بأمره

كل عشرة أيام ، وهى جريدة علمية اقتصادية تنشر أبحاث المجمع العلمى ومناقشات أعضائه ، صدر العدد الأول منها فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ وتولى تحريرها وإدارتها الدكتور ديجنت ، وكانت تطبع فى المطبعة الأهلية (١)

الأعمال الصحية

وأنشأوا محاجر صحية فى القاهرة (بجزيرة بولاق) والإسكندرية ودمياط ورشيد (٢)

وأمر نابليون بإنشاء مستشفى عسكرى فى قصر مراد بك بالجيزه ثم عدل عنه ونقل المستشفى إلى قصر إبراهيم بك تجاه الروضة (مكان مدرسة الطب الآن) ، لكن هذا المستشفى كان خاصاً بالجنود الفرنسية ، وأنشأ عدة مستشفيات أخرى عسكرية خاصة بالجنود أيضاً ، وفكر فى إنشاء مستشفى للوطنيين ، وألف لهذا الغرض لجنة من الجنرال كافريللى والطبيبين ديجنت ولارى والعالمين مونج وبرتوليه والمسيو دور Daure مدير مهمات الجيش لفحص هذا المشروع ، فأخذت اللجنة تدرس المشروع وبحثت حالة المستشفى الذى كان بالقاهرة قبل الحملة الفرنسية وهو المسمى بالمارستان الكبير المنصورى الذى أسسه الملك المنصور قلاون وأتمه ابنه الملك الناصر سنة ٧١٠ هجرية (١٣١٠ ميلادية) وأجرى عليه سلاطين مصر الأوقاف والهبات من عهد إنشائه ، وكان فى عهده الأول مستشفى كبيراً من أعظم المستشفيات شأنا وكان يلحق به مدرسة لتخريج الأطباء فى مصر ، ولكن حالته اضمحلت فى عهد الحكم العثمانى والبكوات المماليك حتى آل أمره إلى التدهور والتلف ، وقد زاره الدكتور ديجنت كبير أطباء الحملة الفرنسية مصحوبا بالشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان وقدم تقريراً إلى نابليون (٣) عن سوء حالته وسوء حالة المرضى الذين كانوا يعالجون به ، وأشار بإنشاء مستشفى جديد فى بيت عثمان بك الطنبورجى ببركة الفيل ، واقترح كذلك إنشاء مدرسة للطب تلحق بالمستشفى ، لكن المشروع لم ينفذ شىء منه فى عهد الحملة الفرنسية

ومما تجب الإشارة إليه أنه كان بالقاهرة مستشفيات أخرى موجودة من قبل مجىء الحملة الفرنسية ، فقد ذكر المسيو جومار أحد مهندسى الحملة فى بحثه الممتع عن تخطيط القاهرة (٤)

---

(١) عزم الجنرال منو فى أواخر عهد الحملة الفرنسية على إصدار جريدة عربية باسم « التنبيه » لكنها لم تظهر ولم يحقق عزمه كما تراه فى الفصل الحادى عشر من الجزء الثانى من الكتاب

(٢) ذكر الجبرتى محجر القاهرة بقوله : « إن الفرنسيس عملوا (كرنتيله) بجزيرة بولاق وبنوا هناك بناء يحجزون به القادمين من السفار أياماً معدودة كل جهة من الجهات القبلية والبحرية » ، وذكر الدكتور لارى كبير جراحى الحملة أنهم أنشأوا محجراً آخر فى جزيرة الروضة خاصا بالوباء

(٣) فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

أنه كان بالقاهرة مستشفى للنساء أنشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا بالقرب من شارع تحت الربع ، وكان به ٢٦ من المريضات ، وكان يطلق عليه اسم (تكية) ؛ وقد تكلم العلامة على باشا مبارك عن هذه التكية فى خططه التوفيقية وقال إن الظاهر أنها تكية الجلشانية[١] ، ويقول المسيو جومار أيضاً إنه كان بالقاهرة تكايا أخرى للمرضى وهى تكية الحبانية وتكية الأعجام بشارع الصليبة ، وقد زار هذه التكية ورأى بها ١٦ مريضاً ، وتكية بشارع سوق السلاح ، وأخرى بشارع قيسون

ويدخل فى الأعمال الصحية التى أجراها الفرنسية ما قرروه من إنشاء لجنة لإدارة الشؤون الصحية فى القاهرة ومصر القديمة وبولاق ووضع اللوائح لنظافة المدينة وتقرير الوسائل الصحية فيها

أعمال أخرى

ومما عمله أعضاء المجمع العلمى أنهم أنشأوا طواحين الهواء[٢] ، احداها فى جزيرة الروضة والثانية بباب الحديد على التل المجاور لقنطرة الليمون

وفى ذلك يقول الجبرتى « ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون ، وجعلوا فى أعلاه طاحوناً تدور فى الهواء عجيبة وتطحن الأرادب من البر وهى بأربعة أحجار وطاحوناً أخرى بالروضة تجاه مساطب النشاب » . وظاهر من عبارة الجبرتى أنه لم يكن رأى طواحين الهواء من قبل فظن أن الفرنسيين استحدثوها ، على أن طواحين الهواء لم تكن ابتكاراً من الفرنسيين بل كانت موجودة فى مصر قبل الحملة الفرنسية ، فقد ذكر المسيو سان جنيس Saint Genis أحد مهندسى الحملة[٣] أنهم وجدوا بالإسكندرية على شاطىء البحر فى شبه جزيرة رأس التين طاحوناً تدار بالهواء بثمانى أجنحة ، ووصف المهندس جراتيان لوبير Gratien Le Père زميل المسيو سان جنيس هذه الطاحونة وتراها مرسومة بخريطة الإسكندرية الملحقة بكتاب تخطيط مصر ، ويقول المسيو جيرار Girard أحد مهندسى الحملة إنه كان بالإسكندرية قبل الحملة الفرنسية سبع أو ثمانى طواحين هواء[٤]

وأصلحوا دار الصناعة (الترسانة) التى أنشأها مراد بك فى الجيزة لصنع المدافع والسفن والآلات الحربية ، وعنى بإصلاحها المسيو كونتى والمسيو شامبى Champy وولده

---

(١) الخطط التوفيقية الجزء الأول

(٢) أنشأها المسيو كونتى Conté

(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس .

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر

وأنشأوا مصنعاً للبارود فى جزيرة الروضة وعهدوا بإدارته للمسيو شامبى يعاونه فيه ابنه الذى مات بالطاعون

وأنشأوا مصنعاً للجوخ ، وآخر لصنع القبعات ، وآخر لصناعة البيرة ، وآخر لدبغ الجلود

وأنشأوا مصنعاً ميكانيكياً ومصنعاً للنجارة ، زارهما الجبرتى ووصفهما بقوله :

« وأفردوا أيضاً مكاناً للنجارين وصناع الآلات والأخشاب وطواحين الهواء والعربات واللوازم لهم فى أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنائعهم ، ومكانا آخر للحدادين بنوا فيه كوانين عظاما وعليها منافيخ كبار يخرج منها الهواء متصلا كثيراً بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة ، وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد والمخارط ، وركبوا مخارط عظيمة لخرط القلوزات الحديدية العظيمة ، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالأقلام المتينة الجافية ، وعليها حق صغير معلق مثقوب وفيه ماء يقطر على محل الخرط لتبريد النارية الحادثة من الاصطكاك ، وبأعلى هذه الأمكنة صناع الأمور الدقيقة (الميكانيكيون) مثل البركارات (البراجل) وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك »

وأصلحوا بناء المقياس مما أصابه حين القتال من العطب ، تولى المسيو لوبير Le Père كبير مهندسى الرى فى عهد الحملة ترميمه ، وجعلوا للمقياس باباً خارجيا نقشوا فيه بالعربية والفرنسية ما يشير إلى هذا الترميم الذى تم فى عهد الجنرال منو ، وقد أرسل الديوان كتاب شكر للجنرال منو وآخر للمسيو لوبير ، وتجد نص الكتاب الأخير فى قسم الوثائق التاريخية نقلناه عن كتاب تخطيط مصر ؛ وقد ذكر الجبرتى إصلاح بناء المقياس فى حوادث سنة ١٢١٥ هجرية فقال فى هذا الصدد : « ومنها أنهم غيروا معالم المقياس وبدلوا أوضاعه ، وهدموا قبته العالية ، والقصر البديع الشاهق ، والقاعة التى بها عمود المقياس ، وبنوها على شكل آخر لا بأس به ، لكنه لم يتم وهى على ذلك باقية إلى الآن ، ورفعوا قاعة العامود العليا ذراعاً ، وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مربعة ورسموا عليها من جهاتها الأربع قراريط الذراع »

وأقاموا جسرا من المراكب من القصر العينى إلى الروضة وجسراً آخر كبيراً من الروضة إلى الجيزة تم وضعه فى أثناء الحملة على سوريا ، وكانوا معجبين بجمال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون فى أن يجعلها مقراً للجالية الفرنسية وينشئ فيها مدينة فرنسية ، لكن مشروعه لم ينفذ ، وكذلك وضع الجنرال (منو) تخطيطاً لمدينة ينشئها بها لكن فكرته لم تخرج عن حيز الآمال

وأصلحوا شارع الفجالة ، وكانت أرضه من قبل يعسر المرور بها ، فهدوه وجعلوه ممتداً من باب الحديد إلى باب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب

ومهدوا طريقاً مستقيما غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متر ، يبدأ من قنطرة المغربى ويتجه إلى بولاق رأساً ، ويتفرع بقرب بولاق إلى فرعين : الأول إلى طريق أبى العلا والثانى إلى التبانة وساحل النيل

ومدوا الطريق بين باب الحديد وباب العدوى إلى جهة المذبح خارج الحسينية وصار ممهداً بين الأزبكية وقبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية

وأنشأوا منتدى للتنزه (كازينو) سموه «التيفولى» تشبها بنظيره بباريس أنشأوه بالأزبكية ، وسماه الجبرتى « دار الخلاعة » ووصفها بقوله : « وأحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه أو أن يكون مأذوناً وبيده ورقة »

وأقاموا مسرحاً لتمثيل الروايات ، تم أنشأوه فى عهد الجنرال منو ، وهو الذى سماه الجبرتى « كرى » (يريد كيدى Comedie) وصفه بقوله : « وفى شعبان سنة ١٢١٥ كمل المكان الذى أنشأوه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء ، وهو المسمى فى لغتهم بالكمرى ، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلى والملاهى مقدار أربع ساعات من الليل ، وذلك بلغتهم ، ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة »

وخلاصة ما تقدم أن أعضاء المجمع العلمى قد بذلوا جهوداً كبيرة فى خدمة العلم والفن ، وكانوا دائمى النشاط مجدين فى أعمالهم ، مثابرين فى أبحاثهم ، فكان المجمع العلمى من أعظم المجامع العلمية قدراً ، وأكثرهم ثمرة

كتب المسيو جوفروا سان هيلير — وكان من أعضائه النابهين — فى رسالته إلى العلامة كوفييه Cuvier يقول :

« إن المجمع العلمى المصرى فى نشاط دائم ، وإنى أؤكد أن جلساته تعادل بالأقل جلسات المجمع العلمى الفرنسى فى أعمالها وثمراتها ، وقد قررنا بناء على اقتراح زميلنا بونابارت (نابليون) أن نرسل إلى مجمعكم محاضر جلساتنا ، فهل لكم أن تقرروا إزاءنا مثل هذا القرار ، وبذلك تقفوننا على تطور حركة العلوم فى أوروبا[1]

(١) رسالة جوفروا سان هيلير إلى كوفييه بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ الواردة فى كتاب (رسائل من مصر)

يتبين من تشكيل المجمع العلمى ومن المسائل التى بحثها والأعمال التى عملها أنه معهد للعلوم والفنون ، ومجلس استشارى فنى مؤلف من أعضاء إخصائيين لدرس المسائل والمشروعات التى تعرضها عليه الحكومة ، فهو فى الشق الأخير من مهمته شبيه بالمجلس الاقتصادى الذى أنشأته الحكومة المصرية سنة ١٩٢٣ ، إلا أنه يزيد فى اختصاصه أنه يتناول عدا المسائل الاقتصادية والمالية المسائل الخاصة بالتشريع ، وهو عدا ذلك معهد أو أكاديمية للعلوم والفنون

ولا شك أن فكرة تأسيس هذا المجمع العلمى هى فكرة جليلة تدل على عبقرية نابليون ونبوغه فى التنظيم والإنشاء ، كنبوغه فى الحروب ، وتدل أيضاً على قوة عزيمته وعلو همته ؛ لأنه أسس هذا المجلس بعد أن وصلته أنباء الكارثة التى حطمت عمارته فى معركة (أبو قير) وقطعت كل صلة بينه وبين فرنسا ، وجعلته هو وجيشه محصورين فى الديار المصرية ، ومع هول هذه الكارثة وعظم آثارها وما ضربت به نفوس الفرنسيين من اليأس ، فإنه قابلها بالجلد والصبر ، وأسس المجمع العلمى ليجد من خبرة أعضائه وكفاءتهم ما يجعله يكتفى بموارد البلاد الطبيعية ، وأخذ يقيم النظم فى مصر كأنه باق فيها إلى ما شاء الله

وإذا نظرنا إلى هذا المجلس من الوجهة العلمية البحتة ، نجد أنه قد نفع البلاد بآثاره وأعماله وتعد مذكرات أعضائه نواة للأبحاث العلمية الخاصة بمصر ؛ فلا غرو أن يكون المجمع العلمى هو الأثر الوحيد الباقى من آثار الحملة الفرنسية ، ويكفى أن نمعن النظر فى أعمال أعضاء المجمع وأبحاثهم المنشورة فى كتاب (تخطيط مصر) لنقدر مبلغ ما قاموا به من الأعمال وما يستحقونه من الإعجاب والثناء

وقد انتهى العهد الأول من المجمع العلمى بعد رحيل الفرنسيين ، ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالإسكندرية ، وانتخب المسيو جومار Jomard آخر من بقى من أعضاء المجمع العلمى الأول رئيساً شرفياً للمجمع الجديد ، وهذا المجمع قائم إلى اليوم ، فالمجمع العلمى الحالى هو استمرار للمجمع العلمى القديم ، وقد انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة سنة ١٨٨٠ ، ومقره الآن بحديقة وزارة الأشغال ، وله نشرة دورية تحوى مجموعة المحاضرات والأبحاث التى تلقى فيه

زيارة الجبرتى للمجمع العلمى

وما قاله فى وصفه

نرى من الواجب أن نختم كلامنا عن المجمع العلمى بإيراد ما ذكره الجبرتى عنه وما قاله فى وصفه وما رآه فيه ، ننقل ذلك لأن فى وصف الجبرتى صورة دقيقة لما رآه وما شاهده ،

وفى كلامه صورة جلية للمستوى العلمى فى ذلك العصر

وصف الجبرتى المجمع العلمى وصفاً عاماً بقوله : « وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية ، كالهندسة ، والهيئة ، والنقوشات ، والرسومات ، والمصورين ، والكتبة ، والحساب ، والمنشئين ، حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت ، مثل بيت قاسم بك ، وأمير الحج المعروف بأبى يوسف ، وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد الذى أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد ، وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة ، ففر مع الفارين وتركه »

مكتبة المجمع العلمى

وقال عن مكتبة المجمع : « وفيه (بيت حسن كاشف) جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ، فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ، ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر ، وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم ، وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم ، والحيوانات ، والطيور ، والنباتات ، وتواريخ القدماء ، وسير الأمم ، وقصص الأنبياء ، بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار ، ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعونى على ذلك ؛ فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة ، وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف ، وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين ، وفى الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس ، وصورة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى ، وكذلك صورة الأئمة المجتهدين ، وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال إسلامبول وما بها من المساجد العظام كأياصوفيه وجامع السلطان محمد وهيئة المولد النبوى وجمعية أصناف الناس لذلك ،

وكذلك جامع السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعه فيه ، وأبى أيوب الأنصارى وهيئة صلاة الجنازة فيه ، وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابى الصعيد والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها ، وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ويعبرون عنه بقولهم «شفاء شريف» ، والبردة للبوصيرى ، ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار ، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت »

قسم الفلك

وقال عن قسم الفلك :

« وعند نوت[١] الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه ، وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة ، كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدراً من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئى ، وإذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير ، وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وارصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها وأنواع المنكابات والساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن وغير ذلك»

قسم الرسم والتصوير

وقال عن قسم الرسم والتصوير :

« وأفردوا لجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السنارى ، وهم المصورون لكل شىء ، ومنهم أريجو[٢] المصور وهو يصور صور الآدميين تصويراً يظن من يراه انه بارز فى الفراغ مجسم

(١) لعله يريد نوى Nouet

(٢) يريد الرسام ريجو Rigo

يكاد ينطق ، حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك غيرهم من الأعيان ، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر ، وآخر[١] فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر[٢] يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها ؛ ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيأته لا يتغير ولا يبلى ولو بقى زمناً طويلا»

قسم الهندسة

والطب والكيمياء

«وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق ، وسكن الحكيم رويا[٣] بيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ، ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية ، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح وقدوراً عظيمة وبرامات ، وجعل له مكاناً أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحية (الجراحين) ، وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه ، وخلاصات المفردات ، وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات ، واستخراج المياه الجلاءة والحلالة ، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها أنواع المستخرجات ، ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً فى كأس ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف مافى الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتيا ، وأخذ مرة شيئا قليلا جداً من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانه (البندقية) انزعجنا منه فضحكوا منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة

(١ و ٢) يريد بالأول سافينى Savigny والثانى ردوتيه Redouté ، وقد تكلمنا عنهما ص ١٠٠ و ١٠٨ ، والاثنان مساعدا العلامة جوفروا سان هيلير فى أبحاثه فى التاريخ الطبيعى ولهما رسوم عديدة فى كتاب تخطيط مصر ، فسافينى رسم حيوانات مصر وحشراتها ، وردوتيه رسم أسماك مصر

(٣) يريد روييه Royer كبير صيادلة الجيش الفرنسى

فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غير هيأتها وأنزلهما فى الماء وأصعدهما بحركة انحبس بهما الهواء فى أحدهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال ، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضاً ، وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلا به حصل له ذلك ولو كانوا ألفاً أو أكثر . . . ، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا . . . »

نظرة عامة

فى نظام الحكم الذى أسسه نابليون

لا جدال فى أن تأسيس « الديوان » على النحو الذى شرحناه كان نواة لنظام شورى لم تكن تعرفه البلاد من قبل ، ولا سيما إذا لاحظنا أنه وضع سنة ١٧٩٨ ، أى فى أواخر القرن الثامن عشر ، ففى ذلك الحين لم يكن النظام الدستورى مألوفاً فى الشرق ، بل كان الحكم المطلق القائم على الظلم والاستبداد وأهواء الحكام ، هو السائد فى بلاد الشرق قاطبة بل فى أغلب بلاد أوروبا ، فإن الشعوب الأوروبية لم تكن إلى ذلك العهد تعرف الحياة الدستورية الصحيحة ، عدا إنجلترا التى كانت تتمتع بالنظام الدستورى من عهد القرن السابع عشر ، وفرنسا التى قوضت دعائم الاستبداد فى أواخر الثامن عشر ، أما معظم الأمم الأوروبية فكانت لا تزال ترزح تحت نير الحكومات المطلقة

فالنظام الذى أنشأه نابليون فى مصر كان إذن نظاماً جديداً فى الحكم ، وفضلا عن أنه يشبه أن يكون شورياً فإنه كان يجعل للعنصر المصرى صوتاً فى حكومة البلاد

كان العنصر المصرى فى خلال حكم المماليك بعيداً عن كل نفوذ ، لأن هؤلاء المماليك استأثروا بسلطة الحكم من جميع نواحيه ، فنظام « الديوان » بالرغم من أنه ترك السلطة

العليا للفرنسيين قد أشرك العنصر الأهلي في إدارة الحكومة ، وهذا شيء جديد كان له أثره في التطورات التي ظهرت في البلاد أوائل القرن التاسع عشر ، ولا شك أن نابليون بوضعه نظام « الديوان » في مصر كان متأثراً بعض التأثر بالأفكار والمبادئ الجديدة التي أوحت بها الثورة الفرنسية إلى أذهان الناس

إن نابليون كان قبل كل شيء قائداً عظيما ، طموحا إلى الفتح والسلطان ، لكنه في الوقت نفسه وليد الثورة الفرنسية ، كما كان جنود فرنسا أبناء ذلك الانقلاب العظيم الذي أعلن حقوق الإنسان ، وقرر حرية الشعوب ، فعلم الثورة كان لم يزل يخفق على الجيوش التي ساقتها الجمهورية الفرنسية إلى ميادين القتال ، يحمل في طياته مبادىء الحرية الجديدة ، وهذا وحده كان كافياً لفتح عيون الأمم والجماعات وتشوّفها لنظام جديد قائم على أساس الحرية والحق ، ومهما تغلبت فكرة الفتح والاستعمار في رؤوس القواد والفاتحين فإنهم مضطرون أن يجاروا الروح الجديدة التي ولدتها الانقلابات والثورات في نفوس الجماهير والجماعات ؛ اعتبرْ ذلك فيما أعلنته جيوش الثورة الفرنسية للبلاد التي فتحتها كالبلجيك والبيمونت ولومبارديا وإيطاليا من أنها جاءت لنصرة مبادىء الحرية وتحطيم أغلال الاستعباد لتجتذب إليها قلوب الشعوب في تلك البلاد ، كذلك فعل نابليون حينما جاء مصر ، فإنه عمل على اجتذاب قلوب المصريين فخاطبهم بلهجة الود ، ووعدهم في منشوراته وبياناته بأن يجعل زمام الحكم في أيديهم ، وبذلك استثار الروح القومية في نفوس المصريين ، فكان في هذه المنشورات شبيهاً بالرئيس ويلسن الذي قام في الحرب العالمية الأخيرة يعلن للأمم مبادئه المشهورة في حرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها ، فإن إعلان هذه المبادىء والعهود قد استثار روح الاستقلال والحرية في الشعوب قاطبة بالرغم من إخلاف ويلسن لوعوده وعهوده للأمم

فنابليون قد استثار الروح القومية المصرية في منشوراته وبياناته للمصريين ، على أنه في الوقت نفسه قد أثارها باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها ، لأن هذه الاعتداءات أثارت كراهية الأمة للاحتلال الفرنسي ، وحملتها على مقاومته بكل الوسائل ، فكانت هذه المقاومة هي النواة التي انبثقت منها الروح القومية المصرية

ومهما قيل في مبلغ ما كانت عليه الأمة المصرية في ذلك الحين من التأخر في العلم والمدنية فإن الحملة الفرنسية وما اهتاجته في نفوس المصريين من روح المقاومة قد هزت أعصاب الأمة هزة عنيفة أزاحت عن أبصارها شيئاً من الغشاوة التي رانت عليها في خلال العصور

أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويتودد إليهم ويكسب ثقتهم لأنه كان

على يقين أنه ما لم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع أن ينشىء على ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه ، مهما أوتى من قوة الجند والسلاح

لكن نابليون قد خاب فى تحقيق هذا الأمل ، وكان إخفاقه راجعاً إلى أن الأمة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسى ولم تطمئن إليه بحال من الأحوال ، ولم تخدع فى حقيقة الأغراض التى كان يرمى إليها نابليون من هذه الحملة ، وتلك فضيلة تدل على مبلغ الحيوية الكامنة فى الأمة ؛ والواقع أن نابليون مع كل تلك الوعود التى كان يمنى بها المصريين فى منشوراته وبياناته لم يكن يقصد فى الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه فى الشرق والغرب ، فالحملة الفرنسية قامت على أساس الفتح والاستعمار ، ومهما تعددت أساليب القوة والفتح فالأمم التى تشعر بشىء من الحياة والكرامة تأبى أن تكون مطية لأهواء الفاتحين

فنظام الحكم الذى وضعه نابليون فى مصر لم يكن ليصرف نظر المصريين عن أن يروا فى الحملة الفرنسية اعتداء دولة أجنبية على بلادهم بدون حق أو مسوغ ، فهذا الاعتداء فى ذاته قد أثار الروح القومية فى نفوس المصريين ، وتلك أول مرة من نحو مائة وثلاثين عاما ظهرت فيها الروح القومية المصرية لمقاومة اعتداء دولة أجنبية ، والواقع انك إذا تتبعت تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر تجد أنها سلسلة مقاومات مستمرة من جانب المصريين ضد الحكم الفرنسى ، بحيث لم يستقر للفرنسيين حكم ولم يهدأ لهم روع فى السنوات الثلاث التى قضوها فى مصر

ولا نزاع فى أن إعراض الأمة المصرية عن السكون لنابليون والاستنامة لوعوده هو فى ذاته برهان على صدق نظر الأمة أو بالأقل على ما انطوت عليه من سلامة الفطرة ، إذ لم تقبل أن تكون أداة مسخرة لتحقيق أطماع نابليون ، ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم على أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التى فتح بلادها ، بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه فى الفتح والسلطان ، فالأمة المصرية قد برهنت إذن على حيوية كبيرة فى مقاومتها للحملة الفرنسية ، ولم يفت مؤرخى الحملة حتى من هؤلاء الفرنسيين التنويه بهذه الحقيقة وحسبانها فضيلة للشعب المصرى

وفى هذا الصدد يقول المسيو مارتان Martin أحد مهندسى الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلى مصر (١) : « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار فى البلاد ، وكان مركزهم فيها مزعزعا ومحفوفا بالمتاعب ، ولم يترك الأهالى

---

(١) فى كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر) الجزء الثانى

وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة »

وقال فى موضع آخر : «إن دعاة الفتنة ما فتئوا يشعلون نار الثورة فى مختلف أنحاء القطر المصرى ، وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذى أعلنته فرنسا وهو إن مقاومة الاضطهاد هى أقدس واجبات الشعب »

ويقول المسيو ريبو Reybaud (١) :

« كانت هناك عقبات وطنية ودينية تحول دون ثقة المصريين بحكامهم الجدد (الفرنسيين)، فقد كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ويستهدف للأخطار ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها ، ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات الفخمة فى تغيير حالة الشعب النفسية ، لذلك كان الوجه البحري بالرغم من احتلاله وانهزامه غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيراً ما تمردت القرى التى مر بها الجيش الفرنسي ورفعت علم الثورة»

هذا ما كتبه كاتبان فرنسيان فى وصف الحالة النفسية للأمة ، وفيه كما ترى تمجيد لروح لمقاومة التى ظهرت فى نفوس المصريين

والآن وقد انتهينا من الكلام عن نظم الحكم التى أسسها نابليون فلنتكلم تفصيلا عن المقاومة الأهليه فى عهد الحملة الفرنسية

---

(١) فى كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية جزء ٣

الفصل الخامس

المقاومة الأهلية

فى عهد الحملة الفرنسية

كانت حكومة الدير كتوار تظن قبل تجريد الحملة على مصر أنها لن تلقى مقاومة من جانب المصريين ، لما وقر فى الأذهان وقتئذ من ميلهم إلى الهدوء وخفض الجناح وصبرهم على مظالم الحكام ، هذه الفكرة تراها ماثلة فى التقرير الذى قدمه المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية إلى حكومة الدير كتوار فى ١٤ فبراير سنة ١٧٩٨ عن مشروع الحملة[1] وهو تقرير مطول بحث فيه علاقات فرنسا بمصر والأسباب التى تبرر الحملة الفرنسية فى نظره والمقاومة الحربية التى ينتظر أن تلقاها الحملة فى مصر ، بدأه بقوله : « كانت مصر فيما مضى ولاية من ولايات الجمهورية الرومانية ، والآن يجب أن تكون ولاية تابعة للجمهورية الفرنسية »

وقال فى كلامه عن قوة مصر الحربية : « إن أهالى مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد ، وهم عزل لا سلاح معهم ، وإذا أعطاهم المماليك سلاحا بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الأجنبية فإنهم لاشك سيحاربون به طائفة المماليك أنفسهم، فليس ثمة خوف من مقاومة أو وثبة من الأهالى »

وقال فى موضع آخر : « إن الشعب المصرى سيتلقانا باحترام لأنه يأمل من زمن مديد أن يتخلص من حكامه الظالمين »

هذا ما كتبه تاليران فى تقريره عن مشروع الحملة ، وذلك ما كان يتوقعه أقطاب الحكومة الفرنسية حينما قرروا إنفاذ المشروع ، لكن الحوادث قد خيبت ظنونهم ، فإن المقاومة التى لقيها الفرنسيون من جانب الأهالى كانت أشد من مقاومة المماليك

والواقع أن من يتتبع سلسلة المقاومات التى لقيها الجيش الفرنسى من المصريين يعجب لشدة مقاومة الأمة وقتئذ للاحتلال الفرنسى واستمرار هذه المقاومة وانفساح مداها فى أنحاء القطر المصرى ، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت فى وجه الفرنسيين وامتد لهيبها من أقصى البلاد إلى أقصاها ؛ ولو قلبت صحائف الحركة القومية المصرية فى خلال المائة سنة الأخيرة لما

---

(١) هو الذى تكلمنا عنه بالفصل الثانى ص ٥٥

وجدت لهـذه المقاومة شبهاً سوى الحركة العامة التي ظهرت سـنة ١٩١٩ عقب انتهـاء الحرب العالمية .

قلنا إن الحملة الفرنسية قد هزت أعصاب الأمة المصرية فأخذت تنفض عنها غبار الجمود الذي كان يخيم عليها من ركود العصور ، وإن هذه الحملة قد استثارت روح القومية واهتاجت شعور المقاومة الأهلية في نفوس المصريين ، فبدأوا يشعرون أن لبلادهم مركزاً ممتازاً في العالم وأن لهم كياناً يدعوهم للمحافظة عليه ، لم يكن هذا الشعور مصبوغاً بالصبغة العلمية المهذبة التي نفهمها اليوم وذلك لما كانت عليه البلاد من التأخر في العلوم والأفكار ، لـكن شعوراً طبيعياً قد طاف بالنفوس واستفزها للدفاع عن كيان البلاد ، فـكان من نتائج هـذا الشعور سريان روح المقاومة في البلاد كلها من الأسكندرية إلى أسوان ، وقد أفردنا هذا الفصل والفصول التي تليه لسرد حوادث المقاومة في البلاد التي مر بهـا الجيش الفرنسي وما لقيه الأهالي من ضروب العنت والإرهاق ، وما أصابهم في سبيل المقاومة من الشدائد والأهوال ، وسنفصل ذلك متتبعين من جهة سير الحملة ومن جهة أخرى حوادث كل مدينة وكل مديرية من مديريات القطر المصري بقدر المستطاع ، ليـكون تحت نظر القارئ صورة مفصلة لحوادث المقاومة الأهلية في ذلك العصر ؛ ولنبدأ بالأسكندرية وهي أول بلد نزل به الجيش الفرنسي .

في الاسكندرية

يحسن بنا قبل أن نذكر دفاع أهـل الإسكندرية عن مدينتهم أن نمهد بكلمة عن حالتها عند مجيء الحملة الفرنسية لنتمثلها كما كانت في ذلك الحين

الاسكندرية عند مجيء الحملة

كانت الإسكندرية مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها نحو ثمـانية آلاف نسمة ، عمرانهـا متهدم ، وبيوتها أشبه بمباني القرى ، وشوارعها ضيقة كثيرة التعاريج ، ومعظم سكانها فقراء ، فالفرق كبير جداً بين حالتها في ذلك العصر وما صارت إليه الآن من العظمة والثراء والاتساع والجمال ، أو ما كانت عليه قديماً في عهد البطالسة إذ كانت عروس المدائن ومركز تجارة العالم يسكنها نحو ستمائة ألف نسمة ، ففقدت على مر العصور ما كان لها من الجلال والعظمة ، وما كان بها من عمران وحضارة ، وتجارة وصناعة ، وعلوم وفنون

ومع انتقاض معالم الحضارة فيها فقد احتفظت بمكانتها إلى القرن الخـامس عشر من

الميلاد ، ثم أخذت تفقد مكانتها بعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند (سنة ١٤٩٧) فقد تحول الشطر الأكبر من تجارة الهند إلى طريق المحيط الأطلنطى وحرمت مصر مرور تجارة الشرق ، وبعد أن كانت الإسكندرية مستودع المتاجر وطريقها بين الشرق والغرب اقتصرت تجارتها على واردات إفريقية وجزيرة العرب وثغور السلطنة العثمانية والنزر اليسير من واردات الهند، فأخذت تنزل عن مكانتها التجارية، وأمعنت فى التأخر والاضمحلال من عهد الفتح العثمانى (سنة ١٥١٧) إلى آخر القرن الثامن عشر حيث لم يكن باقياً من الإسكندرية القديمة سوى الاسم والأطلال الدارسة ، درست معالم تلك المدينة العظيمة وتحولت إلى بلدة صغيرة تقع شمالى المدينة القديمة ، وتنحصر فى شبه الجزيرة التى بين الميناء الشرقية والميناء الغربية المعروفة بالقديمة

كانت الميناء الشرقية تعرف وقتئذ عرسى السلسلة ، وهذه الميناء واقعة كما هى الآن شرقى المدينة ولا تصلح لرسى السفن أثناء اضطراب البحر ، وعلى شاطئ هذه الميناء كان يوجد الجمرك ودور القناصل ، وكانت السفن الإفرنجية لا ترسو إلا بها ، وفى النهاية القصوى من لسان الأرض الواقى لهذه الميناء توجد القلعة المعروفة بطابية « قايتباى » التى بناها السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى فى القرن الخامس عشر ، ويسميها الفرنسيون قلعة المنارة ، سموها كذلك لأنها أنشئت فى المكان الذى كان به منارة الإسكندرية القديمة المعدودة إحدى عجائب الدنيا السبع ؛ وعلى مدخل الميناء الشرقية من الجهة المقابلة لطابية قايتباى يوجد برج السلسلة القائم أثره إلى اليوم ، وكان فى داخل الميناء طابية (قلعة) أخرى صغيرة على الساحل ترى مكانها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل

أما الميناء الغربية أو المرفأ الكبير فهى الواقعة إلى الغرب بين شبه جزيرة رأس التين والبر ، وفى طرف رأس التين غرباً كان يوجد بطارية من المدافع لحماية الميناء ، وفى داخل الميناء برج آخر ترى موقعه على الخريطة ، وكانت هذه الميناء تصلح لرسى السفن ، لكن المداخل المؤدية لها كان يتعذر مرور السفن الكبيرة منها ، ولم يجر إصلاحها إلا فى عهد محمد على وإسماعيل ، ومع أن الميناء الغربية أصلح لرسى السفن التجارية من الميناء الشرقية ، إلا أن السفن الأوروبية كان محظوراً عليها الرسو إلا فى الميناء الشرقية بأمر حكومة المماليك ؛ وبالميناء الغربية توجد الترسانة ومخازن البحرية التى كانت على درجة كبيرة من التأخر والإهمال وفى النهاية القصوى للشاطئ خارج الميناء يوجد اللسان المعروف بجهة العجمى والمسافة بينه وبين رأس التين ٨٣٠٠ متر على خط مستقيم ، وتجاه هذا اللسان الجزيرة المعروفة بجزيرة

العجمى ، وكان بها برج يسميه الفرنسيون برج المرابط Marabout ، واسمه الصحيح برج العجمى

ويسمى الفرنسيون جزيرة العجمى (جزيرة المرابط) ، وهذا الاسم وارد بالفرنسية والعربية هكذا فى خريطة الإسكندرية التى خططها مهندسو الحملة الفرنسية ، وهـذه التسمية فيما نعلم لا أصل لها اللهم إلا أن تكون وصفاً لا اسماً[1] ، والاسم الصحيح هو جزيرة العجمى وبرج العجمى ؛ ويقول المسيو فيفان دينون الذى جاء إلى مصر مع الحملة الفرنسية[2] إن هذه التسمية ترجع إلى اسم المسجد الذى كان بالجزيرة ، والصحيح أن هذا المسجد معروف باسم مسجد الشيخ العجمى ، لا باسم المرابط ؛ ويقول الجنرال رينيه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية فى كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) إن القلعة التى أنشأها الفرنسيون فى جزيرة (المرابط) أقاموها حول مسجد قديم فى جزيرة منفصلة عن اليابسة ، وقد رسم رينيه هـذه الجزيرة فى خريطته ، وهى جزيرة العجمى بعينها ، ويقول إن القلعة قد تخربت أثناء القتال الذى دار بين الإنجليز والفرنسيين فى أغسطس سنة ١٨٠١ وانتهى بتسليمها ، والمعروف أن محمدعلى الكبير قد أعاد بناءها ولا تزال آثار القلعة التى بناها باقية إلى الآن بالجزيرة ، كما لا يزال مسجد العجمى مزاراً للناس إلى وقتنا هذا ، وقال لنا كبار السن فى جزيرة العجمى إن هذا المسجد معروف بهذا الاسم وموجود قبل عهد محمد على باشا وقبل الحملة الفرنسية

حدود عمران المدينة

أما عمران الإسكندرية فى أواخر القرن الثامن عشر فكان منحصراً بين الميناءين كما تراه فى الخريطة ، وحدود هذا العمران ينتهى شمالا فى مقابلة شبه جزيرة رأس التين ، فكانت جميع الجهات الواقعة بين البحر شمالا وشارع أبى وردة إلى جامع أبى العباس بعضها مدافن وبعضها نقع ، ولم يكن بها مساكن سوى بعض بيوت للصيادين بالجهة المعروفة بالسيالة ، وكان حد المدينة من الجهة القبلية الحارة المعروفة الآن بحارة المغاربة قريباً من ميدان محمد على

ويكفيك لتحكم على تناقص عمران المدينة فى ذلك العصر أن تعرف موضع عمود السوارى فإنه كان يبعد عن المدينة بنحو ألف وخمسمائة متر جنوباً

وكان للاسكندرية سور طوله الدائرى ٧٨٩٣ متراً ، يتخلله مائة برج ، وبعض هذه الأبراج غاية فى الفخامة والمناعة ، لا فرق بينها وبين القلاع الحصينة ، وهذا السور مشيد على

---

(١) كلمة مرابط كثيرة الذيوع عند المغاربة وتطلق على الأولياء الصالحين والشيوخ المجاهدين

(٢) فى كتابه (رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا)

الراجح فى عهد أحمد بن طولون ، وجدد بناءه السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ثم السلطان الظاهر بيبرس[1] ، ويسميه الإفرنج سور العرب ، وهو الذى امتنع به الإسكندريون عند هجوم الجيش الفرنسى على المدينة ، ويبين هذا السور حدود عمرانها فى عهد الدول الطولونية والأيوبية والبحرية والبرجية ، وهو يحد من العمران نصف ما كان يحده سور البطالسة القديم

خطط العالم المصرى محمود باشا الفلكى معالم سور البطالسة القديم ، ومن القارنة بينه وبين معالم سور العرب يتبين أن عمران الإسكندرية وإن كان قد تناقص بعد انقراض عهد البطالسة إلا أن المدينة ظلت عامرة إلى القرن الخامس عشر ، وقد أخذ عمرانها يتقلص فى بدء القرن السادس عشر ، وصار سور المدينة فى عهد البكوات المماليك لا يحيط إلا بفضاء عظيم من الخرائب قد خلا من المساكن ، فيسير الإنسان فيه عدة ساعات دون أن يرى من معالم العمران سوى الأطلال الدارسة ، ولم يبق به إلا صهاريج المياه وأربعة كفور يسكنها خدام البساتين التى بداخل السور وحراس القلاع والأبراج ، وكان معظم هذه الأبراج متخرباً وفى السور ثغرات وفتحات سببها الإهمال وسوء الإدارة

رسالة محمود باشا الفلكى عن الاسكندرية القديمة

ولمناسبة الكلام عن خريطة محمود باشا الفلكى نقول إنه أول عالم عصرى كشف عن موقع سور الإسكندرية القديم وآثارها ، وله فى ذلك رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الإسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته وما قام به من النقب والحفر وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها وشوارعها وأقنيتها ومراسحها ومتحفها ومكتبتها الشهيرة وقصورها ومبانيها وضواحيها ، ولم يسبقه إلى هذه المكتشفات المؤسسة عالم عصرى من الإفرنج ، لأن مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب ، وقد بحث اثنان منهم فى مواقع الإسكندرية ، أولهما المسيو سان جنيس Saint Genis أحد مهندسى الحملة ، وله فى الإسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور فى الجزء الخامس من تخطيط مصر ، ولكن المسيو سان جنيس لم ينقب ولم يحفر الأرض كما فعل محمود باشا الفلكى ، بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وآرائه التاريخية ؛ وكذلك كتب المسيو جراتيان لو بير Gratin Le père بحثاً فى وصف الإسكندرية نشر فى الجزء الثامن عشر ، اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما نقله عن مؤرخى الإفرنج والعرب ؛ وللمسيو نورى Norry وللمسيو مارتان Martin وكلاهما من مهندسى الحملة

(١) المقريزى الجزء الأول

الفرنسية بحثان أقل أهمية من أبحاث سان جنيس وجراتيان لو بير منشوران فى الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتنقيب

فحمود باشا الفلكى هو أول عالم عصرى خطط معالم الإسكندرية القديمة على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل فى مكتشفاته جهوداً كبيرة وكان تحت إمرته جماعة من المهندسين المصريين ونحو مائتى عامل يشتغلون فى النقب والحفريات ، ومما أفرد عمله وميزه أنه استثار الأرض فى عهد الخديو إسماعيل باشا ، أى قبل أن تغطى بالمبانى الحديثة وتضيع معالم الآثار ؛ فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطاً مبنيا على الاكتشاف والفحص الدقيق

ورسالة محمود باشا الفلكى مقرونة بخريطة هى أبدع ما رسمه العلماء والمهندسون عن الإسكندرية القديمة ، وإليها يرجع علماء أوروبا فى أبحاثهم

وقد خالف علماء الحملة الفرنسية فى بعض آرائهم ، فعين لمدينة كانوب مكاناً غير الذى عينوه ، وكشف أطلال مدينة تابوزيريس[1] التى يسمى الفرنسيون برجها برج العرب

حالة المدينة من الوجهة الحربية

وصف الكاتب الفرنسى « ڤولنى » Volney حالة الإسكندرية من الوجهة الحربية كما شاهدها عام رحلته إليها سنة ١٧٨٣ ، أى قبل الحملة الفرنسية بخمس عشرة سنة ، فقال إنها من الوجهة الحربية لا قيمة لها ، ولا يوجد بها قلعة ذات شأن أو خطر ، أما قلعة المنارة (طابية قايتباى) بأبراجها العالية فإنها لا تصلح للدفاع ، إذ ليس بها سوى أربعة مدافع صالحة للضرب ، وليس فيها رماة يحسنون الرمى بالقنابل ، وحاميتها المؤلفة من خمسمائة من الانكشارية هبط عددهم إلى النصف ، وإن فرقاطة واحدة لتكفى لهدم المدينة[2]

وقد زارها الرحالة الفرنسى المسيو سافارى Savary سنة ١٧٧٧ فقال إن قلعة المنارة لا تقوى على صد بارجة واحدة[3] ، وكتب المسيو مور Mure قنصل فرنسا فى تقريره[4] الذى قدمه سنة ١٧٨٣ إلى الحكومة الفرنسية يرغبها فى الحملة على مصر : « إن مرافئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر ، وليس بها من الجنود سوى الأهلين الذين

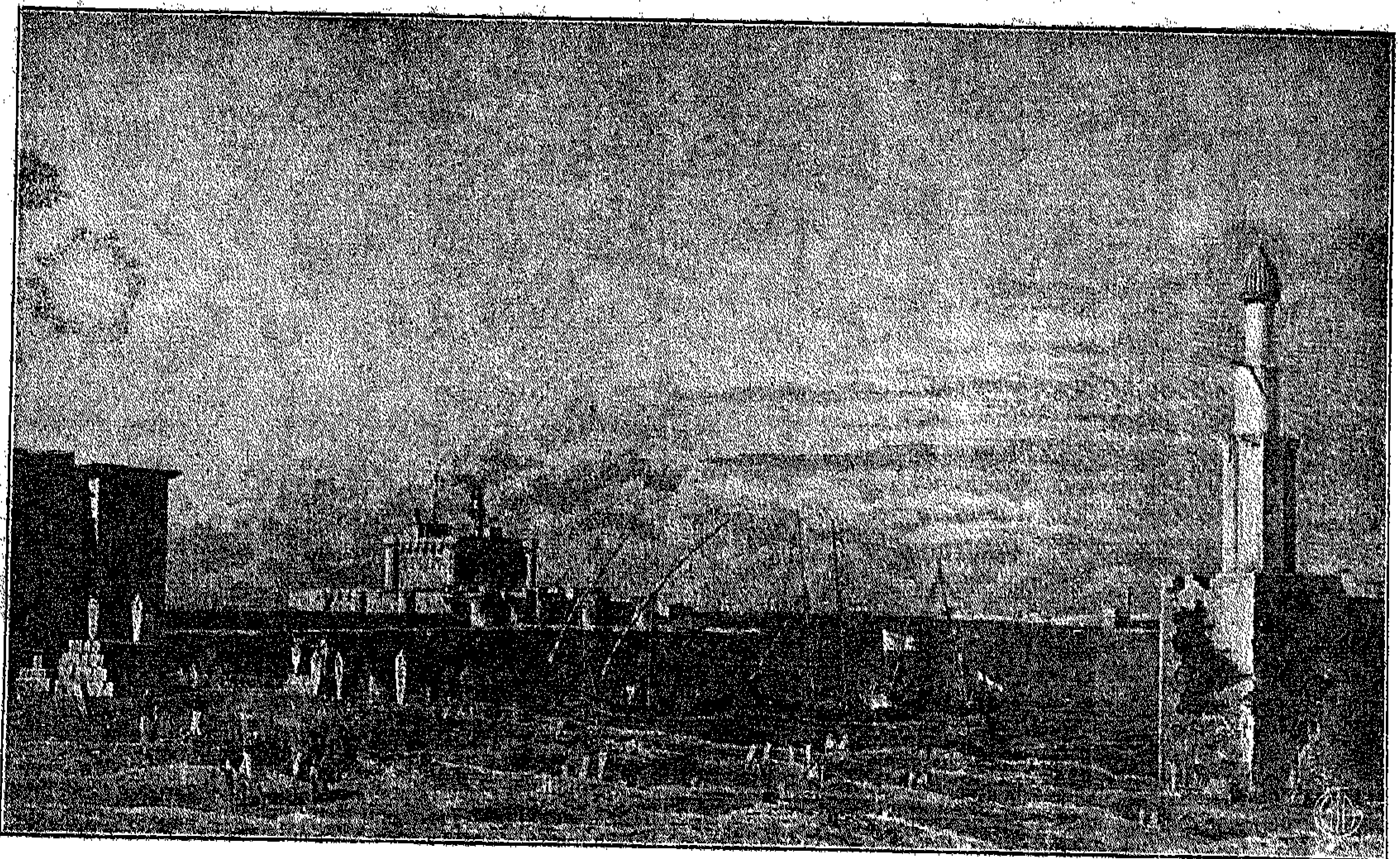
---

(١) بوصير غربى الإسكندرية

(٢) رحلة فى مصر وسوريا بقلم فولنى Volney

(٣) رسائل عن مصر بقلم المسيو سافارى

(٤) أشرنا إلى تقريره ص ٥٤



الاسكندرية — الميناء الشرقية سنة ١٧٩٨ ، وترى فى الصورة طابية (قايتباى) بحالتها القديمة والمدافن التى كانت على الشاطئ فى ذلك العهد (ص ١٢٥ و ١٢٦)

انتظموا فى سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثمانى ، أما قلعة المنارة فهى فى ظاهرها فخمة ، لكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية ، والمدافع الباقية بها لا تصلح للضرب ، ولا تستعمل إلا فى أيام الأعياد »

ففى هذه الأقوال صورة صحيحة لما آلت إليه حالة الدفاع عن الإسكندرية من الضعف والإهمال فى عهد الولاة الأتراك والبكوات المماليك ، ويفهم من كلام المسيو مور أن حامية الإسكندرية كانت مؤلفة من الأهلين دون سواهم ، وبهذا نفسر قول فولنى إن حامية قلعة قايتباى كانت خمسمائة من « الانكشارية » فإن هؤلاء « الانكشارية » كانوا إذن من الأهالى لا من الأتراك ، وهذا يؤيد ما ذكرناه فى الفصل الأول من أن المصريين انتظموا فى سلك الوجاقات (الفرق العسكرية) التى تألفت فى عهد الحكم العثمانى ، وبذلك اكتسبت الصبغة المحلية القومية

ترعة الإسكندرية

تردد اسم ترعة الإسكندرية كثيراً فى الوقائع التى حدثت بالإسكندرية والبحيرة ، لذلك يجدر بنا أن نكتب كلمة عنها

كانت الإسكندرية تأخذ ماءها من ترعة تنبثق من الرحمانية الواقعة على النيل ، وتسير مغربة شمالى دمنهور ثم تنثنى شمالا بغرب وتمر بين بحيرة مريوط وبحيرة (أبو قير) إلى أن تبلغ الاسكندرية ، وكانت هذه الترعة تسمى (خليج الإسكندرية) اتباعا لتسمية الترع فى ذلك العصر وما قبله بالخلجان ، وفى مكانها أنشئت ترعة المحمودية فى عهد محمد على الكبير مع اختلاف فى المأخذ والمصب[1] ، وترعة الإسكندرية كانت موجودة فى عهد الفراعنة كما ذكر ذلك استرابون[2] Strabon مع اختلاف فى التخطيط ، وعنى بها البطالسة لأهميتها التجارية للإسكندرية لأنها كانت طريق الملاحة بينها وبين النيل ، ونقل المقريزى فى خططه أن أحمد ابن طولون أمر بحفرها سنة ٢٥٩ هجرية (٨٧٢ — ٨٧٣ ميلادية) وأن السلطان الظاهر بيبرس جدد حفرها سنة ٦٦٢ هجرية ، وذكر أيضاً أنه فى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) جدد حفرها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون واشتغل ٤٠,٠٠٠ عامل فى حفرها وتطهيرها وأقيمت عليها القناطر والسدود وجرت فيها السفن طول السنة واستغنى أهل الإسكندرية عن شرب ماء الصهاريج وعمرت أراض وبلاد كثيرة على جانبيها[3]

(١) تأخذ ترعة المحمودية مياهها من النيل عند العطف

(٢) العالم الجغرافى اليونانى الشهير ولد سنة ٦٠ قبل الميلاد

(٣) المقريزى الجزء الأول

كانت ترعة الإسكندرية أعظم ترع مصر ، وقد أهمل شأنها فى عصر الولاة الأتراك والبكوات المماليك حتى جفت وارتفع قاعها عن ضعف عمقها الأصلى ، فكان لا يدخلها الماء فى معظم السنين إلا فى وقت زيادة النيل ثم تجف باقى السنة ، وفى مدة زيادة النيل أى فى شهر سبتمبر من كل سنة تصل مياهها إلى الإسكندرية فيملأ أهلها الصهاريج ليجدوا منها حاجتهم من الماء طول السنة ؛ وكان أهل الإسكندرية يحتفلون بمجىء مياه الترعة وخزن الماء فى الصهاريج ويبتهجون لذلك ابتهاجا عظيما كما يبتهج سكان القاهرة بمهرجان وفاء النيل[١] ، وبطلت الملاحة فيها بعد أن كانت طريق المواصلات النيلية إلى الثغر ، فانعزلت الإسكندرية عن القاهرة وداخلية البلاد ، وانحطت منزلتها التجارية القديمة ، على أنها ظلت ميناء القطر المصرى التجارية فى البحر الأبيض المتوسط لا ينافسها فى هذا المركز إلا دمياط ، فكانت متاجر أوروبا ترد إليها وحاصلات مصر تصدر منها ، وظلت مقصد السفن الأوروبية بسبب صلاح مينائها لإيواء السفن ، فكانت السفن تصل إليها قادمة من ثغور البندقية وليفورن وراجوز ومارسليا وثغور السلطنة العثمانية ، ثم تنقل المتاجر منها إلى رشيد بحراً فى المراكب المصرية المعدة للملاحة بالنيل ، أما السفن الأوروبية فلم تكن ترسو برشيد رأساً لصعوبة اجتياز البوغاز

عدد سكان الإسكندرية

تناقص عدد سكان الإسكندرية إلى درجة عجيبة من القلة ، فإن المسيو جومار Jomard[٢] قدرهم فى ذلك العصر بخمسة عشر ألفاً ، ولكن المسيو جراتيان لوبير يقدرهم بثمانية آلاف ، ويلوح لنا أن تقدير جراتيان لوبير أدنى إلى الحقيقة ، لأن جومار قدر عدد سكان الإسكندرية ضمن تقديره مدن القطر المصرى ، أما جراتيان لوبير فقد توفر على درس حالة الإسكندرية درساً خاصاً وأقام فيها طويلا زمن الحملة الفرنسية وخطط مواقعها وآثارها ، وله فيها رسالة مطولة نشرت فى كتاب تخطيط مصر[٣] ، فتقديره فيما نعتقد أدعى إلى الثقة به ، أضف إلى ذلك أن المسيو سافارى Savary الذى زار الإسكندرية سنة ١٧٧٧ قبل الحملة الفرنسية بعشرين

---

(١) ذكر المسيو سان جنيس S. Genis أحد مهندسى الحملة الفرنسية فى البحث المنشور بكتاب تخطيط مصر الجزء الخامس أن عدد هذه الصهاريج فى عهد الحملة كان ٣٠٨ ، وأنها كانت تسع من المياه ما يكفى المدينة مدة ثمانية عشر شهراً ؛ وذكر محمود باشا الفلكى فى رسالته عن الإسكندرية أن صهاريجها بلغت ٧٠٠ فى عهد إسماعيل باشا

(٢) راجع ما كتبناه عنه ص ٩٦

(٣) الجزء الثامن عشر

سنة أحصى عدد سكانها بستة آلاف نسمة (١) ، فالأمر قريبٌ من قريبٌ كما ترى ؛ ومما يدل على دقة لوبير فى الإحصاء قوله إن عدد سكان الإسكندرية قد نقص فى عهد الحملة الفرنسية فنزل إلى سبعة آلاف ، فهذه الملاحظة قوية الدلالة على أنه لايتحيز فى إيراد الحقائق ، ويظهر أن السبب فى هذا النقص يرجع إلى اضطراب الأحوال فى الإسكندرية عقب الاحتلال الفرنسى وكثرة ما فرضه الفرنسيون من الغرامات والمصادرات وإلى الحصر البحرى الذى ضربه الإنجليز عليها ثم ركود حركة التجارة وظهور الوباء فيها وحصار الإنجليز والأتراك لها براً وبحراً ، فبكل ذلك نقصوا وقلّوا ، ولا زيادة على فقر أو موت أو هجرة ، فكيف بها كلها ؟

حضور الأميرال نلسن إلى الإسكندرية

ثم إقلاعه

كانت الإسكندرية أول مدينة قصدتها الحملة الفرنسية ، وهى كذلك أول من علم باقتراب العمارة الفرنسية قبل أن تصل إلى الثغر ، ذلك أنه بالرغم من تكتم نابليون وجهة العمارة فقد تسربت أخبارها إلى البلاد ولا سيما بعد أن وصل نبأ استيلاء الفرنسيين على مالطه (٢) فى طريقهم إلى مصر ، فطارت إشاعة عزم الفرنسيين على احتلال البلاد وعمّ السخط والهياج طبقات الشعب ، واستعد الناس للمقاومة ، وبينما هم كذلك حضر أسطول الأميرال نلسن إلى مياه الإسكندرية يوم ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨ يفتش عن العمارة الفرنسية ، لكنه لم يلتق بها لأنها تأخرت فى طريقها بسبب احتلال مالطه ، فأرسل إلى حاكم الإسكندرية الوطنى السيد محمد كريم ينبهه إلى احتمال حضور العمارة الفرنسية ، وسأله أن يأذن له فى دخول الثغر ليمتار منه ، لكن الحاكم رفض طلبه ، ولعل السبب فى الرفض أنه أساء الظن فى مقاصد الأميرال نلسن لأن الإشاعات التى كان الناس يخوضون فيها ذلك الحين تنبىء أن «الإفرنج» يعتزمون احتلال مصر ، وكلمة إفرنج كانت تتناول الفرنسيين والأوروبيين على السواء ، ومع أن الإشاعات ذاعت بأن الحملة المنتظرة حملة فرنسية إلا أن حاكم المدينة توجس خيفة لما رأى أسطولا كبيراً يقترب من الشاطىء ، وكان لا يعلم شيئاً عن الحالة السياسية فى أوروبا ، فخشى أن يكون طلب الأميرال نلسن خدعة لها صلة بالحملة المقبلة

(١) رسائل عن مصر

(٢) بعد أن رست العمارة الفرنسية فى مالطه ذاعت الإشاعات أن وجهة الحملة مصر ، فنقل قباطين بعض السفن التجارية هذه الإشاعات إلى الثغور المصرية قبل مجىء العمارة الفرنسية

فرفض ، وظل الأميرال نلسن ينتظر بأسطوله أربعا وعشرين ساعة ، ثم أقلعت بوارجه يوم ٢٩ يونيه متجهة إلى شواطىء الأناضول

وإليك ما كتبه الجبرتى عن حضور الأسطول الإنجليزى :

«وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الإسكندرية ومضمونها أنه فى يوم الخميس حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنجليز ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر ، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً ، فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقايق (مركب) صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد ، والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم ، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم ، فأخبروا أنهم إنكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندرى أين قصدهم ، فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول ، وظن أنها مكيدة وجاوبوهم بكلام خشن ، فقالت رسل الإنجليز نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه ، فلم يجيبوهم لذلك ، وقالوا هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا ، فعندها عادت رسل الإنجليز وأقلعوا فى البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية وليقضى الله أمراً كان مفعولا »[1]

فى ذلك الحين كانت العمارة الفرنسية تمخر العباب قادمة إلى سواحل مصر ، وهكذا شاءت الأقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الأميرال نلسن ، فاقتربت العمارة من مياه الإسكندرية يوم ٣٠ يونيه ، وعندئذ أمر نابليون بأن تنفصل عن العمارة السفينة (جونون) Junon التى كانت فى طليعة الأسطول لتصل إلى الثغر وتلتقى بقنصل فرنسا[2] وتنبىء الفرنسيين فى الإسكندرية بوصول الحملة ، وظلت العمارة فى عرض البحر دون أن تصل إلى الشاطىء ، وفى اليوم التالى (أول يوليه) عادت السفينة جونون تحمل قنصل فرنسا بالإسكندرية[3] فأنبأ نابليون بحالة الهياج الذى عم الأهالى من يوم أن علموا باقتراب الحملة ، وأن الفرنسيين

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) هو مجالون الصغير ابن أخى المسيو شارل مجالون القنصل العام الذى كان فى فرنسا وجاء مع الحملة

(٣) يقول الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية فى كتابه إن شواطىء مصر ظهرت فى الأفق يوم ١٢ مسيدور (٣٠ يونيه) صباحاً حيث كانت العمارة الفرنسية تجاه برج العرب (بوصير) التى تبعد عن الإسكندرية غرباً بنحو ٣٦ كيلو متراً ، وإن نابليون أرسل يستدعى قنصل فرنسا فى الثغر ، فوصل يوم ١٣ مسيدور (أول يوليه) إلى بارجة الأميرال

الذين فى الثغر أصبحوا كالرهائن وأن كثيراً من سكان المدينة مسلحون يستعدون للدفاع وأنهم قد استنجدوا بمن حولهم من الأهالى والعرب المجاورين للثغر ، وأخبره كذلك بقدوم أسطول الأميرال نلسن وإقلاعه

الحالة النفسية للشعب

عند مجىء العمارة الفرنسية

إذا أردت أن تعرف نفسية الأهالى قبيل وصول العمارة الفرنسية إلى الإسكندرية، فتأمل فيما كتبه فى هذا الصدد الكاتب الفرنسى فيفان دينون Vivant Denon

كان المسيو فيفان دينون أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون على ظهر السفينة (جونون) التى كلف نابليون ربانها بالتقدم إلى مياه الإسكندرية لمقابلة قنصل فرنسا فى الثغر ، فسمع حديث القنصل وأثبته فى كتابه[١] ، وإليك ما ذكره فى هذا الصدد قال :

« قدم إلينا قنصلنا يصحبه ترجمانه وقد خالطه الرعب بعد أن نجا من القتل ومن هياج الشعب ، وأخبرانا أن أسطولا إنجليزياً مؤلفاً من أربع عشرة بارجة حربية كان بالثغر ولم يغادره إلا عشية أمس الأول ، وأن الإنجليز صرحوا بأنهم قادمون للتفتيش عنا ومحاربتنا ، وقد ظنهم الأهالى فرنسيين ، فانفجر بركان الهياج فى البلاد كلها لشعورهم باقترابنا ، وكانوا يتوقعون ذلك من يوم أن علموا باحتلالنا لمالطه ، وقد استعدوا للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال ، ويجمعون جيشاً من العرب ، وأن حاكم الأسكندرية (السيد محمد كريم) لم يأذن للقنصل بمقابلتنا ، إلا مصحوباً بجماعة من نوتية الإسكندرية ، وعهد إليهم إرجاعه إلى الثغر[٢] »

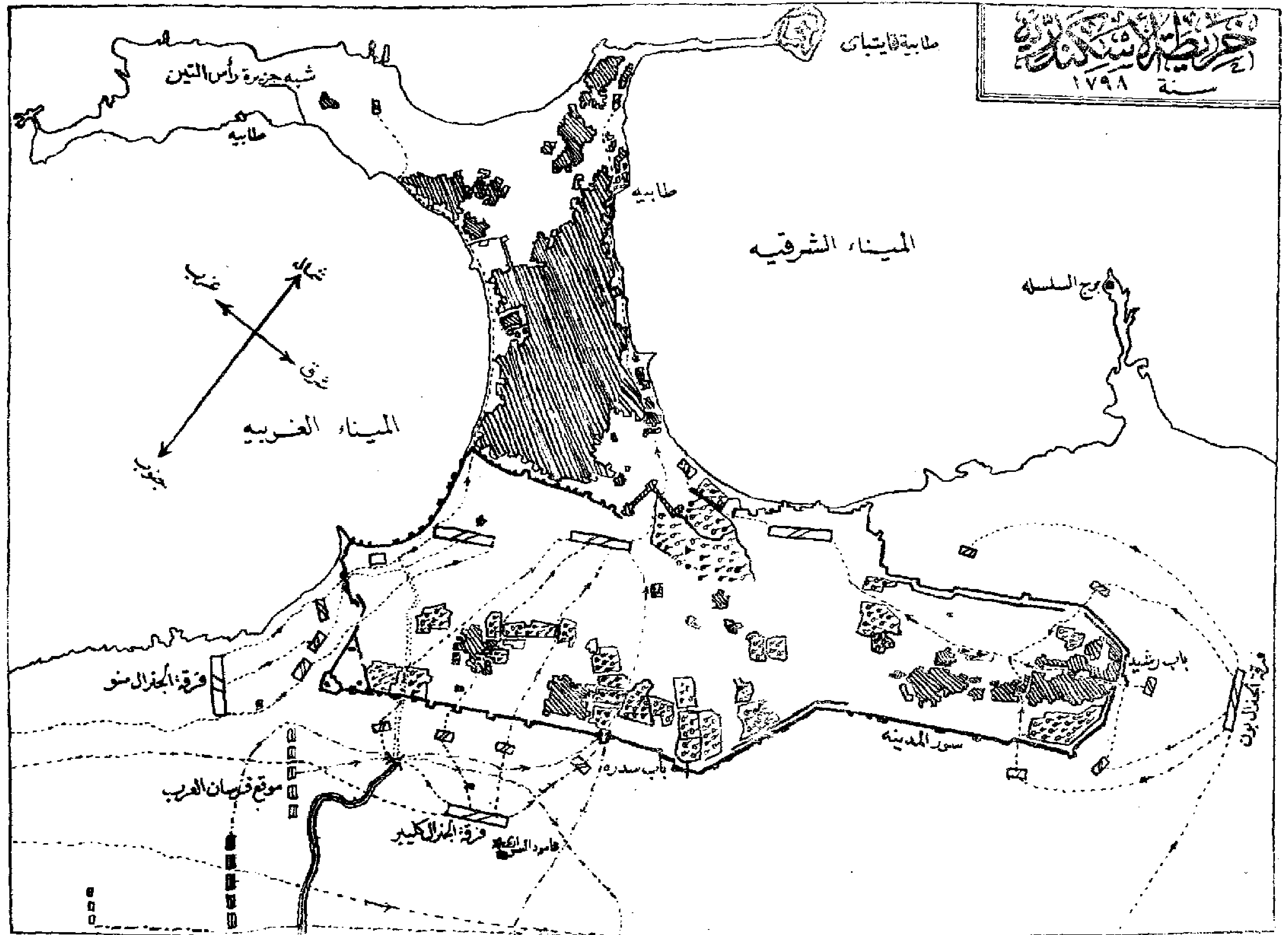
وجاء فى مذكرات الكولونل سلكوسكى أحد ضباط الحملة ما يأتى :

« وصلت منذ شهرين عن طريق الاستانة أنباء الحملة ، فأخذ الأمراء (المماليك) يستعدون ، ولا نعلم إلى أى حد بلغ استعدادهم ، ولكن الخبر الذى أزعجنا هو قدوم الأسطول الإنجليزى إلى الإسكندرية ومغادرته إياها قبل وصولنا ، وقد انزعجت له البلاد ، وظنه الناس أسطول الفرنسيين الذين يتوقعون حضورهم منذ مدة ، ومن يومئذ أخذ جميع الأهالى يعدون العدة

---

(١) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابارت

(٢) ذكر نقولا الترك الذى شهد وقائع الحملة الفرنسية ودونها فى كتابه أن السيد محمد كريم كان معارضاً فى هذه المقابلة ، وأن أدريس بك قومندان السفينة العثمانية التى كانت راسية بالثغر هو الذى أقنع السيد محمد كريم بالتصريح لقنصل فرنسا بمقابلة القادمين



خريطة الإسكندرية سنة ١٧٩٨ — وتجد بها بعض المعالم القديمة والحديثة ، كسور الإسكندرية ، وباب سدرة ، وباب رشيد ، وعمود السوارى وطابية قايتباى ، وبرج السلسلة ، والخطوط المائلة تمثل حدود عمران المدينة فى أواخر القرن الثامن عشر (انظر ص ١٢٦) ، والخطوط المنقوطة تمثل خط سير فرق الجنرالات (منو) و (كليبر) و (بون) من قواد الجيش الفرنسى فى هجومهم على السور الذى كان أهالى الإسكندرية يدافعون عنه كما تراه مفصلا (ص ١٣٦) ، وتجد أيضا بالخريطة موقع فرسان العرب الذين كانوا يناوشون القوات الفرنسية قبل اقترابها من المدينة ثم انسحابهم جنوبا

للمقاومة ، فحملوا السلاح ، وانضم إليهم المغاربة من ضواحى الثغر ، وتحصنوا بالأسوار ، بينما كان أربعمائة من الفرسان يجوبون الضواحى استعداداً للقتال ، ولم يمكث الإنجليز بمياه الإسكندرية إلا يوماً واحداً ثم غادروها متجهين شمالا بشرق ، هذا كل ما استطعنا معرفته، وعلمنا أنهم اقتصروا على السؤال أمستعدةٌ البلادُ لاستقبال الفرنسيين ، أم هى مُستعِدَّةٌ لهم الحرب والمقاومة ؟ »

دفاع أهالى الثغر

واحتلال الإسكندرية

لما سمع نابليون حديث القنصل خشى عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله فى عرض البحر ، فأمر بالمبادرة إلى إنزال الجنود للبر ، واختار لمرسى عمارته ونزول جنوده جهة العجمى[1] التى تبعد عن الإسكندرية غرباً نحو اثنى عشر كيلو متراً ، وبدأت الجنود تخرج إلى البر ليلا (ليلة ٢ يوليه سنة ١٧٩٨) ، ونزل نابليون الساعة الحادية عشرة مساء كما ذكر ذلك فى تقريره إلى حكومة الديركتوار ، وظل نزول الجنود متراسلا طول الليل ، وفى نحو الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ يوليه كان عدد الذين نزلوا بالبر نحو خمسة آلاف مقاتل من فرق الجنرالات كليبر Kleber وبون Bon ومنو[2] Menou ، وبعد أن استراحوا قليلا أمر نابليون أن تزحف هذه القوات على الإسكندرية من غير إبطاء لتباغت الإسكندريين فلا تدع لهم وقتاً لتنظيم الدفاع عن المدينة ، وسارت القوة منتصف الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٢ يوليه بحذاء الشاطئ ، فوصلت تجاه أسوار المدينة عند شروق الشمس وأخذت تحاصرها فى الضحى[3] ، ووقف نابليون على قاعدة عمود السوارى واتخذها معسكره العام يرقب منها حركة الهجوم ويصدر أوامره لقواد جيشه

أما أهالى الإسكندرية فمن ساعة أن ظهرت العمارة الفرنسية عند غروب الشمس وقع

---

(١) بالشاطئ الممتد بين العجمى والدخيلة

(٢) كان الجيش مؤلفاً من خمس فرق وهى فرقة الجنرال كليبر ، وفرقة الجنرال ديزيه ، وفرقة الجنرال بون ، وفرقة الجنرال منو ، وفرقة الجنرال رينيه ، عدا الفرسان الذين كانوا تحت قيادة الجنرال دوماس Dumas ثم الجنرال مورا Murat

(٣) جاء فى مذكرات الجنرال كليبر ما يأتى : « نزلنا إلى البر على شاطئ المرابط (العجمى) الساعة ١١ ليلا ، فبدأنا نرتوى من ماء بئر قريبة ثم استرحنا ساعة واستغرقت فى النوم إلى أن أيقظنى البرد ، وسرنا نحو الساعة الأولى بعد منتصف الليل صوب الإسكندرية ، وبدأنا نهاجمها يوم ١٤ مسيدور (٢ يوليه) فى نحو الساعة العاشرة صباحا »

فيهم الرعب وتولاهم الفزع حين نظروا وجه البحر تغطى بالمراكب ، فبادر السيد محمد كريم حاكم المدينة إلى إخبار مراد بك بقدوم العمارة وطلب منه النجدة ، وأرسل فى تلك الليلة إلى مراد بك ثلاثة عشر ساعياً ، على أن الإسكندريين قد بذلوا ما فى مقدورهم دفاعاً عن المدينة ، فحصنوا الأسوار ، وشحنوا القلاع بالميرة والذخيرة جهد ما وصلوا إليه ، وفزعوا إلى السلاح فحمله القادرون منهم ، وركّبوا المدافع العتيقة على أسوار المدينة استعداداً للكفاح ، وعهدوا إلى جماعة من الفرسان مناوشة القوات الفرنسية قبل اقترابها ، فحدثت مناوشات بين الفرنسيين والعرب ارتدَّ على أثرها العرب جنوباً ، وتابع الفرنسيون زحفهم على المدينة

احتشد الأهالى الذين يحملون السلاح على الأسوار وفى الأبراج التى تتخللها للدفاع ، فلما اقترب الجيش الفرنسى وقبل أن يبدأ هجومه ، صعد نابليون على الربوة المقام عليها عمود السوارى (وكان العمود قبلى سور الإسكندرية) وشاهد أسوار المدينة ومآذنها وقلاعها ، ولاحظ أن بالسور رغم ارتفاعه وضخامته ثغرات كبيرة رممت حديثاً ترميا يدل على العجلة ، ورأى أهالى الإسكندرية محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركباناً ، رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح ، فأصدر أمره بالهجوم العام ، وأخذ الأهالى يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار إطلاقاً من غير إحكام ، فأحاط الجنود بأسوار المدينة وهاجموها من ثلاث جهات ، الجنرال منو من الغرب حذاء الشاطئ ، والجنرال بون من جهة باب رشيد ، والجنرال كليبر من باب سدرة واندفعوا إلى الأسوار ، فقابلهم الأهالى بإطلاق النار إطلاقاً شديداً من المدافع والبنادق ، وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة ، لكن المدافعة لم تدم طويلا ، فاقتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة ووصلوا إلى الجهة المسكونة منها ، وكانت مقاومة الأهالى قد فدحتهم بالخسائر فهاجموا الناس فى بيوتهم ، فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين ، وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة قاتلة لولا الحظ الذى نجاه من الموت ، قال بوريين Bourienne سكرتيره الخاص فى هذا الصدد : « دخل بونابارت المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنباً لجنب ، وكنت أرافقه فى سيره ، فأوقفتنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من أحد النوافذ ، واستمرا يطلقان الرصاص ، فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة [1] »

وخشى نابليون حدوث المذابح فى المدينة وهو الذى أعلن أنه إنما جاء لمحاربة المماليك ،

(١) مذكرات بوريين سكرتير نابليون الخاص ، الجزء الأول

فأمر جنوده أن يكفوا أيديهم واستدعى إدريس بك قومندان السفينة العثمانية التى كانت راسية بالثغر ، وطلب إليه أن يقنع أهل المدينة بالكف عن القتال ويبلغهم أنه إنما جاء لمحاربة المماليك[١] ، فبلغهم القومندان الرسالة وكف الأهالى عن المقاومة مذعنين للقوة القاهرة ؛ وظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيين المدينة معتصما بطابية قايتباى ومعه فريق من المقاتلة ، إلى أن كلت قواه ورأى المقاومة عبثاً لايجدى ، فكف عن القتال وسلم القلعة ، فتلقاه نابليون لقاءً كريماً وأبقاه حاكما للإسكندرية ، وبذلك سلمت المدينة بقلاعها وأسوارها ومرافئها إلى الفرنسيين ، ولم يكن بد من التسليم لأن قوة الدفاع كانت أضعف من أن تقاوم جيش نابليون وهو فى عنفوانه وقوته ؛ وشرعت السفن الفرنسية فى مساء اليوم الذى احتلت فيه المدينة تنزل بقية جنودها وأحمالها فى الميناء الغربية

كتب الجنرال برتبيه[٢] فى رسالته إلى وزارة الحربية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليه سنة ١٧٩٨ يصف احتلال الفرنسيين للإسكندرية فقال : « إن الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت ، وقد أصيب فى هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته ، فجرح جرحاً بليغاً ، وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة ، وأصيب الأدجودان جنرال إسكال Escale بجرح بليغ فى ذراعه من عيار نارى ، وقتل اللواء ماس Mas وخمسة ضباط آخرون »

وكتب الجنرال منو إلى نابليون يقول : « إن الجنود يستحقون الثناء العظيم على مابذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الأعداء (الأهالى) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم »

وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسى فى مهاجمة الإسكندرية فى رسالته إلى حكومة الديركتوار بثلاثين إلى أربعين قتيلا وثمانين إلى مائة جريح ، وقدرها بعد ذلك فى مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح ، وقدر خسائر الإسكندريين بسبعمائة إلى ثمانمائة بين قتيل وجريح ، وأمر بدفن قتلى الفرنسيين حول عمود السوارى باحتفال عسكرى كبير ونقشت أسماؤهم على قاعدة العمود

---

(١) قبل أن يحتل نابليون الاسكندرية أرسل إلى الوالى التركى (أبو بكر باشا) وإلى إدريس بك قومندان السفينة العثمانية رسالتين يعرب فيهما عن مقاصده الودية نحو السلطان ويعلن أنه إنما جاء لمحاربة المماليك ، وقد نشرنا هاتين الرسالتين فى قسم الوثائق التاريخية

(٢) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية

رواية الجبرتى عن احتلال الإسكندرية

إليك ما ذكره الجبرتى عن رسوّ العمارة الفرنسية واحتلال الإسكندرية :

« فلما كان يوم الأربعاء العشرون من الشهر المذكور (محرم سنة ١٢١٣)(١) وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأنه فى يوم الاثنين ثامن عشر وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة ، فأرسوا فى البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد ، فلما نزلوا إليهم عوّقوهم عندهم ، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمى وطلعوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد ، فعندها خرج أهل الثغر ومن انضم إليهم من العربان المجتمعة وكاشف (حاكم) البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولا أمكنهم ممانعتهم ، ولم يثبتوا لحربهم وانهزم الكاشف ومن معه من العربان ، ورجع أهل الثغر إلى التترُّس فى البيوت والحيطان ، ودخلت الإفرنج البلد ، وانبثّ فيها الكثير من ذلك العدد ، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمى يدافعون ، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون ، فلما أعياهم الحال ، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال ، وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته ، طلب أهل الثغر الأمان فأمّنوهم ، ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم أنزلوهم ، ونادى الفرنسيس بالأمان فى البلد ورفع بنديراته عليها »

سياسة نابليون
فى الإسكندرية

كانت الإسكندرية أول مدينة مصرية نزلها نابليون وواجه فيها المصريين ، فعزم على أن يتبع فيها السياسة التى رسمها من قبل وهى مجاملة الأهالى ومحاسنتهم واجتذابهم إليه بالكلم الطيب والوعود الحسنة ، لذلك بادر عقب احتلاله الإسكندرية إلى دعوة مشايخ المدينة وأعيانها لمقابلته ، فلما اجتمع بهم أعرب لهم عن تمنيه السعادة والرفاهية للشعب المصرى وأوضح لهم أنه لا يقصد بالأهالى سوءاً ، وطارحهم الرأى فى إصلاح حالة البلاد ، وواثقهم على الاطمئنان على حياتهم وأموالهم وأن لايحاربوا الجيش الفرنسى وأن يكونوا موالين للجمهورية الفرنسية ، وردّ إلى السيد محمد كريم الذى استبسل فى الدفاع عن المدينة سلاحه وقال له فى مجلس من أعيان المدينة : « لقد أخذتك والسلاح فى يدك ، وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنك

(١) ٤ يوليه سنة ١٧٩٨

استبسلت فى الدفاع ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ، لذلك أعيد إليك سلاحك وآمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » (١)

حضر المسيو فيفان دينون هذا المجلس وأثبت فى كتابه (٢) أقوال نابليون للسيد محمد كريم ووصفه بقوله : « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل الذكاء والدهاء ، وكأنما كان يكتم عواطفه عنا ، على أنه بدت عليه علامات التأثر من العفو الذى أسداه إليه القائد العام » ، وصوّره فى مجموعة رسومه

وعقب اجتماع نابليون بأعيان المدينة أذاع منشوره الذى كان أعده من قبل ، وقد بسطنا الكلام عنه فى الفصل الثانى ، وأطلق سراح أسرى مالطه ليوزعوا نسخاً منه فى البلاد ، فلم يكن من الأهالى إلا أن قابلوا هذا المنشور بالإذعان لا اقتناعاً به ولكن نزولا على حكم القوة ، وأذاع نابليون أمره فى الجند وحذرهم عقابه إذا لم يحترموا الشعائر الدينية للأهالى ونهاهم أن يتعرضوا لهم فى أموالهم وأملاكهم

وقبل أن ترسو العمارة على سواحل الإسكندرية بعدة أيام أمر نابليون بإذاعة منشور على الجنود يوصيهم فيه باحترام شعائر المصريين الدينية وعدم التعرض لنسائهم ويحذرهم من الاعتداء على أموالهم وبيوتهم ، وفرض عقوبات شديدة لجرائم النهب والاعتداء (٣) ، وبعد احتلال الإسكندرية أصدر الجنرال برتييه رئيس أركان الحرب أمراً بتاريخ ٣ يوليه يتضمن تعليمات القائد العام فى هذا الصدد وأهمها : « إن القائد العام يريد أن يستمر الأهالى يؤدون شعائرهم الدينية فى المساجد كما كانوا من قبل ، ويحظر على الفرنسيين جميعاً من عسكريين وملكيين دخول المساجد أو الاجتماع على أبوابها ، وعليكم أن تأمروا ضباط الفرق بأن يتلوا هذا الأمر على جنودهم وأن يعيدوا تلاوة أمر القائد العام الخاص بمعاقبة النهب والتعدى على النساء ، وعليكم أن تعدموا رميا بالرصاص كل من يخالف هذه الأوامر ، ومن المهم أن يدفع كل جندى من الجنود ثمن مايبتاعه فى المدينة وأن يحافظوا على أموال الأهالى وكرامتهم وعلينا أن نكتسب صداقتهم وأن لا نعادى سوى المماليك »

كانت نتيجة مقابلة نابليون لزعماء الأهالى أن كتبت فى يوم ٤ يوليه وثيقة بالعهود التى أخذها الفريقان كلاهما على الآخر ، وإليك نص الوثيقة :

« هذا ما تم الاتفاق عليه بين أعيان الإسكندرية الموقعين بأسمائهم وبين رئيس الأمة الفرنسية والقائد العام للجيش المعسكر بالمدينة ،

---

(١) و (٢) كتاب رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا

(٣) نشرنا هذا المنشور فى قسم الوثائق التاريخية

يستمر الأعيان على العمل بقوانينهم والقيام بشعائرهم الدينية وفض المنازعات بينهم مع مراعاة العدل والابتعاد عن مسالك الهوى ، ولهم أن يختاروا القاضي الذى يتولى القضاء فى محكمة الشرع من خيار العلماء المشهود لهم بالاستقامة والتقوى ، وعليه أن لا يقضى فى أمر إلا بعد الرجوع إلى رأى مجلس العلماء

«ويجتهد الموقعون على هذا فى إقامة العدل ويبذلون ما فى وسعهم لتحقيق هذا الغرض ، وسيعملون جهودهم لما فيه صالح البلاد وتوفير أسباب السعادة للأهالى ومحاربة الأشرار والمفسدين ، ويتعهدون كذلك أن لا يخونوا الجيش الفرنسي وأن لايعملوا عملا يضر مصالحه وأن لا يشتركوا فى مؤامرة تدبر ضده ، وتعهد لهم القائد العام من جهته بأن يمنع كل جندى من جنوده من التعدى على أهالى الإسكندرية ، ويعلن أن من يرتكب من الجنود عدواناً أو ظلماً ينكل به ويعاقب بأشد أنواع العقوبة ، ويتعهد القائد العام علناً بأن لا يجبر أياً من الأهالى على تغيير دينه وتغيير شعائره الدينية فإن مقصده هو إقرار الأهالى فى دينهم وإطمئنانهم على أنفسهم وأموالهم وسيبذل فى هذا السبيل كل ما لديه من قوة ما داموا لا يقصدون به ولا بجيشه سوءاً »

هذا الاتفاق مؤرخ ٢٠ محرم سنة ١٢١٣ (الموافق ٤ يوليه سنة ١٧٩٨) وموقع عليه بالأسماء الآتية :

« ابراهيم البرجى مفتى الحنفية ، سليمان الكلاف مفتى المالكية ، محمد المسيرى ، أحمد عبد الله الشافعى ، حسن كانيد ، عباس القويضى ، مصطفى محمد »

لم نجد لهذا الاتفاق ذكراً فى تاريخ الجبرتى ولا فى أى مرجع آخر من المراجع العربية ، ولذلك ترجمناه عن الأصل الفرنسي الوارد فى لاجونكيير[1] ، وقد أورد الجبرتى مقابلة نابليون لأعيان الإسكندرية ولم يذكر فيها إلا طلبه جمع السلاح وتعليق الشارة الفرنسية الثلثة الألوان (الكوكارد) على صدورهم ، وإليك ما قاله الجبرتى :

« وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره إليه وأن يضعوا الجوكار فى صدورهم فوق ملبوسهم ، و « الجوكار » ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك مستديرة فى قدر الريال سوداء وحمراء وبيضاء توضع بعضها فوق بعض ، بحيث تكون كل

(١) حملة مصر الجزء الثانى ، وهذا الكتاب مطبوع سنة ١٨٩٩ ، وقد رجعنا إلى كتاب المسيو تيبودو Thibaudeau المطبوع سنة ١٨٢٨ فوجدنا به هذه الوثيقة مع زيادة بعض العبارات التى أضفناها فى الترجمة ، ومع اختلاف بسيط فى أسماء الموقعين عليها ، فإن تيبودو لم يذكر سوى أسماء إبراهيم البرجى مفتى الحنفية ، ومحمد المسيرى ، وأحمد (ولعله أحمد عبد الله الشافعى) ، وسليمان الكلاف مفتى المالكية

دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيطة بعضها ببعض » ، ولم نجد فى الجبرتى ذكراً ولا بطريق الإشارة لأحد من الموقعين على هذا الاتفاق سوى الشيخ محمد المسيرى ، فقد ذكره فى عرض الكلام عن ولاية على باشا الطرابلسى فأثنى عليه ووصفه بالعلم ، وقال عنه أنه « أجلّ مذكور فى الثغر »

أوامر نابليون وتعليماته قبل مغادرته الإسكندرية

قبل أن يزحف نابليون بجيشه على القاهرة عين الجنرال كليبر قومنداناً وحاكما لدائرة الإسكندرية وضواحيها ، والجنرال مانسكور Manscourt قومنداناً للموقع ، والقبطان لبلاى Le Pelley قومندانا للميناء ، وعهد إلى الكولونل كريتان Cretin تحصين ثغر الإسكندرية وترميم قلاعه القديمة وإنشاء قلاع جديدة لجعلها بمأمن من البوارج الإنجليزية

ويعد الجنرال كليبر من أكفأ قواد الحملة الفرنسية ، وكان قائد فرقة من الفرق المعدة للزحف على القاهرة ، لكن الجراح التى أصابته يوم احتلال الإسكندرية حالت دون اشتراكه فى الزحف ، فأبقاه نابليون بالإسكندرية إلى أن يشفى من جراحه ، ووكل إليه شؤون الدفاع عنها والإشراف على إدارتها وترك بها حامية من الجنود[1] ، وعين فى الوقت نفسه الجنرال منو Menou حاكما لرشيد ، وكانت إصابته كذلك سبباً فى تخلفه عن اللحاق بالجيش الزاحف فى داخلية البلاد ، وقد شاءت الأقدار أن كليبر ومنو قد توليا على التعاقب القيادة العامة للجيش الفرنسى عقب سفر نابليون إلى فرنسا كما سيجىء بيانه

ولما أزمع نابليون مغادرة الإسكندرية (يوم ٧ يوليه سنة ١٧٩٨) أوصى الجنرال كليبر أن « يبذل كل ما فى وسعه لاستبقاء العلاقات الحسنة مع الأهالى وإبداء كل أنواع الاحترام للمفتين ورؤساء المشايخ فى المدينة » ، ومع ذلك فإن نابليون قد فرض على المدينة بعد احتلالها غرامة حربية قدرها ١٥٠ ألف فرنك (ستة آلاف جنيه) وهى غرامة فادحة إذا قيست بما كانت عليه المدينة فى ذلك الحين من الفقر والتأخر الاقتصادى

وقبل أن يغادر الإسكندرية أمر بإبقاء السيد محمد كريم حاكما لها ، وأعرب له عن ارتياحه لمسلكه الذى اتخذه من يوم قدوم الجيش الفرنسى ، وكتب له الخطاب الآتى يوم مغادرته الإسكندرية

« إلى السيد محمد كريم

(١) تتألف هذه الحامية من ٦٥٠٠ جندى يضاف إليهم ٣٠٠٠ من بحارة السفن التى أقلت الجنود أى أن مجموع الحامية بلغ نحو ٩٥٠٠

« المعسكر العام بالإسكندرية فى ١٩ مسيدور من السنة السادسة (٧ يوليه سنة ١٧٩٨)

« لقد سُرّ القائد العام سروراً تاماً من الخطة التى سلكها السيد محمد كريم منذ قدوم الجيش الفرنسى ، وإعراباً عن هذا السرور يعينه فى وظيفة محافظ دائرة الإسكندرية ، وستصل إليه أوامره بواسطة الجنرال كليبر القومندان العام للجهة ، وهذا لايمنعه من أن يراسل القائد العام رأساً متى شاء ، وعلى الجنرال كليبر أن يطلب منه كل ما تقتضيه مهامّ الجيش الفرنسى وبوليس دائرة العرب . بونابارت[١] »

موقف كليبر فى الإسكندرية

بذل الجنرال كليبر ما فى طوقه واستخدم كفايته وجهده لتوطيد مركز الفرنسيين فى الإسكندرية من الوجهتين العسكرية والإدارية ، على أنه فشل فى مهمته ، ولم يكن ينظر إلى مقامه بالإسكندرية بعين الارتياح لأنه كان من القواد الذين يطمحون إلى نيل المجد فى ميادين القتال لا بين أسوار المدن ، ولقد كتب إلى نابليون يقول[٢] إنه يعتبر الإسكندرية منفى له ، ويرجو منه أن ينقذه من منفاه فى عاجل الوقت ، وأنه وإن كانت جراحه لا تلتئم قبل شهر بيد أن ذلك لا يمنعه من السفر إلى القاهرة واللحاق بفرقته

إن مهمة كليبر فى الإسكندرية كانت شاقة لأن حالة الحرب جعلت الإسكندرية فى شبه حصار بحرى شل حركة السفن وعطل التجارة التى هى أكبر مورد لثروة الأهالى ، لذلك أخذ الكساد يضرب فى المدينة وتشتد الفاقة والضيق بالأهالى فيزداد تذمرهم وسخطهم من الاحتلال الفرنسى ، ولقد شكا كليبر غير مرة من هذه الحال إلى نابليون وأعرب له عن حيرته فى دفع عطاء الجنود لأن موارده المالية لا تتسع لمرتباتهم ، وكان الأهالى من ناحيتهم لا ينفكون ينظرون إلى الفرنسيين بعين المقت والكراهية ، والجنود من جهتهم لا يكبحون لأنفسهم جماحاً ، بل كانوا يقترفون من المنكر والعدوان ما يؤجج نار الكراهية ويثير الحفيظة عليهم فى نفوس الناس ، ذكر كليبر فى رسالته إلى نابليون[٣] أن بحارة الأسطول قد خربوا ضواحى (أبو قير) فكانوا يغتصبون ثمار الأشجار ويقطعون النخيل من جذوعه ، وقد لفت كليبر نظر الأميرال « بْرويس » قومندان الأسطول إلى كفهم عن هذا العدوان قائلا له : « إنكم تقدرون عواقب هذا السلوك فى إثارة روح الكراهية فى نفوس الأهالى فى

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٨٥

(٢) رسالة كليبر إلى نابليون بتاريخ ١٢ يوليه سنة ١٧٩٨

(٣) بتاريخ ١٢ يوليه سنة ١٧٩٨

الوقت الذى نحن محتاجون فيه إلى كسب قلوبهم » ، وكان بعض الجنود فى المدينة يخرج على النظام ويرتكب السرقات ، وبالرغم من حكمة الجنرال كليبر وأناته وبذله الجهد فى تحسين علاقة السلطات الفرنسية بالأهالى فإن روح السخط كانت كامنة فى جوانحهم ، والواقع أنهم ما رضخوا للحكم الفرنسى إلا إذعاناً للقوة وكانوا يتحيّنون الفرص للمقاومة والوثبة ، وقد وقعت حادثة فى يوم ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨ كادت تفضى إلى هياج عام لولا ما اتخذه الجنرال كليبر من الحكمة والحزم ، فقد قتل فى هذا اليوم أحد جنود مدفعية الأسطول ولم يعرف قاتله ، ووجدت جثته ملقاة فى الشارع ، وفى الوقت نفسه ألقى فى البحر خادم أحد الضباط فمات غرقاً ، حصلت الحادثتان فى وقت واحد ، فترامى الخبر فى المدينة وتحفز الناس للهياج فاتخذ كليبر وسيلة الشدة فى معالجة هذه الحادثة ، فاعتقل بعض أعيان المدينة بصفة رهائن واستدعى حاكم المدينة الوطنى (السيد محمد كريم) والقاضى الشرعى وكبار الأعيان وطلب منهم البحث عن الجناة ومعاقبتهم طبقاً لقوانين البلاد ، وتهدد بشنق من تقع عليه القرعة من الرهائن إذا لم يعاقب الجانى فى خمسة أيام وتعهد السيد كريم وزعماء المدينة بتعقب الجناة ومحاكمتهم ، لكن البحث لم يؤد إلى نتيجة ما ، وتبين أن القاتل واسمه السيد أحمد قد نجا بنفسه وأفلت من القصاص فحوكم غيابياً بالمحكمة الشرعية وحكم عليه قاضى الإسكندرية بالقصاص بمحضر جمع من العلماء وأعيان المدينة وكتب بذلك إعلام شرعى

والظاهر أن الجنرال كليبر قد تحقق من أخباره وأبحاثه أن الجندى القتيل هو الذى استهدف للقتل باعتدائه على الناس ولذلك أصدر عقب الحادثة منشوراً إلى الجنود قال فيه : «أيها الجنود إنكم ستستهدفون لمثل هذه الحوادث إذا خالفتم أوامر القائد العام ولم تحترموا أملاك الأهالى وعاداتهم ودياناتهم ، وقد رأيت من واجبى حماية للأهالى ومحافظة واطمئنانا عليكم أن أصدر إليكم الأوامر الآتية تفاديا من عواقب الخروج عن حدود الواجبات والنظام

أولا — كل من يدخل من مسكن أحد المسلمين فى مكان النساء يعد محرضاً على القتل والإخلال بالنظام ويحكم عليه بالإعدام

ثانياً — كل من يتسلق بيتاً من بيوت المسلمين أو غير المسلمين لأى من الأسباب يعد سارقا ويحكم عليه بالإعدام

ثالثاً — من يصيد الحمام داخل المدينة باستعمال الآلات النارية وينشأ عن عمله تعريض حياة الأهالى للقتل والخطر كما حدث من قبل يعد قاتلا ويحكم عليه بالإعدام

رابعاً — كل من ينتهك شعائر المسلمين الدينية فى المساجد أثناء صلواتهم أو وضوئهم يعد محرضاً على الإخلال بالنظام ويحكم عليه بالإعدام»

بين الإسكندرية ودمنهور

هزيمة الجنرال دءوى

وكانت روح الكراهية للفرنسيين تظهر ويعلنها الأهالى كلما وجدوا سبباً أو سنحت فرصة ، فمن ذلك أن الجنرال كليبر أمر بتسيير كتيبة طوافة من الجنود تقوم من الإسكندرية لتجوب بعض جهات مديرية البحيرة ، فتعرج على دمنهور ثم تنثنى إلى رشيد فأبو قير فالإسكندرية للاطمئنان على سلامة مواصلات الجيش الفرنسى بين المدن والمواقع المهمة ، وكان ذلك بأمر من نابليون الذى اختار الجنرال دءوى Dumuy لقيادة الكتيبة .

قامت الكتيبة يوم ١٧ يوليه سنة ١٧٩٨ ، ولم تستطع أن تتزود ما يكفيها من الماء والزاد لأن الأهالى علموا بعزم القيادة الفرنسية على تجريد هذه الكتيبة فهربوا الجمال لكيلا يستعين بها الفرنسيون ، ولقيت الفرقة عنتا ومشقه بعملهم هذا ؛ قال الجنرال دءوى فى تقريره عن طوافه : « على بعد نصف فرسخ من الكريون[١] هاجم الكتيبة عدد كبير من العرب وكان هذا العدد يزداد كلما تقدمنا فى السير ، وقد شتتنا هذه الجموع بالرصاص ولم نفقد سوى قتيل واحد وجريح ، وقد داخلنى الشك من الاتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومغادرتنا للإسكندرية ، وخيل إلىّ أن هناك اتصالا بينهم وبين أهالى الإسكندرية ، تابعت الكتيبة سيرها ووصلت إلى دمنهور ، وكنا فى خلال هذه المسافة محرومين الماء حرمانا تاما ، وكان من المستحيل علينا ونحن فى الإسكندرية أن نحصل على جمل واحد أو قربة واحدة لحمل الماء على رغم أوامر الجنرال كليبر ، وبلغت بنا الحال أنه فى يوم تحرك الفرقة اختفت الجمال من الإسكندرية ثم عادت إلى الظهور فى شوارع المدينة غداة مسيرنا ، مما يدل على أن هناك تواطؤا بين الأهالى وأصحاب الإبل »

لقيت الكتيبة عنتاً ومشقة فى طريقها إلى دمنهور ، فقد كان الأهالى لا يزالون يذكرون اعتداء الجنود على القرى أثناء زحف الجيش إلى القاهرة ، فكانوا يقابلون الفرقة بما استطاعوا من أنواع المقاومة ؛ ولما دخلت دمنهور لقيت بها تمرداً شديداً حيث اجتمع من الأهالى نحو ستة آلاف[٢] مُعدّين للقتال ، وقد غصت بهم الطرق والشوارع وتغطت أسطحة المنازل ،

---

(١) من بلاد مركز كفر الدوار

(٢) تقرير الجنرال دءوى المؤرخ ٣ ترميدور (٢١ يوليه سنة ١٧٩٨)

فرأى قائد الكتيبة أن من الخطر الاصطدام مع هذه الجموع ، فأخلى دمنهور بعد أن قتل بعض جنوده ، وصدت المدافع الفرنسية هجوم الجموع الثائرة وانسحب إلى بركة غطاس ، وهناك استقى الجنود من الماء وهاجمهم العرب ثانية ، فاعتزمت الكتيبة أن ترجع إلى الإسكندرية وتعدل عن متابعة سيرها إلى رشيد وذلك لما عانته من المتاعب والغارات فى طريقها ، رجعت أدراجها إلى الإسكندرية مضعضعة منهوكة القوى بعد أن خسرت ثلاثين بين قتيل وشريد ، وأخفقت شر إخفاق فيما قصدت إليه ، وأخذ الأهالى يتعقبونها حتى وصلت الإسكندرية يوم ٢٠ يوليه ، وكانت جموع العرب والأهالى لا تفتأ تحتشد حول أسوار الإسكندرية متشجعة لما حل بفرقة الجنرال ديموى من الخسائر ، وقتلت بعض الجنود المالطيين بجهة عمود السوارى وجرحت جنديا آخر ، فاضطر الجنرال كليبر إلى إنشاء مخافر على الأكمات المشرفة على المدينة لمنع توالى الهجمات وحماية السرايا (الدوريات) المسلحة التى كانت ترود الضواحى ، وقد فتكت هذه السرايا بقوة من العرب على مقربة من باب رشيد يوم ٢٣ يوليه فقتلت منهم ثلاثة وأربعين رجلا

لم يكن الفرنسيون يتوقعون هذه المقاومة بل كانوا يظنون الأهالى قد أخلدوا واستكانوا ، قال الجنرال ديموى فى تقريره : « إنى آسف كثيرا لأنى لم أجد فى جولتى هذه مصرياً واحداً يحمل الشارة الفرنسية ! » ، واستنتج من حوادث دمنهور أن هناك مخابرات سرية بين الإسكندرية والمدن التى مرت بها الفرقة ، ولاحظ أن أهالى دمنهور كانوا على علم بقدوم الفرنسيين قبل وصولهم ، فكانوا مُعِدّين لحربهم ما أعدّوا

مسألة السيد محمد كريم

والقبض عليه ومحاكمته

بدأت القيادة الفرنسية من ذلك الحين ترتاب فى نيّات السيد كريم حاكم الإسكندرية وتتهمه بخيانته للجمهورية وممالأته عليها وإثارته الهياج والعصيان فى نفوس الأهالى ، وكانت عودة كتيبة الجنرال ديموى بالحالة التى وصفناها والخسائر التى لحقتها قد نالت من هيبة الجيش الفرنسى فى الإسكندرية ، فأراد الجنرال كليبر أن يستعيد هذه الهيبة بعمل ينطوى على البأس والشدة ، فأمر بالقبض على السيد محمد كريم يوم ٢٠ يوليه أى يوم عودة كتيبة ديموى ، وبعث به إلى ظهر السفينة « ديبوا » التى كانت بالإسكندرية فأقلته إلى (أبوقير) حيث كان الأسطول الفرنسى راسياً ، واعتقل بالبارجة (أوريان) سفينة الأميرال برويس

اتهم كليبر السيد محمد كريم بأنه كانت له يد فى المقاومة التى لقيتها كتيبة الجنرال ديوى، وكان السيد كريم قبيل القبض عليه قد دافع عن أهل المدينة لمناسبة وضع سلفة إجبارية على تجار الثغر يدفعونها للجيش الفرنسى ، فعارض السيد كريم فى تقرير هذه السلفة وتلكأ فى الموافقة عليها ومساعدة السلطة الفرنسية فى تحصيلها ، فأسرّها كليبر فى نفسه ، ولما عادت كتيبة الجنرال ديوى وتحقق منه ما لحق الجنود من الخسائر بسبب توالى هجوم الأهالى عليهم ساءت ظنونه فى السيد محمد كريم وموقفه ، واجتمعت كل هذه العوامل فأفضت إلى القبض عليه وإبعاده عن المدينة

أراد كليبر بإبعاد السيد محمد كريم عن الإسكندرية أن يقضى على نفوذه الأدبى بين الأهالى ويضعف أملهم فى عودته ، كتب كليبر إلى الأميرال « برويس » قومندان الأسطول الفرنسى بتاريخ ٢٠ يوليه سنة ١٧٩٨ يخبره بنبأ اعتقال السيد محمد كريم ويقول : « لقد رأيت أن أعوان هذا الرجل يبقون مابقوا آملين عودته إذا هو ظل قريباً من المدينة ، لذلك رأيت قطعاً لهذا الأمل أن أرسل به إليك لتعتقله على ظهر البارجة (أوريان) »(١)

وقد أوصى فى رسالته الأميرال بروبس بأن يحسن معاملة السيد محمد كريم فى اعتقاله ، وأن يأمر إذا شاء بأن تؤدى له التحية العسكرية إلى أن يعرض أمره على القائد العام ويقرر فى شأنه ما يراه ، وكتب إلى السيد كريم يوم اعتقاله خطاباً قال فيه :

« إنى لم أقصد من إرسالكم إلى بارجة فرنسية إلا أن أمكنكم من أن تلحقوا بالقائد العام وعلى ذلك بعثت بكم إلى قومندان الأسطول الفرنسى ليسهل لكم الوصول إلى القاهرة من طريق النيل ، فإذا وصلتم إلى مقابلة القائد العام أمكنكم أن تثبتوا له أنكم تستحقون ما وضعه فيكم من الثقه ، وفى انتظار سفركم أرجو أن تبلغونى ما ترغبونه وسآمر بأن لا يمنع عنكم كل ماتطلبون » ، وقد تلقى الأميرال بروبس قومندان الأسطول الفرنسى أسيره بالاحترام وأكرم مثواه ، وكتب عنه إلى نابليون فى رسالته التى بعث بها إليه بتاريخ ٢٦ يوليه — ولعلها آخر رسالة منه قبل كارثة (أبو قير) — فقال : « أرسل إلىّ الجنرال كليبر منذ ثلاثة أيام حاكم الإسكندرية الوطنى ، فأفردتُ غرفة كبيرة له ولحاشيته وأنزلته نُزُلا كريما ، وإنى أعامله بكل رعاية واحترام معتقدا أنى بذلك أحقق رغباتكم إلى أن تصدروا أمركم فى شأنه وتبتوا فى مصيره »

(١) ذكر الجبرتى فى كتابه ما يشير إلى هذه الواقعة فقال :
« فلما حضر الفرنسيس ونزلوا الإسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال وحبسوه فى مركب » ، فرواية الجبرتى صحيحة تؤيدها المراجع الفرنسية

وفى يوم اعتقال السيد محمد كريم جمع الجنرال كليبر أعيان المدينة وأبلغهم خبر القبض عليه للريبة فى إخلاصه للجمهورية الفرنسية ، وطلب إليهم أن يختاروا حاكما للمدينة بدلا منه ، فوقع اختيارهم على السيد محمد الشوربجى الغريانى ، ووعدوا بمعاونته فى تأديته وظيفته ؛ وقد كان موقف الحاكم الجديد دقيقاً حرجاً ، لأن السيد محمد كريم كان محبوباً محترماً من الأهالى ، وزاد فى احترامه اضطهاد السلطة الفرنسية له ، فماذا كان يستطيع خلفه أن يفعله فى وظيفته ؟

كتب الجنرال كليبر إلى نابليون رسالة[1] نفهم منها حالة الحاكم الجديد النفسية ، قال :

« أخبرنى السيد محمد الغريانى قبل أن يقبل وظيفة المحافظ (الحاكم) أن أهالى الإسكندرية يختلفون عن سائر أهالى القطر بأنهم أصعب مراسا وأقرب إلى القلق والهياج ، وأبدى لى بعض استدراكات وملاحظات تخص إدارة المدينة ، فأجبته على ملاحظاته بأن الرجل الذى يتنبأ بمصاعب الوظيفة جدير به أن يعرف كيف يضطلع بها ويتغلب عليها ، وبذلك أقنعته بقبول المنصب »

وقد قبل السيد محمد الغريانى وظيفة المحافظ ، وكان الشيخ محمد المسيرى كبير علماء المدينة يعاونه فى عمله وكان أول عمل طلبه كليبر منهما أن يساعدا على تحصيل السلفة الإجبارية التى فرضها على تجار المدينة ، فطلبا منه إنقاص هذه السلفة ، فنزل منها عن خمسة عشر ألف فرنك يحصلها من إيراد الجمارك

عرض الجنرال كليبر فى آخر رسالته أمر السيد محمد كريم على القائد العام ورغب إليه فى أن لا يأمر بعودته إلى الإسكندرية خوفا من أن يستفحل أمره ويتضاعف نفوذه فى نفوس الأهالى ، وقد أقر نابليون عمل الجنرال كليبر وأرسل إليه بتاريخ ٣٠ يوليه خطابا من القاهرة جاء فيه : « إنى لا أوافق على اعتقال كريم وحسب بل أمرت فوق ذلك باعتقال أشخاص آخرين » ، والواقع أنه أصدر فى هذا اليوم منشوراً عسكريا يعلن استياءه من سلوك أهل الإسكندرية وأمر بأن يطلب من جميع الأهالى على اختلاف أجناسهم تسليم أسلحتهم إلى قومندان الموقع ، ومن يتأخر منهم عن تنفيذ هـذا الأمر بعد ثمان وأربعين ساعة من نشره فجزاؤه الإعدام ، وأمر بهدم منزل الشخص المتهم بقتل الجندى الفرنسى ، وباعتقال خمسين شخصا يكونون رهائن وحبسهم على ظهر الأسطول إلى أن يستوثق من سلوك أهل الاسكندرية[2] .

وفى اليوم نفسه أصدر أمرا آخر بفرض ضريبة ثلثمائة ألف فرنك على تجار الإسكندرية

---

(١) بتاريخ ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ لمناسبة القبض على السيد محمد كريم وتعيين السيد محمد الغريانى بدله

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٢

يحسب منها الثلاثون ألف فرنك التى فرضها الجنرال كليبر والباقى يجب استصفاؤه وجمعه فى ٢٤ ساعة من نشر هذا الأمر[١] ، وأرسل إلى الأميرال برويس كتابا فى شأن السيد محمد كريم ينبئه فيه بأنه قد تحقق خيانته ويأمره على ذلك أن يكبله فى الحديد ويسد عليه كل منفذ حتى لا يهرب ، وأن يسجن أتباعه وحاشيته ويرسلهم مخفورين إلى الجنرال كليبر بالإسكندرية ، وأرسل إلى الجنرال كليبر صورة هذا الكتاب ، وأمره أن يعتقل كل من بقى فى منزل السيد محمد كريم من الحاشية وأن يختم على داره وعلى أملاكه ؛ وقال له فى كتابه إنه علم ممن قدموا له الأدلة على خيانة كريم أن أمواله مطمورة فى بئر بالإسكندرية وأن عنده دفتراً فيه بيان أمواله وأملاكه وأن بعض خدمه يعرفون مقادير هذه الأموال وموضعها ، وكلفه أن يقرّر هؤلاء الخدم منفردا بكل منهم وأن يتهددهم ما شاء ليبوحوا بما لديهم من الأسرار ، وإذا دفع السيد كريم فى ثمانية أيام مبلغ ٣٠٠ ألف فرنك فيبقى معتقلا على ظهر إحدى بوارج الأسطول حتى لا يجد مفرًّا ، ويرسل إلى فرنسا حين تعرض فرصة قريبة ، وإذا لم يدفع بالأقل ثلث المبلغ المفروض عليه فى خمسة أيام فعلى الجنرال كليبر أن يأمر بقتله رميا بالرصاص[٢]

على أن رسالة نابليون لم تصل للأميرال برويس ولا إلى كليبر ، لأن الرسول الذى كان يحملها وهو الكابتن جوليان Julien قتل فى الطريق

وأرسل الأميرال برويس فى ٣٠ يوليه السيد محمد كريم إلى رشيد ليبعث به الجنرال منو من هناك إلى القاهرة ، وكان برويس لا يفتأ يعامل السيد كريم بالاحترام حتى أنه كتب إلى منو كتابا من البارجة (أوريان) ينبئه فيه أن السيد كريم ألح عليه فى أن يرسله إلى نابليون ويقول : « إنى لم أستطع أن أرفض رجاءه المتكرر البالغ نهاية التلطف وأرجوكم إذا نزل برشيد أن تعاملوه باحترام » ، كتب هذه الرسالة إذ كان لم تصله أوامر نابليون .

وصل السيد محمد كريم إلى رشيد مطلق السراح[٣] ، وكانت منزلته فى نفوس المصريين قد عظمت بسبب اعتقاله وانتشرت محبته فى كل مكان ، فلم يكد يعلم أهالى رشيد بمقدمه حتى

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٣

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٦

وجاء فى يوميات أركان حرب الجنرال كليبر أن الجنرال أمر اللجنة الإدارية بجرد أملاك السيد محمد كريم وأمواله فى منزله وفى مخازنه فوجدوها خالية ، وقد اعتقل كليبر عم السيد محمد كريم وشقيقه ويهوديا كان موضع ثقته ، واستحضر الاثنين الأخيرين وتهددهما بالإعدام إذا لم يبوحا بموضع أموال السيد كريم

(٣) هذا مستفاد من رسالة منو إلى كليبر التى يقول فيها : « لقد ألقيت القبض هنا على السيد محمد كريم الذى أطلق سراحه من البارجة (أوريان) وسأبعث به غداً إلى القاهرة مخفوراً بقوة كافية »

سارعوا إلى ملاقاته بالحفاوة والتكريم مما اضطر الجنرال منو إلى القبض عليه والإسراع بإرساله إلى مصر

كتب منو إلى نابليون يقول : « إن السيد محمد كريم حضر إلى رشيد يوم ٣٠ يوليه ، فحدثت حركة كبيرة فى المدينة للحفاوة به وتهنئته ، وحيال هذه المظاهرة رأيت القبض عليه وإرساله إلى القاهرة »

الحالة فى الاسكندرية

بعد اعتقال السيد كريم

أخلد الأهالى إلى السكينة بعد اعتقال السيد محمد كريم وكفوا عن المظاهرات العدائية التى كانت تبدو منهم ، فكتب الجنرال كليبر إلى نابليون يقول (٣١ يوليه) : « تسود السكينة مدينة الإسكندرية بعد اعتقال السيد محمد كريم ، ولم تعد تنتشر إشاعات السوء المقلقة للخواطر والمثيرة لروح الهياج ، وأقبل كل إنسان على عمله »

وقد ازداد مركز الفرنسيين توطدا فى الإسكندرية عقب ورود أخبار انتصار نابليون فى معركة الأهرام ودخوله القاهرة ظافراً

وردت هذه الأنباء من طريق رشيد فى رسالة بعث بها الجنرال منو إلى كليبر بتاريخ ٢٧ يوليه ، فأثرت هذه الأنباء فى روح الأهالى المعنوية وأضعفت فيهم روح التمرد والمقاومة ، وأقام الجنرال كليبر حفلة تكريم كبيرة ابتهاجا بهذا النصر ، على أن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت بعد أن وقعت واقعة « أبو قير » البحرية التى تحطم فيها الأسطول الفرنسى ، فتغيرت نفسية الشعب تغيرا محسوسا على قدر ما شدّ منها تضعضع الفرنسيين

إعدام السيد كريم

سافر كريم على ظهر سفينة من سفن الجيش أقلعت به من رشيد يوم ٤ أغسطس ، وكان على ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية ، منهم المسيو بوسليج **Poussielgue** مدير الشؤون المالية ، والمسيو استيف **Esteve** مدير الخزانة ، والموظفون الذين تحت رآستهم يحملون خزانة الجيش إلى القاهرة

وصلت السفينة إلى القاهرة يوم ١٢ أغسطس مساء ، وظل السيد كريم مسجوناً رهناً بالتحقيق ؛ وكان الجنرال ديبوى **Dupuy** قومندان (حاكم) القاهرة يتولى أمر التحقيق معه ،


السيد محمد كريم
حاكم الإسكندرية الوطني
حين مجيء الحملة الفرنسية

فاستجوبه فى التهمة الموجهة إليه ، وهى مراسلته لمراد بك وغيره من المماليك وعرب البحيرة ، وانتهى التحقيق بثبوت التهمة عليه ، وأصدر نابليون أمره فى ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بإعدامه رمياً بالرصاص ومصادرة أملاكه وأمواله ، وسمح له أن يفتدى نفسه بدفع غرامة ثلاثين ألف ريال[1] فى أربع وعشرين ساعة ، فلم يقبل السيد محمد كريم أن يدفع هذا المبلغ ، وأظهر جلداً وشجاعة أمام حكم الإعدام ، فقد نصحه المستشرق فانتور Venture كبير تراجمة الحملة الفرنسية بأن يدفع الغرامة ، وقال له : « إنك رجل غنى فماذا يضيرك أن تفتدى نفسك بهذا المبلغ » ، فأجابه السيد محمد كريم : « إذا كان مقدوراً علىّ أن أموت فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، وإذا كان مقدراً لى الحياة فعلام أدفعه »[2] ، وظل على إصراره إلى أن نفذ عليه الحكم رمياً بالرصاص فى ميدان الرميلة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨

ومن غرائب القدر أن السيد محمد كريم غادر البارجة (أوريان) يوم ٣٠ يوليه قبل أن تغرق ويموت من بها فى واقعة « أبو قير » بيومين ، فنجا من الكارثة التى حلت بالأسطول الفرنسي يوم أول أغسطس ، ولكن القدر الذى نجاه من الموت فى « أبو قير » قد أسلمه إلى يد الجلاد فى القاهرة ، ولكل أجل كتاب « وما تدرى نفس بأى أرض تموت »

وقد ذكره الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٣ فقال عنه : « مات الوجيه الأجلّ الأمثل السيد محمد كريم السكندرى مقتولا بيد الفرنسيس » ، وذكر عن منشئه أنه كان قبانياً فى الثغر وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة ، فأحبه الناس واشتهر ذكره فى ثغر الإسكندرية ورشيد ومصر « وقلده مراد بك أمر الديوان والجمارك بالثغر ، ونفذت كلمته وأحكامه » ، أى أنه عينه حاكما للإسكندرية ومديراً للجمارك بها ، وفصل الجبرتى خبر مقتله ، وروايته تختلف عن رواية « بوريين » و « ريبو » التى اعتمدنا عليها والتى نعتقد أنها أرجح من رواية الجبرتى ، لأنها واردة فى معظم المراجع الفرنسية ومنقولة عن شهود الواقعة من الفرنسيين ،

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٤٧
(٢) ريبو . التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية . الجزء الثالث . وانظر كذلك مذكرات بوريين سكرتير نابليون الجزء الأول

قال الجبرتي : « ولما حضر الفرنسيس ونزلوا الإسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال ، وضيقوا عليه ، وحبسوه في مركب ، ولما حضروا إلى مصر وطلعوا في قصر مراد بك وفيه مطالعة بأخبارهم (أي رسائل السيد محمد كريم عن أخبارهم) وبالحث والاجتهاد على حربهم وتهوين أمرهم وتنقيصهم ، فاشتد غيظهم عليه ، فأرسلوا وأحضروه وحبسوه ، فتشفع فيه أرباب (أعضاء) الديوان عدة مرار ، فلم يمكن ، إلى أن كانت ليلة الخميس فحضر إليه مجاون Magallon وقال له المطلوب منك كذا وكذا من المال ، وذكر قدراً يعجز عنه ، وأجّله اثنتي عشرة ساعة وإن لم يحضر ذلك القدر وإلا يقتل بعد مضيها ، فلما أصبح أرسل إلى المشايخ وإلى السيد أحمد المحروقي (كبير تجار القاهرة) فحضر إليه بعضهم، فترجاهم وتداخل عليهم واستغاث ، وصار يقول : « اشتروني يا مسلمين » وليس بيدهم ما يفتدونه به ، وكل إنسان مشغول بنفسه ، ومتوقع لشيء يصيبه ، وذلك في مبادئ أمرهم ، فلما كان قريب الظهر وقد انقضى الأجل ، أركبوه حماراً واحتاط به عدة من العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة ويقدمهم طبل يضربون عليه وشقوا به الصليبة إلى أن ذهبوا به إلى الرميلة ، وكتفوه وربطوه مشبوحاً وضربوا عليه بالبنادق ، كعادتهم فيمن يقتلونه ، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبوت وطافوا بها في جهات الرميلة والمنادي يقول : « هذا جزاء من يخالف الفرنسيس »

فالخلاف بين رواية الجبرتي ورواية بورين وريبو هو في موقف السيد محمد كريم بعد الحكم عليه بالإعدام ، ولو كانت رواية الجبرتي صحيحة لما فات الفرنسيس أن يذكروها ولما ذكروا رواية تشرف خصما لهم حكموا بإعدامه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن رواية «بورين» ترجح رواية الجبرتي ، لأن الجبرتي لم يكن شاهد عيان لواقعة إعدام السيد كريم ، بل يغلب على الظن أنه كان منزوياً في بيته بالصنادقية في ذلك اليوم العصيب ، أما المسيو بورين فقد شهد الواقعة ويقول في مذكراته أنه هو الذي أوعز إلى المسيو فانتور أن ينصح للسيد كريم بدفع الغرامة[1] فأبى دفعها ، فرواية « بورين » كما ترى هي رواية شاهد عيان ، وهي أدعى إلى الثقة وأقرب إلى الواقع

وقد كان إعدام السيد محمد كريم قسوة لا مبرر لها حتى في نظر بعض الكتاب الفرنسيين ، ذكر تيبودو Thibaudeau في كتابه[2] خلاصة هذه الحادثة وعلق عليها بقوله : « إن إعدام هذا الشريف هو أول عمل من التصرفات العديدة التي وجهت فيها التهم إلى نابليون أثناء حملة مصر ، فإن النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التي انتهت بها حياة ذلك الشريف النزيه الذي أعدم بأمر القائد العام ، على أن الجنرال كليبر كان أول من اقتنع بخيانته للجمهورية وهو الذي قبض عليه واتهمه لدى بونابرت »

(١) مذكرات بورين الجزء الأول

(٢) تاريخ نابليون حملة مصر الجزء الأول طبع سنة ١٨٢٨

الفصل السادس

فى البحيرة

كانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسى فى زحفه إلى القاهرة ، فلاقت من وراء اجتيازه لها شدائد وأهوالا ، ونال كثيراً من القرى التى مر بها الجيش أذى كبير من اعتداء الجنود ونهبهم القرى والمنازل ، وتعددت حوادث الاعتداء حتى اضطر الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب أن يصدر أمراً عسكريا فى ١٢ يوليه سنة ١٧٩٨ من الرحمانية يذكر الجنود فيه بمنشور نابليون الذى يعلن أن الجيش الفرنسى قدم البلاد ليحارب المماليك لا الأهالى ، وقال فى أمره إن بعض الجنود اقتحم منازل الأهلين ، ثالقائد العام يلقى تبعة هذه السيئات على ضباط الفرق ، وأوصى الجنرال برتييه الجنرال دوجا Dugua قائد الفرقة الزاحفة من رشيد إلى الرحمانية بأن يحظر على الجنود اقتحام منازل الأهالى أو صيد الحمام ، وكرر أمره فى ١٦ يوليه بمنع صيد الحمام أو غيره من الطيور فى الطرق أو فى الغيطان ، ونبه رجال الجيش والملكيين إلى اتباع هذا الأمر .

لم تمنع هذه الأوامر تكرار اعتداءات الجنود على القرى الآمنة ، ولم يقم الضباط فى كثير من المواطن بالواجب عليهم فى منع جنودهم من النهب والاعتداء ، ويعزو كتّاب الحملة الفرنسية ومؤرخوها هذا الإهمال إلى أن الجنود والضباط قد أنهكهم تعب السير من الإسكندرية إلى القاهرة ، وأجهدهم الإعياء والقيظ ، فشعروا بخيبة الأمل فى مغامرتهم فى بلاد نائية كانوا يظنون أنها من أغنى بلاد العالم ، فوقعوا منها فى صحراء قاحلة تختلف كثيراً عن سهول لومبارديا الجميلة التى لقوا فيها الرفاهية ورغد العيش ، فتبرمت نفوسهم بهذه الحملة الشاقة ، وضعف فيهم إحساس النظام العسكرى والشعور بالواجب ، وتراخى الضباط فى كبح جماح جنودهم ، فكانوا يرونهم يرتكبون النهب والسلب ولا تحدثهم أنفسهم بمنعهم وردهم إلى حدود الواجبات والنظام

معركة شبراخيت

١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

قلنا فى الفصل الثانى (ص ٦١) خلال الكلام عن وقائع الحملة أن الجيش الفرنسى بلغ الرحمانية يوم ١٠ يوليه سنة ١٧٩٨ وعسكر فيها ينتظر قدوم فرقة الجنرال دوجا من رشيد ،

فوصلت هذه يوم ١٢ يوليه ووصل معها أسطول السفن الفرنسية الخفيفة التي رافقت الفرقة في النيل بقيادة الكونترامیرال بیری Perrée ، وهنالك استعد نابليون لمهاجمة جيش مراد بك الذي جاء من القاهرة

كان جيش مراد بك مؤلفاً من نحو ١٢ ألف رجل منهم ثلاثة آلاف فقط من فرسان المماليك ، والباقون من الفلاحين وأتباع البكوات (١) ، وكان الفلاحون مسلحين بالبنادق والعصي (الشماريخ)(٢)

تحرك الجيش الفرنسي من الرحمانية وقضى ليلة ١٣ يوليه في ناحية منية سلامة (٣) واتخذها مؤقتاً معسكره العام وأخذ نابليون يتأهب للقتال ، فأمر الكونترامیرال بیری أن يحمي بأسطوله ميسرة الجيش في هجومه على شبراخيت بحيث لا يبتعد عن صفوف الجنود ، فتحركت السفن الفرنسية في الساعة الثامنة من صبيحة يوم ١٣ يوليه ، ولكن ريحاً عاصفة هبت على السفن فدفعتها عن موقع الجيش مسافة طويلة ، فالتقى الأسطول الفرنسي بأسطول المماليك الذي كان يحمي ميمنة جيش مراد بك بالقرب من شبرا خيت

كان الأسطول الفرنسي مؤلفاً من اثنتي عشرة سفينة مسلحة وعدة مراكب نقالة تقل كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال أندريوسي Andreossi وتحمل الذخائر والأقوات ، وعلى ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية منهم المسيو مونج Monge ، والمسيو برتوليه Berthollet من علماء الحملة الفرنسية ، وبورين Bourienne سكرتير نابليون الخاص ، والمسيو سوسی Sucy مدير مهمات الجيش

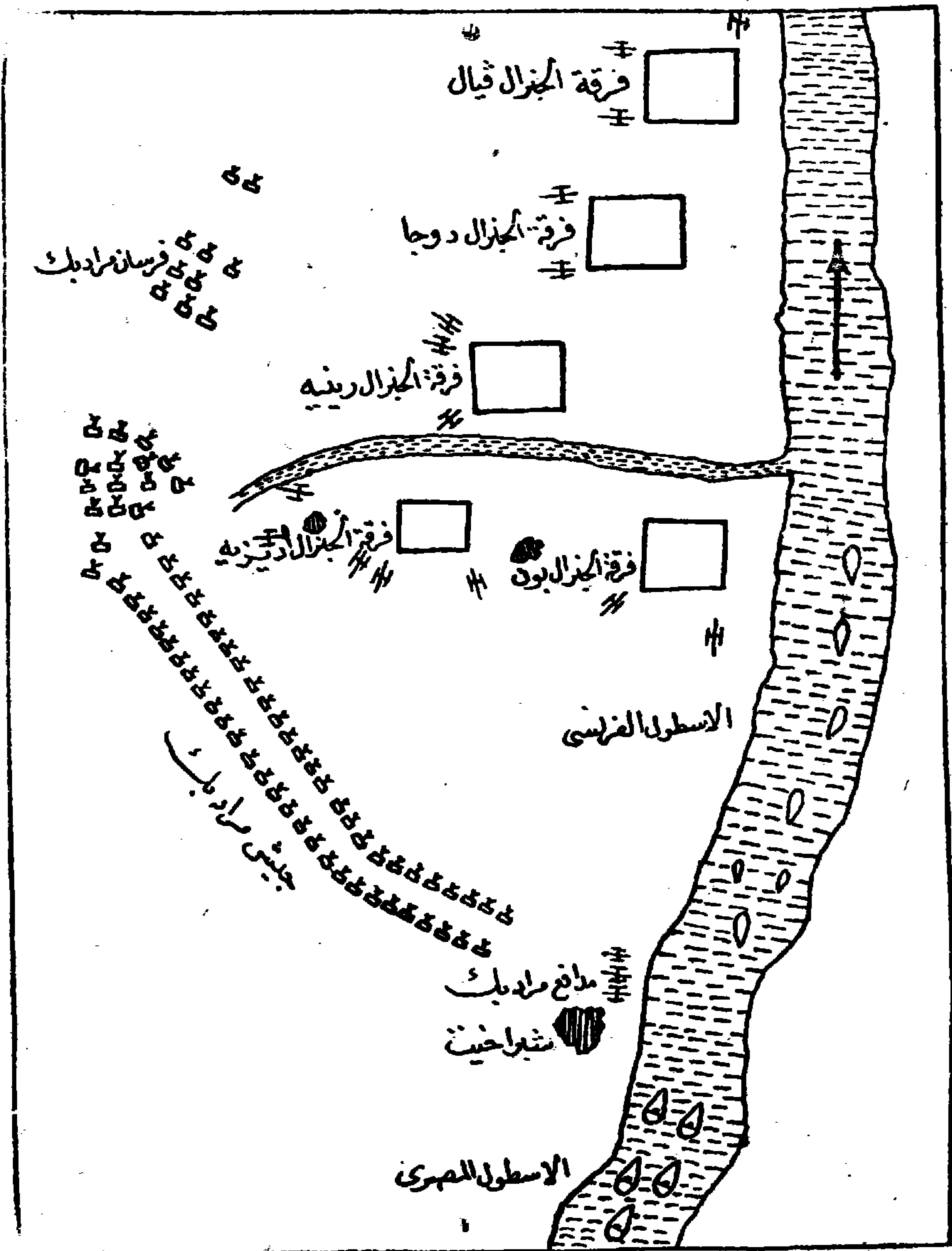
أما أسطول مراد بك فمؤلف من عدد من السفن لا يقل عن عدد الأسطول الفرنسي يقوده القبطان خليل الكريتلي ، فتلاقى الأسطولان في النيل بالقرب من شبراخيت وأخذا يتبادلان إطلاق القنابل ، وكان مركز الأسطول الفرنسي في هذه المقابلة محفوفاً بالخطر لأن ألوفاً من الأهالي المسلحين على شاطىء النيل كانت تهاجمه من الجانبين ، فغرقت منه خمس سفن وهوت إلى قاع النيل ، واستولى الأهالي على سفينتين مسلحتين ، وجرح الكونترامیرال بیری

(١) هذا الإحصاء مأخوذ عن يوميات الكابتن ديبونتون Deponthon من ضباط فرقة الجنرال دیزیه ، ويقول الجنرال برتييه في تقريره إلى وزارة الحربية بتاريخ ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨ إن عدد المماليك في واقعة شبراخيت كان أربعة آلاف فارس ، ويقول نابليون في مذكراته إن جيش مراد بك كان مؤلفاً من ثلاثة آلاف من المماليك ، وكان مع كل مملوك ثلاثة أو أربعة من الرجال لخدمتهم ، وانضم إليهم ٢٠٠٠ من العرب

(٢) تقرير الكابتن ديبونتون

(٣) بالبر الغربي للنيل جنوبي الرحمانية وشمالي شبراخيت

Perrée فى ذراعه جرحا خطراً ، ومرت لحظة كادت الدائرة تدور على السفن الفرنسية لولا إحكام مزمى مدافعها فأصابت قنبلة منها سفينة من سفن مراد بك كان بها مستودع البارود فانفجر ونسفت السفينة نسفاً ، وكان الجنرال أندريوسى على ظهر إحدى النقالات الفرنسية فأمر بإنزال جنوده إلى البر لمقاومة الأهالى الذين كانوا يطلقون النار على السفن ، فاستطاع أن يبعد عن الشاطىء جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الأسطول الفرنسى ، واستمر القتال ثلاث ساعات حتى حضر نابليون بجنوده



خريطة معركة شبراخيت — ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

كان جيش مراد بك يرتكز بميمنته إلى شبراخيت حيث ركب بها عدة مدافع ، وإلى النيل حيث كان أسطوله راسيا ، فرتب نابليون جنوده على شكل مربعات ، فكانت كل فرقة من الفرق الخمس تؤلف مربعاً ، والمدافع على زوايا المربعات ، كما تراه على الخريطة ، وهجم بهذا النظام المحكم على جنود مراد بك فكانوا مكشوفين أمام نيران المدافع والبنادق ، وأخذوا بالرغم من ذلك يهاجمون جناحى الجيش الفرنسى وجبهته ، وانتشر فرسانهم فى السهل ليحيطوا بالمربعات الفرنسية ، ولكن نار المدافع حصدت الصفوف المتقدمة منهم ، فاختل نظامهم وانسحبوا بغير نظام إلى شبراخيت ، بعد أن قتل منهم نحو مائتى قتيل ، فتعقبهم نابليون بجنوده واحتل شبراخيت وأخلى شاطئ النيل من جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الأسطول الفرنسى

وبالرغم من أن الجيش الفرنسى كان ينقصه الفرسان فإنه انتصر على قوات مراد بك لجهلها أساليب القتال الحديثة ؛ قال أحد ضباط أركان حرب نابليون فى هذا الصدد : « لو كان جيش المماليك متدرباً على ضروب القتال الحديثة ويقوده ضباط متعلمون لأمكنهم أن يهزموا الجيش الفرنسى أو لأجبروه على التراجع إلى الإسكندرية »[١]

هذه هى المعركة التى سميت معركة « شبراخيت » ، وتلك رواية المراجع الفرنسية عنها ، ومنها يتبين أن القسط الذى احتمله الأهالى فى هذه المعركة كان كبيراً ، بل كان أكبر من قسط المماليك

وإليك ما ذكره الجبرتى عن هذه الوقعة :

« فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٣[٢] التقى العسكر المصرى مع الفرنسيس ، فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ، ولم يقع قتال صحيح ، وإنما هى مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية خليل الكردلى ، وكان قد قاتل فى البحر قتالا عجيباً ، فقدر الله أن علقت نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود ، فاشتعلت جميعها بالنار واحترق المركب بما فيه من المحاربين وكبيرهم وتطايروا فى الهواء ، فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزماً وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ونزلت المشاة فى المراكب ورجعوا طالبين مصر « القاهرة » ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر فاشتد انزعاج الناس »

---

(١) كتاب (ميادين الوقائع والهجمات والمعارك التى انتصر فيها بونابارت فى إيطاليا ومصر)

(٢) يوافق ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

انتهت معركة شبراخيت بانتصار الفرنسيين كما قدمنا وانسحاب مراد بك ، فتابع الجيش الفرنسي زحفه قاصداً القاهرة ، فمر بشابور (١٤ يوليه سنة ١٧٩٨) فكوم شريك (١٥ يوليه) فملقام (١٦ يوليه) ، فالطرانه ، فأبى نشابه (١٧ يوليه) ، فوردان (١٨ يوليه) ، فأم دينار (١٩ يوليه)

وكان الأهالى والعرب يتعقبون فرق الجيش الزاحفة فيقتلون كل من يدركونه ممن يتخلفون عن قوة الجيش إعياءً أو تعبا أو ممن ينتقلون بين مختلف القرى لتبليغ الرسائل إلى قواد الفرق ، حتى اضطر نابليون أن يشدد الأوامر على الجنود والرجال الملكيين التابعين للحملة بعدم الابتعاد عن فرقهم[1] ، ولقى الجيش عناءً كبيراً فى اجتياز هذه المرحلة لأنه لم يكن يلقى فى طريقه إلا بلاداً مقفرة أخلاها أهلها قبل قدوم الجيش وهاجروا منها بعيالهم ومواشيهم ، ونهب الفرنسيون عدة قرى فى طريقهم إلى القاهرة

نهب القرى

كتب الجنرال بليار فى يومياته يصف نفسية الجيش فى طريقه إلى شابور : « إن روح التذمر سائدة فى الجيش ، والضباط لعدم اكتراثهم بالواجب يتركون جنودهم يجوبون القرى القريبة من طريق الجيش وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم »

وجاء فى يوميات الجنرال لوجييه Laugier :

« وصلنا يوم ٢٦ مسيدور (١٤ يوليه) إلى قرية (النجيلة) بينما كان جنود الجنرالين بون وفيال ينهبونها ، وكان صياح الأهالى وبكاء النساء ونحيبهم يصم الآذان ، وقد علم القائد العام بذلك فأمر الجنرال دوجا بالبقاء فى هذه القرية حتى يعود النظام فيها ، وقد لاقى الجنرال دوجا صعوبات كبيرة فى القيام بمهمته ، لأن الضباط كانوا يتذمرون من قلة الزاد وكانوا لا يقاومون تمرد الجنود »

وجاء فيها :

« صرنا على مسيرة نصف فرسخ من شابور ثم وصلنا إلى النجيلة فى الظهر ، ولم يكن لدى الفرقة زاد ، فنهبت القرية »

وجاء فى يوميات الكابتن سافارى[2] عما حدث فى الطرانه :

---

(١) أمر ١٦ يوليه سنة ١٧٩٨

(٢) ياور الجنرال ديزيه وقد ارتقى فى عهد إمبراطورية نابليون وصار لقبه الدوق روفيجو Duc de Revigo

« صادرنا بعض المواشى التى وجدناها فى طريقنا ، وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية ويخربونها بالرغم من وجود ثلاثة من القواد جاءوا ليمنعوا هذا النهب والتدمير ، إن فرقتنا لم تكن تعمل سوى إتمام خراب القرى التى كان يمر بها الجيش ، لأن الفرق التى تقدمتنا لم تترك فيها إلا ما لا يمكن حمله أو تخريبه ، وفى بعض الأحيان كنا نرى النار مشتعلة فى الغيطان قبل حضورنا ، بحيث لم نكن نعرف كيف نحصل على ما يلزم من التبن والشعير لخيولنا »

وكتب الجنرال بليار فى يومياته :

« وصلنا إلى مقربة من النيل حيث وجد الجنود الراحة تحت ظلال النخيل والجميز بعد رحلتهم الشاقة فى خلال الصحراء ، ووصلنا إلى وردان ، وهذه القرية هى أغنى وأكثر عمراناً وأعز سكاناً من جميع القرى التى مررنا بها ، وبالرغم من أن الجنود كانوا فى حاجة إلى الراحة فإن ذلك لم يردهم عن النهب »

وقال فى موضع آخر : « خرجنا من وردان وعدنا إلى اجتياز الجهات الرملية ، ووصلنا إلى القطا ووجدنا الأهالى قد غادروها لما علموا باقترابنا ، ولم يأسف الجنود لذلك ، لأنهم لما لم يجدوا أحداً فى البيوت وضعوا أيديهم على ما وصلت إليه من المتاع وأخذوا منها ما راق لهم أن يأخذوه »

هذه أقوال واعترافات القواد الفرنسيين ، على أن من الواجب أن نقول تقريراً للحقيقة إن نابليون كان شديد الاستياء من صنيع جنوده ناقماً على ما ارتكبوه من النهب والتدمير ، تدل على ذلك أوامره التى كان يصدرها من آن لآخر فى هذا الصدد

ففى ١٥ يوليه سنة ١٧٩٨ أصدر أمراً عسكرياً « بإعلان استيائه من سلوك الجند من فرقتى الجنرال بون والجنرال منو[1] وفرقة المدفعية والاحتياطى لما ارتكبوه من الإخلال بالنظام فى عدة قرى ، وأن هذا الإخلال جاء فى الوقت الذى هو أدعى لحسن مسلك الجنود وجاء هادماً للأثر الحميد الذى تركه سلوك الجيش من عهد نزوله بالإسكندرية »

وعندما وصل نابليون إلى وردان ومعه أركان حربه كان فى شدة الغضب والنقمة على حوادث النهب وأمر بمغادرة القرية فى الحال ، وكان يبث ألمه من هذه الحوادث للمقربين إليه

وغنى عن البيان أن اعتداء الجنود على القرى الآمنة كان يوغر صدور الأهالى ويذكى

(١) هذه الفرقة كان يقودها الجنرال فيال بدلا من الجنرال منو الذى بقى فى رشيد ، ولذلك تعرف أحياناً بفرقة منو وأحياناً بفرقة فيال

فيهم نار العداوة والبغضاء للجيش الفرنسى ، فلم يتركوا وسيلة للمقاومة إلا اتخذوها ، ونسوا مظالم حكامهم السابقين بما ابتلوا من فظائع المتمدنين ، فحالفوا المماليك وأمدوا جيش مراد بك بما لديهم من حول وقوة

وكان معظم السكان قد سمعوا بما حدث فى القرى من النهب والاعتداء ، فهجروا بلادهم بماشيتهم ومتاعهم .

قال ريبو[١] : « لقد لقى الجنود تعباً واصباً من قلة الزاد ، فإن كل القرى التى على طريق الجيش كانت خالية خاوية لأن الأهالى هاجروا منها إلى داخل الدلتا ، ولا ندرى أهذه الهجرة من تلقاء أنفسهم أم بتحريض المماليك ، على أنهم فى هجرتهم ساقوا مواشيهم معهم ، ولما رأى مدير مهمات الجيش القوميسير سوسى أن قرى الشاطئ الغربى أقفرت من الأقوات أمر بعبور النيل لمصادرة الأقوات فى القرى والبلاد التى بالبر الشرقى ، وقام بهذه المهمة الجنرال فوجبير Fugieres والجنرال زايونشك Zayonchek ومعهما قوة من ١٤٠٠ من الفرسان ، ولكنهم لم يجدوا إلا قرى خالية خاوية ، ولم يجدوا من الأقوات إلا ما يكاد يكفى القوة التى بلغتها »

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

الفصل السابع

فى القاهرة

لما وصل الجيش الفرنسى إلى أم دينار يوم ١٩ يوليه سنة ١٧٩٨ لم يكن بينه وبين القاهرة سوى خمسة فراسخ ، وهناك شاهد نابليون أول مرة الأهرام بعظمتها الخالدة ، فأمر بإراحة جيشه يوم ٢٠ يوليه تأهباً لخوض المعركة الفاصلة (معركة الأهرام)

حالة الأفكار

فى القاهرة

عند مجىء الحملة الفرنسية

الآن وقد أفضينا إلى الكلام عن المقاومة الأهلية فى القاهرة يجمل بنا أن نصور الحالة فيها من يوم أن جاء نبأ نزول الفرنسيين بساحل الإسكندرية إلى أن احتلوا العاصمة

كانت القاهرة فى اضطراب وفزع منذ انتهى إليها نبأ رسو العمارة الفرنسية فى مياه الإسكندرية ، فقد أرسل السيد محمد كريم إلى مراد بك يخبره الخبر ، وكان أسلوب رسالته يلقى الرعب فى النفوس ، فقد قال فيها : « إن العمارة التى حضرت هذا اليوم مراكب عديدة ما لها أول يعرف ولا آخر يوصف ، فبالله ورسوله أدركونا بالرجال » ، فلما تلا مراد بك الرسالة ذهب إلى زميله إبراهيم بك فى قصره تجاه الروضة (قصر العينى) للتشاور فى الأمر وذاع الخبر فى المدينة ، فاضطربت النفوس ، وهاجت الخواطر ، وتبلبلت الأفكار ، واتفق مراد بك وإبراهيم بك على عقد جمعية عامة من البكوات المماليك ومن كبراء البلاد وعلمائها ، وحضر الجمعية الوالى التركى أبو بكر باشا والبكوات والكشاف الذين بيدهم سلطة الحكم فى ذلك العهد مثل إبراهيم بك ، ومراد بك ، ومصطفى بك ، وأيوب بك ، وإبراهيم بك الصغير ، ومراد بك الصغير ، وسليم بك أبو دياب ، وعثمان بك الشرقاوى ، ومحمد بك الألفى وعثمان بك البرديسى ، وعثمان بك الطنبورجى ، وغيرهم ممن سترد أسماؤهم فى فصول الكتاب ، وجاء من العلماء السيد محمد السادات ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد المهدى ، والسيد خليل البكرى ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الجوهرى ، عدا من دون هؤلاء ممن لا يمكن حصرهم

وأخذ المجتمعون يتداولون فى الأمر ويستغربون قدوم هذه العمارة الكبيرة ، ويتطارحون الرأى فى ما يجب عمله ، وجاشت العداوة القديمة بين المماليك والأتراك ، فالتفت مراد بك إلى أبى بكر باشا وقال له إن الفرنسيس ماجاؤوا هذه الديار إلا بإذن من الدولة العثمانية ، ولا بد أن يكون عندكم علم بذلك ، ولكن الله يساعدنا عليكم وعليهم ، فأجابه أبو بكر باشا بأن هذا عبث فى القول إذلا يمكن أن تسمح الدولة العثمانية بدخول الفرنسيس إلى مصر ، وقال له متهكما : « دعوا عنكم ذلك المقال وانهضوا واستعدوا للحرب والقتال » ، واستقر الرأى فى هذه الجمعية على أن يرسلوا إلى الاستانة بخبر وصول الحملة الفرنسية ، وأن يجهز مراد بك جيشاً لملاقاة الفرنسيين فى طريقهم من الإسكندرية إلى القاهرة ، وأرسل الوالى التركى رسالة المجتمعين إلى الاستانة صحبة رسول بطريق البر « ليأتيه بالترياق من العراق » كما يقول الجبرتى

سار مراد بك بجيشه فى البر وعمراكبه فى البحر لملاقاة الفرنسيين ، وكان ما كان من هزيمته فى واقعة شبراخيت كما تقدم فى الفصل السابق .

التطوع العام فى القاهرة

فلما وصلت القاهرة أنباء واقعة شبراخيت وتراجع جيش مراد بك إلى إمبابه أحس الناس شراً مستطيراً ، أما المماليك فقد أدركو حرج موقفهم أمام الجيش الزاحف ، فأخذوا يهتمون بشؤونهم دون الدفاع عن المدينة وينقلون أمتعتهم من قصورهم المشهورة إلى بيوت صغيرة لا يعرفها أحد ، واستمروا عدة ليال ينقلون أمتعتهم ويستودعونها معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا بعضها للأقاليم ، كل ذلك حتى لا تصل اليها أيدى المغيرين بعد احتلال المدينة ، وبينما هم منهمكون فى هذه الصغائر كان أهل القاهرة الذين طالما عانوا من ظلم المماليك ما عانوا يتطوعون للدفاع عن العاصمة فى وجه الجيش الزاحف ، وظهر الشعب فى ساعة الخطر أرق نفساً وأنبل قصداً من حكامه الظالمين ، ففى يوم الثلاثاء ١٧ يوليه أى قبل معركة الأهرام ببضعة أيام نودى بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، فلبى المصريون الدعوة ، وأغلقوا الدكاكين والأسواق ، وخرج الجميع إلى جهة بولاق للدفاع عن القاهرة ، واشتركت طوائف الشعب فى التطوع ، فكانت كل طائفة من أهل الصناعات تجمع المال من أفرادها اكتتاباً ويجتمعون ليرتبوا مايصرف عليهم وما يحتاجون إليه مما جمعوا ، وتبرع بعض الناس بالإنفاق على البعض الآخر ، ومنهم من جهز بالسلاح والزاد بعض المقاتلة « بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى مقدورهم وطاقتهم ، وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح أحد

فى ذلك الوقت بشىء يملكه[١] » ، وخلت طرقات العاصمة وبيوتها من كل قادر على حمل السلاح ، واتجهوا جميعاً نحو بولاق استعداداً لرد الجيش الزاحف على البلاد ، ولم يبق فى المنازل أو الطرقات سوى النساء والصغار والضعفاء والمرضى الذين لايقدرون على الحركة ، « ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق وأقام بها من حيث نصب إبراهيم بك العُرْضى[٢] هناك إلى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى فى بولاق ، فكانوا يرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق[٣] »

سوء استعداد المماليك

وضعف وسائل الدفاع

تلك كانت حالة الشعب النفسية واستعداده للدفاع عن عاصمة البلاد ، ولم يكن فى الإمكان أن تنجح هـذه التدابير فى رد جيش نابليون المجهز بالعلم والنظام والسلاح والـكفاءة الحربية التى أكسبته النصر فى حروب أوروبا ، لـكن أهل القاهرة لم يقصروا فى الدفاع ، وإنما المقصر المسئول عن ضعف المقاومة هم طائفة المماليك الذين قضوا السنين الطوال يتخبطون فى الجهل والغباوة ، لا همّ لهم إلا ارتكاب المظالم وابتزاز أموال الناس بالباطل ، فأهملوا شأن الدفاع عن البلاد ، وتركوا القلاع التى أنشأها أسلافهم السلاطين تتهدم وتتخرب ، ومن ثمّ سرى الخراب إلى قلاع الإسكندرية وأبو قير ورشيد ودمياط والبرلس والقرين ، وخلت من آلات الحرب والمدافع الصالحة للضرب ، وكذلك قلعة القاهرة لم تعد فى عهدهم تصلح للدفاع عن المدينة بما توالى عليها من الإهمال وقلة الاستعداد ، وحسبك أن تقرأ ما كتبه عنها الرحالة الفرنسى سافارى Savary سنة ١٧٧٨ لتعرف مبلغ قوتها وحظها من الاستعداد الحربى .

زار المسيو سافارى مصر وشهد الحرب التى قامت بين مراد بك وإبراهيم بك ، وبين حسن بك الجداوى وإسماعيل بك ، وشهد ضرب القلعة للجهة التى امتنع بها حسن بك الجدّاوى بالمدافع فقال إن القلعة بها ستة مدافع عتيقة ، وكان جنود المدفعية يحشون المدفع فى نصف ساعه ، فكان المدفع يطلق طلقة واحدة كل نصف ساعة ، وقال تعليقاً على ذلك : « يمكنك أن تقدر هل مثل هؤلاء الجنود يستطيعون أن يثبتوا لحظة واحدة فى ميدان القتال بإزاء عدة صفوف

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) كلمة عُرْضى تؤدى معنى معسكر أو جيش ، وهى مأخوذة من الـكلمة التركية « أوردو » أى الجيش أو الفيلق

(٣) الجبرتى الجزء الثالث

من الجنود الأوروبية ؟ لاجرم أن الدولة الحربية التي تهاجم مصر تستولى عليها دون مقاومة[١] » .

هذا ما كتبه سافارى قبل الحملة الفرنسية بنحو عشرين سنة ، ومع ذلك لم يتنبه المماليك يوماً ما لتحصين القلاع وترميمها ، بل كانوا مملوءين جهلا وغروراً ، يظنون أنهم لما اشتهروا به من إجادة ركوب الخيل قادرون على مواجهة أقوى الجيوش المنظمة المدربة على أساليب القتال العلمية ، وإذا أردت أن تعرف إلى أى حد بلغ بهم الجهل والغرور فانظر ما رواه عنهم كلوت بك فى كتابه[٢] ، فقد ذكر أنه لما استولى نابليون على جزيرة مالطة ووصلت أخبار نزول الجيش الفرنسى بها أراد المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا فى القاهرة ، وكان من كبار تجار الإفرنج بها وموضع ثقة رؤساء المماليك ، أن ينهى إليهم هذا الخبر ويحذرهم عاقبته ، فقابل مراد بك وكاشفه باحتمال عزم الفرنسيين أن يهبطوا مصر ، ورغب إليه فى اتخاذ وسائل الحيطة للذود عن البلاد ، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن أغرق فى الضحك وقال : « ماذا تريد من إخافتنا من الفرنسيين ، ألم يكونوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا ؟ إنه ليكفينى إذا نزلوا إلى سواحل مصر فى مائة ألف من رجالهم أن أبعث للقائهم ببعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب » ، فحاول المسيو روستى أن يقنعه بأن الفرنسيين الذين فازوا بالنصر المبين فى إيطاليا هم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم فى أسواق القاهرة ، وألح عليه بتحصين الإسكندرية ، فلم يُجْدِ تحذيره ، وأراد مراد بك أن يجامله ويسكن روعه فأرسل إلى هذا الثغر قنطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها !! . .

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون إلى الإسكندرية ونزلوا إلى البر واستولوا عليها ، وعلم مراد بك بهذا النبأ فاستدعى المسيو روستى على الفور وقال له مغضبا : إن أولئك الفرنسيين الوقحاء قد اجترأوا على النزول إلى هذا البر ، وطلب إليه أن يكتب إليهم على لسانه بالمسارعة إلى الجلاء فى أقرب وقت ، فاعترض روستى قائلا : «ولكنهم لم يأتوا إلى هنا ليعودوا كما جاءوا ، فهم جاءوا بغير أمرك ولا يعودون بأمرك » ، فقال مراد بك وقد تولاه الجزع : « وماذا يريد هؤلاء الخسرة ؟ ماذا يريد هؤلاء المتشردون الجائعون ؟ إن كانوا طامعين فى مال فأرسل إليهم عدة آلاف من الريالات[٣] وليرحلوا ! فأجابه روستى ولكن هذا المبلغ لا يعدل أجرة شحن أصغر سفينة أقلتهم إلى مصر ، والأجدر بك أن تأخذوا عدتكم للدفاع» .

(١) رسائل عن مصر بقلم المسيو سافارى

(٢) لمحة عامة إلى مصر الجزء الثانى

(٣) فى الأصل الفرنسى باتاك Pataques وهى محرفة عن كلمة (أبو طاقة) أى (الريال أبو طاقة) الذى كان يتعامل به فى مصر

من هذه الرواية يتبين مبلغ غرور المماليك وجهلهم وانحطاط عقليتهم ، ويدخل فى هذا السياق ما رواه عنهم الجبرتى لما جاءهم الخبر بقدوم أسطول الأميرال نلسن إلى الإسكندرية للتفتيش عن العمارة الفرنسية ، قال : « أما الأمراء (البكوات المماليك) فلم يهتموا بشىء من ذلك ولم يكترثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم . . . » ، وقال عن مبلغ استعدادهم وجهلهم فى فن الخطط الحربية إن مراد بك « لما أرتحل من الجسر الأسود أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من حديد فى غاية التخن (كذا) والمتانة طولها مائة وثلاثة وثلاثون ذراعا لتنصب على البوغاز (بوغاز رشيد) عند برج مغيزل من البر إلى البر لتمنع مراكب الفرنسيس من العبور لبحر النيل ، وذلك باشارة على باشا الطرابلسى[1] — صديق مراد بك — وأن يعمل عندها جسرا من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع »

فمراد بك فى الوقت الذى احتل نابليون الإسكندرية وأخذ يسير بجيشه براً بطريق دمنهور فالرحمانية ، كان يظن أن الفرنسيين لا يستطيعون بلوغ القاهرة إلا من بوغاز رشيد ، فطلب إعداد سلسلة لمنع المراكب من دخول النيل . . . وكانت هذه الفكرة غاية فى الجهل ، حتى أن الجبرتى على قلة درايته بالشؤون الحربية سخر منها فى كتابه وقال : « إن الأمر كان بخلاف ذلك ، فإن الفرنسيس عندما ملكوا الإسكندرية ساروا على طريق البر الغربى من غير ممانع »

وندد الجبرتى بما كان من إهمال المماليك الاستعداد للقتال قبل معركة الأهرام بقوله : « هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء مصر ، بل جمع كل من إبراهيم بك ومراد بك عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم ، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل ، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو »

إذن كان أمراء المماليك يركبون الجهل والغرور ، وكانوا أيضاً يمثلون الحرص على النجاة والتخاذل فى أشد الأوقات حرجاً ، فبينما كان الجيش الفرنسى زاحفاً على العاصمة لم يكن مراد بك وإبراهيم بك على أتم وفاق ، بل كان يباعد بينهما التنافس القديم على السلطة ، ولم يخف هذا التنافس على الفرنسيين فقد علم به نابليون وهو فى أم دينار يرسم الخطط ويستطلع

---

(١) هو على باشا الجزائرلى الذى عينته حكومة الأستانة والياً على مصر سنة ١٨٠٣ وقتله المماليك كما تراه فى موضعه فى الفصل الخامس عشر من الجزء الثانى

أخبار القوة التي سيواجهها ؛ فهناك وصلته أخبار الجفاء الذى بين مراد بك وإبراهيم بك[١] وعلم أن كلا منهما بقي بجيشه بعيداً عن الآخر ، فراد بك بالشاطئ الغربى (بر إمبابه) ، وإبراهيم بك بالشاطئ الشرقى من النيل ، وكلاهما لا يثق بصاحبه ، فلم يكن ثمة تعاون بينهما فى خطة الدفاع ، ولو اتحدا لاجتمعت قوات الاثنين فى صعيد واحد بالبر الغربى أو البر الشرقى للنيل

قال الجبرتى يصف نفسية المماليك قبل الواقعة : «لكن الأجناد (الجنود) متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم ، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم »

واقعة إمبابة أو معركة الأهرام

(٢١ يوليه سنة ١٧٩٨)

ونصيب المصريين فيها

يصوّر المؤرخون واقعة الأهرام قتالا دار بين الفرنسيين والمماليك وحدهم ، والواقع ان المصريين قد اشتركوا فيها بمقدار ما لديهم من قوة واستعداد ، وفى الحق أن قسطهم فيها كان أكبر من قسط المماليك

فلنذكر — إثباتا لهذه الحقيقة — كيف بدأت هذه المعركة ومبلغ اشتراك المصريين فيها

بعد أن انسحب مراد بك من شبراخيت وتراجع إلى القاهرة ، أخذ يستعد للقتال فى إمبابه بالبر الغربى للنيل ، وأقام المتاريس بين إمبابه وبشتيل[٢] ، وكانت قواته ممتدة من بشتيل وإمبابه إلى الأهرام ، فيمنة الجيش كانت مرتكزة على شاطئ النيل وقاعدتها إمبابه التى أنشأ فيها مراد بك الاستحكامات والمتاريس وركب فيها المدافع ، والميسرة تمتد قريبا من الأهرام ، وبينهما القلب

ورسا الأسطول المصرى على ساحل إمبابه ، وكان مؤلفا من السفن الراسية تجاه بولاق وما انضم إليها من المراكب الكبيرة والغلايين (المراكب الحربية) التى قدمت من دار صناعة (ترسانة) الجيزة

أما إبراهيم بك فقد عسكر فى بولاق على الشاطئ الشرقى للنيل ، وتفاوض مع الوالى

(١) انظر مذكرات الكولونل سلكوسكى ياور نابليون وعضو المجمع العلمى ، وهو الذى قتل فى ثورة القاهرة كما سيجيء بيانه فى الفصل الثالث عشر

(٢) شمالى إمبابه بغرب

والعلماء فى إعداد معدات الدفاع ، فأجمعوا رأيا على إقامة متاريس من بولاق إلى شبرا ، فصار البر الغربى والبر الشرقى للنيل مملوءين بالمقاتلة والمدافع والمتاريس

الاستعداد للمعركة

فى الساعة الثانية من صبيحة يوم السبت ٢١ يوليه تحركت فرق الجيش الفرنسى كلها من أم دينار ، واستقرت فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر بين وراق الحضر [1] وبشتيل ، فكانت الأهرام عن يمينهم ، والنيل عن يسارهم ، وأمامهم قرية امبابه وفيها جموع المقاتلة من المصريين وعددهم نحو عشرين ألفاً تحميهم المدافع والمتاريس ، وتتألف منهم ميمنة جيش مراد بك ، وفى القلب والميسرة فرسان المماليك ومتطوعة القاهرة وعددهم نحو سبعة آلاف يرابطون فى خط يمتد بين النيل والأهرام ، وفى أقصى الميسرة فرسان العرب

فلما شاهد نابليون عن بعد قوات مراد بك أراد أن يبعث الحماسة فى نفوس جنوده ، فخاطبهم بكلمته السائرة : « تقدموا أيها الجنود ! واعلموا أن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام ! » ، ففعلت هذه الكلمة فعل السحر فى الجنود ونسوا متاعبهم التى قاسوها فى الطريق

واطمأن نابليون لما شاهد جيش مراد بك وقابل بين قواته وقوات خصمه ، وكيف لا يطمئن وهو قادم بجيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل مزودين بأحدث آلات الحرب والقتال ، مدربين على خوض غمار الحروب ، ممتازين بالنظام وكفاية القيادة معتزين بالانتصارات التى نالوها فى ميادين القتال بأوروبا ، وأمامهم جيش يعوزه الاستعداد والنظام والسلاح وكفاية القيادة ، أى ينقصه كل ما يكفل له الفوز والظفر

سير القتال

بدأت المعركة بعد أن رتب نابليون فرق الجيش على شكل مربعات ، ووضع المدافع على زوايا كل مربع ، وكانت فرقتا الجنرال ديزيه Desaix والجنرال رينييه Reynier بالميمنة ، وفرقتا الجنرال بون Bon وفيال Vial بالميسرة ، وفى القلب فرقة الجنرال دوجا Dugua وفيها نابليون يرسم الخطط ويصدر الأوامر ويرقب حركات الجناحين

لاحظ نابليون من استحكامات إمبابه أنها لم تكن على جانب كبير من المناعة ، وأن المدافع المركبة بها وعددها أربعون مدفعاً لم تكن مركبة على عجلات بحيث تستطيع التحرك

---

(١) بالبر الغربى للنيل شمالى إمبابه

والانتقال تبعاً لتطور القتال ، بل كانت مثبتة على الأرض ، فأدرك من ذلك أن المقاتلة الذين فى إمبابه لا يستطيعون التحرك بسهولة ومغادرة الاستحكامات التى كانوا ممتنعين بها ، فعزم على أن يبدأ الهجوم من الميمنة ، بعيداً عن مرمى مدافع إمبابه ، وأن يجعل أول هدف لهجومه قوات المماليك الذين يتألف منهم قلب جيش مراد بك وميسرته ليحول بينهم وبين بقية القوات المرابطة فى إمبابه ، وبذلك يخترق صفوف مراد بك ويحيط بها ويدفعها أمامه إلى النيل ، ثم ينثنى على إمبابه ليستولى عليها

وتنفيذاً لهذه الخطة أمر فرقة الجنرال ديزيه أن تتقدم من اليمين تتبعها فرقة الجنرال رينييه ، فهجمت الفرقتان فى طريق الجيزة بينها وبين إمبابه ، وأمر فرقة الجنرال بون وفيال[1] بالتقدم من الميسرة للإحاطة بإمبابه ، وتقدمت فرقة الجنرال دوجا[2] التى كان بها نابليون لتتصل بحركات الجناحين ، فكانت الفرق الخمس التى يتألف منها الجيش الفرنسى تهاجم قوات مراد بك على شكل نصف دائرة مركزها إمبابه وقاعدتها النيل

أدرك مراد بك خطر هذا الهجوم الذى كان مقصوداً منه اختراق صفوفه ، فترك بإمبابه ألفين من المماليك يشتركون فى الدفاع عنها مع من بها من المصريين ، وهجم بنحو خمسة آلاف من فرسانه على فرقة دوجا ، فصدتها نار المدافع ، ثم هجم على فرقة ديزيه ليعزلها عن باقى الفرق ، وكان هجوم المماليك شديداً ، لكن فرقة الجنرال ديزيه تلقت هذا الهجوم بنار كالصواعق حصدت صفوف المماليك حصداً ، فكر الفرسان على فرقة الجنرال رينييه ، فتلقتها بمثل تلك النار الحامية ، وقد تزلزلت أقدام الفرنسيين من شدة هذا الهجوم لولا أن فتكت نار المدافع والبنادق بصفوف المماليك ، وكان دوى المدافع كالرعد القاصف ، والدخان يملأ الجو حتى حجب وجه الشمس ، وانحصر المماليك بين فرقتى ديزيه ورينييه واكتنفهم الموت من الجانبين ، وأرادوا الانسحاب إلى النقطة التى بدأوا بها هجومهم فتلقتهم فرقة الجنرال دوجا التى وصلت إلى النيل ، فحالت بينهم وبين النهر ، فوقع المماليك بين نارين من أمام ومن خلف ، ومات كثير من زعمائهم وشجعانهم ، وانفلتت بقيتهم من هذا المأزق ، فارتد جماعة منهم إلى إمبابه وارتد معظمهم إلى الجيزة

أشار الجبرتى إلى هذا الدور من المعركة بقوله : « ولما كان وقت القائلة (الظهر) ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا إلى ناحية بشتيل فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس

---

(١) هى فرقة الجنرال منو كما بينا ذلك بهامش ص ١٥٧

(٢) التى كانت فى الأصل فرقة الجنرال كليبر

فكروا عليهم بالخيول ، فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمى ، وأبلى الفريقان ، وقتل أيوب بك الدفتردار (مدير الشؤون المالية) ، وعبد الله كاشف الجرف (من البكوات المماليك) وعدة كبيرة من كشاف محمد بك الألفى ومماليكهم ، وتبعهم طابور من الإفرنج نحو الستة آلاف وكبيرهم ديزيه الذى ولى على الصعيد بعد تملكهم ، وأما بونابارته الكبير فإنه لم يشاهد الواقعة بل حضر بعد الهزيمة ، وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير »

هذا ما رواه الجبرتى عن هذا الدور من المعركة ، ولا يمكننا أن نمر على قوله : « إن بونابارته الكبير لم يشاهد الواقعه » دون أن نبدى شيئا من الدهشة ، لأنه كيف تصور الجبرتى أن بونابارته لم يشاهد الواقعة مع أنه قائدها وراسم خططها ومدبر الأمر فيها ؟ ولا ندرى من أين جاء الجبرتى أنه لم يحضر إلا بعد الهزيمة ، وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير ، مع أن بونابارت كان فى القلب يرقب حركات القتال ويتتبع كل صغيرة وكبيرة فيه ؟ على أى وجه قلبنا الرواية لا نجد ثبتاً لها ، وكل ما نقوله فيها أنها « خطأ »

والآن فلننتقل إلى الدور الثانى من المعركة :

أمر نابليون قوات الميسرة من جنود الجنرال بون والجنرال فيال بمهاجمة إمبابه ، فوقع الهجوم فى الوقت الذى كان فرسان مراد بك يغامرون بأنفسهم بين فرقتى ديزيه ورينييه ، واشترك فى الهجوم فرقة الجنرال دوجا ، فدار قتال شديد بينهم وبين المصريين والمماليك ، وكر هؤلاء على الفرنسيين لكنهم ارتدوا أمامهم ورجعوا إلى معاقلهم ، وحاولوا صد هجوم الفرنسيين بإطلاق النار من المدافع المركبة فى استحكامات إمبابه ، لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق ، فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة ولم يستطع رماتها أن يعيدوا الضرب بها ، فاختل نظام الجيش فى إمبابه ، وأحاط جنود الجنرال رامبون Rampon ومارمون Marmon(١) بالاستحكامات لقطع خط رجعة المصريين إلى النيل ، وتمكن الفرنسيون من تطويقها ، فوقع المصريون والمماليك بين نارين ، فكان العدو أمامهم والنيل من ورائهم ، «والريح النكباء قد اشتد هبوبها ، وأمواج البحر فى قوة اضطرابها ، والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين ، فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار » ؛ ووقعت الهزيمة بجيش مراد بك ومات معظم رجاله قتلا أو غرقاً فى النيل ، واستولى الفرنسيون على إمبابه ، وغنموا ما بها من المدافع والاستحكامات والأسلحة والمؤن ، فلما علم مراد بك بسقوط إمبابه تحقق أن الهزيمة حلت به ، ففر بالباقين من جنوده وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف إلى جنوب الجيزة ،

(١) من قواد فرقتى بون وفيال

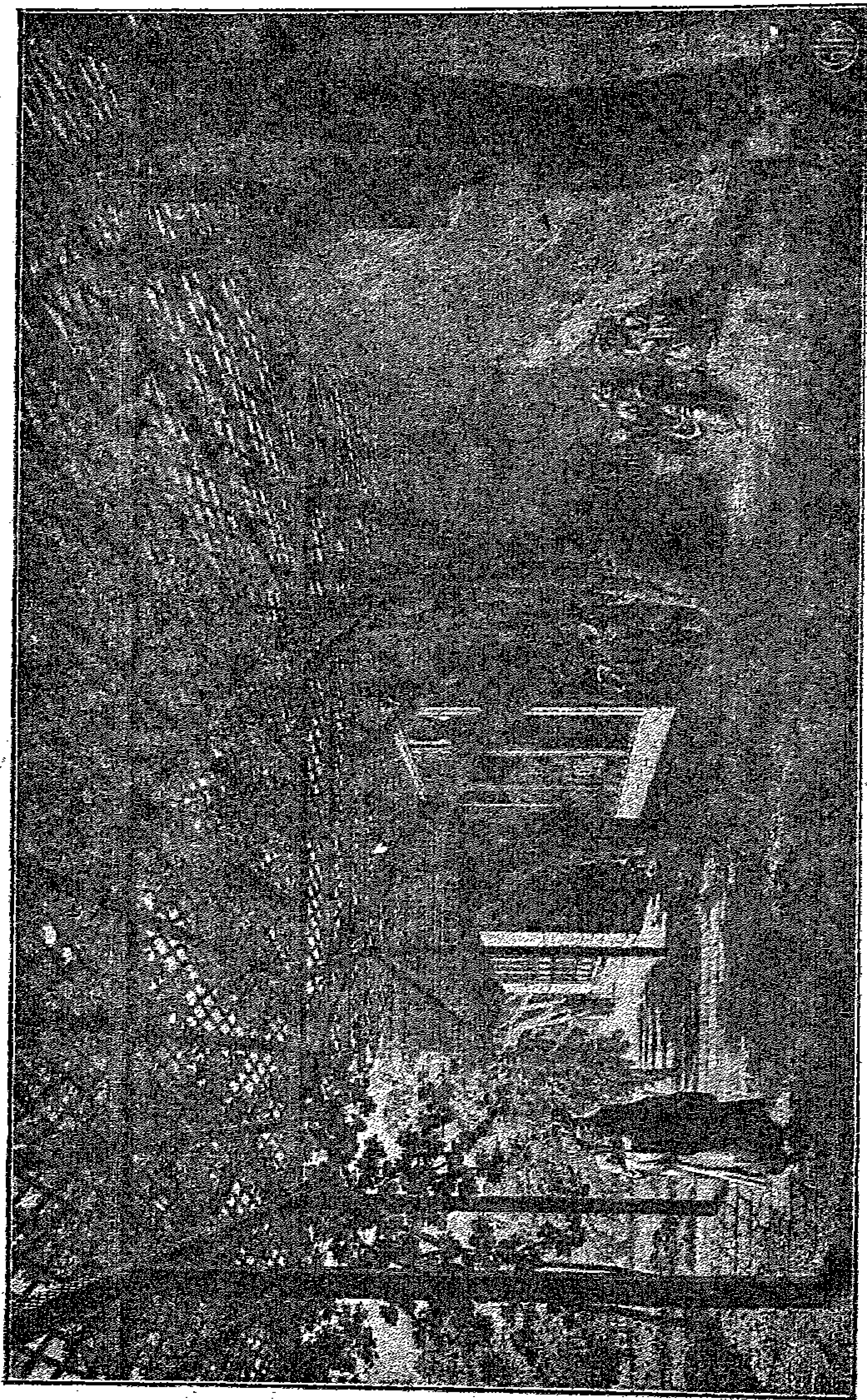
وأغرق المماليك السفن المصرية التي كانت بالنيل حتى لا تقع في أيدى الفرنسيين ، وانتهت المعركة في نحو الساعة السادسة مساء بانتصار نابليون وجنوده والقضاء على قوة البلاد الحربية

نقلنا عن الجبرتي العبارة التي وضعناها بين قوسين ، لأنها أبلغ ما كتبه عن الدور الثانى من المعركة ، ولا بأس أن نورد ما ذكره في وصف وقائع القتال حول إمبابه ليقابل القارئ بين روايته والرواية التي استخلصناها من المصادر الفرنسية ، قال : « ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع ، وكذلك العساكر المحاربون البحرية (أى بحارة السفن المصرية التي كانت راسية بين إمبابه وبولاق) ، وحضر عدة وافرة من عساكر الأرناؤود من دمياط وطلعوا إلى إمبابه وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس ، وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضي الشرقي[١] ومنهم إبراهيم بك الوالى[٢] وشرعوا في التعدية إلى البر الغربي في المراكب ، فتزاحموا على المعادى لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً ، فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين »

وقال يصف نظام المربعات الفرنسية وهجومها على إمبابه وهزيمة الجيش المصرى : « ثم إن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم في الحرب ، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ، ودق طبوله ، وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح ، وانعقد الغبار ، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح ، وصمت الأسماع من توالى الضرب ، بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة ، ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربي[٣] فغرق الكثير من الخيالة في البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا ، والبعض وقع أسيراً في أيدى الفرنسيس ، وملكوا المتاريس ، وفر مراد بك ومن معه إلى الجيزة ، فصعد إلى قصره وقضى أشغاله في نحو ربع ساعة ، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية ، وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر امبابه تحت الأرجل ، وكان من جملة من ألقى نفسه في البحر سليمان بك المعروف بالأغا ، وأخوه إبراهيم بك الوالى ، فأما سليمان بك فنجا وغرق إبراهيم بك الصغير وهو صهر إبراهيم بك الكبير »

بلغت خسائر جيش مراد بك في معركة الأهرام نحو ألفي قتيل من المماليك وعدة آلاف لا تحصى من المصريين ، وفي مذكرات نابليون أن مجموع القتلى من جيش مراد بك من

(١) يعنى جيش إبراهيم بك الذى كان مرابطاً بالبر الشرقي للنيل
(٢) صهر إبراهيم بك رئيس المماليك
(٣) يعنى جيش مراد بك لأنه بالبر الغربى



قصر مراد بك في الجيزة (انظر ص ١١١ و ١٧٠)

مماليك ومصريين بلغ سبعة آلاف ، وأن خسائر الفرنسيين ثلثمائة (١)

وقدسار نابليون بعد انتهاء المعركة إلى الجيزة ، واتخذ قصر مراد بك معسكراً له واستولى على (ترسانته) التى أنشأها بالجيزة وما بها من المدافع والذخائر ، وفى مساء هذا اليوم احتلت فرقة من الجيش الفرنسى جزيرة الروضة

وفى مساء اليوم التالى دخل الجنرال « ديبوى » أحد قواد الجيش الفرنسى المدينة على رأس كتيبة من الجنود لاحتلالها ، فلم يلق بها مقاومة ، وعسكرت ليلا فى بيت إبراهيم بك الوالى ، فكانت هذه الكتيبة طليعة الجيش المحتل ، وفى اليوم التالى (الإثنين ٢٣ يوليه — ٩ صفر) تبعتها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها ، وأصبحت العاصمة فى قبضة الجيش المحتل

انسحاب إبراهيم بك

كان جيش مراد بك هو الذى تلقى صدمة الهجوم الفرنسى بالبر الغربى للنيل ، وما إن حلت به الهزيمة حتى انسحب إلى الجيزة كما قدمنا ، وأحرق سفنه كيلا تقع فى أيدى الفرنسيين ، ثم فر إلى الوجه القبلى ومعه فلول جيشه المهزوم

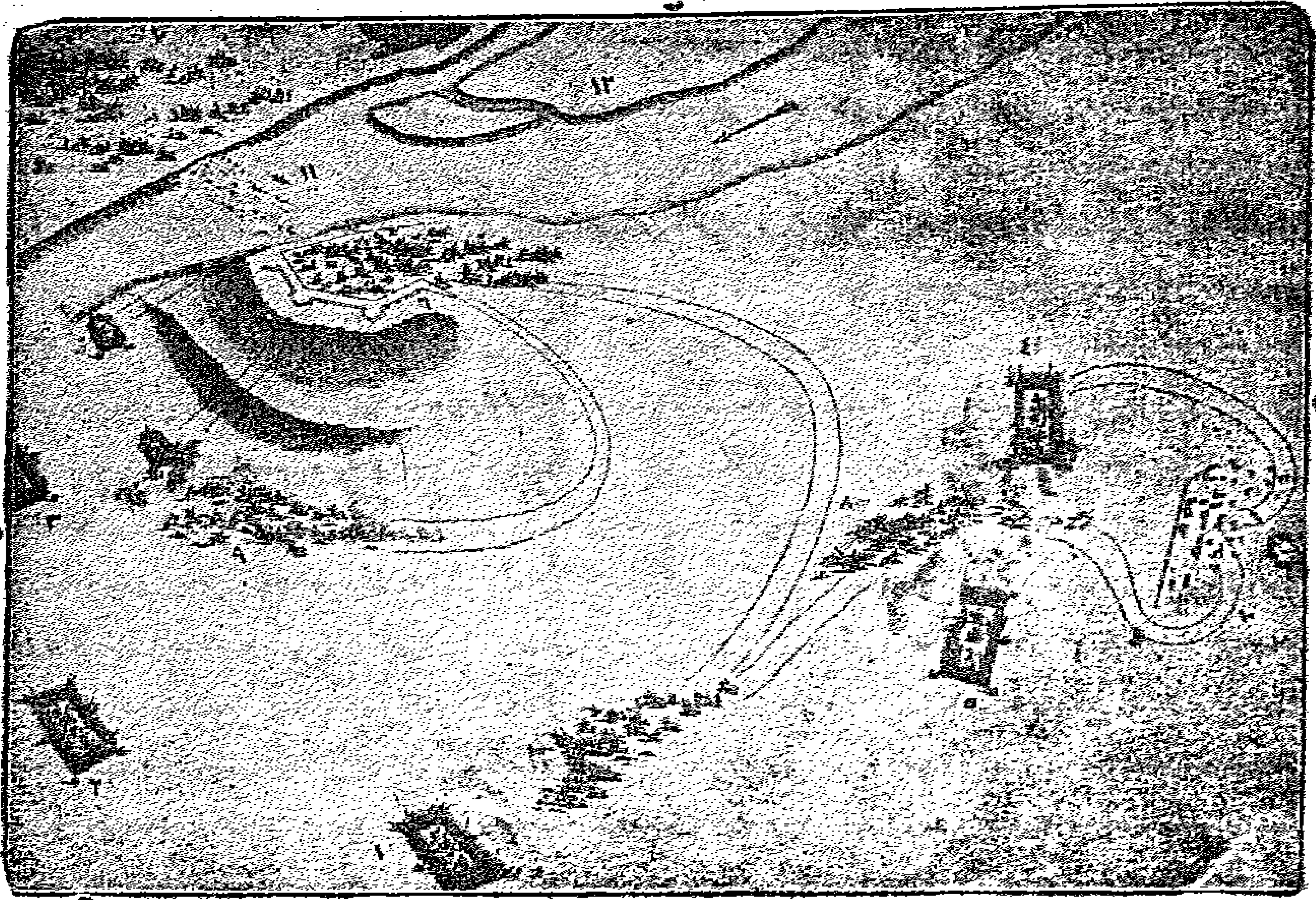
أما إبراهيم بك الذى كان يرابط فى الشاطئ الشرقى ليدافع عن القاهرة إذا اعتزم الفرنسيون عبور النيل ، فإنه ظل يرقب تطورات المعركة ، وبقى جامداً لا يحرك ساكناً حتى علم بهزيمة زميله مراد بك فأركن إلى الفرار هو ومن معه من المماليك ، وغادروا العاصمة وقصدوا إلى بلبيس ثم إلى سوريا ، حاملين ما وصلت إليه أيديهم من المتاع والأموال والتحف لينجوا بها ويستخلصوها لأنفسهم ، وبذلك ترك أمراء المماليك سكان القاهرة وأهل البلاد وجهاً لوجه أمام القوة الفرنسية

نصيب المصريين فى المعركة

وقف المصريون بجانب المماليك فى معركة الأهرام يقاتلون الفرنسيين ، هذه واقعة وإن لم يعلنها المؤرخون الفرنسيون إلا أنها حقيقة ثابتة تنطق بها أقوالهم وروايات شهودهم

ذكر المسيو تيير Thiers فى كتابه (٢) «أن جيش مراد بك أقام بعسكره على الشاطئ الغربى من النيل فى السهل الممتد ما بين النيل وأهرام الجيزة ، وكان يدافع عن قرية إمبابه بقوة مؤلفة من

(١) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين
(٢) تاريخ الثورة الفرنسية الجزء العاشر



خريطة واقعة امبابه أو معركة الأهرام — ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ — وفيها البيانات الآتية :

١ — فرقة الجنرال دوجا وفيها نابليون ، ومنها يتألف قلب الجيش الفرنسي

٢ — فرقة الجنرال بون } ومنهما يتألف الجناح الأيسر
٣ — فرقة الجنرال فيال }

٤ — فرقة الجنرال ديزيه } ومنهما يتألف الجناح الأيمن
٥ — فرقة الجنرال رينييه }

٦ — إمبابه وفيها الاستحكامات والمدافع والمتاريس والقوات التي أعدها مراد بك

٧ — قوات ابراهيم بك المرابطة ببولاق ولم تشترك في القتال

٨ — قوات مراد بك تهاجم فرقة الجنرال دوجا ثم فرقتي ديزيه ورينييه

٩ — قوات مراد بك تهاجم جنود الجنرال رامبون لرد هجمتهم على امبابه

١٠ — آخر نقطة انسحبت منها قوات مراد بك بعد الهزيمة

١١ — الأسطول المصري في النيل ومراكب التعدية بين امبابه وبولاق

١٢ — جزيرة بولاق

والخطوط المزدوجة تمثل خط سير قوات مراد بك

وقد اقتبسنا هذه الخريطة من مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون في مصر ، وأهمية هذه الخريطة ترجع إلى أن نابليون راجعها ونقحها قبل أن تطبع في كتاب دينون سنة ١٨٠٢

٢٤٠٠٠ من الفلاحين والانكشارية ، وهذه القوة كانت تؤلف ميمنة الجيش ، وكان المماليك وعددهم عشرة آلاف فارس ومنهم يتألف القلب والميسرة يرابطون فى السهل الممتد بين النيل والأهرام يشد أزرهم عدة آلاف من الفرسان العرب

ويقول الجنرال برتييه Berthier فى كتابه[١] :

« استولى الفرنسيون على قرية إمبابه بعد أن دافع عنها نحو ألف وخمسمائة مملوك ومثل هذا العدد من الفلاحين دفاع الأبطال ورفضوا التسليم فماتوا قتلا وغرقا »

ومعلوم أن الجنرال برتييه هو رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، وقد شهد معركة الأهرام وكان يخوض غمارها إلى جانب نابليون ، فكلامه حجة

ويقول نابليون فى مذكراته عن قوة جيش مراد بك :

« كانت الميمنة ترابط شمالى إمبابه وتتألف من ٢٠٠٠٠ من الانكشارية والعرب ومقاتلة القاهرة ، وتتألف الميسرة والقلب من ١٢ ألف فارس من المماليك والأغاوات (رؤساء الجند) والمشايخ والأعيان المصريين ومع كل منهم ثلاثة أو أربعة من المشاة لخدمتهم ، فكان مجموع هذه القوة نحو خمسين ألف رجل ، يضاف إليهم ثمانية آلاف فارس عربى تتألف منهم ميسرة هذا الجيش فكان الجيش يحتل خطا طوله ثلاثة فراسخ »

وقال ميو Miot وهو شاهد عيان لوقائع الحملة فى مذكراته : « إن قوة مراد بك تقدر بستة آلاف من المماليك وعدد كبير من الفلاحين والعرب[٢] »

وذكر ريبو « أن مراد بك كان تحت إمرته ستة آلاف من المماليك رابطوا على الشاطئ الغربى للنيل ، وارتكزت ميسرتهم إلى الجيزة وميمنتهم إلى قرية إمبابه حيث كان يدافع عنها ١٢ ألفاً من الفلاحين ومعهم أربعون مدفعاً ؛ وقد أمدته فى هذا اليوم فصيلة من الانكشارية وعدد حاشد من العرب والأقباط والحبشان[٣] »

وتكلم دى لاجونكيير عن حامية إمبابه فقال : «من الصعب أن نتصور أن عشرين ألفاً كانوا محتشدين فى قرية صغيرة كإمبابه ، والمعقول أن القوة النظامية من هذا العدد كانت مؤلفة من أربعة آلاف فقط من المشاة ، ولكن هذا العدد قد وصل إلى الضعف أو الثلاثة الأمثال عن انضم إليهم من الفلاحين ومن متطوعة القاهرة ، وقد بلغت خسارة المماليك ألفين من

(١) تاريخ حروب بونابارت فى مصر وسوريا
(٢) مذكرات عن تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر بقلم القوميسير ميو Miot
(٣) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

فرسانهم وخيرة رجالهم ، وكانت خسائر الأهالى عظيمة فغرق معظمهم فى النيل[١] »

وفى الجبرتى ما يدل على اشتراك المصريين فى المعركة فقد نقلنا عنه ما ذكره عن تطوع أهل القاهرة ، ونضيف إليه ما أورده عن تطوع سكان الأقاليم قال :

« أرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا فى القدمة بنواحى شبرا وما والاها ، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد على والهنادى وغيرهم »

وقال فى موضع آخر : « ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر (صفر الموافق ٢٠ يوليه) وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت (يوم الواقعة) فوصلوا إلى أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر[٢] »

يؤخذ من هذه الوثائق والمصادر المتعددة أن المصريين قد اشتركوا فى معركة الأهرام بكل ما أوتوا من حول وقوة ، وأنهم قدموا كل مافى استطاعتهم من رجال ومال للدفاع عن كيان البلاد ، وأن عددهم كان أكثر من عدد المماليك

ولقد اختلف الرواة فى تقدير عدد الماليك الذين اشتركوا فعلا فى المعركة ، لكن التقدير الذى هو أقرب إلى الصواب أنهم يتراوحون بين ستة آلاف وسبعة آلاف فقط ، فقد أحصى المسيو مارتان Martin أحد مهندسى الحملة الفرنسية[٣] عددهم ٥٫٥٠٠ مقاتل ، وقدرهم ريكاردو Richardo أحد ضباط الحملة بستة آلاف ، ويقول دى لاجونكيير De La Jonquiere أن إحصاء المماليك بستة آلاف موافق لتقدير الجنرال برتييه رئيس أركان الحرب وميو وريكاردو ، ويلاحظ دى لاجونكيير تأييداً لهذا التقدير أن مجموع المماليك الصالحين للقتال كان عند مجيء الحملة الفرنسية لا يزيد على عشرة آلاف مقاتل[٤] منهم ١٥٠٠ كانوا بالبر الشرقى للنيل بقيادة إبراهيم بك ولم يشتركوا فى المعركة ، و٥٠٠ بالصعيد بقيادة حسن بك

---

(١) تاريخ حملة مصر الجز الثالث بقلم دى لاجونكيير

(٢) الجبرتى الجزء الثالث

(٣) فى كتابه تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر الجزء الأول

(٤) هذا الإحصاء يوافق ما ذكره الجبرتى فى الجزء الرابع على لسان إبراهيم بك زعيم المماليك وهو يخاطب مندوبى محمد على الكبير الذين قابلوه فى شأن الصلح ، فذكر إبراهيم بك ما كان لهم من النفوذ والشوكة قبل الحملة الفرنسية ، قال فى هذا الصدد : « إعلم أننا كنا بمصر نحو العشرة آلاف أو أقل أو أكثر ، ما بين مقدمى ألوف « قواد » وأمراء وكشاف ، وأكابر وجاقات ، ومماليك ، وأجناد وطوائف ، وخدام ، وأتباع » ، فيؤخذ من ذلك أن عدد المقاتلة من المماليك كان عشرة آلاف ، أما جنس المماليك من رجال ونساء وأطفال وعتق وأرقاء فيبلغ عددهم نحو خمسين ألفا

الجداوى ، ونحو هذا العدد مع قافلة الحج التى لم تكن حضرت بعد ، فإذا قدرت خسائر المماليك فى الرحمانية وشبراخيت كانت النتيجة أن عدد المماليك الذين حشدهم مراد بك بالبر الغربى إنما كان يتراوح بين ستة آلاف إلى ستة آلاف وخمسمائة ، والباقون من المصريين

وصفوة القول أنه لا يمكن لأمة عزلاء لا سلاح معها أن تدافع عن كيانها بأكثر مما فعلت الأمة المصرية فى عهد الحملة الفرنسية

بعد الواقعة

قام المصريون بقسطهم فى الدفاع فى واقعة الأهرام كما ترى ، وهم الذين احتملوا عواقب الهزيمة ، فقد عم الفزع القاهرة بعد وقوع الهزيمة وفرار قواد المماليك ، وقضى أهلها ليلة رهيبة اكتنفتهم فيها الخطوب والأهوال ، وتوقعوا أن تحل بهم الكروب إذا دخل الفرنسيون المدينة ، فلاذ معظمهم بالفرار تلك الليلة إلى الأقاليم ومعهم نساؤهم وعيالهم ، فكان هذا الذعر أشد هولا من وقائع الحرب والقتال ، قال الجبرتى يصف تلك المأساة :

« استمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر ، البعض بحريمه ، والبعض ينجو بنفسه ، ولا يسأل أحد عن أحد ، بل كل واحد مشغول بنفسه عن ابنه وأبيه ، والناس يضجون بالعويل والنحيب ، ويبتهلون إلى الله من شر ذلك اليوم العصيب ، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ، تخرج تلك الليله معظم أهل مصر ، البعض لبلاد الصعيد ، والبعض لبلاد الشرق وهم الأكثر ، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه ، ومن لا يقدر على الحركة ممتثلا للقضاء متوقعا للمكروه ، وذلك لعدم مقدرته أو لقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم فى الغربة ، فاستسلم للمقدور ، ولله عاقبة الأمور »

وقد زاد هذه الفاجعة هولا أنه لما أحرق المماليك سفنهم بعد الهزيمة تصاعد لهب الحريق ودخانه من السفن المحترقة ببولاق والجيزة ، وشاهد سكان العاصمة النيران المشتعلة ليلا ، فظنوا أن الفرنسيين قد عبروا النيل وأحرقوا بولاق والجيزة ، وشاع بين الناس أنهم وصلوا إلى باب الحديد يحرقون ويعتدون على النساء ، فاشتد الفزع وعظم الخطب ، وفى ذلك يقول الجبرتى :

« إن بعض القليونجية (البحارة) من عسكر مراد بك الذى كان فى الغليون (المركب الحربى) بمرسى إنبابه لما تحقق الكسرة أضرم النار فى الغليون الذى هو فيه ، وكذلك مراد بك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار (سحب) الغليون الكبير من قبالة قصره (قصر مراد بك بالجيزة الذى اتخذه نابليون معسكراً له بعد الواقعة) ليصحبه معه إلى جهة قبلى ، فمشوا

به قليلا ووقف فى الطين لقلة الماء ، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة ، فامر بحرقه أيضاً ، فصعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ، ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فاجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع ، وخرج (من القاهرة) أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم ، والحال أن الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون ، وأى طريق يذهبون ، وأى محل يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا ، وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه ، وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه ، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات ، وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك طول ليلة الأحد وصبحها »

وختم الجبرتى وصف تلك المأساة بقوله : « وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر ، ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين ، فما راء كمن سمعا »

الفصل الثامن

عودٌ إلى الإسكندرية

واقعة أبو قير[1] (أول أغسطس سنة ١٧٩٨)

وتأثيرها فى مركز الفرنسيين

على مقربة من الإسكندرية ، وفى منتصف المسافة تقريباً بينها وبين رشيد ، فى خليج (أبو قير) ، وقت يوم أول أغسطس سنة ١٧٩٨ الواقعة البحرية الشهيرة بواقعة (أبو قير) بين الأسطول الإنجليزى بقيادة الأميرال نلسون Nelson والأسطول الفرنسى بقيادة الأميرال برويس Brueys ، وانتهت بتحطيم الأسطول الفرنسى وتدمير معظم سفنه وأسر الباقى ومقتل أميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة آلاف من بحارته ، فكانت هذه الواقعة كارثة عظمى أصابت البحرية الفرنسية وقضت على آمال فرنسا فى بسط سيادتها على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت فى الوقت نفسه أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية فى مصر ، من أجل ذلك وجب علينا أن نتكلم عن هذه الواقعة مع بيان نتائجها وأثرها فى تطور الأحوال فى مصر

مقدمات الواقعة

كانت ميناء الإسكندرية الغربية لا تستطيع أن تؤوى بوارج الأسطول الفرنسى الكبرى لقرب غور المياه فى مداخلها ، فاختار الأميرال برويس بالاتفاق مع نابليون خليج (أبو قير) يتخذه مرسى لبوارجه ، وانتقل إليه بأسطوله يوم ٧ يوليه سنة ١٧٩٨ على أن يقلع منه إلى جزيرة كورفو إذا رأى المكث فيه خطراً ، وكان الكبتن بارى Barré قد كُلف سبر غور الميناء ومداخلها ، للتحقق من عمقها ، فأجرى عدة من التجارب انتهى منها إلى أن الميناء تحتمل دخول البوارج الكبرى ، لكن الأميرال برويس بعد أن استشار قواد الأسطول رأى من المخاطرة أن يعود إلى ميناء الإسكندرية إذ لم يطمئن إلى التجربة التى زاولها الكابتن

---

(١) التزمنا فى هذه الكلمة لفظها المحكى « أبو قير » على قاعدة الحكاية ، والكلمة ليست مركبة من (أبو) و (قير) بل هى كلمة مفردة ، فلا تجرى على (أبو) قواعد الإضافة ، وفى تاج العروس للعلامة اللغوى المشهور السيد محمد مرتضى الزبيدى (الجزء الثالث) أنها (بو قير بالضم جزيرة قرب رشيد) وقد أوردها تحت كلمة (بقر) ، فالباء من بنية الكلمة ، وهذا يثبت أنها كلمة مفردة ، وسواء أ كانت (بوقير) أم (أبوقير) فهى ليست كلمة مركبة ، ولذلك قلنا واقعة أبو قير

بارى ، وكان متردداً بين البقاء فى أبو قير والإقلاع إلى جزيرة كورفو ، لـكنه آثر البقاء فى أبو قير لأنه لم يكن لديه المؤونة الـكافية للسفر إلى كورفو ، ثم لأنه لم يشأ أن يغادر سواحل مصر قبل أن يطمئن على مصير الجيش الفرنسى بها ، فأخذ يترقب أخبار نابليون بنافد الصبر وينتظر نتيجة محاربته لجيش مراد بك ، فأضاع وقته فى الانتظار دون أن يتخذ خطة حاسمة أو ينصب المدافع بالبر لحماية مواقع الأسطول ، وكان بشاطىء (أبو قير) قلعة قديمة[(١)] لـكنها لا تصلح لحماية الخليج إذ كانت فى حاجة إلى تحصينها بالمدافع الـكبيرة ، وكذلك يوجد فى مدخل الخليج جزيرة صغيرة[(٢)] (شرق القلعة) وضع فيها الأميرال برويس بعض المدافع ، لـكنها لم تستطع منع السفن الإنجليزية من دخول الخليج يوم الواقعة

وكان الأميرال نلسن قبل الواقعة لا ينفك يتجول فى البحر الأبيض المتوسط ليتعرف مواقع الأسطول الفرنسى ، فإنه بعد أن وصل إلى الإسكندرية يوم ٢٨ يونيه ولم يجد العمارة الفرنسية كما قدمنا أقلع بأسطوله إلى شواطىء الأناضول ، ثم عاد أدراجه إلى صقلية ليمتار منها ، ثم قصد ثانياً إلى سواحل مصر ؛ وفى غضون ذلك اشتد قلق الرأى العام الإنجليزى فى لندن لأن الأميرال نلسن لم يستطع فى بحر ثلاثة أشهر تقريباً قضاها فى خوض البحر أن يدرك الأسطول الفرنسى وترك نابليون يستولى على مالطه ويبلغ سواحل مصر ويحتلها بجنوده ، ولـكن نلسن لم يقصر فى تعقب أسطول الأميرال بروبس بل كانت الأقدار هى التى باعدت بينه وبين خصمه على ظهر البحار ، إلى أن حضر بأسطوله تجاه الإسكندرية صباح يوم أول أغسطس (يوم الواقعة) ثم اتجه ناحية أبو قير ، حيث كان الأسطول الفرنسى راسياً يترقّب .

الموازنة بين الأسطولين

لم تـكن قوة الأميرال نلسن تزيد عن قوة الأسطول الفرنسى لا فى عدد السفن ولا فى عدد المدافع والبحارة ، فإن أسطول نلسن كان مؤلفاً من خمس عشرة سفينة حربية منها أربع عشرة بارجة كبرى ، وكان عدد مدافع أسطوله ١٠٥٠ مدفعاً وبحارته ٨٢٤٠ من المقاتلة

أما أسطول الأميرال بروبس فى أبو قير فـكان مؤلفاً من سبع عشرة سفينة حربية منها ثلاث عشرة بارجة كبرى وأربع فرقاطات كبيرة ، عدا السفن المسلحة المتوسطة الحجم أو الصغيرة التى كانت حولها[(٣)] ، وكان سلاح هذا الأسطول ١١٨٠ مدفعاً وبحارته ٨٩٠٠ مقاتل

(١) هى المعروفة الآن بطابية البرج وهى على الراجح منشأة فى عهد السلاطين البحرية
(٢) سميت بعد الواقعة جزيرة نلسن
(٣) ترك الأميرال برويس بميناء الإسكندرية بعض السفن الحربية وكثيراً من السفن الخفيفة

فيتبين من هذه المقابلة أن الأسطول الفرنسى وإن كان أقل عدداً فى البوارج الكبيرة إلا أنه فى مجموعه أكثر عدداً وعتاداً من الأسطول الإنجليزى ، لكن الفارق الحقيقى الذى جعل للأسطول الإنجليزى الغلبة والنصر فى القتال هو كفاية القيادة والنظام وحسن الاستعداد الحربى ، ولا غرو فشخصية نلسن هى من أهم أسباب عظمة إنجلترا البحرية ، كأنّ الرجل أسطولٌ إنسانى

لم يكن الأميرال بروبس يتوقع أن يصادمه الأسطول الإنجليزى فى خليج أبو قير ، فلم تكن بوارجه على تمام من أهبتها واستعدادها ، وكان عدد كبير من ضباطها وبحارتها يتخلفون فى الشواطىء أو فى الإسكندرية يمتازون منها

بدء المعركة

فى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم أول أغسطس ، بدأت بوارج الأميرال نلسن تظهر فى الأفق تجاه أبو قير ، وتبينها الأميرال بروبس وهى فى عرض البحر ، بعيدة عن الساحل ، ولم يكن يعتقد أنها جاءت لمهاجمته ، بل كان يظن بادىء الأمر أنها تريد محاصرة الخليج ، غير أنه رآها تقترب شيئاً فشيئاً على سمت من الخليج ، فتحقق أن المعركة لا محالة ناشبة

وكانت تتقدم أسطول الأميرال نلسن عند اقترابه من الخليج سفينة مصرية[1] ، ويرجح « ريبو » أن هذه السفينة كانت تقل جماعة من البحارة المصريين تقدموا ليرشدوا الأسطول الإنجليزى إلى مسالك البحر فى تلك الجهة يساعدونه بذلك على الأسطول الفرنسى[2]

وعند الساعة الثالثة أصدر الأميرال بروبس أمره للسفن بالتأهب للضرب ، وأخذ الأميرال نلسن يرتب مواقع بوارجه ، وكان فى حركاته حراً ، بعكس الأميرال بروبس فإن حركاته كانت مقيدة لانحصاره فى الخليج ، وبالرغم من أن بعض أركان حربه نصحوه بالخروج فى عرض البحر لملاقاة الأسطول البريطانى فإنه آثر البقاء فى مرساه ، وكان موقف الأسطول الفرنسى مما ساعد الأميرال نلسن على أحكام تدبيره لأن البوارج الفرنسية كانت مصطفة على خط يشبه القوس بعيدة عن الشاطىء الغربى للخليج كما تراه فى الخريطة ، فاستطاعت

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) جاء فى تقرير الضابط الفرنسى شاريبه Charrier الذى كان على ظهر البارجة فرنكلن من بوارج الأسطول الفرنسى ما يؤيد هذه الرواية ، قال : « فى منتصف الساعة الخامسة مساء شاهدنا فى عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الإسكندرية تتصل بإحدى السفن الإنجليزية ولم تنفصل عنها بالرغم من أن السفينة (ألرت) Alerte أطلقت عليها عدة قنابل »

البوارج الإنجليزية أن تندس بينها وبين الشاطئ ، وخيل للأميرال بروبس أن مثل هذا الحادث يستحيل وقوعه لقلة عمق البحر فى هذا الوضع ، فكان هذا الخطأ فى التقدير وجرأة الأميرال نلسن فى الوصول إلى هذا المكان من أسباب الكارثة التى حلت بالأسطول الفرنسى

توصل الأميرال نلسن إلى حصر البوارج الأمامية من الأسطول الفرنسى وعددها ثمان بين صفين من البوارج ، فصارت هدفا لنارين ، ومع أن البوارج الفرنسية الأخرى كانت حرة وخارجة عن مرمى هذه النار وكان فى استطاعة قائدها الكونترأميرال فيلنوف Villeneuve أن ينتهز الفرصة ليحيط بالبوارج الإنجليزية ، فإنه ظل جامداً وترك البوارج المحصورة عرضة للنار من الجانبين ، فكان جمود فيلنوف من أسباب انتصار نلسن

بدء الضرب

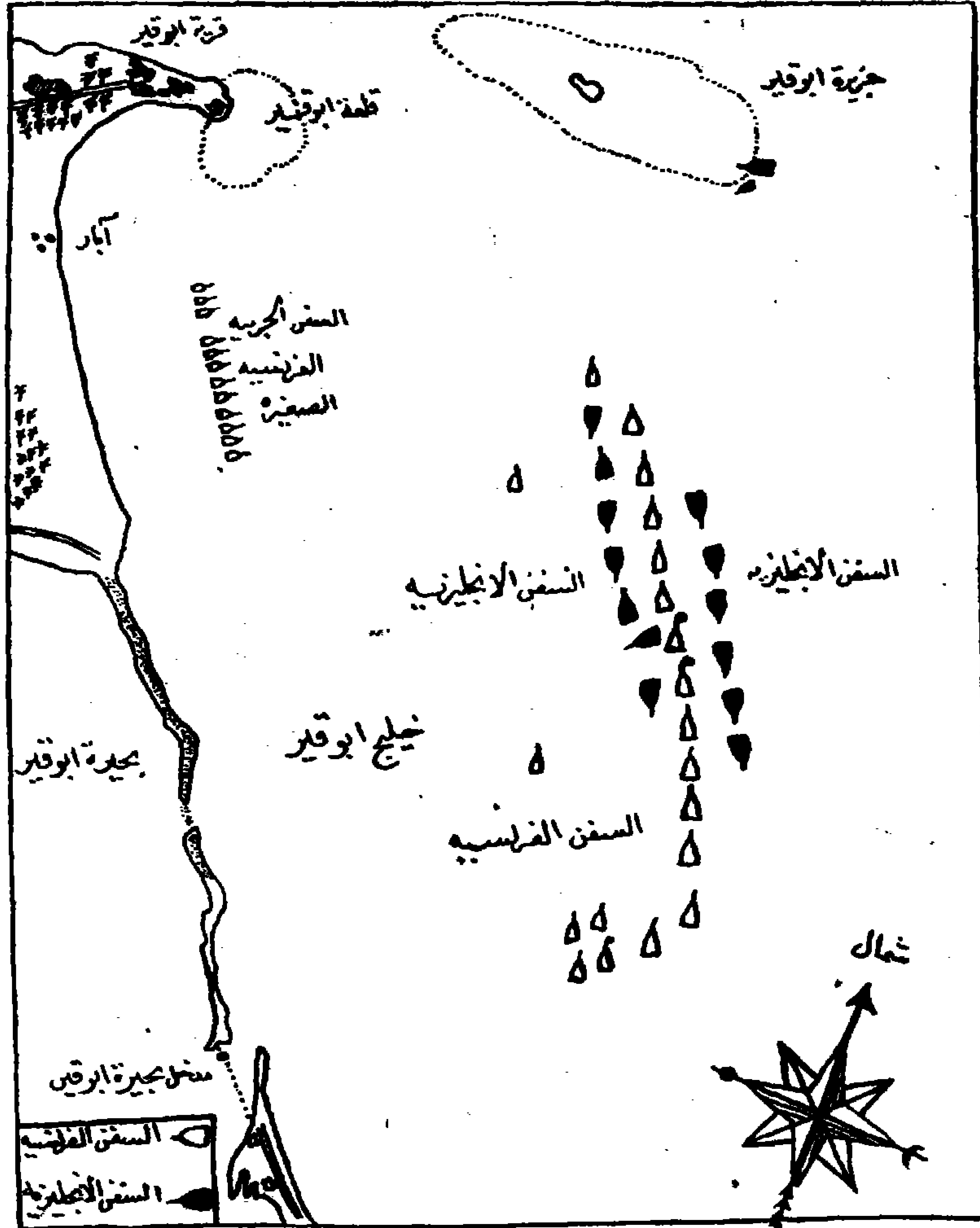
بدأ الضرب فى نحو الساعة الخامسة مساء[1] ، وكان شديداً مروّعا ، فانقلب البحر كأنه بركان من نار ، أو وادٍ من أودية الجحيم ، وأبدى الفريقان بسالة فى القتال لكن البوارج الإنجليزية كانت أرسخ فى مواقفها وأشد إحكاماً فى الرمى ، وكانت البارجة (أوريان) بارجة الأميرال بروبس هدفا لنار شديدة ، على أن الأميرال لم يفتأ يصدر الأوامر ويحرض رجاله على القتال ويبدى شجاعة كبرى فى قيادة المعركة ، وفى نحو الساعة السابعة مساء أصيب فى رأسه وفى يده ، لكنه استمر فى مركز القيادة وضمد جراحه بنفسه

مقتل الأميرال بروبس

إلى أن كانت الساعة الثامنة فأصابته قنبلة مدفع فصلت فخذه الأيسر وقضت على حياته ، وتولى القيادة بعده الكونترأميرال فيلنوف واستمر الضرب حتى كانت الساعة التاسعة مساء وهنالك اضطرمت النار فى البارجة أوريان وظلت مشتعلة فيها إلى أن اتصلت بمستودع الذخائر فانفجر ونسف السفينة نسفا ، فتطايرت أجزاؤها فى الفضاء ومات معظم بحارتها حرقا وغرقا ، وكان ذلك فى منتصف الساعة الحادية عشرة مساء ، فساد من الجانبين سكون رهيب لهول الانفجار ، ثم تجدد الضرب بعد نصف ساعة ، وكان الأسطول الفرنسى قد تضعضع بسبب ما حل به من الخسائر ولا سيما بعد مقتل أميراله وضياع كبرى بوارجه ؛ واستمر الضرب

---

(١) يوجد اختلاف فى الرواية عن بدء الضرب ، ففى رواية أخرى أنه بدأ الساعة السادسة مساء ، على أننا نرجح الرواية الأولى لأن الكاتب الفرنسى فيفان دينون كان وقت المعركة واقفاً على برج أبى مندور جنوبى رشيد عند ابتداء الضرب وسمعه هناك فقال إنه ابتدأ الساعة الخامسة مساء



خريطة واقعة أبو قير البحرية — أول أغسطس سنة ١٧٩٨
وموقف الأسطولين عند ابتداء القتال

إلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ثم انقطع وخفت وطأته ، ثم تجدد في نحو الساعة الخامسة صبيحة اليوم التالي (٢ أغسطس) وانتهت المعركة في نحو الساعة الثانية عشرة ، انتهت بالقضاء على الأسطول الفرنسي ، وانسحب الكونتراميرال فيلنوف بأربع سفن حربية هي البقية من العمارة الفرنسية ومضى بها قاصداً إلى مالطة ، ولم يتعقبه الأميرال نلسن لما أصاب سفنه من العطب ولما حل برجاله من الإعياء

كان الضرب من الجانبين في خلال المعركة شديداً مروّعا ، وقد سمعه وفتئذ سكان الإسكندرية ورشيد ، ففي منتصف الساعة السابعة مساء (يوم أول أغسطس) سمع في الإسكندرية قصف المدافع آتياً من أبو قير ، فعلم الناس أن معركة هائلة وقعت في الخليج ، واستمر دويّ المدافع إلى الساعة العاشرة ليلا ، وبعد ذلك سمعوا صوت انفجار البارجة « أوريان » ، وشاهد بعض الضباط الفرنسيين في منتصف الساعة الحادية عشرة ليلا لهيب النار يتصاعد في جنح الظلام ، وتحققوا في اليوم التالي أنها نار البارجة « أوريان » ساعة انفجارها ، فكان المنظر رهيباً يملأ النفوس فزعاً ورعباً ، وانقطع صوت الضرب عقب الانفجار مدة عشرين دقيقة ، ثم تجدد بشدة وانقطع ثانية في نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل

وكذلك سمع قصف المدافع في رشيد خلال المعركة ، ورأى أهلها لهيب النار يخترق ظلمة الليل ، فأدركوا أن بارجة كبيرة تحترق (وهي البارجة أوريان) وسمعوا دويّ انفجارها ، وفي اليوم التالي عند أذان الفجر تجدد صوت الضرب ، وفي الصباح سمعوا انفجاراً آخر وهو انفجار الفرقاطة لارتميز **L'Artemise** الفرنسية التي جنحت على الشاطئ ، فأمر ربانها بإشعال النار فيها حتى لا تقع في يد الإنجليز

خسائر الفرنسيين

فقد الفرنسيون في معركة أبو قير سفنهم الكبرى ولم ينج منها إلا أربع سفن ، وهي التي فرت من الميدان بقيادة فيلنوف ، أما الباقي فقد دمرت النار بعضها وغرق البعض الآخر ، وغنم الإنجليز ست سفن ضموها إلى أسطولهم ؛ فكان انتصار نلسن في موقعة أبوقير ساحقاً ، لأنه خرج منها وقد حطم الأسطول الفرنسي وزاد عدد أسطوله بما غنمه من السفن الفرنسية ، وكانت خسارة الفرنسيين في الأرواح فادحة ، فقد قتل أميرال الأسطول ومعظم أركان حربه ، وقتل وغرق من الفرنسيين نحو أربعة آلاف ، ولم ينج من بحارة الأسطول سوى ثلاثة آلاف ، أما الباقون فكانوا في عداد القتلى أو الأسرى ، وقد أعاد الإنجليز الأسرى الفرنسيين إلى الإسكندرية تخلصاً من مؤونتهم ومنهم كثير من الجرحى ؛ وخسر

الإنجليز ٢١٨ قتيلا و ٦٧٨ جريحاً ، وأصيبت بوارجهم بتلف وعطب من شدة الضرب

دامت المعركة طويلا ، وكان الحظ فيها متمايلا بين الفريقين ، ومن وقت كان الشك فى مصيرها عظيما ، لكن أسباباً ثلاثة عجلت بهزيمة الفرنسيين ، وهى إحاطة الأسطول الإنجليزى بالبوارج الأمامية ، واحتراق البارجة أوريان ، وجمود الكونترامیرال فيلنوف ، وقد أصيب الأميرال نلسن بجرح فى رأسه وأغمى عليه ، لكن جرحه كان خفيفاً ولما زال عنه الإغماء عاد إلى موقفه فى القيادة حتى تم له النصر ، وخرج من المعركة رافع الرأس خالد الذكر يحمل لواء البطولة والمجد

ويسمى بعض المؤرخين هذه المعركة « معركة النيل البحرية »

رواية الجبرتى عن الواقعة

كتب الجبرتى ما يلى عن واقعة أبو قير :

« وفيه (٦ ربيع الأول سنة ١٢١٣ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨) تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنكليز إلى ثغر إسكندرية ، وأنهم حاربوا مراكب الفرنساوية الراسية بالميناء ، وكانت أشيعت هذه الأخبار قبل وتحدث الناس بها فصعب ذلك على الفرنساوية واتفق أن بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد أحمد الزرو من أعيان التجار بوكالة الصابون أنه تحدث بذلك ، فأمروا بإحضاره وذكروا له ذلك ، فقال أنا حكيت ما سمعته من فلان النصرانى ، فأحضروه أيضاً ، وأمروا بقطع لسانيهما ، أو يدفع كل منهما مائة ريال فرانسه نكالا لهما وزجراً عن الفضول فيما لا يعنيهما ، فتشفع المشايخ ، فلم يقبلوا ، فقال بعضهم : أطلقوهما ونحن نأتيكم بالدراهم . فلم يرضوا . فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى (من أعضاء الديوان) وأحضر مائتى ريال ودفعها فى الحضرة . فلما قبضها الوكيل ردها ثانياً إليه ، وقال فرقها على الفقراء ، فأظهر أنه فرقها كما أشار وردها إلى صاحبها ، فانكف الناس عن التكلم فى شأن ذلك . والواقع أن الإنكليز حضروا فى أثرهم (أى الفرنسيين) إلى الثغر وحاربوا مراكبهم فنالوا منهم ، وأحرقوا القايق الكبير المسمى نصف الدنيا[1] ، وكان به أموالهم وذخائرهم ، وكان مصفحاً بالنحاس الأصفر ، واستمر الإنكليز بمراكبهم بمينا الإسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس »

(١) يريد البارجة « أوريان » (الشرق) ، ولا ندرى لماذا اختار لها الجبرتى هذا الاسم ، ولعلها سميت فى مصر (نصف الدنيا) إشارة إلى عظمها أو إشارة إلى أن اسمها (الشرق) ، ومن الشرق والغرب تتكون هذه الدنيا ، وظاهر من رواية الجبرتى عن الواقعة أنه لم تصله عنها بيانات وافية ، وأن الفرنسيين كانوا يتكتمون أخبارها ويتهددون كل من يذيع أنباءها كما رأيت ما فعلوه مع السيد أحمد الزرو وصاحبه

نتائج المعركة

يوجد فى تاريخ الحروب وقائع معدودة امتازت بعظم تأثيرها فى مصير الدول والشعوب ، ومن هذه الوقائع واقعة أبو قير

كانت هذه الواقعة أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية ، وظهرت نتائجها الخطيرة على مدى الأيام ، فإن فرنسا حينما شرعت فى احتلال مصر كانت تعتمد على قوتها البحرية فى البحر الأبيض المتوسط لإمداد الحملة وحماية المواصلات بينها وبين السواحل المصرية ، وكانت تأمل إذا بقيت قوتها البحرية فى البحر الأبيض سليمة أن تتفاهم مع تركيا بشأن مصر ، لأن تركيا لم يكن لها فيها سوى سيادة اسمية لا أهمية لها ، وكانت من جهة أخرى تؤمل أن يكون اتصالها بمصر بطريق البحر مما يسهل عليها اتخاذ وادى النيل قاعدة عسكرية لضرب إنجلترا فى الهند وإنشاء دولة شرقية تحقق أطماع فرنسا ، فلو أن معركة أبو قير انتهت بانتصار الأسطول الفرنسى لضمنت فرنسا سيادتها فى البحار واستطاعت أن تضرب إنجلترا الضربة القاضية ، بل أن تغزوها فى جزيرتها

لكن كل هذه الاعتبارات والآمال قد تلاشت فى معركة أبو قير ، إذ قضت هذه المعركة على البحرية الفرنسية فى البحر الأبيض المتوسط ، وضمنت لإنجلترا السيادة على البحار ، وقطعت الاتصال بين فرنسا وسواحل مصر ، وأحيت آمال الدول الملكية التى قهرتها فرنسا فى ميادين القتال ، فبدأت تتأهب للأخذ بالثأر ، متشجعة بما حل بالأسطول الفرنسى من الدمار ، وانتهزت إنجلترا فرصة انتصارها على ظهر البحر لتجتذب إليها الدول الموتورة ، وانضمت الروسيا إلى تلك الدول وعقدت محالفة جديدة مؤلفة من إنجلترا والنمسا والروسيا وتركيا ونابولى لمحاربة الجمهورية الفرنسية ، وتمكنت إنجلترا من أن تحمل الباب العالى على إعلان الحرب على فرنسا والانضمام إلى الروسيا عدوته التاريخية ، وفتح البحر الأبيض للبوارج والقوات الروسية ، ولم تلبث الحرب أن تجددت بين النمسا وفرنسا ، وانضمت الروسيا إلى النمسا ، وقامت الثورة فى مالطة ضد الفرنسيين ، وتحرج مركز فرنسا أمام تحالف الدول الملكية عليها (التحالف الثانى) ، فكانت واقعة أبو قير نذيراً بتزلزل مركزها وضياع فتوحاتها فى القارة الأوروبية والبحر الأبيض المتوسط

هذا من الوجهة الدولية ، أما من الوجهة المحلية فقد كانت خسائر الفرنسيين فى واقعة أبو قير فادحة ، فقدوا بوارجهم الحربية الكبرى ، وفقدوا معظم ضباط وبحارة هذه البوارج بين قتيل وغريق .

وكان وقعها فى نفوس الجنود من الجيش الفرنسى أليماً ساحقاً ، لأنهم أدركوا أن المواصلات قد انقطعت بينهم وبين فرنسا وأنهم أصبحوا شبه منفيين فى القارة الإفريقية ، وكان وقع الكارثة أشد على جنود الإسكندرية ورشيد والسواحل القريبة من مكان الواقعة ، فإنهم شهدوا عن كثب آثار الكارثة ، فكانوا يرون المستشفيات غاصة بالبحارة المصابين الذين مزقت القنابل أجسامهم ، ويرون على الشاطئ بقايا العمارة المحطمة وأشلاء الجثث التى كانت تقذفها الأمواج إلى البر ، ويشهدون فى عرض البحر البوارج الإنجليزية تمخر عباب اليم فتلقى الرعب فى قلوبهم

أثرت كل هذه المشاهد فى روح الجنود المعنوية ، فأخذت قواهم تضعف ونفوسهم تيأس وعزائمهم تخور ، وكان من نتائج الواقعة أنها ضعضعت هيبة فرنسا فى جهات الإسكندرية ورشيد والبحيرة وشجعت أهلها على الثورة ، وأخذ الأسطول الإنجليزى بعد انتصاره فى تلك المعركة يشدد الحصار على الشواطئ ، فقطع كل المواصلات التجارية التى كانت مصدر ثروة الإسكندرية ، ونضب معين الجمارك فضاقت الحال واشتد الكرب بأهل الإسكندرية وزاد سخطهم على الاحتلال الفرنسى ؛ وكان الفرنسيون يتوقعون فى كل وقت أن ينزل الإنجليز قوات إلى الشاطئ فيوقعوا الفرنسيين فى الخطر وبخاصة إذا اتصلوا بالاهالى الذين كانوا على استعداد للثورة

كتب كليبر إلى نابليون بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة طويلة يشكو فيها حرج مركزه قال فيها : « إن مركزى هنا حرج عسير ، ولا سبيل لى إلى معرفة خطتكم ونهجكم ، وإنى مضطر أن أواجه الحالة كما لو كنت أتلقى تعليماتكم ، إن الإنجليز يستطيعون أن يضربوا المدينة بالقنابل وأن يقتحموا الثغر دون أن يخشوا مقاومة ، إن لدينا بطاريات تحمى الثغر ولكن وسائلنا محدودة بالنسبة لمجهودات العدو الذى يظهر أنه مصمم على سحقنا ولو ضحى فى سبيل ذلك أسطوله بأكمله ، ومن الواجب أن توجهوا عنايتكم لضمان المواصلات بطريق البر ، ومن رأيى أن كتيبة الجنرال ديموى لا تغنى بل لا تعد شيئاً يركن إليه فى تحقيق هذا الغرض »

وكتب له رسالة أخرى يقول فيها : « لم تصلنى كلمة منك منذ خمسة وثلاثين يوما ، إن وجودكم هنا ضرورى لرفع المستوى المعنوى للجنود ، فإن كثيراً من الإشاعات تنتشر عن مركز الجيش وإنى أعمل فى إحباطها بقوة ولكن أخشى أن تترك أثرا فى النفوس فوجودكم يردُّ إلى الجنود طمأنينتهم »

على أن نابليون قد محا بتأثيره السحرى أثر اليأس الذى تسرب إلى نفوس الجنود ، وشدد عزائمهم ونفخ فيهم روح الإقدام والبسالة ، وقابل الكارثة برباطة جأش ردت إلى الجنود قوتهم المعنوية ، واستمر فى مشاريعه يدبرها وينفذها كأن لم يحدث حادث ولم يقع مصاب ، وكتب إلى كليبر يقول : « إن ما حدث سيضطرنا أن نعمل أعمالا أعظم مما كان فى حسباننا »

وأخذ كليبر من جهته يواجه الكارثة بجلد وثبات ، وجمع فلول البحارة الذين نجوا من الهلاك وعددهم نحو ثلاثة آلاف فأنشأ منهم فرقة جديدة سميت (الفرقة البحرية) ، وكلف نابليون الأميرال جانتوم بأن يجمع بقايا السفن السليمة وينظمها من جديد على أن يكون قومندانا لها ، وأوفد الجنرال مارمون إلى الإسكندرية لتحصين السواحل وحمايتها من هجمات السفن الإنجليزية

ديوان الإسكندرية

رأى الجنرال كليبر أن يستميل الأهالى ويتبع حيالهم طريق المسالمة لأنه شاهد بنفسه ولاسيما بعد كارثة الأسطول الفرنسي أن هوة الخلاف تزداد اتساعا بين الفرنسيين والمصريين ، فأنشأ فى الإسكندرية (ديواناً) على مثال ديوان القاهرة وعين لرآسته الشيخ محمد المسيرى ، وأصدر بذلك منشوراً إلى الإسكندريين فى ٢١ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فديوان الإسكندرية لم يؤسس كما ترى إلا عقب واقعة (أبو قير) وكان كليبر هو مؤسسه

إن أغلب المؤرخين يذكرون أن نابليون هو الذى أسس الديوان بالإسكندرية ، وهـذا خطأ كما ترى ، وقد جاء فى يوميات الجنرال كليبر بتاريخ ٤ فركتيدور (٢١ أغسطس) : «فى هذا اليوم أنشأ الجنرال كليبر ديواناً فى الإسكندرية مع أنه لم تصله تعليمات من القائد العام فى هذا الشأن وكان لا يعلم إذا كان القائد العام يريد إنشاءه ، على أنه أسسه حتى يقاوم دسائس الإنجليز فى المدينة » ، وما جاء فى يوميات كليبر من أنه لم تصله تعليمات نابليون فى شأن إنشاء الديوان فيه شيء من التجاوز ، لأن نابليون أرسل إلى كليبر فى ٢٨ و ٣٠ يوليه سنة ١٧٩٨ (مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٠) يأمره بتأسيس ديوان الإسكندرية طبقاً للنظام الذى رسمه لدواوين الأقاليم ، وهـذه الرسالة تنفى أن كليبر أسس الديوان من تلقاء نفسه ، وتنفى كذلك ما زعمه أغلب المؤرخين من أن نابليون هو الذى أسس ديوان الإسكندرية أثناء إقامته بها وقبل رحيله عنها ، لأنه غادرها يوم ٧ يوليه ، ولم يصدر أمره بإنشاء دواوين الأقاليم — ومنها ديوان الإسكندرية — إلا فى ٢٧ يوليه كما تقدم الكلام عن ذلك (ص ٧٧) وكان وقتئذ بالقاهرة

الشيخ محمد المسيرى

قلنا إن الشيخ محمد المسيرى عين رئيساً لديوان الإسكندرية ، والشيخ المسيرى هذا كان كبير علماء الإسكندرية فى ذلك العصر ، وكان ابنه معتقلا مع الأهالى الذين قبض عليهم عقب مقتل الجندى الفرنسى فى المدينة (انظر ص ١٤٣) ثم أفرج عنه بعد محاكمة القاتل ، وكان الشيخ تقيا ورعاً يؤثر العدالة والاستقامة ، ومما يذكر عنه فى هذا الصدد ما جاء فى يوميات الجنرال كليبر أنه أوصى أعضاء الديوان الذى أسسه بالنزاهة فى عملهم والابتعاد عن الطمع فى أموال الناس ، فأجاب الشيخ المسيرى محتجا بأنه إذا لاحظ على أى من أعضاء الديوان أنه يبسط يده فى أموال الناس فهو يعتزل لفوره رآسة الديوان ، فطلب منه كليبر أن يكتفى بتبليغه الأمر دون أن يعتزل حتى لا يحرم قومه ولا يحرم الإفرنج خدمته وعمله ، فهذا يدلك على مكانة الشيخ المسيرى فى نفوس الشعب وما كان له من الاحترام عند المصريين والإفرنج ، ويدلك على منزلته عند نابليون أنه كتب إلى الجنرال مارمون فى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨[(١)] يطلب إليه أن يذهب لمقابلة الشيخ المسيرى ويبلغه بالنيابة عنه كيف احتفل بالمولد النبوى بالقاهرة ، قال فى رسالته : «وأبلغه عنى أنى أجتمع مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف بالقاهرة بين حين وآخر ، وأنه لا يوجد أكثر منى اعتقاداً بطهارة وقدسية الدين الإسلامى[(٢)] » ، وكتب نابليون إلى الشيخ المسيرى رسالة من القاهرة يقول فيها : « لقد سرنى ما علمته من الجنرال كليبر عن مسلككم ، وانك تعلم مبلغ احترامى لك منذ عرفتك ، وأتعشم أن يجىء الوقت الذى أستطيع أن أجمع عقلاء البلاد وعلماءها وأن أضع نظاما موحداً مؤسساً على مبادىء القرآن ، تلك المبادىء الصحيحة التى تكفل للناس سعادتهم[(٣)] »

بين كليبر ونابليون

وأخذ كليبر يختلف بالزيارة إلى محافظ المدينة ورئيس الديوان ويتودد إليهما ، ودعاهما مع أعضاء الديوان إلى مأدبة عنده إحكاماً لروابط الود معهم ، كما أنه عين مرتبات شهرية لكل من المحافظ وأعضاء الديوان وفرقة الشرطة

وطفق يراسل بعض رؤساء العشائر فى دمنهور ليستميلهم إلى جانبه بالحسنى ويأخذ منهم عهوداً بالولاء ، وكان يرى تنظيم مديرية البحيرة على قاعدة اعتبار البلاد الكائنة بين الإسكندرية ودمنهور وشابور ورشيد مديرية واحدة تدخل فيها هذه المدن وتخصص لها قوة

(١ و ٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣١٤٧
(٣) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٣١٤٨

من ثلاثة آلاف جنـدى ، وبذلك يمكن تنظيم جباية الأموال بطريقة تـكفل نفقات الجيش والإدارة[١]

وكان كليبر شديد الرغبة فى أن لا يرهق أهالى الإسكندريه بضريبة جديدة أو سلفة إجبارية تزيد فى ضيقهم ، فاختلف هو ونابليون من هذه الوجهة ، لأن نابليون كتب إليه بضرورة فرض ضريبة جديدة لسد نفقات الجيش وتقوية معدات الدفاع عن الإسكندرية وترميم بعض البوارج البحرية التى نجت من كارثة أبو قير ، لـكن كليبر أصر على رأيه وكتب إلى نابليون يقول إن طريقة المصادرة تؤول إلى حدوث مجاعة وفتنة فى المدينة

وكان كليبر يرى أن ليس من الحـكمة فى الوقت الذى بدأ فيه يتودد إلى الأهالى بإنشاء الديوان والمخابرة مع زعماء العشائر فى دمنهور لإعادة الصفاء أن يثير سخط أهالى الإسكندرية بفرض ضريبة جديدة ، وكان من جهة أخرى لا يرى رأى نابليون فى الاهتمام بإحياء القوة البحرية الفرنسية ، لأن هذه القوة محكوم عليها بالفشل مهما أنفق عليها ، فاستاء نابليون من ردّ أوامره ولا سيما فى فرض ضريبة جديدة على تجار الإسكندرية ، وكتب إليه فى أول سبتمبر يعاتبه ويأمره بفرض الضريبة ، فطلب كليبر من نابليون إقالته من وظيفته بالإسكندرية وإلحاقه بفرقته ، واعتذر بعدم اضطلاعه بالوظائف الإدارية ، ورشح الجنرال دوجا ليخلفه ؛ على أن نابليون كان يعرف مقدرة كليبر ومميزاته فلم يشأ أن يحرم مساعداته ، ورجا منه بإلحاح أن يبقى فى مركزه ، وكتب له كتاباً يعرب له فيه عن تقديره لمواهبه ويسترضيه عما فرط منه فى عبارات عتابه ، فتأثر الجنرال كليبر من لهجة الود والاحترام التى خاطبه بها نابليون وأذعن لرغبة القائد العام[٢] وكتب له يرجو مقابلته فى القاهرة ، وسافر كليبر من الإسكندرية لهذا الغرض فوصل إلى القاهرة حين نشوب الثورة فيها

وكانت الحال فى الإسكندرية تزداد حرجاً بسبب تضييق الإنجليز للحصار البحرى المضروب على الثغر ، وقد بذل كليبر ما فى وسعه لتخفيف وطأته ، ولـكن الإنجليز شددوا نطاق الحصار فأسروا فى يوم واحد (٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ٣٨ سفينة أحرقوا منها ٢٨ سفينة وأعادوا بحارتها إلى البر

الجنرال مارمون فى الإسكندرية

تولى الجنرال مانسكور Manscourt قومندانية الإسكندرية عقب سفر كليبر إلى القاهرة

---

(١) رسالة كليبر إلى نابليون — ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨

(٢) سنعود تفصيلا إلى هذا الموضوع فى مراسلات نابليون وكليبر بالفصل السادس من الجزء الثانى

لـكنه لم يلبث أن استدعاه نابليون لما ظهر من له عجزه وعين الجنرال مارمون قومندانا لها[١] وظل فى هذا المركز إلى أن رحل مع نابليون إلى فرنسا فى أغسطس سنة ١٧٩٩

وقد أبدى مارمون حزماً فى الاضطلاع بأعباء مركزه ، ولـكن صادفته صعوبات كبيرة أهمها ظهور الطاعون فى الإسكندرية ، فقد كان لظهورة وضرورة حصره فى الثغر أثر شديد فى صعوبة المواصلات بين الإسكندرية وباقى بلاد القطر المصرى ، فاشـتد الضيق بالإسكندرية وأهلها

اهتم الجنرال مارمون بتحصين الإسكندرية ، وتولى الـكولونل كريتان Crettin إنشاء قلعتين لصد هجمات البوارج الإنجليزية ، القلعة الأولى بكوم الدكة ، والقلعة الأخرى بكوم الناضورة

وقد سميت القلعة الأولى باسم قلعة كريتان تخليداً لاسم بانيها الـكولونل كريتان الذى قتل فى معركة أبو قير البرية ، كما سيجىء بيانه فى الفصل الرابع من الجزء الثانى

وسميت القلعة الثانية قلعة كافريللى تذكاراً لاسم الجنرال كافريللى الذى قتل فى حصار عكا

ونصب الفرنسيون المدافع فى قلعة قايتباى وفى قلعة أبو قير ، وبنوا قلعة بجزيرة العجمى مكان البرج القديم الذى كان بها ، ووضعوا المدافع على مدخل الميناء فى نهاية شبه جزيرة رأس التين

وقد بقيت قلعتا كافريللى وكريتان إلى عهد محمد على باشا ، وشاهدها الجنرال مارمون حينما زار الإسكندرية سنة ١٨٣٥ ، ويقول فى رحلته[٢] إنه ألفاها كما كانتا فى عهد الحملة الفرنسية ، وإن محمد على حافظ عليهما (والصحيح أنه رممهما وجدد ما تخرب من بنائهما) ويقول أيضاً إن محمد على رمم سور المدينة وأصلح أبراجه وركب فيه المدافع ، وجعل الإسكندرية فى حالة منيعة من الدفاع

---

(١) أمر نابليون الصادر فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، والجنرال مارمون كان من قواد فرقة الجنرال بون ، وهو الذى اقتحم باب رشيد يوم احتلال الإسكندرية

(٢) رحلة المارشال الدوق دى راجوز (الجنرال مارمون) الجزء الثالث

الفصل التاسع

فى رشيد

رشيد الآن هى مركز من مراكز مديرية البحيرة ، لكنها فى عصر الحملة الفرنسية وقبلها كانت مديرية قائمة بذاتها ، وموقعها حربيا وتجاريا على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أنها مفتاح النيل (فرع رشيد) على البحر الأبيض المتوسط وطريق المواصلات النيلية إلى داخلية البلاد ، وزادت أهميتها بعد طمر ترعة الإسكندرية التى كانت تصل الإسكندرية بالنيل(١) فقد كانت هذه الترعة طريق الملاحة بين الإسكندرية والقاهرة وسائر بلاد الوجه البحرى ، فلما طمرت فى عصر المماليك بسبب إهمالها صارت المواصلات بين الإسكندرية والقاهرة بطريق رشيد(٢) ، فكانت المراكب تنقل البضائع من الإسكندرية إلى رشيد وتنزل النيل أو تفرغ شحنتها فى مراكب أخرى حتى تصل إلى القاهرة ، وصارت رشيد مركزاً تجاريا عظيما يلتقى بها جزء كبير من صادرات الدلتا وواردات أوروبا والأناضول ، وكان عدد سكانها يبلغ ١٣,٠٠٠ نسمة فى حين أن الإسكندرية لم يكن بها سوى ثمانية آلاف ، وكان لها فى نظر نابليون أهمية حربية كبرى ، لأنها صلة الاتصال للجيش الفرنسى ، وذلك أن المواصلات البرية كانت مهددة من جانب الأهالى فى داخل البلاد ، فاختار الفرنسيون طريق النيل للاتصال بين القاهرة والإسكندرية ، فكانت رشيد من هذه الوجهة موقعاً حربيا عظيم الأهمية ، لذلك بادر نابليون وهو بعد فى الإسكندرية فأوفد إليها الجنرال دوجا لاحتلالها

احتلال رشيد

سار الجنرال دوجا من الإسكندرية براً واحتل فى طريقه قرية أبو قير وقلعتها ثم احتل رشيد يوم ٦ يوليه سنة ١٧٩٨ ، ولحق به بحراً أسطول من السفن المدفعية الخفيفة بقيادة الكونتراميرال بيرى Perrée واجتاز بوغاز رشيد ليكون تحت تصرف الجيش الفرنسى

---

(١) انظر الكلام عنها فى الفصل الخامس

(٢) كتب المسيو دى مايه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر فى رسائله (وصف مصر) يقول إنه لما جاء مصر سنة ١٦٩٢ كانت ترعة الإسكندرية قد طمرتها الرمال منذ خمس وعشرين أو ثلاثين سنة فكانت جافة فى زمن الشتاء ولم تكن المراكب تسير بها قط حتى فى وقت الفيضان ، وإن هذه الحالة قد أكسبت رشيد مكانة كبيرة فى ذلك العصر

لم يلق الجنرال دوجا مقاومة فى رشيد ، ويقول السيو دفيلييه أحد مهندسى الحملة الفرنسية[١] تعليلا لذلك انه ذهب إلى رشـيد بعد احتلالها فعلم أن تسليمها راجع إلى المنشورات التى أذاعها نابليون فى البلاد يوم نزوله الإسكندرية وحملها إلى الأهالى الأسرى المسلمون الذين فك الفرنسيون إسارهم من مالطة وجاءوا بهم إلى مصر ، قال : وكان أهالى رشيد قبل اطلاعهم على هذه المنشورات عازمين على قتل الأوروبيين ، فلما اطلعوا عليها رجعوا عن عزمهم

كانت مهمة الجنرال دوجا بعد احتلال رشيد أن ينزل النيل بفرقته ليلتقى بباقى الفرق فى الرحمانية ، فلم يمكث برشيد أكثر من ٢٤ ساعة وترك بها حامية من مائتى جندى بقيادة الضابط سان فوست Saint Faust استقرت بالمدينة فى انتظار قدوم الجنرال منو Menou الذى عينه نابليون حاكما لرشيد ، وكان الحكام المماليك قد هربوا منها منذ علموا بنبأ احتلال الإسكندرية ، فخلت المدينة من حكومة تقوم على حراسة الأمن ، لـكن الأهالى أنفسهم مدفوعين بفطرتهم السليمة أقاموا من بينهم حكومة أهلية اختاروا لها ثلاثة من خيارهم ، وأحلوهم محل حكامهم الأقدمين ، فلما وصل الجنرال منو[٢] عمل بوصايا نابليون فى احترام العلماء والـكبراء ، ولم تـكن القوة التى تحت قيادته تزيد عن أربعمائة رجل ، ومع أن أهل رشـيد كانوا أسلس قياداً من أهل الإسكندرية فقد طلب الجنرال منو أن يمده كليبر بقوة أخرى من الجنود ، وأوضح فى طلبه[٣] أن العرب يزعجونه على الدوام ، وأن الأهالى لم يخلدوا إلى الطاعة ولذلك فهو يشكو من قلة عدد الحامية ، وقد ألجأته الحاجة لتموين الجيش إلى فرض الضرائب على الأهلين فأثار كامن سخطهم ، وبالرغم من مناعة مركز الحامية الفرنسية فى المدينة فإن سلطة الفرنسيين لم تتجاوز ضواحيها ، يتبين ذلك من الحادثة الآتية :

أوفد الجنرال كليبر ياوره الـكولونل داماس Damas برسالة إلى نابليون ، فسافر الرسول من الإسكندرية إلى رشيد ، وهناك التقى بالجنرال منو فأعد له سفينة انحدر بها فى النيل يوم ١٦ يوليه سنة ١٧٩٨ ليصل إلى القاهرة ، لـكنه لم يكد يبتعد عن المدينة حتى هاجمه أهالى مطوبس وادفينا ، فاضطر أن يعود أدراجه إلى رشيد[٤] ، ثم أعاد الـكرة ثانية ولـكن لم يكد يتجاوزها

(١) فى كتابه « يوميات وذكريات عن حملة مصر »
(٢) يوم ١٢ يوليه سنة ١٧٩٨
(٣) بتاريخ ٢٠ يوليه سنة ١٧٩٨
(٤) خطاب منو إلى كليبر فى ٢٣ يوليه سنة ١٧٩٨

باثنى عشر فرسخاً حتى أطلق الفلاحون على سفينته الرصاص من جانبي النيل فاضطروه إلى الرجوع مرة أخرى(١)

كانت مهمة الجنرال (منو) فى رشيد دقيقة ، فقد كان مطلوباً منه أن يحمى البوغاز من غارات الأسطول الإنجليزى ويحمى مواصلات الجيش بالإسكندرية عن طريق فرع رشيد ويتولى الإدارة المدنية لمنطقة رشيد ، ويخضع حركات التمرد والهياج التى كانت تظهر فيها ؛ وقد زاد مركز (منو) حرجاً بعد واقعة (أبو قير) لأن رشيد من أول المدن التى علمت بكارثة الأسطول الفرنسى فى خليج أبو قير وأولها تأثراً من وقوعها ، فأخذت روح المقاومة تقوى فى نفوس الأهالى ، كتب الجنرال (منو) إلى نابليون فى هذا الصدد بتاريخ ٤ أغسطس يقول :

« لا أكلمكم عن نكبة أسطولنا ، وحسبى أن أقول إنها فظيعة ، وليس لدى للآن تفصيلات عنها لصعوبة المواصلات بين رشيد وأبو قير بطريق البر وصعوبة الخروج من البوغاز إلى البحر ، ولا أدرى مبلغ تأثيرها فى نفوس أهالى البلاد ، على أنى من جهتى سأبذل كل ما فى وسعى لتخفيف أثرها ، وسأستعمل مع الأهالى سياسة اللين والمجاملة والتودد مع الحكمة والحزم ، وبالجملة فإن أهالى هذه الجهة متصفون بالوداعة ولكنهم على جانب من الدهاء والمكر »

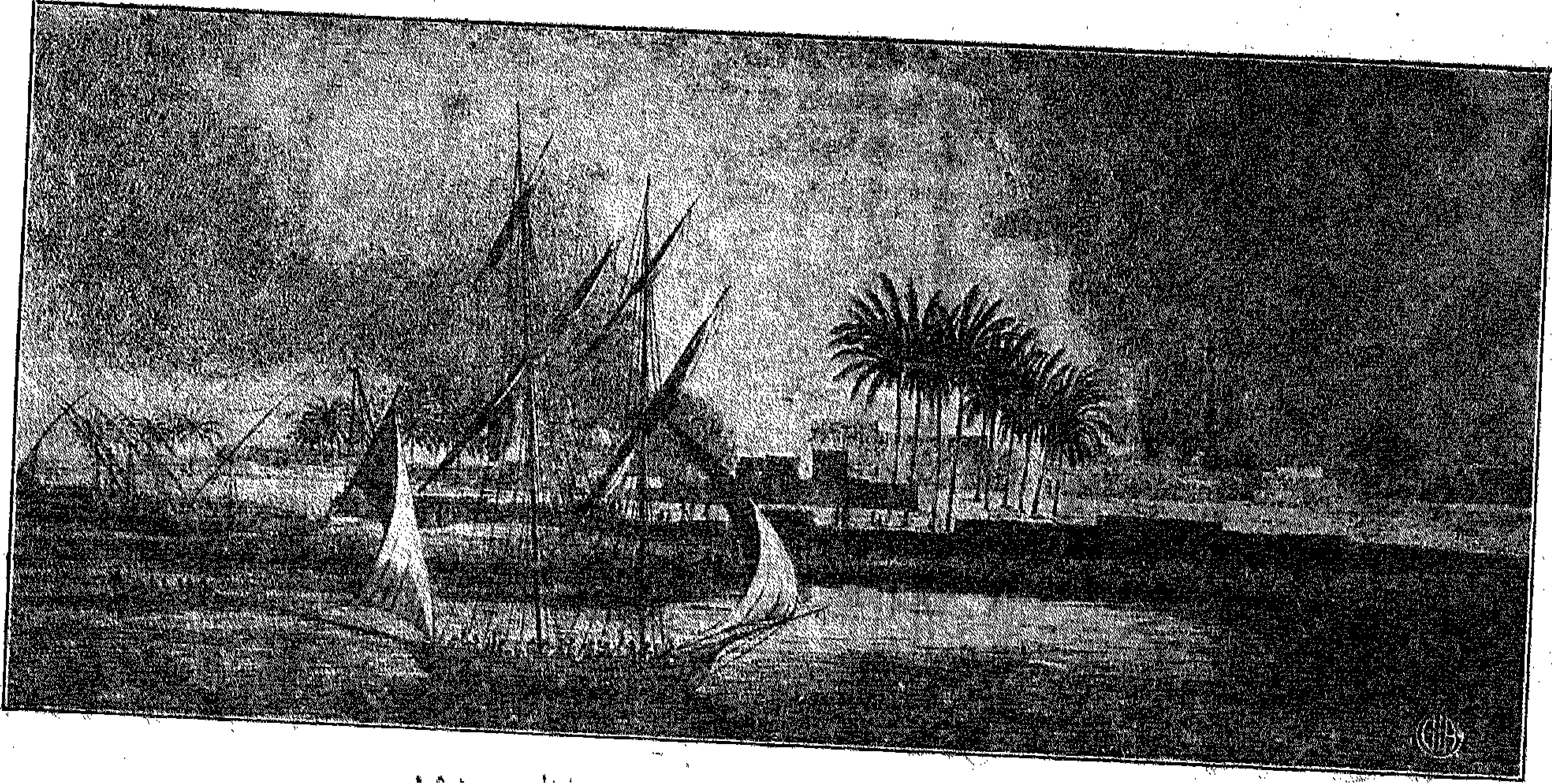
وكتب فى اليوم نفسه رسالة أخرى إلى الجنرال برتييه يشكو فيها من مقامه فى رشيد ويقول : « إن الذى يهمنى بالذات أن لا أبقى هنا طويلا ، فإنك تشعر أنى أوثر مائة مرة أن أكون على رأس فرقتى على أن أدفن فى هذه المدينة ، إنى حضرت إلى مصر لأكسب الفخر أو أموت فيها ، لا لأجمع الضرائب »

حادثة السالمية

على أن الجنرال (منو) لم يكن معروفاً بالحكمة ولا بحسن السياسة ، فإنه فى الوقت الذى كان يعد بمعاملة الأهالى باللين والتودد قد استعمل الغلظة والفظاظة مع أهالى « السالمية » الواقعة على الشاطئ الأيمن من النيل (بمركز فوه الآن) عقاباً لهم على مهاجمتهم شرذمة من الجنود أرسلها منو إلى نابليون تحمل إليه البريد ، فقتلوا ثمانية من هؤلاء الجنود ، مضى على هذه الحادثة شهر وانتقل (منو) إلى القرية التى اتهمت بأن المهاجمين منها ، فأمر بقتل كل من يحمل السلاح فيها ومصادرة مواشيها ثم أضرم النار فى القرية

كتب منو إلى كليبر بتاريخ ١٣ أغسطس يقول : « لقد قمت هذا اليوم بجولة لمعاقبة قرية قتلت بعض الفرنسيين فأحرقت القرية وقتلت تسعة من الأهالى ، وسيعتبرون بهذه

(١) يوميات أركان حرب الجنرال كليبر بتاريخ ٢٥ يوليه سنة ١٧٩٨



إضرام الفرنسيين النار فى السالمية سنة ١٧٩٨ انظر ص ١٩١

(نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون)

الدرس كما يعتبر به أهالى وادى النيل » ، وقال فى آخر رسالته هذه : « إن مركزه فى المدينة دقيق ، لأن القوة التى لديه قرابة سمائة جندى ، وليسوا جميعاً فى الخدمة ، وهذا العدد لا يكفى للدفاع عن المدينة ، والعرب يناوشونها كل يوم »

وقد أصدر منو لمناسبة هذا التنكيل منشوراً عن هذه الحادثة موجهاً إلى « الأهالى الساكنين على شاطئ النيل من رشيد وفوه والقرى الواقعة ما بين رشيد وأبوقير ، ومن أبوقير إلى الرحمانية» ، وهذا المنشور يصف ما أوقعه من العقاب بأهالى السالمية وشيخهم الشيخ سلامة العقدة ، ويتهدد البلاد بمثل هذا العقاب إن وقع اعتداء على الجنود الفرنسيين

وقد زاد فى استياء الأهالى كثرة الضرائب التى كان الفرنسيون يبتزونها بالقهر والقوة

وكان الجنرال (منو) يخشى عقب كارثة (أبو قير) البحرية أن يفكر الإنجليز فى إنزال قوة إلى البر ، ولكن تحقق له بعد ذلك أن هذا المشروع ليس فى برنامجهم ، فاطمأن نوعاً على مركزه فى رشيد ، وأخذ يجتهد فى توطيد مكانته بين الأهالى بالتودد إليهم ، ولكنه لم يوفق إلى كسب قلوب الناس ، فكانت الحوادث تصدمه كلما ظن أنه وطد مركزه ، وكان من هذه الوجهة قليل الاحتياط والحذر ، منخدعاً فى الظواهر ؛ ومن هذه الحوادث حادثة شباس عمير

حادثة شباس عمير

ومحصل هذه الحادثة أن الجنرال منو أراد أن يجوب شمال الدلتا ويرود بعض جهاتها ، فاصطحب معه الجنرال مارمون وبعض أعضاء لجنة العلوم والفنون منهم دينون ودلوميو(١) وبعض الضباط فى كتيبة من الجنود تبلغ ٢٠٠ جندى

غادرت الكتيبة رشيد يوم ١٢ سبتمبر فوصلت إلى برنبال فى اليوم نفسه ، ثم فى يوم ١٣ إلى مطوبس ، ثم فى يوم ١٤ إلى فوه ، ثم إلى دسوق يوم ١٥

ووصل منو يوم ١٦ إلى حدود مديرية رشيد وعاد إلى دسوق ، ثم عزم على أن يكتشف شمال الدلتا ويصل إلى البرلس ، فوصل إلى سنهور المدينة ، وكانت الرحلة حتى هذه القرية هادئة لم يتخللها حادث أو مصادمة ، بيد أنه لم يكد يصل إلى شباس عمير حتى اصطدمت الكتيبة بمقاومة عنيفة من الأهالى

كان الجنرال منو يتقدم الكتيبة ومعه الجنرال مارمون والمسيو فيفان دينون والمسيو دلوميو والرسام جولى وبعض الحاشية وترجمان ، فلم تكد تقترب هذه الطليعة من شباس عمير

(١) تكلمنا عنهما ص ١٠٠ و ١٠٦

حتى أُطلق عليهم الرصاص ، فاضطروا إلى التراجع ليتصلوا بالكتيبة ، ولكن أحد رفقاء الجنرال منو وهو الفنان جولى لم يستطع اللحاق بهم وعجز عن السير فتركه إخوانه وقتله الأهالى

قصدت الكتيبة إلى كفر شبّاس عمير ، وكانت محصنة بسور عال يحيط بها ، وبهذا السور أبراج حصينة كان يحتلها الأهالى ، ويطلقون منها النار ، فاقتحمت الكتيبة الفرنسية هذا السور ، فلم يجد الأهالى بدأ من إخلاء الأبراج ما عدا برجاً واحداً امتنع المدافعون عنه وأخذوا يطلقون النار على الجنود الفرنسيين ، وأصابت رصاصة جواد الجنرال منو فخر قتيلا ، فأدرك خطورة الموقف ، وكان رجال البرج مستمرين على إطلاق الرصاص ، فرأى من المجازفة الاقتراب منه ، فأمر بإضرام النار فى القرية ، وكان الليل قد أقبل ، وجاء كثير من سكان القرى المجاورة لإنجاد إخوانهم ، فأمر (منو) جنوده بإطلاق الرصاص فى الظلام لمقاومة المهاجمين ، واندلعت النيران فى القرية كلها ، فاضطر الأهالى المدافعون عن البرج إلى إخلائه ، وكانت الجموع قد تكاثرت حول القرية ، حتى بلغ عددهم من ألفين إلى ثلاثة آلاف من الفلاحين ، فاضطر الجنرال منو إلى الانسحاب وعاد بكتيبته إلى سنهور المدينة ثم إلى دسوق بعد أن فقد بعض القتلى وتسعة عشر جريحاً ، ثم قفل راجعاً إلى رشيد بعد أن عدل عن متابعة اكتشافه ، وكان غرضه الوصول إلى البرلس ، فعاقته هذه الحادثة وكتب إلى نابليون ينبئه بخبرها ويذكر له ضمن رسالته أن التوغل فى هذه الجهات أمر محفوف بالمخاطر ، لأن معظم القرى فى تلك البلاد محصنة ، ولأن إخضاعها يستلزم قوة من سبعمائة إلى ثمانمائة جندى مسلحين بالمدافع

وكتب فى هذا الصدد إلى الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية يعترف بأنه كان مخدوعاً فى رحلته هذه ، وكان متأثراً من المقابلة الحسنة التى قوبل بها فى بعض القرى ، ولكن هذه الحادثة جعلته أكثر احتراساً ، فلا يأخذ الأمور بظواهرها إن كان يظن إلا ظناً

الفصل العاشر

عود إلى البحيرة ورشيد

الاضطرابات فى البحيرة

عرف القارئ ما حل بقوة الجنرال دعوى Dumuy من الهزيمة [1] ، وقد أوردنا ذلك فى الفصل الخامس لارتباطه بحوادث الإسكندرية

رأى الجنرال كليبر وقتئذ أن مثل هذه الكتيبة لا تستطيع أن تخضع إقليما كبيراً كالبحيرة ولا سيما القسم الشمالى منه المتصل بالإسكندرية ، وأن الاضطرابات فيه لا تؤدى إلى قطع مواصلات الجيش فحسب ، بل تفضى إلى تهديد الإسكندرية براً وحرمانها الماء الذى يرد إليها من ترعة الإسكندرية (ترعة المحمودية الآن) ، فكتب إلى نابليون فى ٣١ يوليه سنة ١٧٩٨ يخبره أنه من الضرورى وضع حاميات قوية من المشاة والفرسان فى دمنهور والكريون مسلحة بالمدافع الخفيفة لترود جوانب الترعة ؛ قال كليبر فى رسالته : « من العبث أن نعتمد على كتيبة الجنرال دعوى ، ومن الواجب تخصيص فرقة من الجنود لتوطيد النظام فى المثلث الكائن بين البحر والنيل وترعة الإسكندرية ، وحماية المواصلات البرية فى إقليم البحيرة »

وكان الأهالى لا ينفكون يقطعون ترعة الإسكندرية ليمنعوا وصول المياه إلى الثغر ، فقامت كتيبة من ستمائة من الجنود وحاصرت بلدة بركة غطاس وأحرقتها ونهبتها

وقد سبق القول أن نابليون كان شديد الاهتمام بهذه الترعة لأنها جزء من طريق المواصلات المأمون الذى اختاره بين الإسكندرية والقاهرة ، وزاد اهتمامه بها بعد واقعة (أبو قير) ، ذلك أن الفرنسيين لم يكن فى مقدورهم بعد أن ضاعت عمارتهم البحرية أن يسلكوا طريق البحر من الإسكندرية إلى رشيد فالنيل ، كما أن المواصلات البرية كانت شاقة ومعرضة لهجمات الأهالى ، فلم يكن أمام الفرنسيين إلا جعل ترعة الإسكندرية صالحة للمواصلات النيلية ، وقد عهد نابليون إلى بعض مهندسى الحملة الفرنسية فى إنفاذ هذا المشروع [2]

---

(١) راجع الفصل الخامس ص ١٤٤

(٢) جاء فى مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران Bertrand فى سانت هيلين أن ترعة الإسكندرية هى أهم ترعة فى مصر من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وقد وضع المسيو لوبير Le Père كبير مهندسى الرى فى عهد الحملة الفرنسية مشروعاً لجعل هذه الترعة صالحة للملاحة ، ولكن المشروع =

عزم نابليون على مقاومة الاضطرابات فى مديرية البحيرة وبخاصة بعد هزيمة الجنرال ديموى ، فعين الأدجودان جنرال بيرب Birbes قومنداناً لها ، وأصدر إليه تعليماته وأهمها أن يأخذ أهل دمنهور أخذاً شديداً لمسلكهم إزاء كتيبة الجنرال ديموى ، وأمره بالسير من القاهرة إلى الرحمانية ومن هذه إلى دمنهور إنفاذاً لمهمته بها وهى : « تجريد الأهالى من السلاح ، وإعدام خمسة من أعيان المدينة ، فيهم واحد من العلماء ممن اشتركوا فى الواقعة والأربعة الآخرون من المحرضين ، واعتقال خمسة وعشرين رجلا يأخذهم رهائن فيرسلهم إلى القاهرة بطريق النيل » وأن يعود بعد ذلك إلى الرحمانية ، إذ عزم نابليون على جعلها عاصمة مديرية البحيرة [١] .

مهمة الجنرال مارمون

على أن قوات الجنرال بيرب والجنرال ديموى لم تكن كافية لقمع الهياج فى البحيرة ، ولا سيما بعد واقعة (أبو قير) التى أضعفت هيبة النفوذ الفرنسى فى تلك الجهات ، فعهد نابليون إلى الجنرال مارمون Marmont إخضاع القسم الشمالى منها ، وتأمين مواصلات الجيش بطريق ترعة الإسكندرية والنيل ، وحماية شواطئ البحر من هجمات السفن البريطانية ، وتحصين المواقع التى يحتمل أن تنزل بها الجنود الإنجليزية من جهة العجمي (غربى الإسكندرية) إلى رشيد ، وتحصين بوغاز رشيد وبوغاز البرلس [٢] .

تلقى مارمون تعليمات نابليون بعد عودته من حادثة شباس عمير [٣] ، وكانت تعليماته تنطوى على القسوة والفظاعة ، فقد كتب له يقول :

« إنكم ستجدون تحت قيادتكم قوة من ١٥٠٠ جندى ، فبهذه القوة ونشاطكم

= لم ينفذ ، وظلت الإسكندرية فى عزلة عن المواصلات النيلية إلى أن أمر محمد على باشا بإنشاء ترعة المحمودية مكانها .

(١) كانت الرحمانية موقعاً حربياً على جانب كبير من الأهمية لوجودها على فتحة ترعة الإسكندرية فأقام الفرنسيون فيها قلعة ومستودعاً لمهمات الجيش ، على أن نابليون بعد أن جعلها وقتاً ما حاضرة البحيرة عاد وجعل دمنهور حاضرتها .

(٢) كانت بحيرة البرلس أوسع مدى مما هى عليه الآن ، فكانت تمتد غرباً إلى القرب من برنبال الواقعة على البر الشرقى للنيل ، فخشى نابليون أن تدخل السفن الإنجليزية الخفيفة من بوغاز البرلس وتصل إلى مقربة من برنبال ورشيد ، فأمر بإقامة قلعة على مدخل البرلس مكان القلعة القديمة التى كانت آثارها باقية إلى ذلك العصر ، وقد تم إنشاء القلعة الجديدة فى عهد منو ، وكذلك أمر نابليون بإقامة برج محصن فى برنبال .

(٣) راجع الفصل التاسع ص ١٩٣

وكفايتكم تستطيعون أن تكسبوا فخراً جديداً وتقديراً عاماً لخدماتكم ، فكونوا ليل نهار على تمام الأهبة ، وأغلظوا العقاب للقرى بصرامة وقسوة »

صدع مارمون بالأمر فوصل إلى الرحمانية يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وسار فى تاليه قاصداً إلى دمنهور ، ورواد شواطىء ترعة الإسكندرية حتى بلغ الثغر ، وأصلح ما خربه الأهالى ، وأقام المخافر العسكرية على الترعة وترك ألفى جندى لحراستها ، وجعل الرحمانية مركزاً رئيسيا للقوات المخصصة لهذه الحراسة ، ومركزاً آخر بالقرب من العكريشة ، عدا المخافر التى أنشأها على جانبى الترعة والسرايا (الدوريات) المسلحة التى أقامها لحراستها

تمكن الجنرال مارمون من إصلاح الترعة وتنظيم المواصلات فيها مدة الفيضان ، فأزجى فيها كثيراً من مهمات الجيش من الإسكندرية إلى القاهرة ، وانتعشت الإسكندرية لوصول الغلال بطريق الترعة ، وأخذت المواصلات تزداد نشاطاً ، فكان بالترعة نحو مائتى سفينة عاملة فى النقل ليلا ونهاراً ، على أن انخفاض النيل حال دون سير المراكب فيها ، وعطل الانتفاع بها ، ولم تستمر الملاحة فيها أكثر من بضعة أسابيع

وكانت السفن الإنجليزية قد استأنفت فى ذلك الحين مناوراتها حول الإسكندرية ، وصحبتها بعض السفن التركية ، فاضطر الجنرال مارمون أن يعود أدراجه إلى الإسكندرية ليتولى حمايتها من الهجمات الطارئة

تجدد الاضطرابات حول رشيد وفى دمنهور

كانت السفن الإنجليزية والتركية توفد بعض الرسل إلى الشواطىء لتحرض الأهالى وتشجعهم على الثورة ، وقد قويت روح الهياج فى ضواحى رشيد ، وكان ذلك فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، فتكرر الاعتداء على قوافل الفرنسيين بجهات رشيد وأبو قير وشمال البحيرة

احتشد حول رشيد جمع من الأهالى ليلة ٢٠ نوفمبر ففاجأتهم القوات الفرنسية وأسرت منهم بعض رجالهم ، واتهم الفرنسيون مشايخ بلاد إدكو وادفينا بالكيد لهم ، وأن لهم يدا فى هذه الأعمال العدائية ، فجىء بهم إلى رشيد ، وقتلوا رمياً بالرصاص بأمر الجنرال منو .

وازداد الهياج كذلك فى جهة دمنهور التى لم تكن خضعت من قبل للسلطة الفرنسية ، وكانت تابعة عسكريا للرحمانية التى رابط بها الأدجودان جنرال لتورك Leturc فأراد تجريد حملة عليها ، لكن قوته لم تكن كافية لهذه التجريدة فضلا عن أنها كانت منصرفة إلى صد مناوشات جموع الأهالى فى جهة الرحمانية ، وكان الجنرال مورا Murat ذلك الوقت فى رشيد فأوفده منو إلى دمنهور لقمع الحركات العدائية التى تجددت بها .

سار مورا من رشيد إلى الرحمانية ، ومن هناك قصد إلى دمنهور يعاونه الأدجودان جنرال لتورك ، فاحتل دمنهور فى أواخر نوفمبر سنة ١٧٩٨ وأعدم بعض زعماء الحركة رميا بالرصاص وفرض على المدينة إتاوة كبيرة من الغلال والمواشى ، ولكن جموع العرب والأهالى الذين قاموا بالحركات الثورية بها تمكنوا من الانسحاب وأوغلوا فى الصحراء ، فعزم مورا على تعقبهم وأقام عدة أيام فى دمنهور لإخضاع القرى المجاورة وفرض الغرامات عليها وناط بالجنرال لتورك هذه المهمة[1] ثم غادر دمنهور فى أوائل ديسمبر قاصداً قرية (دير أمس) ، إذ جاءه أن الثوار وعلى رأسهم سليم كاشف وإبراهيم الشوربجى مرابطون بها ، وصل الجنرال مورا ليلا وعلى الرغم من أنه ضرب الحصار عليها فإن الثوار قد تسللوا منها وسط طلقات الرصاص وأوغلوا ثانية فى الصحراء ، وكانت الجنود الفرنسية قد أنهكها التعب فاستراحت فى دير أمس ثم استأنفت السير تقتفى أثر الثوار لكنها لم تستطع اللحاق بهم ، واضطر الجنرال مورا أن يعود إلى دمنهور ، ثم سار منها إلى الرحمانية وتلقى بها أوامر نابليون ، فقام من الرحمانية يوم ٥ ديسمبر قاصداً إلى شابور فوصلها ليلا ، وهناك علم أن قافلة من الأهالى والعرب ضاربة فى الصحراء بالقرب من الصواف ، فقام فى صباح ٦ ديسمبر يتعقب هذه القوة ، ومر بعدة قرى فألفاها خالية قد هجرها أهلها فراراً بأنفسهم من نقمة الجنود الفرنسية ، ووصل إلى الصواف ومن هناك سار على أثر القافلة إلى أن اقترب من مؤخرتها وكانت مؤلفة من ستمائة فارس ، فأطلق عليهم الفرنسيون النار فانهزموا تاركين معسكرهم ومافيه من المتاع والعتاد ، فجد الجنرال مورا فى تعقبهم ولكنه عجز عن اللحاق بهم ، فاكتفى بإلقاء النار فى معسكرهم ، وأحرق كل ما كان به من المتاع والغلال

واستأنف مورا سيره قاصداً الطرانه بالبر الغربى لفرع رشيد ، ثم رجع منها أدراجه إلى القاهرة

---

(١) كتب الجنرال مورا إلى نابليون بتاريخ ٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ يصف هذه المهمة بقوله : « إن الجنرال لتورك جمع الخيول والأموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وأنه أرسل إلى الإسكندرية ستين جملا محملة غلالا مما صادره من البلاد »

الفصل الحادى عشر

فى القليوبية والشرقية

علم القارئ أن إبراهيم بك فر بمماليكه عقب انتصار الفرنسيين فى معركة الأهرام إلى جهة بلبيس وحمل معه ما استطاع من الأموال والمتاع ، ولم تحارب القوة التى اصطحبها معه فى معركة الأهرام فبقيت سليمة وإن كانت قليلة العدد ، لكن نابليون توجس من وجود هذه القوة فى شرق الدلتا ، وعلى مسافة أربعين كيلو متراً تقريبا من القاهرة ، خطراً يتهدد مركز الفرنسيين ، فاعتزم بعد أن وطد مركزه فى القاهرة أن يتعقب إبراهيم بك ليخلص له الوجه البحرى ، وكذلك أجمع أن يطارد مراد بك الذى فر بالبقية الباقية من فلول جيشه إلى الوجه القبلى ، وعهد بذلك إلى الجنرال ديزيه Desaix ، على أن نابليون لم يكن يرى بادىء الأمر فى قوة مراد بك خطراً كبيراً ، لأن الهزيمة التى حاقت به فى معركة الأهرام قد قلمت أظفاره وهوّنت من أمره ، لذلك اعتزم أن يوجه معظم قوته لسحق إبراهيم بك فى شرق الدلتا إذ كان لم يزل مرابطاً بجيشه فى بلبيس ، أضف إلى هذا اقتراب وصول قافلة الحج من الحجاز ؛ فرأى نابليون من مصلحته السياسية أن يتولى تأمين مواصلات الحج ليُحمد أثر ذلك فى نفوس المصريين والعالم الإسلامى ويكتسب عطف أمراء الإسلام ، ثم ليقنع شريف مكة وعرب الحجاز واليمن أن وجود الفرنسيين فى مصر لا يقطع سبل الحج الذى هو مصدر أرزاقهم .

وإليك ما ذكره الجبرتى عن خطة نابليون إزاء قافلة الحج : « فى عشرين صفر سنة ١٢١٣ (٣ أغسطس سنة ١٧٩٨) حضرت مكاتيب الحجاج من العقبة فذهب أرباب (أعضاء) الديوان إلى باش العسكر (القائد العام) وأعلموه بذلك وطلبوا منه أماناً لأمير الحج (صالح بك) فامتنع ، وقال لا أعطيه ذلك إلا بشرط أن يأتى فى قلة ولا يدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر ، فقالوا له ومن يوصل الحجاج ، فقال لهم أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكر يوصلونهم إلى مصر ، فكتبوا لأمير الحج مكاتبة بالملاطفة ، وأنه يحضر بالحجاج إلى الدار الحمراء وبعد ذلك يحصل الخير ، فلم تصل إليهم الجوابات حتى كاتبهم إبراهيم بك يطلبهم للحضور إلى جهة بلبيس فتوجهوا إلى بلبيس وأقاموا هناك أياما »

توزيع القوات الفرنسية فى الوجه البحرى

صحت عزيمة نابليون إذن على تجريد جيش للقضاء على قوة إبراهيم بك فى شرق الدلتا ، وقبل أن يزحف بجيشه وزّع القوات العسكرية على مديريات الوجه البحرى لإخضاعها وتوطيد سلطة الفرنسيين فيها ، فعين الجنرال فيال Vial قومندانا لمديريتى المنصورة ودمياط ، والجنرال زايونشك Zayonchek قومندانا للمنوفية ، والجنرال فوجير Fugières قومندانا للغربية على أن يكون مقره المحلة الكبرى عاصمة المديرية فى ذلك العصر ، والجنرال مورا Murat للقليوبية ، والجنرال رامبون Rampon لاطفيح ، وأبقى الجنرال ديزيه Desaix جنوبى الجيزة يرصد حركات مراد بك ، وأمر الجنرال لكلرك Leclerck بالسير إلى بلبيس

المعارك بين الخانكه وأبى زعبل

بدأت طلائع الجيش الفرنسى تزحف يوم ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ من القاهرة بقيادة الجنرال لكلرك ، فمرت بالقبة ومنها سارت إلى المطرية ثم إلى المرج دون أن تجد مقاومة ما ، فان الأهالى كانوا ينزحون عن بلادهم قبل قدوم الفرنسيين ، ومن المرج سارت القوة إلى الخانقاه (الخانكه) وبها استقرت واتخذها الفرنسيون قاعدة عسكرية للزحف ومركزاً لتموين الجيش وأنشأوا بها الأفران ومخازن البقسماط والزاد والعلف

قصدت الكتيبة يوم ٤ من أغسطس قرية أبى زعبل ولكن صدهم عنها جمع من العرب والفلاحين مسلحين بالبنادق والعصى[1] (الشماريخ) ، فعادت الكتيبة أدراجها إلى الخانكة وأخذ الأهالى من العرب والفلاحين يتعقبونها إلى مستقرها

وفى صباح ٥ من أغسطس هاجم الأهالى المخافر الأمامية لمعسكر الخانكه بقوة أكبر من قوتهم الأولى ، إذ انضم إليهم مائتان من المماليك ، وبدأ الهجوم ، فبرزت من غابة أبى زعبل قوة من فرسان العرب يتبعهم عدد حاشد من الفلاحين ، ولم يكن هؤلاء يحملون فى الغالب إلا أسلحة ضعيفة ، فلم يتجاوز عدد حملة البنادق منهم السدس ، فأحاطوا بالفرنسيين من كل جانب تخفيهم الزروع والغيطان ، وانضم إليهم سكان القرى المجاورة[2] فأطلقوا النار على الفرنسيين من كل صوب ، ولكن نيران المدفعية والبنادق أوقفتهم بعيدا عن المعسكر فأعادوا الهجوم كرة بعد كرة واضطروا جنود المقدمة إلى التراجع

---

(١) تقرير الكابتن مالوس إلى الجنرال كافريللى

(٢) تقرير الكابتن مالوس

انسحاب الفرنسيين من الخانكه ثم احتلالها

وأدرك الجنرال لكلرك الخطر من الإصرار على الدفاع عن قرية الخانكه فأجمع أن ينسحب منها ويرتد غربا ، وفى أثناء المعركة ثارت قرية الخانكه نفسها ، فوثب أهلها برجال الحرس الفرنسيين الموجودين بها فجردوهم من السلاح وقتلوهم

استولى الفزع على الجنود الفرنسية ولم يطيقوا البقاء معرضين للهجمات ، فجمع القائد ضباطه وتشاوروا فى الأمر فاستقروا على إخلاء الخانكه والتراجع عن القرية ، فتقهقروا بعد غروب الشمس وكان عددهم نحو ستمائة مقاتل وارتدوا قاصدين المطرية ، وفى طريقهم إليها قابلهم الكولونل سلكوسكى أحد ياوران نابليون فأنبأهم بقرب وصول فرقة الجنرال رينييه Reynier لنجدتهم ، لكنهم استمروا فى إدبارهم حتى وصلوا إلى المرج وقضوا بها آخرة الليل ، ولما لاح الفجر وصلت قوة الجنرال رينييه فرجعوا يريدون استرداد الخانكه ووصلوا إليها ظهر يوم ٦ أغسطس وقد زاد عددهم ، فوجدوها خالية من أهلها فاحتلوها[1]

كانت الخانكه من جهة موقعها ذات شأن عظيم لأنها تكاد تكون فى منتصف الطريق بين القاهرة وبلبيس ، لذلك وجه إليها نابليون عناية كبرى فى اتخاذها نقطة ارتكاز للزحف ، وكان فى أوامره العسكرية يهتم بجعلها على تمام الأهبة لإقامة الجنود بها

وكان سير الجيش محفوفا بصعوبات كبيرة لاصطدامه مع الأهالى أين توجه ؛ كتب الجنرال لوجيه Laugier إلى الجنرال دوجا فى ٦ أغسطس يقول :

« ثارت القرى التى أرسلنا إليها بعض فرسان الدراجون لأخذ الخيول منها ، وعاد الفرسان يخبروننا بهذه الثورات ، وكل الدلائل تدل على أنه لا بد من قوة كبيرة لإخضاع هذه الجهات »

احتلال بلبيس

ثم وصلت بقية الجيش الفرنسى بعد استرداد الخانكه ، فجاء نابليون ومعه فرقتا الجنرال دوجا والجنرال لان ، وانضمت إليهما فرقة الجنرال رينييه

فسار نابليون على رأس الفرق الثلاث قاصداً بلبيس عاصمة الشرقية فى ذلك الحين ووصل

---

(١) أخذنا هذه البيانات عن تقرير الكابتن مالوس إلى الجنرال كافريللى ، وإليك ما ذكره الجبرتى فى هذا الصدد : « فى ثالث وعشرين صفر (سنة ١٢١٣) خرجت طائفة من العسكر الفرنساوى إلى جهة العادلية وصار فى كل يوم تذهب طائفة بعد أخرى ويذهبون إلى جهة الشرق ، فلما كان ليلة الأربعاء خرج كبيرهم بونابارت وكانت أوائلهم وصلت الخانكه وأبى زعبل وطلبوا كلفة من أبى زعبل فامتنعوا » فقاتلوهم فضربوهم وكسروهم ونهبوا البلدة وأحرقوها وارتحلوا إلى بلبيس »

إليها يوم ٩ أغسطس بعد أن أخلاها إبراهيم بك ، فاعتزم نابليون أن يتعقبه قبل أن يغادر حدود مصر إلى الشام ، ولقى الفرنسيون فى بلبيس من بقى من الحجاج بعد أن ارتحل بعضهم إلى بلادهم قبل وصول الجيش الفرنسى ، وكان أمير الحج صالح بك قد لحق بإبراهيم بك وصحبته جماعة من التجار وغيرهم ، لأن إبراهيم بك كتب إلى أمير الحج بعد معركة الأهرام ينصح له أن لا يذهب إلى القاهرة ورغب إليه فى اللحاق به فى الصالحية ، وبقى فى بلبيس من لم يقدر من الحجاج أن يغادرها ، فلم يتعرض لهم الفرنسيون بسوء وأرسلوهم إلى القاهرة تحرسهم كوكبة من جنودهم(١) ، وفى ذلك يقول الجبرتى « وفى ١٨ صفر ملك الفرنسيس بلبيس من غير قتال ، ومن بقى فيها من الحجاج لم يشوشوا عليه فأرسلوهم إلى مصر ومعهم طائفة من العسكر »

معركة الصالحية (١١ أغسطس سنة ١٧٩٨)

لم يضيع نابليون وقتا فى بلبيس بل أرسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس فى أعقاب إبراهيم بك ، ووصل الجيش إلى (القرين) فى ١٠ أغسطس دون أن يلحق بقوة إبراهيم بك الذى غادرها قبيل وصول الجيش الفرنسى قاصداً إلى الصالحية ، فتعقبه نابليون بفرسانه دون أن ينتظر فرقة الجنرال لان Lannes ، وانضم إليه الجنرال مورا Murat الذى جاء من قليوب بقوة الفرسان ، فاشتبك نابليون مع قوة المماليك فى معركة عرفت بمعركة الصالحية (١١ أغسطس سنة ١٧٩٨) لأنها وقعت على مقربة منها ، وقد حمى وطيس القتال فى هذه المعركة وكادت تدور الدائرة على قوة الفرنسيين لأنها كانت مؤلفة من عدد قليل من فرسانهم لا يزيد عن أربعمائة وكان الفرسان المماليك أكثر منهم عدداً وأشد بأساً ، فكانت هذه أول معركة نشبت بين فرسان الجيشين والتقى فيها الفريقان وجها لوجه واقتتلوا بالسلاح الأبيض ، فتحرج مركز الفرنسيين لأن فرسان المماليك اشتهروا بالمهارة والبسالة فى قتالهم ولا غرو فقد كانوا أحلاس الخيل وأبناء الطعن والضرب ، ولم ينقذ نابليون إلا وصول المدد من الجنرال لكلرك ، فاضطر المماليك إلى الانسحاب ، وجرح فى هذه المعركة من خاصة رجال نابليون الكولونل سلكوسكى(٢) ياوره ، والكولونل ديترس Detrès وغيرهما من الضباط جروحا بالغة ، وفى ذلك يقول الجبرتى :

« فركب صارى عسكر وأخذ معه الخيالة وقصد الإغارة على الحملة ، وعلم إبراهيم بك بذلك

---

(١) عين نابليون بعد عودته من القاهرة مصطفى بك كتخدا (وكيل) الوالى أميراً للحج بتاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ (٢١ ربيع الأول سنة ١٢١٣) كما أوضحنا ذلك فى الفصل الثانى عشر

(٢) هو الذى قتل فى ثورة القاهرة . راجع الفصل الثالث عشر

أيضاً ، فركب هو وصالح بك (أمير الحج) وعدة من الأمراء المماليك وتحاربوا معهم ساعة أشرف فيها الفرنسيس على الهزيمة لكونهم على الخيول ، وإذا بالخبر وصل إلى إبراهيم بك بأن العرب مالوا على الحملة يقصدون نهبها ، فعند ذلك فرّ بمن معه على أثره ، وتركوا قتال الفرنسيس ولحقوا بالعرب فأجلوهم عن متاعهم وقتلوا منهم عدة ، فارتحلوا إلى قطيا ورجع صارى عسكر (نابليون) إلى مصر وترك عدة من عساكره متفرقين فى البلاد » ، فالجبرتى ينسب انسحاب المماليك فى معركة الصالحية إلى نهب العربان للحملة واضطرار أولئك إلى إجلائهم عنها واستعادتها منهم ، وقد انتهت هذه المعركة بانسحاب إبراهيم بك ومن معه إلى حدود مصر الشرقية

عودة نابليون إلى القاهرة

غادر نابليون الصالحية يوم ١٣ أغسطس عائداً إلى القاهرة ، وفى طريقه إليها جاءه نبأ كارثة الأسطول الفرنسى فى واقعة أبوقير ومقتل الأميرال برويس[١] ، حمل إليه هذا النبأ الضابط لوبيه Loyer ياور الجنرال كليبر فى رسالة بعث بها إليه كليبر من الإسكندرية ، فلما تلا نابليون الرسالة وفيها أعظم نكبة أصابت الحملة الفرنسية ، تلقاها بالجلد والصبر ، ولم تبد عليه علائم الاضطراب وأخذ يسأل الياور عن تفاصيل الواقعة مما لم يرد فى الرسالة ، وبعد أن أتم الياور كلامه أبلغ نابليون نبأ الكارثة إلى أركان حربه قائلا لهم : «إن أسطولنا لم يعد له وجود ، والآن يجب علينا أن نبقى فى هذه البلاد أو نخرج منها عظماء كما فعل الأقدمون » ، ثم عجل بالمسير إلى القاهرة ليزيل بوجوده الأثر المعنوى الذى أحدثته أخبار الكارثة فى مصر ، فجاءها يوم ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وهناك خاطب ضباطه قائلا : «هانحن أولاء مضطرون أن نعمل العظائم وسنعملها ، وأن نؤسس فى هذه البلاد دولة كبيرة ، وسنؤسسها ، إن البحار تفصل بيننا وبين الوطن ولا سلطان لنا على هذه البحار ، ولكن ليس ثمة فاصل يفصلنا عن آسيا وإفريقية ، وعندنا من الرجال العدد الوافر ، ولا ينقصنا المدد لتقوية صفوفنا ، ولا تنقصنا الميرة والذخيرة ، وإذا احتجنا إلى المزيد منها فإن شامبى Champy[٢] وكونتى Conté[٣] كفيلان بصنعها[٤] »

(١) يقول نابليون فى رسالته إلى كليبر الواردة فى مجموعة رسائله رقم ٣٠١٨ أنه تلقى نبأ الواقعة فى الصالحية ، وفى تقريره إلى حكومة الديركتوار يقول إنه تلقاه بعد أن غادر الصالحية إذ كان على بعد فرسخين منها

(٢ و ٣) من أعضاء المجمع العلمى ، انظر ما كتبناه عنهما بالفصل الرابع ص ١٠١ و ١٠٢

(٤) نقلنا هذه العبارة عن مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران بسانت هيلين وقد

الاضطرابات فى الشرقية

عادت فرقة الجنرال لان إلى القاهرة ورجع الجنرال مورا Murat بالقوة التى كانت تحت إمرته إلى قليوب لإخضاع مدير القليوبية ، وسار الجنرال دوجا بفرقته إلى المنصورة لإخضاع القسم الشمالى الشرقى من الدلتا[١] ، وبقيت فرقة الجنرال رينييه وفرسان الجنرال لكلرك فى الصالحية حيث أمر نابليون بتحصينها لحراسة برزخ السويس ومراقبة حدود مصر الشرقية ، واتخذ من الصالحية مركزاً لتموين الجيش ، وعين الجنرال رينييه قومنداناً لمديرية الشرقية ، وعهد إليه فى إقامة الطوابى والاستحكامات بالصالحية وبلبيس واستطلاع أخبار المماليك الذين ارتدوا إلى حدود سوريا ، وقد اتخذ الجنرال رينييه مسجد الصالحية مركزاً عسكريا للفرقة وأنشأ فيه الأفران والمخابز للجيش وأقام فيه المدافع ، وأقره نابليون على صنيعه المثير لحفيظة الأهالى ، وأمره « أن يزيد عدد الأفران التى بالمسجد ، وعدد المدافع التى نصبوها عليه ، وأن يتخذ فيه مخزنا للبارود ومستشفى للجنود ، ويجعل منارته مرصداً لاستطلاع الحركات العدائية » ، وقد صارت الصالحية وبلبيس فى عهد الحملة الفرنسية من المواقع الحصينة وعلى جانب كبير من المناعة

كان مقام رينييه فى الشرقية مقرونا باعتداء الجنود وجرائمهم ، فكانوا يجوبون القرى وينهبون الماشية ، فيضطر الناس إلى الرحيل عن قراهم لتهريب مواشيهم فى الصحراء ، وعبثاً حاول الجنرال رينييه أن يرد النظام فى صفوف جنوده أو يقنع الأهالى فى القرى المجاورة أن يبيعوه ما يحتاج إليه من المواشى بالثمن فلم يصدقوه ولم يأمنوه وأخذوا يفرون من القرى بمواشيهم نجاة بها من النهب والسلب ، وكانت صدور الفرنسيين من جهة أخرى موغرة على الأهالى لحملهم السلاح فى وجههم ، فاضطربت الأحوال فى الشرقية وظل الأهالى يناوشون الحاميات الفرنسية ويتهددون مواصلات الجيش مع القاهرة ، وقد اشتدت حركاتهم فى أوائل

= كتب الجنرال مارمون فى كتابه (رحلة المارشال الدوق دى راجوز) يقول إنه كان بجانب نابليون حينما جاءه نبأ كارثة العمارة الفرنسية فى معركة أبوقير ، وأنه تلقى هذا النبأ وهو فى خيمته (خيمة مارمون) فى معسكر الخانكة بين بلبيس والقاهرة (وهذا يخالف ما ذكره نابليون كما بيناه فى هامش الصحيفة السابقة) قال مارمون يصف حالة نابليون عندئذ : « تلا الجنرال بونابارت رسالة كليبر وظل ثابتاً رابط الجأش ، وأبان عن شيء كثير من علو النفس وقوة البأس ، ولم يكتم عنا عظم النكبة وما تجره من العواقب ، ولكنه اجتهد فى أن يخفف عنا أثر وقعها » ، وذكر الجنرال مارمون أقوال نابليون وهى لا تخرج فى معناها عما جاء فى مذكراته

(١) قبل أن يغادر نابليون الصالحية أصدر أمره بتعيين الجنرال دوجا قومنداناً لمديرية المنصورة وأن يقتصر الجنرال فيال على دمياط

أكتوبر سنة ١٧٩٨ عند ما انبثت فكرة الثورة فى القاهرة وبدأت تذيع الدعوة إليها فى الأقاليم ، فاجترأ الثوار على مهاجمة المخافر الفرنسية ، وقتل الأهالى ترجمان الجنرال رينييه الخاص على مقربة من معسكر الفرنسيين فى بلبيس ، وقاوم أهل (بيشه) الفرنسيين عندما شرعوا فى فى مصادرة خيولهم ، وبدأ أهالى بلبيس وأعوانهم من العرب المجاورين لهم يهاجمون معسكر الفرنسيين فى المدينة ، ولم يستطع الجنرال رينييه أن يخضع القوم لأن الفيضان قد خرب الأرض فعطل حركات الجنود فى انتقالها إلى القرى ، كما أن الأمراض قد فتكت بالجنود وبخاصة الرمد الذى انتشر بينهم

وقد كان لجمود الحامية الفرنسية ، ولدعوة الثورة التى استطارت من القاهرة فى الأقاليم أثر كبير فى تشجيع الأهالى على مهاجمة معسكر بلبيس بقوة كبيرة ، فبدأ هجومهم فجر يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ فأقبل مائة من الفرسان من قبيلة العائذ قادمين من الصحراء فالتقوا بكتيبة من الفرنسيين وقتلوا منها بعض الجنود ، فرد الجنرال رينييه هجمة العرب ولكنه اضطر أن ينسحب إلى بلبيس ليرد هجوما آخر كان يتهدد مركزه فى المدينة وقد اشترك فيه ٢٥٠ من الفرسان و ١٢٠٠ من المشاة

فرابط رينييه بالمدينة حتى أقبل إليه المدد ثم أخذ يهاجم الثوار إلى أن ارتدوا عنها وسار بجنوده يتعقبهم حتى غابوا فى الصحراء فعاد إلى بلبيس ، وفى هذا الوقت كان عرب بلى قد أقبلوا من طريق القاهرة ، وهاجموا المعسكر ، فردهم الجنود الفرنسية ، ثم كروا بعد قليل ولهم قوة أكبر فكان عددهم كما قدرهم الجنرال رينييه ٥٠٠ فارس و١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ راجل فمال عليهم رينييه بجنوده ومدفعيته ففرقهم بالبنادق والمدافع وردهم إلى قرية « غيته »[1] ، وفيما هو على أثرهم هجم الجمع الحاشد من أهالى البلاد المجاورة (قدرهم رينييه بألفين من المشاة و١٥٠ من الفرسان) على الفضاء الذى يفصل المعسكر عن بلبيس ، ولكن رينييه ردهم على أعقابهم عند عودته إلى المدينة ، ثم عادوا إلى الهجوم ثانية وكذلك ردتهم الجنود الفرنسية ، ثم استمرت الحرب سجالا بين الفريقين

لم تنقطع الحركات العدائية حول بلبيس ، ولم يكن لدى الجنرال رينييه من الجنود القوة الكافية لتجريد حملة على الثوار تغزوهم فى بلادهم وقراهم ، فأصبحت مواصلات الجيش الفرنسى مهددة ، وأرسل رينييه يطلب النجدة من نابليون ، فأمده وأمره أن لا يغفل عن تحسين موقعى بلبيس والصالحية ، وأن ينهك بعقوبته القبائل التى تمردت أو شاركت فى الحركات الأخيرة ويأخذ

---

(١) فى الجنوب الغربى لبلبيس

منها الرهائن ، وأمره كذلك بمعاقبة البلاد التى اشتركت فى الثورة ، وأن يأخذ مشايخها ويقتلهم لأنهم هم المسئولون ، فهم هم المأخذون بما يحدث فى بلادهم(١)

وقد علم الأهالى والعرب أن رينييه زاحف عليهم للإيقاع بهم والقصاص منهم ، فأوغلوا فى البلاد البعيدة وأخلوا القرى المجاورة لبلبيس ، فلم يستطع رينييه أن يجرد حملة لتعقبهم ، وآثر أن يعدل معهم إلى المحاسنة ، فلجأ إلى المفاوضة مع زعمائهم لإعادة السكينة وإقرارها ، لكنه لم يوفق توفيقا يُعتدُّ به

واستمرت الاضطرابات فى الشرقية بعد ذلك لم تنقطع ، قال الجبرتى فى حوادث أواخر رجب سنة ١٢١٣ (ديسمبر سنة ١٧٩٨) :

« حضر سارى عسكر (نابليون) من ناحية بلبيس إلى مصر ليلا وأحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباظة أخو سليمان أباظة شيخ العبابدة وخلافه رهائن ، وضربوا أبو زعبل والمنير ، وأخذوا مواشيهم وحضروا بهم إلى القاهرة وخلفهم أصحابهم »

---

(١) رسالة نابليون الى رينييه فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ .

الفصل الثاني عشر

عود إلى القاهرة

سياسة الحفلات

كان نابليون يسعى بكل الوسائل إلى كسب قلوب المصريين واستلال الضغينة منها ، وتخفيف حدة النفرة والكراهية التي كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ، ومن الوسائل التي ابتكرها إقامته الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلى قلوبهم ، ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطرى إلى الابتهاج والانشراح بما كان يشاهده من تجمع الأهالى فى شوارع القاهرة لسماع المغنين والناقرين على الدفوف ، فأراد أن يصل إلى قلوبهم من طريق التفريح ، وكان له غرض آخر من إقامة المهرجانات والحفلات ، ذلك حين أراد أن يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله فى واقعة أبو قير البحرية ويتظاهر بأنه لا يكترث لها ، ويتودد إلى زعماء الشعب ليكسب ثقتهم فى تلك الأوقات العصيبة بعد أن أصبح محصوراً فى القارة الإفريقية ، فأخذ يتحين ما يعرض من المناسبات لإقامة الأفراح والحفلات ، ولذلك سمينا هذه السياسة سياسة الحفلات

مهرجان وفاء النيل

انتهز أولا فرصة وفاء النيل ليشارك المصريين فى احتفالهم بهذا اليوم السعيد ، فأمر بأن يجرى الاحتفال المعتاد وأن يشترك الجيش فى المهرجان ، فاصطفت الجنود بحذاء النيل ، وحضر نابليون الاحتفال مصحوباً بقواده وأركان حربه وبجانبه كتخدا الباشا (نائب الوالى) والقاضى التركى (قاضى مصر) وأعضاء الديوان والأغا (المحافظ) وأعيان المدينة ، وازدانت السفن بالأعلام والرايات ، وأطلقت المدافع والسواريخ النارية من البر والبحر ، لكن الأهالى لم يشتركوا فى هذا الاحتفال ، ولم يخرجوا للتنزه ليلا فى المراكب كعادتهم كل عام ، وفى ذلك يقول الجبرتى : « فى يوم الجمعة خامس ربيع الأول سنة ١٢١٣ الموافق لثالث عشر مسرى القبطى (١٧ أغسطس سنه ١٧٩٨) كان وفاء النيل المبارك ، فأمر صارى عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة ، وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين (سفن حربية) ونادوا على الناس بالخروج إلى النزهة فى النيل والمقياس والروضة على عادتهم ، وأرسل صارى عسكر أوراقاً

(تذاكر دعوة) لكتخدا الباشا والقاضى وأرباب (أعضاء) الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور فى صبحها (السبت ٦ ربيع — ١٨ أغسطس) وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد، وكسروا الجسر بحضرتهم، وعملوا شنك مدافع ونفوطاً حتى جرى الماء فى الخليج، وركب وهم صحبته حتى رجع إلى داره، وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسائهم، وقليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها »

هذا ما قاله الجبرتى، ومنه تعرف الحالة النفسية للشعب ومبلغ انصراف المصريين عن الاشتراك فى الاحتفال بيوم يبتهجون له فى كل عام، ويدخل فى هذا الباب ما ذكره الجبرتى من أن الإشاعات عن هزيمة الفرنسيين (فى معركة أبو قير البحرية) قد ذاعت فى ذلك اليوم نفسه وتهدد الفرنسيون من أذاعوها بأشد أنواع العقاب[1]، فكأن نابليون أراد بالاحتفال بوفاء النيل إخفاء مظاهر الحزن التى كانت تختلج فى قلوب الفرنسيين لضياع أسطولهم

حفلة المولد النبوى

وجاءت مناسبة أخرى لمشاركة نابليون المصريين فى حفلاتهم ومحاولته إدخال السرور إلى قلوبهم، وهى حفلة المولد النبوى الشريف، فأمر أن يحتفل به كالمعتاد، وبالغ نابليون فى الاحتفال به، وعين لهذه المناسبة السيد خليل البكرى نقيباً للأشراف بدلا من السيد عمر مكرم[2]، وخلع عليه خلعة ثمينة، وأقيمت الليلة الكبيرة للمولد فى منزل السيد خليل البكرى، وحضر نابليون هذه الحفلة، ويقول ريبو[3] إن بونابارت أظهر أناةً وصبراً فى شهود حفلة الذكر من بدئها إلى تمامها، ومدّ السيد البكرى الموائد تكريماً للمولد النبوى، فبسطت خمسون مائدة على الطراز الشرقى، حول كل مائدة خمسة أو ستة من الضيوف جالسين أرضاً على الوسائد، وكانت المائدة التى جلس حولها بونابارت والسيد البكرى فى الوسط، وهى من الفضة وقد صفت عليها أطباق الطعام، ويتبين من رواية الجبرتى أن نفوس المصريين

(١) انظر الفصل الثامن ص ١٨٢

(٢) كانت نقابة الأشراف قبل أن يتولاها السيد عمر مكرم فى يد السيد محمد البكرى، وهو ابن عم السيد خليل البكرى،، ولما توفى السيد محمد البكرى سنة ١٢٠٨ هجرية تولى النقابة السيد عمر مكرم إلى أن جاء الفرنسيون فغادر الديار المصرية وهاجر إلى سوريا عقب واقعة الأهرام، فخلت نقابة الأشراف من النقيب فتولاها السيد خليل البكرى كما ترى فى سياق الكلام

(٣) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء ٣

كانت فى شاغل وقتئذ عن الحفلات والمسرات ، وأن نابليون هو الذى أوجب الاحتفال ،
قال الجبرتى :

« سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم ، فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال ؛ فلم يقبل ، وقال لا بد من ذلك ، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوى معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل ، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم ، وأرسل الطبلخانة الكبيرة (موسيقى الجيش) إلى بيت الشيخ البكرى ، واستمروا يضربونها طول النهار والليل (ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣ — ٢٤ أغسطس سنة ١٧٩٨) بالبركة (ميدان الأزبكية) تحت داره ، وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة ، وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد فى الهواء ، وفى ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكرى فروة وتقلد نقابة الأشراف ونودى فى المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب »

تعيين أمير الحج

كانت إمارة الحج من المناصب العالية التى يعهد بها إلى كبار الأمراء المماليك ، وكان أمير الحج عند قدوم الحملة الفرنسية صالح بك ، وهو من أتباع مراد بك ، فلما قدم بالحجاج من الحجاز استدعاه نابليون إلى القاهرة ، لكنه رفض وانضم إلى إبراهيم بك وسافر معه إلى سوريا وتوفى بها فى تلك السنة (١٢١٣ هجرية) ، وكانت التقاليد المتبعة فى ذلك العصر أن يعين أمير الحج فى حفلة حافلة ، فأراد نابليون أن يتبع هذه السنّة فعين مصطفى بك كتخدا الباشا (وكيل الوالى) أميراً للحج يوم ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر سنة ١٧٩٨) وخلع عليه خلعة خضراء بحضور أعضاء الديوان[١] وأهداه جواداً كريماً ، وأراد أن يكتسب قلوب الأهالى وقلوب المسلمين فى الشرق فأبلغ أمر هذا التعيين رسمياً إلى الدول الإسلامية ، وكتب إلى شريف مكة يعده بإرسال أوقاف الحرمين كما كانت ، واستكتب مشايخ القاهرة رسالة بعث بها إلى السلطان وأخرى إلى شريف مكة فيها إطراء لسياسته وتنويه بما بذله فى

---

(١) يقول الجبرتى فى هذا الصدد : « وفى عشرين ربيع الأول قلدوا مصطفى بك كتخدا الباشا إمارة الحج فحضروا إلى المحكمة عند القاضى ولبس هناك الخلعة بحضرة مشايخ (أعضاء) الديوان ، والتزم بونابارته بتشهيل مهمات الحج وعمل محلا جديداً »

تأمين طريق الحج ، واشتراكه فى الاحتفال بفتح الخليج والمولد النبوى وتعيين أمير الحج الجديد ، واحترامه للشعائر الإسلامية

فنابليون قد استعمل « سياسة الحفلات » ليجتذب إليه قلوب المصريين من جهة ، وليعلن عن نفسه فى العالم الإسلامى بأنه صديق الإسلام والمسلمين ، ويظهر أن الفرنسيين كانوا يعلقون أهمية كبيرة على تعيين أمير الحج ، فقد كتب المسيو جوفروا سان هيلير[١] عضو المجمع العلمى المصرى رسالة إلى أخيه بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٧٩٨ يقول فيها :

«لقد نجح القائد العام فى حمل كتخدا الباشا (وكيل الوالى) على قبول منصب إمارة الحج ، وأمير الحج الجديد رجل ذو نفوذ كبير ، وقد أطلقت المدافع إيذاناً بهذا التعيين وبادر الديوان إلى إبلاغه للأمم العربية مع دعوتهم إلى إجراء مراسم الحج كالمعتاد[٢] »

عيد الجمهورية الفرنسية

انتهز نابليون فرصة عيد الجمهورية الفرنسية الأولى (أول فنديميير[٣] — ٢٢ سبتمبر) وأقام بميدان الأزبكية احتفالا عسكرياً مهيباً دعا إليه العظماء والقاضى التركى وكتخدا الباشا وأعضاء ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم والأعيان ، وأبدع الفنانون الفرنسيون فى تنسيق هذا الاحتفال وظلوا عدة أيام يقيمون أقواس النصر وينصبون الساريات وعددها ١٠٩ بعدد القاطعات الفرنسية ، رفعت عليها الرايات موشاة بأسماء مقاطعات فرنسا ، ونصبوا فى وسط الميدان سارية عظيمة سموها شجرة الحرية ، وأقاموا تماثيل من الخشب كالهيا كل الكبيرة نقش عليها أسماء قتلى الفرنسيين فى مصر ، وأقاموا بوابتين كبيرتين (أقواس نصر) الأولى قبالة باب الهواء والثانية بناحية قنطرة الدكة التى كان يدخل منها ماء الخليج إلى الأزبكية ، نقش على إحداها صورة معركة الأهرام ، وكتب على الأخرى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وجرى الاحتفال يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ فعرض نابليون كتائب الجيش يحف به أركان حربه ، وبعد انتهاء العرض تلا الأدجودان جنرال بوييه Boyer خطبة لنابليون من خطبه الساحرة التى كانت تملأ قلوب جنوده حماسة وإقداماً[٤]

(١) انظر ترجمته بالفصل الرابع ص ١٠٠

(٢) « رسائل من مصر » بقلم المسيو جوفروا سان هيلير

(٣) يبدأ التقويم الجمهورى بأول فانديميير من السنة الأولى الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ غداة اليوم الذى قررت فيه الجمعية الوطنية إلغاء الملكية فى فرنسا

(٤) تجد نص هذه الخطبة فى قسم الوثائق التاريخية

وبعد تمام خطبته دعا ضيوفه المصريين والفرنسيين إلى الغداء على مائدته ، وأضيء ميدان الأزبكية ليلا بالأنوار ، واستمرت الموسيقى تعزف إلى ما بعد منتصف الليل

وإليك خلاصة ما ذكره الجبرتي في وصف هذا الاحتفال :

« في يوم السبت حادي عشر ربيع الثاني سنة ١٢١٣[1] كان يوم عيدهم الموعود به ، فضربوا في صبيحته مدافع كثيرة ، ووضعوا على كل قائم من الخشب بنديرة من بنديراتهم الملونة ، وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم بالبركة (بركة الأزبكية) ، الخيالة والرجالة ، واصطفوا صفوفاً على طرائقهم المعروفة بينهم ، ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام فاجتمعوا ببيت صاري عسكر بونابارته ، وجلسوا حصة من النهار ، ثم نزل عظماؤهم وصحبتهم المشايخ والقاضي وكتخدا الباشا فركبوا وذهبوا عند الصاري الكبير الموضوع بوسط البركة (الميدان) ، وقد كانوا فرشوا في أسفله بسطاً كثيرة ، ثم إن العساكر لعبوا ميدانهم وعملوا هيئة حربهم وضربوا البنادق والمدافع ، فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفاً حول ذلك الصاري وقرأ عليهم كبير قسوسهم[2] ورقة بلغتهم لا يدرى معناها إلا هم ، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ ، ثم قاموا وانفض الجمع ، ورجع صاري عسكر إلى داره فمد سماطاً عظيما للحاضرين ؛ فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التي على الحبال والتماثيل والأحمال التي على البيوت ، وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسواريخ ونفوط وشبه سواقي ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل ، واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار ، ثم فكوا الحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة ، وبقيت البوابة المقابلة لباب الهواء والصاري الكبير وتحته جماعة ملازمون الإقامة عنده ليلا ونهاراً من عساكرهم لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم في زعمهم »

وعلى الرغم مما بذله الفرنسيون ليجعلوا احتفالهم حافلا بمظاهر السرور والبهجة فإن نفوس الأهالي كانت منقبضة عن تلك المظاهر ، ومن ألطف ما قاله في هذا الصدد نيقولا الترك الذي شهد هذا الاحتفال ووصفه في كتابه[3] ان الفرنسيين « كانوا يقولون إن هذه شجرة الحرية وأما أهالي مصر فكانوا يقولون إن هذه إشارة الخازوق الذي أدخلوه فينا واستيلائهم على

---

(١) يوافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٢) هذا خطأ ، والصواب أن الذي تلا خطبة نابليون هو الأدجودان جنرال بوييه Boyer وهو ليس بكبير القسس ، ولم يكن مع الجيش الفرنسي قسس

(٣) ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والديار الشامية ، للمعلم نيقولا الترك

مملكتنا ، واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر ، وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح »

وقال الدكتور ديجنت كبير أطباء الجيش الفرنسى فى مذكراته : « لقد تكلموا كثيراً حتى فى أوروبا عن حفلات أول فنديميير وتأثيرها فى نفوس المصريين ، على أن كاتب هـذه المذكرات يؤكد أنها لم يكن لها أثر ما فى سكان القاهرة بالرغم من مظاهر الفخامة التى أحيطت بها » ، ويقول دى لاجونكيير[1] إن الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية أصدر أمره فى ٢١ سبتمبر إلى الجنرال ديبوى قومندان القاهرة بأن يضع حرساً بناحية قنطرة الدكة التى كان يدخل منها ماء الخليج إلى ميدان الأزبكية خيفة أن يتعمد بعض أهل السوء فتح السد فتطغى المياه على مكان الاحتفال فتعكر صفوه

فهذه البيانات تدل على نفسية أهل القاهرة وانصرافهم عن مشاركة الفرنسيين فى حفلاتهم

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث

الفصل الثالث عشر

ثورة القاهرة

احتل الفرنسيون القاهرة ، ووطدوا سلطتهم بها ، ووضعوا أيديهم على كل شيء فيها ، لـكنها لم تكن فى يوم من الأيام راضية عن الاحتلال الفرنسى أو مستسلمة له ، وما فتئت تتحين الفرص للتخلص منه ، وعبثاً حاول نابليون بعد انتصاره الحربى أن ينتصر على ثورة النفوس ، وأن يجتذب إليه قلوب المصريين ، ولم يكن إنشاؤه الديوان ، ولا تودده إلى الزعماء ، ولا اشتراكه فى حفلات الشعب ، ليحل الصفاء والوئام محل الجفاء والخصام ، والواقع أن يد الفرنسيين الباطشة قد ضربت على الديوان فجعلته محدود السلطة ، مشلول الإرادة ، وكان أعضاء الديوان أنفسهم يظهرون الطاعة للفرنسيين مداراةً ومجاملة ، وقلوبهم منكرة نافرة ، اعتبر ذلك فيما رواه الجبرتى عن المشادة التى حصلت بين نابليون وأعضاء الديوان ، فقد طلبهم إلى داره ذات يوم(1) ، ولما استقر بهم المقام أراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الألوان(2) ، ووضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان تـكريماً له وتعظيما ، فرمى به الأرض محنقاً غاضباً واستعفى من الديوان ، وعبثاً حاول الترجمان أن يقنع المشايخ أن إلباسهم هذا الطيلسان هو تـكريم لهم ، فلم يلق منهم قبولا ، وغضب نابليون على الشيخ الشرقاوى وقال إنه لا يصلح للرآسة

لم يعمل إذن أعضاء الديوان على تمـكين علاقات نابليون بالشعب ، وما كان فى استطاعتهم

---

(1) ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر سنة ١٧٩٨)

(2) أصدر نابليون أمراً فى سبتمبر سـنة ١٧٩٨ بأن يحمل جميع سكان مصر شارة الجمهورية (الـكوكارد) وأن ترفع المراكب فى النيل الراية الفرنسية ، وأمر بأنه ابتداء من أول فنديميير (٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨) لا يصرح للسلطة الفرنسية بأن تسمع أى شكوى من أى شخص من الأهالى إذا لم يكن حاملا تلك الشارة ولا يسمح للسفن بالملاحة فى النيل ابتداءاً من ١٥ فنديميير إذا لم ترفع الراية الفرنسية ، وأمر أن تنصب الراية الفرنسية بأعلى منارة فى القاهرة وأعلى منارة فى كل حاضرة من حواضر المديريات

ويقول الجبرتى ما خلاصته ان الفرنسيين أمروا بأن يضع الناس الشارة الفرنسية (الـكوكارد) فأنف غالب الناس من وضعها ، ثم نادوا بإبطالها بالنسبة لعامة الناس ، وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها ، فـكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم ، وذلك أياماً قليلة ثم تركت

ذلك لو أرادوا ، فأخذ سخط الأهالى يستفحل ، وزاد فيه أعمال كثيرة أحرجت صدورهم وانتهت بنشوب نار الثورة فى العاصمة

ثارت القاهرة فى وجه الفرنسيين يوم الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ — ١١ جمادى الأولى سنة ١٢١٣

لم يكن مألوفاً ولا منتظراً أن تثور القاهرة ، تلك المدينة الهادئة الوديعة التى احتملت ظلم حكامها السنين الطوال ، ولم يكن الفرنسيون يتوقعون أن تثور فى وجههم ، وهم الذين فتحوا العواصم ودوّخوا الممالك فى القارة الأوروبية

لكن ثورة القاهرة جاءت عنواناً لنفسية جديدة فى الشعب المصرى ، ولا غرو فإن الحملة الفرنسية كما قلنا قد استفزت فى نفوس الشعب روح المقاومة الأهلية ، وكانت القاهرة مسرحاً لتلك المقاومة ، كما كانت مصدراً لسريان الهياج والثورة إلى أنحاء البلاد

لماذا ثارت القاهرة

من الواجب قبل أن نسرد وقائع تلك الثورة أن نتساءل لماذا ثارت القاهرة ؟ ما هى الأسباب التى أشعلت نار الثورة فى تلك المدينة العظيمة التى اشتهرت من قبل بالإخلاد إلى السكينة ؟

ذكر الجبرتى أن تقرير الضرائب الفادحة التى فرضها الفرنسيون فى أوائل جمادى الأولى هو الذى أدى إلى نشوب الثورة ، وهذا صحيح إذا اعتبرنا تلك الضرائب كالشرارة التى أشعلت النار ، لكن فكرة الثورة كانت مختمرة فى الرؤوس من قبل ، فلنبحث إذن عن أسبابها ومقدماتها

الأسباب المالية

إن سلوك نابليون مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم واعتسافاتهم ، فانظر ماذا فعل هو فى إرهاق الأهالى بالضرائب والمغارم

لما دخل الفرنسيون القاهرة فرضوا على سكانها ضريبة فادحة فى شكل سلفة إجبارية ، ولم يستطع « الديوان » أن يمنعها على الرغم من تدخله فى الأمر وتوسطه فى تخفيفها

فقد روى الجبرتى أنه فى يوم السبت ١٤ صفر سنة ١٢١٣ (٢٨ يوليه سنة ١٧٩٨) ، أى عقب أن استقر نابليون فى العاصمة بأيام معدودة وعقب تأسيس (الديوان) بثلاثة أيام :

« اجتمعوا بالديوان وطلبوا سلفة خمسمائة ألف ريال (مائة ألف جنيه) من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الإفرنج أيضاً ، فسألوا (أى أعضاء الديوان) التخفيف فلم يجابوا ، فأخذوا فى تحصيلها »

فترى من ذلك أن الديوان لم تكن له سلطة ما فى منع الغرامات والقروض الإجبارية التى يفرضها الفرنسيون ، ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التى دعت إلى سقوط منزلته فى نظر الشعب

وذكر دى لاجونكيير[١] بعض ما فرضه نابليون فى أنحاء البلاد على مختلف الطبقات من القروض الإجبارية فى الأيام الأولى للحملة ، فمن ذلك أنه فرض على تجار الإسكندرية ثلثمائة ألف فرنك ، وعلى تجار رشيد مائة ألف فرنك ، وتجار دمياط ١٥٠ ألف فرنك ، وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ ألف ريال نقداً ، و ٤٠ ألف ريال عروضاً (ملابس وأحذية للجنود) ، وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠ ألف ريال ، وعلى الأقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب فى الأقاليم ١٠٠ ألف ريال ، ثم فرض على تجار خان الخليلى خاصة عشرة آلاف ريال ، ووكائل الصابون عشرة آلاف ريال ، ووكائل الفاكهة ستة آلاف ريال ، والسقائين ١٥ ألف ريال ، وتجار السكر عشرة آلاف ريال ، وتجار الأقمشة الهندية بالغورية ١٥ ألف ريال ، فهذه غرامات فادحة تنوء بها البلاد ولا سيما إذا لاحظنا ما كانت تعانيه وقتئذ من الضنك والفاقة

وقد تفنن الفرنسيون فى ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك أنهم أذنوا لنساء البكوات المماليك أن يفتدين أنفسهن بالمال ليسكنّ فى بيوتهن ، وإن كان عندهن شىء من متاع أزواجهن يبذلنه ، فإن لم يكن عندهن شىء منه يصالحن على أنفسهن ويأمنّ فى دورهن

فهذه طريقة بلغت حد الإعنات والإرهاق فى جمع الأموال من النساء تلقاء أن يأمنّ على أنفسهن ! وهى أشد وطأة من الغرامات الحربية ، قال الجبرتى : « إن الست نفيسة زوجة مراد بك ظهرت وصالحت عن نفسها وأتباعها من نساء الأمراء والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون ألف ريال فرنساوى ، وأخذت فى تحصيل ذلك من نفسها وغيرها ووجهوا عليها الطلب (أى طالبوها) ، وكذلك بقية النساء بالوسائط المتداخلين فى ذلك ، فصاروا يعملون عليهن إرهاصات وتخويفات[٢] »

---

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثانى . وانظر كذلك مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٤٩ و ٢٩٥٠

(٢) الجبرتى الجزء الثالث

ويقول ريبو[١] إن مجموع ما فرضه الفرنسيون على نساء المماليك بلغ ٦٠٠ ألف فرنك ، وإذا رجعنا إلى نص الأمر الذى أصدره نابليون بتاريخ ١٤ ترميدور (أول أغسطس سنة ١٧٩٨) فى شأن ما فرض على السيدة نفيسة زوجة مراد بك نجد أنه يقضى بأن تدفع هى وحدها ٦٠٠ ألف فرنك عن نفسها وعن نساء المماليك من أتباع مراد بك ، فيفهم من ذلك أن المبلغ الحاصل من نساء المماليك يزيد على ستمائة ألف فرنك ، ويقول دى لاجونكيير إن ما أخذ من زوجة مراد بك خاصة ٤٩٢,٨٥٧ فرنكا ، وما أخذ من باقى نساء المماليك ٣٢٤,٧١٧ فرنكا ، وذلك إلى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ولا شك أن هذه مبالغ جسيمة إذا قيست بثروة البلاد فى ذلك العهد ، ويقول ريبو أيضاً إن السيدة نفيسة زوجة مراد بك اضطرت لدفع حصتها فى الغرامة الحربية أن تنزل عن حليها وجواهرها ، ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان أهداها لها القنصل مجالون باسم الجمهورية الفرنسية تقديراً لخدماتها ورعايتها للتجار الفرنسيين ، « فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجاً شريفاً منها[٢] » .

استطراد

إلى ترجمة نفيسة المرادية

« نفيسة المرادية » هى أكبر شخصية ظهرت بين سيدات مصر فى ذلك العصر ، لذلك رأينا أن نستطرد إلى الكلام عنها ونترجم لها

كانت نفيسة المرادية شركسية الأصل ، تزوج بها على بك الكبير ، فصارت بمثابة ملكة مصر ، وبنى لها قصراً عظيما بالأزبكية بدرب عبد الحق ، ولما مات على بك تزوج بها مراد بك ، فاحتفظت بمكانتها ونفوذها ، وكانت على جانب كبير من التثقيف والتهذيب ، إلى روعة فى الجمال ، وسمو فى العواطف ، تعلمت العربية قراءة وكتابة ، وأقبلت على الكتب العلمية تطالعها وتدرسها ، فارتقت مداركها واكتسبت احترام العلماء والبكوات المماليك الذين كان بيدهم الحل والعقد ؛ وكذلك اجتذبت قلوب الشعب بما اشتهرت به من البر والإحسان ورفع المظالم وحماية الضعفاء ، فعظمت مكانتها بين طبقات الشعب ، وسرت شهرتها إلى الأوساط الأوروبية إذ عرف عنها الميل إلى تنشيط التجارة والصناعة ومعارضة البكوات المماليك فى سلب أموال التجار ؛ وقد أهدتها حكومة فرنسا قبل الحملة الفرنسية ساعة مرصعة بالماس قدمها لها القنصل

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسيه الجزء الثالث

مجالون Magallon اعترافاً لها بمبراتها وبخدماتها للتجارة ، وكانت تتبرع بإعانات شهرية لكثير من العائلات التى أخنى عليها الدهر ، واستمرت تؤدى هذه الإعانات حتى فى أيام محنتها ، ولما جاءت الحملة الفرنسية وانهزم مراد بك فى واقعة الأهرام بقيت هى فى القاهرة فاستهدفت للإتاوات والغرامات الحربية كما تراه فى سياق الكلام ، على أن قواد الجيش الفرنسى كانوا يعاملونها بالاحترام ، ولما جلا الفرنسيون عن البلاد استهدفت كذلك لمظالم الأتراك ، ذكر الجبرتى ما وقع من خورشد باشا من إساءة معاملتها فقال ما خلاصته إن الباشا أمر بإحضارها إلى القلعة واتهمها بأن جارية لها تسعى فى الاتفاق مع المماليك العصاة لتحريض الجند على التمرد ، فأنكرت هذه التهمة وطلبت الدليل على ما نسب إلى جاريتها وقالت : « إذا ثبت أن جاريتى قالت ذلك فأنا المأخوذة به دونها » ، فأخرج خورشد باشا من جيبه ورقة وتظاهر بأنها تثبت ذلك ، فطلبت السيدة نفيسة الورقة فأعادها خورشد إلى جيبه ، فوبخته نفيسة على عمله وقالت له : طول ماعشت بمصر وقدرى معلوم عند الأكابر وخلافهم ، والسلطان ورجال الدولة ، وحريمهم يعرفوننى أكثر من معرفتى بك ، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس فما رأيت منهم إلا التكريم ، وكذلك محمد باشا (خسرو) كان يعرفنى ويعرف قدرى ولم نر منه إلا المعروف ، وأما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم ، فقال : ونحن أيضاً لا نقبل غير المناسب ، فقالت له : وأى مناسبة فى أخذك لى من بيتى بالوالى (رئيس الشرطة) مثل أرباب الجرائم ، فقال : أنا أرسلته لكونه أكبر أتباعى فإرساله من باب التعظيم ، قال الجبرتى :« ثم اعتذر إليها وأمرها بالتوجه إلى بيت الشيخ السحيمى بالقلعة وأجلسوها عنده بجماعة من العسكر » (أى جعلوها تحت الحفظ) ، فتدخل العلماء فى أمرها حتى توصلوا إلى إطلاق سراحها

يتبين من هذه الحادثة مقدار ما كان لنفيسة المرادية من المكانة بين الناس ، وقد أدركت عصر محمد على بعد أن أدبرت عنها الدنيا وفقدت أملاكها ولم يبق لها سوى النزر اليسير منها ، فعاشت فى قلة وفاقة إلى أن توفيت سنة ١٢٣١ هجرية (١٨١٦) ، وقد ذكرها الجبرتى غير مرة ووصفها « بالشهيرة الذكر بالخير » ، ونعاها فى وفيات ذلك العام وقال فى ترجمتها إنها عمرت طويلا مع العز والسيادة والكلمة النافذة ، وأكثر نساء الأمراء من جواريها ، ولم يأت بعد الست شويكار من اشتهر ذكره وخيره سواها ، وقال إنها « كانت من الخيرات ولها على الفقراء بر وإحسان ، ولها من المآثر الخان الجديد والصهريج داخل باب زويلة ، توفيت يوم الخميس لعشرين من شهر جمادى الأولى بمنزلها المذكور بدرب عبد الحق ودفنت فى القرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعى ، وأضيفت الدار إلى الدولة وسكنها بعض أكابرها وسبحان الحى الذى لا يموت »

رجع ما انقطع

ذكر الجبرتى ما وقع على الناس من المغارم الأخرى ، فمن ذلك أن الفرنسيين طلبوا الخيول والجمال والأبقار والثيران والسلاح ، فحصلت عليها مصالحات أى أخذوا مقابلها نقداً ، وكانوا يفتشون المنازل ويكسرون الدكاكين بسوق السلاح وغيره ويأخذون ما يجدون فيها من الأسلحة ، وفى كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مالا يحصى ، ويستخرجون الخبايا والودائع ، ويطلبون البنائين والمهندسين والخدام الذين يعرفون بيوت أسيادهم ليدلوهم على أماكن الخبايا ومواضع الدفائن ، وطلبوا أهل الحرف من التجار بالأسواق وفرضوا عليهم نقوداً على سبيل القرض والسلفة مبلغاً يعجزون عنه ، وحددوا لدفعها أجلا مقداره ستون يوماً ، فضجوا واستغاثوا وذهبوا إلى الجامع الأزهر والمشهد الحسيني وتشفعوا بالمشايخ (أعضاء الديوان) ، فتكلموا لهم فأنزلوها إلى نصف المطلوب ووسعوا لهم فى أيام المهلة

هذا ما ذكره الجبرتى من مظالم الفرنسيين ومغارمهم فى الأيام الأولى من احتلالهم ، وذكر أيضاً أنهم قطعوا رواتب الأوقاف الخيرية عن مستحقيها الفقراء ، فبمثل هذه المغارم الفادحة لا يمكن أن تجتذب القلوب وتسترضى النفوس

ولم تقتصر هذه المغارم على الأيام الأولى من الاحتلال ، بل استمر الفرنسيون فى فرض الضرائب وجمع الأموال ولا سيما بعد أن تحطم أسطولهم فى معركة أبو قير وأصبحت الحملة الفرنسية منقطعه عاجزة عن تلقى الأمداد والمساعدات من فرنسا متروكة لمواردها وموارد البلاد ، فأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يتفننون فى استخراج الأموال من البلاد وأهلها ، وتذرعوا إلى ذلك بوضع النظام الذى ابتدعوه لإثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود ، وما تبعه من فرض الإتاوات الجديدة كما بينا ذلك فى الفصل الثالث

كانت تلك المغارم الفادحة تناقض عهود نابليون فى منشوراته وبياناته ، وهى وحدها كافية لصرف قلوب المصريين عن الثقة به وبوعوده ، لأن الشعب رأى أن الضرائب التى كانت تثقل كاهله فى عهد المماليك قد بقيت كما كانت ، وزادت عليها ضرائب جديدة ابتكرها الفرنسيون ، فصارت الحالة من الوجهة المالية أسوأ مما كانت فى عهد المماليك ، والمسائل المالية كانت فى مختلف العصور والبلدان من أهم أسباب تذمر الشعوب وشكواها

مصادرة الأملاك وهدم المبانى

ومن مظالم الفرنسيين التى أحرجت الصدور ، أنهم أخرجوا كثيراً من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها ، وهدموا كثيراً من المبانى والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وفيه (شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٣) أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة ليسكنوا بها فنزلوا ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع ، وهدموا بها أبنية كثيرة ، وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار ، وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة ، وبنوا على بدنات باب العزب (من أبواب القلعة) بالرميلة ، وغيروا معالمها ، وأبدلوا محاسنها ، ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء ، وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط والحوادث والحرب الهندية وأكر الفداوية ، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ، ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة ، والأعمدة الباسقة »

هذه رواية الجبرتى ، ويعترف نابليون فى مذكراته أن ترميم القلعة استوجب هدم كثير من البيوت القريبة منها ، وامتد الهدم إلى المسجد المجاور للسور ، وأن سكان القاهرة قد ساورهم قلق شديد من رؤيتهم ضباط فرقة الهندسة يتولون الهدم ، وينصبون المدافع فى الأماكن المهدومة[1]

هدم أبواب الحارات

وأمروا كذلك بهدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت هذه الأبواب تغلق فى الليل فتصير كل حارة فى مأمن من اعتداء اللصوص ، فاشتد قلق الناس من هدمها ، وتظننوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة ، ولم يكن الناس واهمين فى ظنونهم ومخاوفهم ، فإن الفرنسيين كانوا يقصدون من هدم الأبواب إخضاع المدينة ومنع كل محاولة للمقاومة ، قال الكولونل ديتروا Detroye[2] فى يومياته بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ : « إن شوارع القاهرة مفصولة بعدد كبير جداً من الأبواب الكبيرة التى تفصل الحارات والأحياء بعضها عن بعض ، ولقد رأى القائد العام أن هذه الأبواب قد تعطل انتقال الجنود

(١) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

(٢) الكولونل ديتروا هو من قواد الحملة الفرنسية ، كان رئيس أركان حرب الجنرال كافريلى ، ويومياته على جانب عظيم من الأهمية ، دون فيها الحوادث التى شاهدها إلى حصار عكا ، إذ قتل أثناء الحصار .

فى حالة الفتنة أو الهياج ، لذلك أمر بهدمها ، على أن هذه الوسيلة إذا كانت نافعة من هـذه الوجهة فلها عواقب وخيمة من جهة أخرى ، فإن الأبواب كانت تعزل الأحياء التى تظهر فيها الأوبئة ، فإذا أغلقت منعت سريان العدوى إلى الأحياء الأخرى ، وقامت حداً فى الاختلاط بين الناس ، فبأى طريقة يمنع انتشار الأوبئة بعد هدم هذه الأبواب ؟ »

وجاء فى يوميات الجنرال لوجييه Laugier عما أحدثه هذا العمل من التذمر والسخط فى نفوس الأهالى ما يلى :

« كان لـكل شارع أو حارة باب كبير يقفل عليها ، ويمكن استخداعه كمتاريس فى حالة الثورة ، لذلك أمر القائد العام بنزع هـذه الأبواب ، وقد تذمر الأهالى وجعلوا يصيحون ويسخطون ، ولـكنهم بعد ذلك أذعنوا وأخلدوا للسكينة ، وبعد أن أقفل التجار دكاكينهم احتجاجاً على هذا العمل عادوا وفتحوها »

والمعروف أن نابليون أصدر أمره بهدم أبواب الشوارع والحارات فى شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقد انتهز فرصة اجتماع الديوان العام لإنفاذ فـكرته ، فى الوقت الذى كان الديوان منعقداً كان ضباط فرقة الهندسة يطوفون أحياء القاهرة ويباشرون هدم الأبواب ، واجتمع هدم الأبواب وتحصين الفرنسيين للقلعة وفرضهم الضرائب الجديدة ، فـكانت هذه العوامل المجتمعة من أسباب الهياج الذى أعقبته الثورة

القتل والإرهاب

ومن المظالم التى أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطنى والحـكم عليه بالإعدام وتنفيذ الحـكم فيه ، مما رأيته مفصلا فى الفصل الخامس ؛ وكذلك وصول أخبار الفظائع التى ارتكبتها الجنود فى المديريات ، وحضور الرهائن الذين قبض عليهم من البلاد وحبسهم بالقلعة [١] ، والواقع أن الفرنسيين كانوا يسرفون فى قتل الناس ليدخلوا الرهبة فى قلوب الأهالى ويحملوهم على الخضوع والإذعان ، وهذا مستفاد من بعض رسائل نابليون إلى قواد الجنود الفرنسية فى الأقاليم ، ففى رسالته إلى الجنرال زايونشك Zayonchek قومندان المنوفية يقول [٢] : « لا بد أن تـكون جاءتك تعليماتى لتنظيم مديريتكم (المنوفية) ، يجب أن تعاملوا الترك بمنتهى القسوة ، وإنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة ، وآمر بأن

(١) كتب نابليون إلى الجنرال كافريللى بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ينبئه بأنه سيحضر إلى القاهرة نحو خمسين من الأهالى من مختلف بلاد القطر المصرى ، وكلفه أن يهيئ لإقامتهم سجن القلعة

(٢) بتاريخ ٣٠ يوليه سنة ١٧٩٨ ، مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠١

يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، وهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح »

وظاهر أن نابليون يقصد من عبارة « الترك » الأهالى ، ولا يمكن أن يقصد الأتراك العثمانيين ، لأنه فى تاريخ هذه الرسالة كان يتودد إليهم كثيراً ويتظاهر بمحبته لسلطان تركيا ، وكلمة « ترك » كثيراً ما يستعملها الكتاب الفرنسيون للتعبير عن الأهالى المصريين ، وهذا مفهوم من رسالة أخرى لنابليون إلى الجنرال منو Menou قومندان رشيد[1] يقول فيها :

« إن الترك لا يمكن إخضاعهم إلا بالقسوة ، وفى كل يوم آمر بقتل خمسة أو ستة فى القاهرة ، لقد كنا نتفادى التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصمة الإرهاب ، تلك التهمة التى كانت تسبقنا إلى أذهان الناس ، أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التى تؤدى إلى إخضاع هؤلاء القوم ، وإخضاعهم معناه تخويفهم »

* * *

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت فكرة الهياج تختمر فى الأذهان ، وجاءت الضرائب الجديدة فأشعلت بركان الثورة ، ومهما اختلف المؤرخون الفرنسيون فى بيان أسباب ثورة القاهرة وعزاها بعضهم إلى الدعاية الدينية التى كان يبثها رجال الدين ، فإنهم يعترفون بأن فداحة الضرائب كانت من أهم العوامل التى عجلت بها ، قال دى لاجونكيير[2] : « كانت الدعوة إلى الثورة تختلط علناً بأذان المؤذنين ، فيدعون إلى الله وإلى الثورة على المآذن صباح مساء ، فبلغ تهييج النفوس أشده ، حتى لتكفى حادثة واحدة أن تضرم بركان الهياج القوى ، ولقد كان فرض الضرائب على المنازل سبباً كافياً استغله دعاة الثورة لإثارة الهياج فى نفوس من لم تستفزهم الدعاية الدينية »

لجنة الثورة

كان للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها ، ومقرها فى الأزهر ، وفى ذلك يقول ريبو :

« لقد اجتمع إلى جانب تذمر الأهالى واستيائهم نشر الدعاية إلى الثورة ، فكان فى الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على إثارة الكراهية فى نفوس الناقمين[3] » ، وقال الجبرتى بعد أن ذكر احتشاد الجماهير فى الطرقات : « ووافقهم على ذلك

(١) بتاريخ ٣١ يوليه سنة ١٧٩٨ ، مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠٧

(٢) حملة مصر الجزء الثالث

(٣) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية فى مصر الجزء الرابع

بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عاقبة الأمور ، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور » ، وظاهر أن الجبرتى يقصد بأولئك المتعممين الداعين إلى الثورة

ويقول نابليون فى مذكراته إن الشعب قد انتخب « ديواناً » للثورة ، ونظم المتطوعين للقتال ، واستخرج الأسلحة المخبوءة ، وإن الشيخ السادات انتخب رئيساً لهذا الديوان(١) ، وذكر فى تقريره إلى حكومة الديركتوار عن ثورة القاهرة أن « لجنة الثورة » كانت تنعقد بالأزهر

فالأزهر إذن كان مركز الثورة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقد شغل هذا المركز بعد أكثر من مائة عام ، فإن الأزهر خلال سنة ١٩١٩ كان فى فترة من الزمن المعسكر العام للثورة القومية التى قامت فى مصر عقب انتهاء الحرب العالمية ، والتاريخ يعيد نفسه

وقائع الثورة

أخذ دعاة الثورة يحرضون الناس على التمرد والانتقاض على الفرنسيين ، وشرعوا فى الوقت نفسه يثيرون الشكوك والريب حول أعضاء الديوان ويتهمونهم بممالأة الفرنسيين حتى لا يستمع الجمهور لنصائحهم فى الإخلاد إلى السكينة ، وقد أفلحوا فى إحراج مركز أعضاء الديوان ، فأخذت منزلتهم تتضعضع فى نفوس الشعب

وكانت الدعوة إلى الثورة تتردد على ألسنة الأهالى ، لكنها لم تقابل فى مبدأ الأمر إلا بعطف الناس وميلهم دون أن تقترن بإعلان الثورة فعلا ، حتى جاءت الضرائب الجديدة فزادت عدد الناقمين على الحكم الفرنسى ، وسرت روح الثورة إلى طبقة الملاك والتجار وأصحاب الصناعات ، وجاء تنفيذ نظام الضرائب الجديدة على طريقة مثيرة للخواطر ، لأن تقييد الأملاك فى دفاتر الضرائب اقتضى معاينة المنازل والدخول فيها لتقدير قيمتها ، وهذا أمر يستفز الملاك ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وعينوا (الفرنسيون) المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى (من العقارات) ، وشرعوا فى الضبط والإحصاء ، وطافوا بالجهات لتحرير قوائم الأملاك وضبط أسماء أربابها »

وقد بدأ ذوو اليسار يتذمرون لأن الضرائب الجديدة أثقلت كاهلهم ، وهؤلاء وإن لم يشتركوا فعلا فى الثورة إلا أن إقرارهم لها أمدها بالمساعدات المادية والمعنوية ، وبذلك اشتركت طبقات الشعب كلها فى ثورة القاهرة ؛ واغتنم دعاة الحركة فرصة تذمر الشعب من

(١) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

الضرائب الجديدة فبدأوا يعملون لاهتياج الخواطر وإشعال النار ، وتعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ لرسم الخطة الواجب اتباعها ، فاجتمعوا ، وكان عددهم فى ذلك الاجتماع ثلاثين ، فاتفقوا رأياً على البدء بالعمل فى اليوم التالى ، وأزمعوا إقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب بجمع كبير من الشاكين إلى مركز القيادة العامة لرفع الصوت احتجاجاً على الضرائب الجديدة ، وبذلك تحدث فى المدينة حركة يكون منها الشغب والهياج ، فتكون مقدمة للثورة

اليوم الأول للثورة

٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

وقد وقع ما رسموا ، ففى اليوم الموعود ٢١ أكتوبر كانت القاهرة فى حالة لم يألفها الناس من قبل ، فكان الناس يتألبون فى الشوارع زرافات ، يشكون ويتهددون ، ويخطب بعض المعممين هذه الجموع فيشعلون نار الحماسة فى قلوبهم فتقابلهم الجماهير بالتأييد والتحبيذ ، وكان الناس يتلاقون على غير تعارف ، فيتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة ، وأخذت سمات الغضب تبدو على الشعب الهادئ الوديع ، وظهرت الأسلحة فى أيدى المتجمهرين فى الشوارع والميادين ، بعد ما كانت محجوبة عن الأنظار ، وأقبل الفلاحون وأهل الضواحى إلى القاهرة فاشتركوا فى هذا التجمهر ، وأخذت صيحات السخط واللعنات تنصب على الضرائب الجديدة وعلى الفرنسيين

قال ريبو يصف هذه الحالة : « سادت الجلبة ، واختلطت الأصوات ، وعلت الصيحات ، فكان هذا المنظر يبعث الرهبة فى نفوس أشجع الناس ، ولم يعد هناك شك فى أن الثورة قد بدأت »

وهرعت جموع الناس إلى بيت القاضى التركى إبراهيم أدهم أفندى (ويسميه الجبرتى بجمقشى زاده) ، وكان رجلا وقوراً يحترمه الناس وله فى نفوسهم مكانة ومنزلة ، وتقدم عشرون من المتجمهرين فقابلوا القاضى وقالوا له إنهم يريدون الذهاب إلى بونابارت ليلغى نظام الضرائب الجديدة ، وطلبوا منه أن يركب معهم ، فاستجاب لهم ، ولكنه لم يكد يتخطى عتبة داره حتى رأى الثائرين وجموعهم ترحف زحفاً ، فأدرك خطورة الأمر ، وقال للجمع إن هذه الطريقة ليست مما يتبع لتقديم شكوى ، واعتذر من مصاحبتهم ، وانكفأ إلى بيته ، فثارت نفوس الجماهير ونادوا : إلى بونابارت ! إلى بونابارت ! القاضى معنا إلى بونابارت ! ولما لم يقبل القاضى مصاحبتهم انهالوا عليه وعلى رجاله ضرباً بالعصى ورجماً بالأحجار

تلك رواية المراجع الفرنسية عن بدء الثورة ، وهى تقرب من رواية نابليون فى تقريره الذى أرسله إلى حكومة الديركتوار بتاريخ ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ عن وقائع الثورة ، وقد كان تقريره موجزاً اجتهد فيه أن يقلل من خطورتها ، ولكنه وصف ابتداءها وصفاً دقيقاً بقوله : « . . . فى الساعة السابعة صباحا احتشد جمع كبير من الناس على باب القاضى إبراهيم أدهم أفندى ، وهو رجل محترم بأخلاقه وصفاته ، واختار الجمع عشرين من زعمائهم لمقابلة القاضى فى داره وألزموه أن يركب معهم ويحضروا إلىّ ، وقد طاوعهم القاضى وركب معهم إلى أن قابله رجل بصير بالأمور فأفهمه أن الجمع الذى يسير معه كبير جداً ، وسواده من الدهماء ، بحيث لا يمكن أن يكون مقصده ما يزعم من الشكوى وحديثها ، فأدرك القاضى وجاهة هذه الفكرة ونزل عن جواده ورجع إلى منزله ، فاستاء الجمهور وانهالوا على القاضى وحاشيته رجماً بالأحجار وضرباً بالعصى ، ونهبوا منزله »

كانت هذه الحادثة كإعلان للثورة ، فاحتشدت الجموع فى الجامع الأزهر يضجّون ويصيحون ، ويهتفون بالقتال ، وامتلأت الطرق والشوارع بالناس حاملين الأسلحة قاصدين إلى أحياء الفرنسيين لمهاجمتها

حدث كل ذلك والسلطات الفرنسية لم تحسب حساباً لهذه الجموع ، أو تتوقع حدوث ثورة ما ، ولم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمّت الثورة مدينة القاهرة كلها فى أسرع من لمح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم إلى مراكز المخافر الفرنسية ، فقتلوا الجنود والحراس

مقتل الجنرال ديبوى Dupuy

لم يقدر الجنرال ديبوى قومندان القاهرة[1] فى مبدأ الأمر خطورة الحالة ، وجاءته أنباء غامضة عن الهياج ، فلم يحسب له حساباً ، ولم يره أمراً ذا بال ، واكتفى بإنفاذ بعض دوريات من الجند ، ولكنه لم يلبث أن خُبِّر الخبر بما يدل على اشتداد الأمر وتفاقم الثورة ، فعزم على مواجهتها ، وكان الرجل معروفاً بالجرأة والإقدام ، فاصطحب ياوره الكابتن مورى Maury والمسيو بودوف Baudeuf التاجر الفرنسي ليكون ترجماناً له فى مخاطبة الجماهير ، وسار يقصد بيت القاضى ليتعرف أسباب الهياج ، وأصدر فى الوقت نفسه أمره إلى الجنود المرابطة فى بركة

(١) كان بمثابة حاكم القاهرة ولذلك يلقب (شيخ البلد) وهو اللقب الذى كان يعطى لرئيس المماليك فى القاهرة كما بينا ذلك فى الفصل الأول ، والجنرال ديبوى من قواد الجيش الفرنسى الذى حارب فى إيطاليا تحت قيادة نابليون قبل مجيئه إلى مصر ، وكان قومنداناً لميلان حينما اختاره نابليون ضمن قواد الحملة الفرنسية

الفيل[1] بأن تحمل السلاح وتتأهب للقتال ، ومضى فى كتيبة من الفرسان قاصداً مركز الهياج ، فسار من بركة الفيل إلى الموسكى واتجه إلى شارع الغورية ، وأراد أن يذهب إلى بيت القاضى (بين القصرين) ، ولكن الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صارت كأنها بحر يزخر بالناس ، فأخذ الجنرال ديبوى يشق لنفسه طريقاً بين هذه الجموع الصاخبة ، وتساقطت الأحجار على الكتيبة من الناس ومن المنازل ، فخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وهناك لقى جمعاً من الثوار أخذوا الطريق عليه ، فحاول بودوف أن يخاطب الناس ، فأجابوه بالسخط واللعنات ، ولم يحسب ديبوى حساباً لعواقب مواجهته هذه الجموع الثائرة ، فهجم عليها على رأس فرسانه ، فارتدت أول وهلة ، لكن الهجوم كان فى زقاق ضيق بحيث لم يستطع الفرسان أن ينطلقوا فى حركتهم ، فأطبق الناس على الجنرال ديبوى من كل جانب ، وفى هذا الوقت جاء برتلمى الرومى[2] فى شرذمة من رجاله لنجدة الجنرال ديبوى ، وكان برتلمى هذا مشهوراً بالقسوة والفظاعة ، فأطلق رصاصته على الجموع المحتشدة ، فكانت هذه الرصاصة شؤماً على الجنرال ديبوى أثارت غضب الجماهير ، فهجموا على الفرنسيين وبينهم ديبوى ، وانهالوا عليهم ضرباً بالعصى ، ورجماً بالأحجار ، وأخذاً بالسيوف ، وطعناً بالرماح ، ورشقاً بالسهام ، فأدرك ديبوى حرج الموقف ، لكنه لم يجد لنفسه ولا لجنوده مفرا ؟ وفيما هو كذلك أصابته طعنة رمح فى ثديه الأيسر فقطعت شريانه ، وأراد ياوره الكابتن مورى أن يدافع عن قائده فسقط عن جواده ، وبالرغم مما أصاب ديبوى فإنه مد يده إلى ياوره يحاول رفعه عن الأرض ، فتفجر الدم من طعنته وخرّ صريعاً ، وهنالك خف الهياج والتجمهر فى الشارع ، ووصل الدكتور لارى Larrey كبير جراحى الجيش ليضمد جراح الجنرال ، ونقلوه إلى دار صديقه الجنرال جونو Junot بالأزبكية ، بيد أنه لم يفده إسعاف ، ولم ينفعه علاج ، وأسلم الروح متأثراً من جراحه.

ذاع خبر مقتل ديبوى فى أنحاء المدينة كالبرق ، فحمى الثوار وامتلأوا حماسة ، وظنوه سهلا عليهم وقد قتلوا قومندان المدينة أن يقتلوا القواد والجنود فى الشوارع ، وانحازت

(١) كان الجنرال ديبوى يسكن ببيت إبراهيم بك ببركة الفيل

(٢) يسميه الجبرتى برطلمين الرومى ، وكان العامة يسمونه «فرط الرمان» ، وهو كما يقول الجبرتى من أسافل الأروام العسكرية القاطنين بمصر ، وكان من الطوبجية عند محمد بك الألفى ، وله حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة ، وكان مشهوراً بالقسوة والفظاعة وكراهيته الأهالى ، عينه الفرنسيون (كتخدا مستحفظان) أى وكيل المحافظ ، فكانت له سطوة كبيرة فى عهدهم ، وسفك دماء كثيرة وضج الناس من فظائعه وشروره

الجموع الهادئة إلى صفوف الثورة متشجعين بهذا « النصر الأول » ، فزاد عدد الثائرين وتضاعف ، واشتدت حمية القتال فى نفوسهم ، واستولوا على المواقع المحيطة بمعظم خطط القاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية إلى جهة البندقانيين ، واتخذوا من مساطب الحوانيت متاريس أقاموها فى الشوارع والحارات يستدفعون بها الجنود ويعرقلون سيرهم ، وأخذوا يطلقون النار من خلالها ، وزادت جموع الثائرين بمن انضم إليهم من أهل الضواحى الذين أقبلوا من طريق الأهرام وبلبيس

ولما بلغت الثورة هذا المبلغ أطلق مدفع الخطر ، وضرب النفير العام صائحاً بالجنود الفرنسية إلى القتال ، فأخذوا يتجمعون ويطلقون النار على الثوار فى الشوارع وخلف المتاريس ، وطفقت جموع الثوار تحتشد فى حى الأزهر ، وامتنع بالجامع الأكبر خمسة عشر ألفاً من أشد الثوار حماسة ، وأقاموا المتاريس فى الطرق والأزقة الموصلة إليه

وهنا حضر نابليون إلى القاهرة ، فإذا هى كالشعلة يضطرم نارها ، حضر وصحبته الجنرال كافاريللى Caffarelli ودورمارتان Dommartin والكولونل ديتروا Detroye وأخذ يعد ما استطاع لمواجهة الثورة

وصف الثورة
بقلم شاهد عيان

للكولونل ديتروا يوميات كان يدون فيها وقائع الحملة الفرنسية ، فوصف الثورة كما شاهدها ، قال :

« ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٨ — الساعة السادسة صباحا ، احتشدت الجموع فى عدة أحياء من القاهرة ، وعلت أصوات السخط والاستياء ، وأخذ الناقمون يعددون أسباب سخطهم ، وصاح المؤذنون على مآذنهم ينادون نداءات مثيرة للخواطر ، وانثال الناس مسلحين بالبنادق والعصى يقصدون الاجتماع فى صعيد واحد ، ثم أقفلت الدكاكين ، وفى نحو الساعة الثامنة صباحا علم الجنود الفرنسية بهذا الشر فتأهبت للقتال ، وكان القائد العام مطمئناً لموقفه فركب جواده وصحبه من القواد كافاريللى ودومارتان ، وكنت معهم ، وذهبنا نتفقد استحكامات مصر القديمة وجزيرة الروضة ، وفى نحو الساعة العاشرة جاءه الخبر أن القتال قد بدأ فى المدينة (١)

(١) جاء فى مذكرات نابليون أنه غادر القاهرة فى شروق ذلك اليوم لزيارة ترسانة (دار صناعة) الجيزة قبل نشوب الثورة ، وأنه عاد إلى القاهرة فى الساعة التاسعة صباحاً ، على أن شهادة الجنرال ديتروا تدل يقيناً على أن نابليون كان وقت نشوب الثورة فى القاهرة ولكنه غادرها إذ لم يساوره بدء الأمر قلق من وقائعها الأولى ، ورواية ديتروا أدق وأدعى إلى الثقة لأنه كان يدون مذكراته يوميا ، وقد مات فى حصار عكا ، أما نابليون فأملى مذكراته على الجنرال برتران فى منفاه بسانت هيلين بعد أكثر من ستة عشر عاماً مضت من وقوع هذه الحوادث

وأن أناساً قتلوا من الفريقين ، وأن الجنرال ديبوى قومندان القاهرة ضمن القتلى صرعه الثائرون برمية سهم نفذت إلى ثديه ، وكان فى كتيبة من الفرسان ذهب القتل بكثير منهم

« رجعنا إلى المدينة ولما دخلنا من جهة مصر القديمة أمطرنا الثائرون مطراً من الحجارة ، فعدنا أدراجنا وقصدنا باب بولاق ، ودخلنا منه فرأينا المدينة فى أفظع حالة ، سمعنا طلقات البنادق فى كل مكان ، رأينا الجثث ملقاة على الأرض هنا وهناك ، وسرايا (دوريات) الجنود يهاجمها الثائرون فى كل جهة فيضطر الجنود غالباً إلى التقهقر راجعين إلى مواقفهم الاحتياطية ؛ وفى حى الفرنسيين نفسه قريباً من المعسكر العام بينما كنت على رأس جماعة من حرس القائد العام هاجمنى ١٥٠ من الثائرين ، ولم أستطع إنقاذ حياتى إلا بعد أن قتلت من تفرست أنه رئيسهم وفتحت ثغرة فى صفوفهم ، وكان الفرنسيون وقتئذ يحتلون المواقع الآتية :

١ « القلعة (قلعة الجبل) حيث كانت لنا مدفعية قوية ، وميدان بركة الفيل حيث كان يعسكر معظم الجنود ، ثم ميدان الأزبكية مقر القيادة العامة وكان يحميه ١٥ مدفعاً ، وقد أمكننا بعد جهد وصعوبة أن نمد الاتصال بين هذه المواقع المختلفة

« أما المعسكر العام للثائرين فكان الجامع الكبير المسمى بالأزهر ، ذلك المسجد الجميل الذى طارت شهرته فى أنحاء المشرق ، وقد أقام الثائرون المتاريس على منافذ الشوارع المفضية إليه ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة

« أدرك القائد العام خطر الحالة واستفحال الثورة وإقبالها بوجهها المرعب المخيف ، وأغضبه انتصار الثائرين على عدد كبير من الجنود وهجومهم على دار فرقة الهندسة[1] ونهبهم أدواتها ، ثم بخاصة قتلهم الجنرال ديبوى ، فأمر الجنرال دومارتان قومندان المدفعية أن ينصب المدافع على ربى المقطم إلى شرقى القلعة لتعاون مدافع القلعة فى إطلاق القنابل على الجامع الأزهر »

هذا ما رواه الكولونل ديترو فى يومياته عما شاهده من حوادث اليوم الأول للثورة وعن الاستعداد لليوم الثانى ، ونزيد عليه أن نابليون أمر بأن يتولى الجنرال جونو Junot قيادة الجنود المعسكرة فى الأزبكية وإقامة مخافر من الجنود لمراقبة الجهات المجاورة لها ، وتسيير طلائع مسلحة لاكتشاف جهات القاهرة ، ووضع مدافع على منافذ الشوارع المهمة ، وأمر بتعيين الجنرال بون Bon قومنداناً للقاهرة خلفاً للجنرال ديبوى ، وكلفه « اتخاذ اللازم لإعادة النظام فى المدينة » (أمر ٣٠ فاندمير — ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ، وعهد إلى الجنرال لان Lannes الذى كان معسكراً فى مصر القديمة أن ينتقل بجنوده فى فجر اليوم التالى

---

(١) بيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر ، وكان يسكنه الجنرال كافريللى رئيس فرقة الهندسة

ليحتل المرتفعات القائمة خارج المدينة ومعه من المؤونة ما يكفى الجنود مدة يومين

وقد أرسل الجنرال بون بعد تعيينه التقرير الآتى إلى نابليون يصف فيه حالة المدينة الثائرة :

« ٢١ أكتوبر الساعة العاشرة مساء ، إن مركز الثورة لايزال فى حى العرب حيث يوجد الجامع الأكبر — الأزهر — وقد أحاط الثائرون هـذا المعسكر بالمتاريس التى سدت جميع الشوارع المفضية إليه ، ولم نستطع كشف هذه الشوارع لأن الظلام يخيم عليها ، وقد أطلق الرصاص على طلائعنا ، والمظنون أن الغد كاليوم ، فلا سبيل غداً إلى تشتيت الجموع المسلحة التى تتدفق من هـذا المعسكر الثورى ، لذلك أرى فى هـذه الحال أن تقرروا اتخاذ وسائل الشدة والصرامة »

اليوم الثانى للثورة

يوم الاثنين ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨

انقضى الليل فى سكون ، والفريقان يتأهبان للغد ، وانتقل الجنرال دومارتان ليلا ونصب المدافع على سفح المقطم بالقرب من القلعة ، أما دعاة الثورة فقد ذهبوا فى جنح الليل إلى القرى المجاورة يستصرخون الناس للقتال ، وفى الفجر كان أهالى هذه الضواحى يتوافدون على المدينة ، وكان معظم أبواب القاهرة لم تزل فى أيدى الثوار ففتحوها لهم ودخلوا المدينة وجابوا شوارعها حاملين أسلحتهم من عصى ورماح وبنادق

وبدأ النهار بتجمهر الناس فى الشوارع ، وكانت صيحات المتجمهرين تشق إلى السماء ، وأخذ نابليون ينفذ الخطة التى وضعها فى ليلته ، فوجه إلى كل جماعة من الثوار القوة الكافية للتغلب عليهم ، وعلم أن حشداً من الثوار قدرهم فى مذكراته بين سبعة آلاف وثمانية آلاف خرجوا من باب الفتوح يرمون إلى الهجوم على المرتفعات المركبة فيها المدافع ، فصدتهم الجنود الفرنسية وفرقت شملهم ، وصعد جموع من الثوار على أسطحة جامع السلطان حسن ومناراته لضرب القلعة ومن فيها من الجنود ، فلم يفوزوا بطائل ؛ وكانت كتيبة من الجنود الفرسان ومعها مدفعان تحتل مدخل الحارة الموصلة إلى ميـدان الأزبكية ، فعزم الثوار على مهاجمة هذه الكتيبة ولـكنهم لم يستطيعوا أن يهاجموها من الشارع ، فتسلقوا المنازل وعلوا الأسطحة القريبة واحتلوا جامعاً صغيراً يشرف على موقع الكتيبة وأصلوها ناراً حامية قتلت الكثير من الجنود ، فهجم العسكر على المسجد وحطموا أبوابه وقتلوا معظم الثوار بنار البنادق والمدافع ، وتنفيذاً لتعليمات نابليون وزع الجنرالات لان Lannes وفو Vaux والكسندر دوماس Dumas جنودهم بعد الفجر فى ضواحى القاهرة لمنع سكانها أن ينحازوا إلى ثوار

العاصمة ، وقد صدت القوات الفرنسية جموعاً كثيرة من الأهالى وحالت بينهم وبين العاصمة ، وبذلك تمكن نابليون من حصر الثورة فى المدينة وعزلها عن البلاد المجاورة

مقتل الكولونل سلكوسكى

وكان الكولونل سلكوسكى Sulkówski ياور نابليون ممن عهد إليهم إنفاذ هذه المهمة ، فركب فى الصباح ومعه كتيبة من حرس القائد العام ومضى على طريق بلبيس ليصد الأهالى منه ، وفيما هو عائد إلى القاهرة من (باب النصر) تلقاه الثوار وأرادوا منعه هو وكتيبته من دخول المدينة ، فهاجمهم سلكوسكى بشرذمة من الجنود ، وفى أثناء القتال كبا جواده وألقاه على الأرض ، وكان لم يزل يشكو من جراحه التى أصابته فى معركة الصالحية ، فهجم عليه الثوار وقتلوه ؛ وكان هذا الضابط بولونى الأصل سليل بيت من البيوت العريقة ، هاجر من بلاده فراراً من الظلم وتطوع فى الجيش الفرنسى ، وكان من قبل مجاهداً فى سبيل حرية بلاده تحت لواء كوشيسكو بطل بولونيا الشهير ، فلما هزم كوشيسكو تطوع فى الجيش الفرنسى وعينه نابليون ياوراً له تقديراً لكفايته وإعجاباً بعواطفه النبيلة ، وكان على جانب من العلم والذكاء ، فجعله عضواً بالمجمع العلمى بمصر ، وكان لكل ذلك موضع عطفه واحترامه ، فلما جاءه نبأ مقتله حزن عليه حزناً شديداً ونعاه إلى حكومة الديركتوار فى التقرير الذى بعث به إليها عن ثورة القاهرة

وساطة أعضاء الديوان

وفى ضحوة هذا اليوم جاء أعضاء الديوان لمقابلة نابليون يسألونه الكف عن الضرب ، فتلقاهم بفتور ورماهم بالتهاون فى منع الثورة ، وبعد مناقشة بينهم أمهلهم حتى يعودوا إلى الثوار ويدعوهم إلى إلقاء السلاح والإخلاد إلى السكينة ، وفى الوقت نفسه أمر الجنرال دومارتان قومندان الطوبجية بأن يمسك عن ضرب المدينة بالمدافع إلى أن تصله أوامره

وكانت كتائب الجنود قد تغلبت على الثوار فى معظم أحياء المدينة وانحصرت الثورة فى حى الجامع الأزهر وما حوله ، فذهب أعضاء الديوان إلى الأزهر لينصحوا الثوار بالكف عن القتال ، فلم يأبهوا لهم ، ومنعهم الثوار أن يتخطوا المتاريس وأبوا عليهم الدخول إلى الأزهر ، ولم يبلغ المشايخ إلى نابليون ما انتهى إليه سعيهم ، وكان نابليون يرقب حركات الأزهر من الصباح ويصدر تعليماته إلى القواد على ما يقتضيه تحول الحال

ففى الصباح أرسل له الجنرال بون قومندان القاهرة يطلب منه أوامره ، ويقول فى رسالته :

« إن الدوريات التى اكتشفت فى فجر يومنا هذا حى الأزهر أبلغتنى أن السكينة سائدة عليه ، لكن دوريات أخرى أنبأتنى بعد ذلك أن الحال غير هذا ، ومن الواجب التذرع بالشدة لتفريق الجموع المسلحة التى تحتشد فى هذا الحى ، وإنى منتظر أمركم ، ومن رأيى أن نميل بقواتنا على هذا المسجد ، ولكن من الصواب أن نزحف عليه من كل الجهات التى تفضى إليه »

فأنفذ الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب فى الساعة الثانية بعد الظهر إلى الجنرال بون تعليمات القائد العام وهى :

« عليكم أن تهاجموا لفوركم معسكر الثائرين ، وأن تضربوا الأزهر بالمدافع ، ولتكن المدافع فى أصلح موقع ليكون الضرب أشد أثراً ، بلغوا الجنرال « دومارتان » أن يفعل مثل ذلك وأن يستولى على مدخل الأزهر والمنازل الموصلة إليه ، وعليكم أن تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع ، والقائد العام يأمر أن تقتلوا كل من تلقونه فى الشوارع المسلحة ، وعليكم أن تعلنوا الأهالى بأن كل المنازل التى تلقى منها الحجارة تحرق حالا بالنار ، ويعفى عن المنازل الأخرى ، وعليكم أن تقتلوا كل من فى المسجد وأن تضعوا فيه حرساً قوياً من الجنود »

ضرب المدينة بالمدافع

وبينما كان الثائرون مجتمعين فى الأزهر قذفت أول قنبلة من المدافع القائمة على ربى المقطم ، فانفجرت فى المسجد ، وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء ضرب المدينة بالمدافع

يقول ريبو[1] إن إطلاق القنابل بدأ فى الساعة الرابعة تماما ، لكن الكولونل ديترو يقول فى يومياته إن الضرب ابتدأ فى الظهر واستمر إلى الليل ، وروايته أدعى إلى الثقة لأنه شاهد لتلك الحوادث شهادة عيان

أخذت آلاف القنابل تنهال على الأزهر وتترامى فى الأحياء المجاورة له كالصنادقية والغورية والفحامين ، وتنفجر بهول لم يعهده سكان القاهرة من قبل ، فألقت الرعب فى نفوس الناس ، وفى الوقت نفسه أقبلت كتائب الجنود فاحتلت الشوارع الموصلة إلى الأزهر بحيث أصبح الثوار محصورين بين نارين : نار المدافع من فوقهم ونار الجنود من حولهم ، وأحدثت المدافع تخريباً فى الجامع الأزهر والبيوت القائمة فى الأحياء المجاورة له ، فأصبح منظر هذه الأحياء فظيعاً لما شوهها من آثار الخراب ، قال « ريبو » يصف تأثير الضرب :

« أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فيدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

فيه ، وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يُرى فيه إلا بيوت مدمرة ودور محترقة ، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين كان يسمع لهم أنين موجع وصيحات مرعبة ، وكانت الجهات القريبة من الأزهر ولا سيما شوارع الغورية والصنادقية مسرحاً لهذه المشاهد الفظيعة »

ويقول الجبرتى فى هذا الصدد : « تتابع الرمي من القلعة والكيمان ، حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزلت فى البيوت والوكائل ، وأصمّت الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم الخطب ، وزاد الحال والكرب ، ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل ، فلما ذهبوا إليه عاتبهم فى التأخير ، واتهمهم بالتقصير ، فاعتذروا إليه فقبل عذرهم ، وأمر برفع الرمى عنهم ، فقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان فى المسالك »

قال ريبو إن الضرب انتهى فى نحو الساعة السادسة مساء ، ويقول المسيو مارتان Martin أحد مهندسى الحملة الفرنسية وهو شاهد عيان لتلك الحوادث أن الضرب انتهى الساعة الثامنة مساء[1] ، فوقع الاختلال فى صفوف الثوار وطلبوا الهدنة والتسليم ، وانتهت المفاوضة بإلقاء السلاح ورفع المتاريس فدخل منها الجنود حتى وصلوا إلى الجامع الأزهر ، فعسكروا فيه طول الليل ، وبذلك انتهت ثورة القاهرة ، وباتت المدينة تلك الليلة غارقة فى لُجّة من الظلام ولجة من الفزع

قمع الثورة

تغلبت قوة الحديد والنار مرة أخرى على مقاومة شعب أعزل لا سلاح معه ، واستهدف سكان القاهرة بعد إخماد الثورة لأشد ضروب الانتقام ، ونزلت بهم النوازل بخطوبها وأهوالها

قدر الكولونل ديترو فى يومياته قتلى الأهالى بسبعمائة إلى ثمانمائة رجل ، لكن هذا التقدير دون الحقيقة بمراحل ، فضلا عن أنه لم يحص الذين ماتوا تحت أنقاض الدور المتهدمة والمنازل التى خربت أو احترقت

أما نابليون فأحصاهم فى تقريره إلى حكومة الديركتوار بعدد يتراوح بين ٢٠٠٠ و٢٥٠٠ قتيل ، وقدر ريبو عدد ضحايا الثورة بأربعة آلاف ، ولعله اعتمد فى هذا العدد على تقدير الجنرال « بليار » Belliard فى مذكراته ، فإنه قدرهم بهذا العدد وهو أقرب إلى الثقة

وبلغت خسارة الفرنسيين ٢٠٠ قتيل منهم جنرال وهو (ديبوى) وكولونل (سلكوسكى)

(١) تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر تأليف المسيو مارتان

وبعض الضباط والمهندسين ، والباقى من الجنود ، وقد يكون قتل بعض المهندسين مدعاة للتعجب ، إذ ما شأنهم بثورة قامت بين الأهالى والجنود ؟ على أن نابليون فى مذكراته يبين لنا السبب ، فهو يقول إن ضباط فرقة الهندسة كانوا هدفاً للشعب لأنهم هم الذين كانوا يتولون اقتلاع أبواب الدروب والحارات ونبش القبور وهدم البيوت وتحصين القلعة ، ولعل هذ امن أهم أسباب مهاجمة الثوار لبيت الجنرال كافريللى رئيس فرقة الهندسة الذى كان يسكن ببيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر ، فقد هجم العامة على داره وكان غائباً عنها صحبة نابليون فى الروضة ، وكان بها اثنان من مهندسى القناطر والجسور وهما تيفنو Thevenot ودوفال Duval فقتلهما الثوار وأتلفوا ما كان بالدار من الآلات الفلكية والهندسية ، فخسر العلم بإتلاف هذه المجموعة خسارة كبيرة

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وكان بتلك الدار شىء كثير من آلات الصنائع والنظاوات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو معدوم النظير ، كل آلة لا قيمة لها عند من لا يعرف صنعتها ومنفعتها ، فبدد العامة كل ذلك وكسروه قطعاً ، وصعب ذلك على الفرنسيس جداً ، وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات »

وخسر العلم كذلك بقتل المسيو تستفيود Testeviude كبير المهندسين الجغرافيين وكان يشتغل بوضع خريطة مصر فعاجلته المنية قبل أن يتمها ، خرج صبيحة يوم الثورة (٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨) من دار المجمع العلمى بالناصرية وذهب إلى دار الجنرال كافريللى بالدرب الأحمر فقتله الثوار فى الطريق ، وقتل كذلك الرسام دوبرى Duperrés والجراحان روسل Roussel ومانجان Mangin

مروءة سكان القاهرة

ويعترف الكتاب والمؤرخون الفرنسيون أنه لا يصح نسبة شىء مما يعد من الفظائع فى ثورة القاهرة إلى المصريين ، وانه إذا كان ثمة فظائع ارتكبت ، فهى من عمل المغاربة الذين كانوا بالقاهرة ، وفضلا عن ذلك ، فإنهم يعترفون بأن الطبقة المتوسطة من سكان العاصمة قد برهنت فى خلال الثورة على مروءة كبيرة وعواطف نبيلة بإيواء الفرنسيين العزل من السلاح ، قال ريبو فى هذا الصدد : « إن جميع الفرنسيين الذين التجأوا إلى بيوت الطبقة المتوسطة، قد اطمأنوا فيها على حياتهم ، وألفوا بها النجدة والمروءه»[1]

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

وكتب المسيو فيفان دينون Vivant Denon وهو شاهد عيان لحوادث ثورة القاهرة يصف مروءة الطبقة المتوسطة من السكان : « لئن كان العامة وبعض الكبراء والأتقياء قد ظهروا قساة فى ثورة القاهرة ، فإن الطبقة المتوسطة من سكان المدينة برهنت على أسمى عواطف الإنسانية والمروءة ، رغم فوارق العادات والأخلاق والدين واللغة التى كانت تفصل بيننا ، فبينما كانت صيحات التحريض على القتل تسمع من المآذن ، وبينما كان شبح الموت والدم ينتقل فى الشوارع ، فإن أصحاب المنازل التى كان يسكنها الفرنسيون قد آووهم وأظلوهم بحمايتهم وأمدوهم بما يحتاجون ، فمن ذلك أن عجوزاً كانت تسكن بالحى الذى كنا نقيم به[١] فأخبرتنا أنه لا يفصل بيننا وبينها إلا حائط مشترك ، وأنها مستعدة لأن تؤوينا فى بيتها ، وصرحت لنا فى حالة الهجوم علينا أن نهدم الحائط المشترك لنكون فى دارها ؛ وحدث أن جاراً لنا أمدنا بالمؤونة التى تكفينا دون أن نطلب منه ذلك ، مع أنه لم يكن بيع ولا شراء فى تلك الأوقات العصيبة ، إذ كانت المجاعة تهدد العاصمة ، ومحا هذا الجار كل المعلومات التى ترشد إلى مكاننا وجلس أمام دارنا يدخن الشبك كأنها داره ليصرف عنا أنظار الثوار ؛ وحدث أن اثنين من الفرنسيين كانا يسيران فى الشوارع فاختطفهما أناس مجهولون وذهبوا بهما إلى دار لا يعرفانها ، فخيل إليهما أنهما وقعا فى كمين ولم يشكا أنهما صارا فريسة القتل والتعذيب، فثارت ثائرتهما ، ورأى المسكون بهما أنهم لم يستطيعوا إقناعهما بحسن نيتهم ، وأنهم لا يريدون إلا إنقاذهما ، فأودعوهما أطفالهم ليطمئنا على حياتهما ، ويمكن إيراد وقائع أخرى كثيرة من أشباه هذه الحوادث تدل على رقة الشعور ، وتبرهن على أن عواطف الإنسانية تتجلى فى أشد الساعات بأساً[٢] »

فظائع الفرنسيين

فى إخماد الثورة

أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة فى إخماد الثورة بلغ على أرجح الروايات أربعة آلاف ، ولاجدال فى أن قمع الثورة ، فى مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ، ما كان يدعو إلى إفناء هذا العدد الكبير من السكان ، على أن قواد الفرنسيس لم يكن همهم إلا قمع الثورة بكل وسائلهم فى الصرامة والإرهاب ، ولم يحسبوا حساباً لتضميد جرح

(١) حى الناصرية حيث كان المجمع العلمى.
(٢) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا للمسيو فيفان دينون

النفوس ، واجتذاب قلوب الشعب بعد هذه الضربة ، والواقع أن ثورة القاهرة وما تخللها وأعقبها من الفظائع ، قد باعدت بين المصريين والفرنسيين ، فالدماء التي سالت في شوارع العاصمة في أيام ٢١ و ٢٢ و٢٣ اكتوبر وما بعدها قضت نهائياً على آمال نابليون في اكتساب قلوب الشعب المصرى ، على أنك إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلادها إلى السكينة ، وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ، ولهى أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام

وحسبك أن ترجع إلى ما رواه الجبرتى عن تلك الفظائع ، وبخاصة انتهاكهم حرمة الأزهر لتحكم أنها فوق ما توصف به من الفظاعة

قال الجبرتى : « وبعد هجعة من الليل (ليلة الثلاثاء ٢٣ أكتوبر)، دخل الإفرنج المدينة كالسيل ، ومروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جند إبليس، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخلت طائفة من باب البرقية ، ومشوا إلى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجموا ، وعلموا باليقين ، أن لا دافع لهم ولا كمين، وتراسلوا أرسالا ، ركباناً ورجالا ، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها . . . وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه . . . ومن ثيابه أخرجوه »

هذا بعض ما كتبه الجبرتى وصفاً لتلك المأساة التي أعقبت تسليم القاهرة ، على أن الفظائع لم تقتصر على اليوم الذى أخمدت فيه الثورة ، بل استمرت بعد ذلك ولا ضرورة إليها من حرب ولا من سياسة

ففى يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر غداة إخماد الثورة بعد أن سادت السكينة واستولى الفزع على النفوس كانت الجنود لم تزل مرابطة بالأزهر وما حوله ، فكانوا يمنعون الناس دخول الجامع ، وشردت الجنود في الأحياء المجاورة للأزهر ، ونهبوا بعض البيوت بحجة التفتيش على السلاح ، حتى اضطر سكان تلك الجهة إلى التحول عن دورهم والنجاة بأنفسهم ، وأخذ الجنود يتسكعون في الأسواق ويقفون صفوفاً ، فإن مر بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه ، وربما قتلوه ، وصاروا يقبضون على الناس جزافا بحجة أنهم كانوا يخبئون السلاح أو أنهم اشتركوا

فى الثورة ، فوقع الفزع وكثرت الوشايات ، وراجت الدسائس ، وتعالت المفتريات ، وتعددت المظالم ، واستبيحت الحرمات ، وامتلأت السجون بالأبرياء ، وذاق الناس فيها أنواع الأذى والهوان ، وقتل منهم الكثير بلا محاكمة ولا حساب ، قال الجبرتى فى هذا المعنى :

« وانتدب برطلمين[1] للعسس ، على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث أعوانه فى الجهات ، يتجسسون فى الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم .. فيحكم فيهم بمراده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب فى موكبه ويسير ، وهم موثوقون بين يديه بالحبال ، يسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجونات ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم (يكرهونهم على الإقرار) بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن آلات السلاح والحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض ، وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الأغا[2] ، وتجبر فى أفعاله وطغى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفى بحر النيل قذفوهم ، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها إلى الله »

وكانت التعليمات التى أصدرها الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب (وهى صادرة بأمر القائد العام) بعد إخماد الثورة تأمر بالصرامة والغلظة والقسوة ، أنظر إلى الأمر الذى أصدره الجنرال بون Bon بتاريخ ٢٣ أكتوبر :

« يُهدم الجامع الأكبر ليلا إذا أمكن ، وتُرفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع » ، تجد أن أعمال الفرنسيين جاوزت الغرض من إخماد الثورة إلى الانتقام والإرهاب ، ويعترف المؤلفون الفرنسيون بأن إعدام كثير من المتهمين فى الثورة تم سراً فى القلعة[3] من غير محاكمة ، فقُتلوا بحد السنك ، ويعترف القواد الفرنسيون فى رسائلهم التى تبادلوها بالفظائع التى ارتكبت فى قمع الثورة ، كتب الجنرال برتييه بتاريخ ٢٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨ إلى الجنرال دوجا Dugua قومندان مديرية المنصورة وقتئذ يخبره بحوادث الثورة قال :

« لقد نكلنا بالثائرين فى مذبحة رهيبة فسادت السكينة مساء أمس ، وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف »

---

(١) هو برتلمى الرومى الذى سبق الكلام عليه بهامش ص ٢٢٥

(٢) هو مصطفى أغا ، وقد عينه الفرنسيون محافظا للمدينة بعد أن عزلوا محمد السلمانى الذى كان معينا بإشارة أعضاء الديوان كما سبق بيان ذلك بالفصل الثالث ، ويقول الجبرتى عن مصطفى آغا إنه كان تابع (خادم) عبد الرحمن أغا مستحفظان (محافظ المدينة) سابقا

(٣) دى لاجونكيير الجزء الثالث

وأمر نابليون الجنرال برتييه بتاريخ ٢٣ أكتوبر أن يصدر تعليماته إلى قومندان المدينة « بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أخذوا ومعهم أسلحة ، وعليكم إرسال الجثث فى هذه الليلة إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها فى النهر »

وأرسل نابليون بتاريخ ٢٦ أكتوبر إلى الجنرال رينييه Reynier قومندان الشرقية يقول : « عادت السكينة إلى القاهرة ، وفقد الثائرون نحو ألفى قتيل ، وفى كل ليلة نقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالى ، وأظن أن هذا سيكون درساً قاسياً لهم »

وفى مذكرات نابليون رواية مخففة لهذه الفظائع ، قال : « إن رجال الشرطة قبضوا على ثمانين من أعضاء لجنة الثورة وسجنوهم بالقلعة ، وإن نحو أربعة آلاف من سكان العاصمة هاجروا منها قبل شروق الشمس قاصدين إلى السويس ليلتجئوا إليها (وكان الفرنسيون لم يحتلوها بعد) وإن أعضاء لجنة الثورة (أى الثمانين) قد أخذوا بذنبهم وثبتت إدانتهم ، فأصدر المجلس العسكرى يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قراراً بإعدامهم جميعاً ونفذ فيهم الحكم[(١)] » ، ولعل هؤلاء هم الذين أعدموا سراً بدون محاكمة كما يقول دى لاجونكيير

وقد أسرف الفرنسيون فى القتل ، ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء ، فقتلوا كثيراً منهن ، وهذا من أفظع ما سمع فى التنكيل وسفك الدماء ، قال المسيو بوريين سكرتير نابليون الخاص فى مذكراته : « سيق المسجونون إلى القلعة ، وكنت أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجيناً كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل ، واستمر ذلك ليالى عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الإعدام الليلية[(٢)] »

وفى مذكرات نابليون أيضاً أن الشيخ السادات الذى انتخب رئيساً للجنة الثورة نفى عن نفسه تهمة التحريض على الثورة بأنه كان مريضاً ، وقد تردد نابليون فى شأنه وقال فى مذكراته إنه مع قيام البينات على أنه زعيم الثورة فقد عفا عنه ، ورأى أن الضرر من قتله أكثر من نفعه لما كان له من المنزلة الرفيعة فى الشرق ، ولأن قتله يجعله شهيداً فى نظر الشعب[(٣)] .

أما الذين حوكموا رسميا من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم : الشيخ إسماعيل البراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ سليمان

(١) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين
(٢) مذكرات بوريين الجزء الأول
(٣) مذكرات نابليون

الجوسق (شيخ طائفة المكفوفين) ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، وكلهم من أواسط علماء الأزهر ، حُبس هؤلاء المتهمون فيمن قبض عليهم، بعد إخماد الثورة ، ولم يكن أحد يعلم التهمة التى أُخذوا بها

وفى يوم الأربعاء ٢٤ اكتوبر ذهب إلى نابليون وفد كبير من الشيوخ يسألونه العفو عن أهل المدينة لتطمئن قلوب الناس ويسكن روعهم ، فوعدهم كما يقول الجبرتى « وعداً مشوباً بالتسويف» ، وطالبهم بإرشاده عمن تسبب من المعممين فى إثارة العوام ، فلم يتهموا أحداً ، فقال لهم القائد العام على لسان الترجمان : « نحن نعرفهم واحداً واحداً » ، ثم طلبوا منه إخراج الجنود من الجامع الأزهر ، فأجابهم إلى ذلك ، وأمر بإخراج الجنود على أن يبقى سبعون جندياً أسكنوهم فى خط الأزهر للمحافظة على النظام ، فكأن الأزهر بقى محتلا من ليلة الثلاثاء إلى يوم الأربعاء ، ويقول نيقولا الترك فى كتابه[1] : إن نابليون رفض طلب كبار العلماء إخراج الجنود من الأزهر ، وقبل شفاعة الشيخ محمد الجوهرى الذى جاءه متوسلا ، وكان فى حياته لم يقابل حاكما قط ، فلما دخل على نابليون قال له ما قابلت حاكما عادلا كان أو ظالما ، والآن قد أتيت متوسلا إليك أن تأمر بإخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فقبل نابليون رجاءه ، وأمر بإخراج الجنود من الأزهر

ولما علم الشيوخ باعتقال المتهمين بالتحريض على الثورة شفعوا لهم ، واختلفوا إلى ولاة الأمور من الفرنسيين لإطلاق سراحهم ، فلم يتلقوا جواباً صريحا ، وقبض كذلك على إبراهيم افندى كاتب جمرك البهار ، واتهم بأنه ألّب الجموع ، وكان يوزع عليهم السلاح والمساوق ، وأنه كان يؤوى عدة من المماليك والرجال المعدودين ، وقد تردد الشيوخ غير مرة للإفراج عنه وعن باقى المتهمين ، أما إبراهيم افندى فقبل نابليون فيه شفاعة الشيخ محمد المهدى ورجاء المسيو بوسليج مدير الشئون المالية ، فأطلق سراحه ونقل إلى بيته ، وأما باقى المشايخ المتهمين فقد بقوا فى السجن ، وهناك حكم عليهم بالإعدام يوم ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، وكانت محاكمتهم فى السر ، فلم يعلم بها أحد ، ونفذ فيهم الحكم يوم ٤ نوفمبر ؛ فى الساعة الثامنة صباحاً جيء بهم إلى القلعة مخفورين بشرذمة من الجنود ، وهناك تلى عليهم حكم الإعدام ، وأعدموا رمياً بالرصاص[2] ، وتولى تنفيذ الحكم فيهم برتلمى الرومى ، وغيّب حالهم عن

(١) ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية . تأليف المعلم نيقولا الترك (الذى شهد وقائع الحملة الفرنسية)

(٢) نشرت جريدة (كوربيه دليجبت) بالعدد الصادر فى ٢٠ بروميز (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨) نبأ إعدام هؤلاء المشايخ وذكرت أنهم ستة لا خمسة كما يقول الجبرتى ، ونشرت أسماءهم كما ذكرها الجبرتى وأضافت إليهم السيد عبد الكريم ، وقالت إنهم أعدموا فى ميدان القلعة وقطعت رؤوسهم

أكثر الناس أياما ، ويقول الجبرتى : إنهم سجنوهم بالقلعة إلى الصباح، ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم من السور خلف القلعة ، وقد ذكرهم فى وفيات سنة ١٢١٣ هجرية ؛ فقال عن الشيخ أحمد الشرقاوى : إنه تولى التدريس بالأزهر بدلا من والده ، واجتمع عليه طلبة أبيه وغيرهم ، واشتهر ذكره ، وكان فصيح اللسان عظيم الجسم ولم يزل يدرس بالأزهر حتى انهم فى ثورة القاهرة

وقال عن الشيخ عبد الوهاب الشبراوى : إنه تولى التدريس بالمشهد الحسينى « وكان يقرأ كتب الحديث كالبخارى ومسلم ، ويحضر درسه الجم الغفير من العامة ، وكان حسن الإلقاء ، سلس التقرير ، جيد الحافظة ، جميل السيرة »

وقال عن الشيخ يوسف المصيلحى : إنه كان يتولى التدريس بجامع الكردى وإنه كان مهذب النفس ، لطيف الذات ، حلو الناطقة ، مقبول الطلعة ، خفيف الروح »

وقال عن الشيخ سليمان الجوسقى : إنه كان شيخ طائفة العميان ، تولى هذه المشيخة بعد وفاة الشيخ الشبراوى شيخها السابق ، وسار فيهم بشهامة وصرامة وجبروت ، وصار « من أعيان الصدور المشار إليهم فى المجالس ، تخشى سطوته ، وتسمع كلمته ، ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا »

وقال عن الشيخ إسماعيل البراوى : إنه ابن أخى الشيخ عيسى البراوى الشهير الذكر ، تصدر بعد وفاة والده مكانه ، «وكان قليل البضاعة تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتدخل ، وذلك هو الذى أوقعه فى حبائل الفرنسيس »

وقال الجبرتى عن أولئك المشايخ إنهم لم يعلم لهم قبر بعد مقتلهم

وذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان فى كتابه (تحفة الناظرين) : « ان الفرنسيس قتلوا من علماء مصر ثلاثة عشر عالما ، ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ، ونهبوا منه أموالا كثيرة ؛ وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا يدخله ، فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع ، ودشتوا الكتب التى فى الخزائن يعتقدون أن بها أموالا ، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف نفيسة »

وأمر الفرنسيون الأهالى الساكنين حول ميدان الأزبكية — حيث كان معسكر القائد العام وقواد الجيش — أن يتحولوا من بيوتهم ليسكن بها رجالهم العسكريون والملكيون الذين كانوا متوزعين من قبل فى القاهرة حتى يجتمعوا فى حى واحد ، إذ لم يعودوا يأمنون على

أنفسهم بين الأهالى ، وقد استيقنوا أن الشعب معادٍ لهم ، ساخط عليهم يتربص بهم الدوائر

وأصدر نابليون أمراً عسكرياً فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أذاعه بين الجنود ، يدل على مبلغ توقعه الوثبة من الشعب ، يأمرهم فيه أن لا يبتعدوا عن معسكراتهم ويستنكر حوادث الاعتداء والنهب التى وقعت من الجنود ، قال فى هذا الأمر :

« لقد قُتل بعض الفرنسيين فى يوم الثورة ، وهؤلاء من الذين لم يتبعوا الأوامر الصادرة إليهم ، ودعاهم الطيش إلى الابتعاد عن معسكراتهم والمغامرة بأنفسهم غير حاملين سلاحاً ، فعلى رؤساء الفرق ورؤساء الأقسام الإدارية مراقبة الجنود لكيلا يبتعدوا ولا يضعوا عنهم السلاح ، وعليهم أن يراقبوا اتباع النظام والأوامر العسكرية بين الجنود ، وعلى كل فرنسى أن يكون شاكى السلاح تام الذخيرة ، وإذا قامت قائمة فى المدينة فعلى كل فرد أن يلحق بفرقته أو الإدارة التى يستتبع لها منتظراً ما يؤمر به ، ولا يمنعنّ الأمن من الحذر ، ولتكونوا فى وقت السكينة معدّين لوقت الهياج ، فإن عدم الإغراق فى الاطمئنان أدعى للاطمئنان ، ولقد علم القائد العام أن بعض الجنود يستبيحون التسلل إلى المنازل ونهبها ، فعلى قومندان موقع القاهرة وقواد الفرق أن يتخذوا التدابير الفعالة ليلزم الجند حدود واجباتهم حتى لا يصم بعض الجنود سمعة إخوانهم ، ولا يكدروا صفو النظام والسكينة »

وأصدر أمراً آخر يحظر فيه على الجنود والضباط إصلاح أسلحتهم عند صناع الأسلحة (البندقلية) الوطنيين ، وأن يسترجعوا منهم كل الأسلحة التى لديهم

وانتُزعت الثقة مما بين الجنود والأهالى ، فكانت ثورة القاهرة كالهوة العميقة التى باعدت إلى الأبد بين الأمة المصرية والجيش الفرنسى ، وراح كل جندى لا يمشى إلا بسلاح بعد أن كانوا لا يمشون به أصلا من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل فى يده عصا أو سوطا أو نحو ذلك ، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكف هؤلاء من جهتهم عن الخروج والمرور بالأسواق من العشية إلى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدة والقسوة ، وشرعوا فى إحصاء الأملاك والمطالبة بالضرائب الجديدة التى كانت سبباً فى نشوب الثورة ، فلم يعترضهم فى ذلك أحد ، وساد حكم الإرهاب مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ولا طمأنينة

إبطال الديوان

وإنشاء القلاع لإخضاع القاهرة

أبطل نابليون اجتماع الديوان عقب إخماد الثورة عقابا لسكان القاهرة على ثورتهم »

وانصرف إلى تحصين المدينة وجعلها بمأمن من وقوع ثورة أخرى ، فأقام الفرنسيون القلاع على التلول المحيطة بالمدينة ونصبوا فيها المدافع ، وهدموا كثيراً من الأماكن بالجيزة ومصر القديمة وشبرا وحصنوها تحصيناً منيعاً ، وأقاموا المعاقل في أهم شوارع القاهرة ، وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة ، وهدموا عدة مساجد منها المساجد المجاورة لقنطرة إمبابه ومسجد المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان ، وقطعوا كثيراً من النخيل والأشجار لعمل الحصون والمتاريس ، وهدموا جامع الكازرونى بالروضة والجامع المجاور لقنطرة الدكة غربى الأزبكية ، وخربوا دوراً كثيرة ، وكسروا شبابيكها وأبوابها وأخذوا أخشابها ليجعلوها فى بناء الحصون الجديدة ، ولم يمض ستة أسابيع على إخماد ثورة القاهرة حتى أصبحت محاطة بسلسلة من القلاع والاستحكامات [1]

وأهم هذه القلاع طابية (ديبوى) سميت باسم الجنرال ديبوى Dupuy الذى قتل فى ثورة القاهرة ، وأقيمت على رابية من ربى الجبل بالمكان الذى ركب به الجنرال دومارتان مدافعه قرب القلعة ، والغرض من إقامتها فى هذا الموقع استهداف حى الأزهر للضرب ، وكانت تعرف فى القاهرة باسم قلعة الغريب لقربها من مقام الشيخ الغريب

وطابية (سلكوسكى) Sulkowski أنشأوها فى جامع الظاهر [2] فحولوا المسجد إلى قلعة ، واتخذوا مئذنته مرصداً للاستكشاف ، وبنوا بداخله عدة مساكن وأمكنة تسع ٦٠٠ فارس بخيولهم ؛ قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة ، ومنارته برجا ، ووضعوا على أسواره مدافع وأسكنوا به جماعة من العسكر وبنوا فى داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به » ، والجبرتى يسمى هذه الطابية قلعة جامع الظاهر ، ويسميها فى بعض المواطن القلعة الظاهرية ، أما الفرنسيون فسموها طابية سلكوسكى باسم الضابط البولونى الذى قتل فى ثورة القاهرة على مقربة من المسجد وقد روينا خبر مقتله ص ٢٢٩

وطابية « كامان » Camin [3] بالقرب من قنطرة الليمون بالطريق الموصل لبولاق ، يسميها الجبرتى قلعة قنطرة الليمون

وطابية (مويرور) [4] أقاموها فى حى طولون لإخضاع الحى

---

(١) بعض هذه القلاع أمر نابليون بإقامتها قبل ثورة القاهرة لكنها أقيمت فعلا بعد الثورة

(٢) الكائن بالميدان المعروف الآن بميدان الظاهر وكان وقتئذ خارج مبانى القاهرة أنشأه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

(٣) هو ضابط فرنسى كبير (ادجودان جنرال) قتله العرب على سواحل الإسكندرية جهة مريوط بالقرب من برج العرب

(٤) مويرور Muireur هو اسم جنرال فرنسى قتل فى دمنهور فى أوائل الحملة الفرنسية

وطابية (الناصرية) ، أقاموها فوق تل العقارب قريبا من دار المجمع العلمى ، ويسميها الفرنسيون طابية المجمع العلمى ، وكانت تعرف فى مصر بطابية قاسم بك

وحصّن نابليون جزيرة الروضة ، ووضع بطاريات من المدافع فى كل طرف من طرفيها ، وجعل من المقياس شبه قلعة ، وحصّن شاطئ النيل فى مقابل الجزيرة لحماية الملاحة فى النيل ، وجعل فم الجراة طابية حصينة سميت طابية الجراة (أو طابية السبع السواقى) ، وجعل قصر إبراهيم بك (قصر العينى) الواقع تجاه جزيرة الروضة مستشفى عسكرياً حصيناً يسع ألف مريض وجريح ، وألحق به البيت الذى بجواره ، وكان معروفا وقتئذ ببيت محمد كاشف الأرناؤوطى ، وجعله مخزناً ومصنعاً لفرقة الهندسة ، وحصّن السور المحيط بهما وركب عليه المدافع فصار حصناً منيعاً

قال الكولونل ديترو فى يومياته : « إن الغرض من إقامة هذه الحصون هو استهداف مدينة القاهرة إذا قامت ثورة فيها ، وقد وصّل بينها بطرق خارجة عن المدينة ، ولما كانت نية القائد العام متجهة إلى جعل المستشفيات ومخازن الجيش بمعزل عن المدينة وإسكان الفرنسيين فى حيين من أحيائها ، فمن المحقق أننا نستطيع أن نتغلب على كل هياج فى القاهرة »

وحصّن نابليون الجيزة وكانت من عهد المماليك محاطة بسور منيع أقيمت عليه الأبراج وبها دار صناعة (ترسانة) كبيرة من عهد مراد بك ، فجعلها نابليون مركزاً للمدفعية ومخازنها ومستودعاً للذخائر ، واختار الجيزة لهذا الغرض لموقعها على النيل وسهولة النقل منها وإليها بواسطة المراكب.

كلمة عن ترسانة الجيزة

ذكر الجبرتى هذه الترسانة فى ترجمة مراد بك فقال عنها ماخلاصته : إن مراد بك لما رجع من الصعيد(١) جعل إقامته بقصر الجيزة ، وأنشأ ترسانة عظيمة ، «وطلب صناع آلات الحرب من المدافع والقنابر والبنب (كذا) والجلل والمكاحل ، واتخذ بها أيضاً معامل للبارود خلاف المعامل التى فى البلد ، وأحضر أناساً من القليونجية (البحارة) الأروام وصناع المراكب فأنشأوا له عدة مراكب حربية وغلايين وجعلوا بها مدافع وآلات حرب على هيئة مراكب الروم ، وصرف عليها أموالا عظيمة ، ورتب بها عساكر بحرية ، وأدر عليها الرواتب والأرزاق الكثيرة

(١) بعد عودة حسن باشا الجزائرلى إلى الاستانة وموت إسماعيل بك سنة ١٧٩١ كما سبق بيان ذلك فى الفصل الأول ص ١٥

وجعل عليهم رئيساً يقال له « نقولا[1] » بنى له داراً عظيمة بالجيزة وأخرى بمصر ، وله عزة وأتباع من نصارى الأروام المرتبين عسكراً[2] »

ويقول بعض المؤرخين إن حسن باشا الجزائرلى الذى أرسلته تركيا لمحاربة إبراهيم بك ومراد بك هو الذى بنى هذه الترسانة بعد عودته من محاربة المماليك بالصعيد وقبل سفره إلى الاستانة ، ولكن رواية الجبرتى أصدق لأنه شاهد عيان لحوادث مصر فى ذلك العهد ، ومنطق الحوادث يؤيده لأن حسن باشا الجزائرلى هبط القاهرة فى شهر شوال سنة ١٢٠٠ وعاد إلى الاستانة فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠١ لنشوب الحرب بين تركيا والروسيا ، فلم يكن لديه الوقت ولا التفكير فى إنشاء دار صناعة بالجيزة أو غيرها ، والظاهر أن مراد بك بعد عودته من الصعيد وتخلصه من حسن باشا الجزائرلى بنى هذه الترسانة لتكون عدة له إذا عادت تركيا لمحاربته ، وإلى ذلك يشير الجبرتى بقوله :

« واختلفت آراء الناس فى ذلك ، فمن قائل إن ذلك خوفاً من خشداشينه (رفاقه) ، وقائل مخافة من العثمانية كما تقدم فى قضية حسن باشا ، والبعض يظن خلاف ذلك ، وليس غير الوهم والتخيل الفاسد ، وبقيت آلات الحرب جميعها والبارود بحواصله حتى أخذ جميعه الفرنسيس ، ويقال إنه كان بحواصل الترسخانة أحد عشر ألف جلة »

وقال الجبرتى عن «نيقولا» رئيس الترسانة : إن الفرنسيين بعد أن اعتقلوه ضمن بحارة مراكب مراد بك أفرجوا عنه فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣ (أبريل سنة ١٧٩٩)

عدد القلاع التى أنشأها الفرنسيون بالقاهرة

لم يكتف الفرنسيون بالقلاع التى تكلمنا عليها ، بل أخذوا يزيدونها كلما اشتد قلقهم من مقاومة الأهالى ، أو أوجسوا خيفة من نشوب نار الثورة ، حتى بلغ عدد القلاع التى أنشأوها فى خلال الحملة الفرنسية ١٩ (تسع عشرة) قلعة كما ذكر ذلك المسيو جومار أحد مهندسى الحملة ، وذلك بخلاف استحكامات جزيرة الروضة[3]


وقد اجتهدنا أن نحصى تلك القلاع بأسمائها ومواقعها ، فرجعنا إلى خريطة القاهرة المفصلة التى خططها مهندسو الحملة الفرنسية ، فرأينا القلاع الآتية مرسومة على الخريطة ، وإليك بيانها مسماة بأسمائها الفرنسية التى اختاروها لها عند إنشائها ، وهى أسماء بعض القواد والضباط ، ومعظمهم ممن لقوا حتفهم فى خلال الحملة :

---

(١) اسمه نيقولا بابازوغلو

(٢) الجبرتى الجزء الثالث

(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر



خريطة القاهرة
١٧٩٨ - ١٨٠١
تبين حدودها وعمرانها
في ذلك العصر ومواقع
القلاع التي أنشأها
الفرنسيون لإخضاع المدينة
شمال
طابية جريلو
باب الحسينية
باب النصر
جامع الظاهر
طابية سلكوسكي
طابية لاميز
طابية دبوك
القلعة
قره ميدان
بركة الفيل
بركة الأزبكية
طابية كامان
طابية كوزو
بولاق
طابية دنزلو
طابية سبتزر
جزيرة بولاق
جزيرة الروضة
نهر النيل
الجيزة
جامع عمرو
مصر العتيقة
قصر الشمع
طابية عورور

طابية (دبوى) Dupuy أو طابية الغريب

طابية (سلكوسكى) Sulkowsky أو قلعة جامع الظاهر بيبرس

طابية (موبرور) Muireur بحىّ طولون

طابية (كامان) Camin أو قلعة قنطرة الليمون

طابية المجمع العلمى Fort de l'Institut أو طابية قاسم بك بالناصرية

طابية (ربو) Reboul بين قلعة الجبل وطابية دبوى

طابية (فنو) Venoux شمالى طابية دبوى بشرق

طابية (مارتينيه) Martinet وطابية (سورنيه) Sornet وطابية (لامبير) Lambert ، وهذه الطوابى الثلاث تقع شمالى قلعة الجبل

طابية (جرزيو) Grezieux على الكوم القائم بالقرب من باب الحسينية

طابية (لوجييه) Laugier أو طابية أبى الريش الكائنة بكوم أبى الريش بالفجالة

طابية (كونرو) Conroux غربى الأزبكية على طريق بولاق

طابية (دنزلو) Donzelot ببولاق

طابية (سبتزر) Spizer ببولاق

هذه هى القلاع المرسومة فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية ، وهى خمس عشرة قلعة لاتسع عشرة ، ومن الواجب أن نضيف إليها طابية المجراة (السبع السواق) ، وقصر العينى ، وقد أسلفنا أن الفرنسيين حصنوهما فوجب عدهما ضمن القلاع ، يؤيد ذلك ما جاء فى تقويم الجمهورية الفرنسية عن السنة الثامنة من الحساب الجمهورى (سنة ١٧٩٩ — ١٨٠٠) ، وهو التقويم الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه أنهما معدودان ضمن قلاع القاهرة ، وجاء فى كتاب نقولا الترك الذى عاصر الحملة الفرنسية أنهم أنشأوا قلعتين فوق باب النصر وباب الفتوح ، فمع إضافة هذه القلاع الأربع إلى الخمس عشرة قلعة المرسومة فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية ، يكون ذلك تمام التسع عشرة قلعة بحسب إحصاء المسيو جومار

وهذا العدد من القلاع يدلك على مبلغ المقاومة التى لقيها الفرنسيون من المصريين فى عهد الاحتلال الفرنسى

صدى الثـــورة
فى الأقاليم

ما فتئت القاهرة فى خلال العصور مصدر كل حركة ومنبع كل تطور فى الديار المصرية ، ولا غرو فهى بمثابة الرأس المفكر الذى يرسم الخطط ويدبر البرامج ويبتكر الأفكار ، أو هى بمثابة القلب يوزع دم الحياة فى شرايين البلاد ، وهى أبداً حافظة لمنزلتها بين سائر البلدان التى تظلها سماء مصر ، تلك المنزلة التى جعلت لها الزعامة الفكرية والسياسية فى البلاد بلا منازع ولا مزاحم ، وجعلتها دائماً مصدر كل تطور سياسى ، فلا تحدث فيها حركة إلا ويتردد صداها فى الأقاليم

فالثورة التى شبت فى القاهرة خلال شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كان لها صدى فى سائر البلاد ، والمقدمات التى سبقت تلك الثورة،والحالة الفكرية التى كانت عليها القاهرة من أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر،عمت الأقاليم حتى اعتقد الفرنسيون أن هناك تدبيراً سابقاً لقيام ثورة عامة فى كل أنحاء القطر ؛ والواقع أنك إذا تتبعت الحركات التى قامت هنا وهناك من أقصى البلاد إلى أقصاها أخذتك الدهشة من تقارب تلك الحركات وتشابهها ، على أنه ليس ثمة تدبير ولا اتفاق ، بل هى القاهرة عاصمة القطر السياسية والفكرية ، تغذى البلاد بأفكارها وعواطفها ، وتفيض عليها من أمانيها وآمالها ، وتشركها فى أفراحها وأحزانها ، فكأن البلاد مرآة تنعكس عليها صورة القاهرة ، أو كأنها الأفق يتردد فيه صدى نداء العاصمة

بهذا التفسير نفهم الحوادث التى وقعت فى الوجه البحرى فى شهر سبتمبر وشهر أكتوبر من تلك السنة ، ولا نريد أن نذكر تفاصيل تلك الحوادث فى مختلف المديريات ، فقد أفردنا لها الفصول الخاصة بها

لكننا نكتفى فى هذه النبذة بذكر الحوادث التى ارتبطت بثورة القاهرة وكانت جزءاً منها ، فإن البلاد الواقعة على مقربة من القاهرة أو على طريقها قد اشتركت فعلا فى الثورة وأمدتها بالرجال والعتاد ، وإنك لتقدر مبلغ اشتراكها فى الثورة بما وقع عليها من القصاص بعد إخمادها ، فقد أمرت القيادة العامة بعض كتائب من الجيش بالطواف فى القرى التى اشتركت فى الثورة للبحث عن الأعيان ومشايخ البلاد الذين كان لهم ضلع فيها[1] ، وعهدت

---

(١) أصدر الجنرال برتييه أمراً إلى الجنرال داماس Damas فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ بتجريد كتيبة من الفرسان وإنفاذها إلى القبة والمطرية والمرج ، وأصدر أمراً آخر فى هذا اليوم لبرتلمى بإرسال كتيبة أخرى إلى الخانقاه (الخانكه)

إلى ضباط هذه الكتائب بمواجهة مشايخ البلاد (العمد) وتكليفهم تسليم الرسائل التي وردت عليهم ليلة الثورة تدعوهم إلى الانضمام لصفوف الثائرين بالقاهرة وشد أزرهم[١]

ولقد ألقت القوة الفرنسية فى طوافها القبض على جماعة من الأعيان ومشايخ البلاد بتهمة الاشتراك فى الثورة ، وعادت بهم إلى القاهرة فأعدم بعضهم واعتقل البعض الآخر ، ويدخل فى هذا الصدد ما رواه الجبرتى عن حوادث شهر رجب سنة ١٢١٣ (نوفمبر — ديسمبر سنة ١٧٩٨) قال : « إن كبير الفرنسيس الذى بناحية قليوب حضر وصحبته سليمان الشواربى شيخ الناحية وكبيرها ، فلما حضر حبسوه بالقلعة وقيل إنهم عثروا على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة (ثورة القاهرة) إلى سرياقوس لينهض أهل تلك النواحى فى القيام »

وقال نابليون فى رسالته إلى الجنرال لكلرك فى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨[٢] إنه اعتقل الشواربى لما تبينه من أنه كان يوم ثورة القاهرة يحرض أهالى البلاد المجاورة إلى الانضمام للثوار، وذكر الجبرتى فى حوادث شهر رجب : « أنهم قتلوا الشيخ سليمان الشواربى ومعه ثلاثة من عرب الشرقية ، قطعوا رؤوسهم بالرميلة ، ونقلت رفات الشواربى إلى قليوب ودفن هناك مع أسلافه »

وفى أول نوفمبر أصدر نابليون أمره بقيام الجنرال لان Lannes على رأس كتيبة من الجنود إلى القطا[٣] واعتقال بعض الزعماء ليكونوا رهائن، ثم أمره بالتوجه إلى النجيلة وكفرغرين[٤] لمعاقبة أهلهما ، وكانت تهمة هذه القرى الثلاث أنها أطلقت الرصاص على السفن الفرنسية الجارية فى النيل ، وهددت الملاحة بين القاهرة والرحمانية ، ويقول القومندان دى لاجونكيير إن الجنرال (لان) اعتقل الرهائن من هـذه القرى وأنذر الأهالى بأنه إذا وقع أى اعتداء على أىّ من السفن الفرنسية تحرق القرية بالنار وتقطع رؤوس الرهائن ؛ وتقول جريدة (كوربيه دليجبت) بعدد ٢٠ برومير (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨) إن الجنرال لان هاجم القطا فى ١٣ برومير ومعه قوة من أربعمائة جندى وأحرق القرية فعلا ، وإن أهلها هاجروا منها قبل إحراقها

وقد أصدر نابليون أمره بتأليف كتيبة من الأروام المقيمين فى ذلك العهد بالقاهرة ورشيد ودمياط ، وعهد إليها حراسة السفن الفرنسية أثناء مرورها بالنيل ، وأراد نابليون من هـذا الأمر أن يوفر بعض الجنود الفرنسية ، وأن يستخدم فى هذه المهمة الأروام الذين أظهروا ولاءهم

(١) لاجونكيير الجزء الثالث
(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٥٧
(٣) من بلاد مركز امبابه الآن بالبر الغربى لفرع رشيد بين أم دينار ووردان
(٤) بلدتان واقعتان على البر الغربى للنيل من بلاد مركز كوم حماده الآن

للجيش الفرنسى ، لكن الأروام لم يتطوعوا لهذه المهمة بالعدد الذى كان ينتظره الفرنسيون ، وكانت المهمة فى ذاتها خطيرة لكثرة حوادث مهاجمة السفن ، إذ كانت هذه الحوادث لا تفتأ تتكرر منذ انحدار أسطول السفن الفرنسية بقيادة الكونتراميرال بيرى Perrée من بوغاز رشيد إلى القاهرة ، أى فى أوائل عهد الاحتلال الفرنسى ، فكانت جموع الأهالى تعطل سيره ، وتطلق عليه الرصاص باستمرار من الشاطئين ؛ وقد شهد مدير مهمات الجيش المسيو سوسى Sucy إحدى هذه الحوادث ، فإن السفينة التى كانت تقله مع بعض ضباط أركان الحرب جنحت بالقرب من كوم شريك ، فهجم عليهم الأهلون وقتلوا بعض ركاب السفينة ، وأصيب سوسى بجرح بالغ فى ذراعه اليمنى[١] ، وجرح قبطان السفينة والضابط لاكوى Lacué

وحدث للكابتن جوليان Julien[٢] ياور نابليون ما هو أشد وأدهى ، فقد أوفده نابليون من القاهرة إلى الإسكندرية برسالة منه إلى الجنرال كليبر وأخرى إلى الأميرال برويس Brueys فى أبو قير ، فاستقل سفينة ومعه بعض الجنود وجنحت به على الشاطئ الغربى لفرع رشيد ، فما كاد ينزل هو وجنوده إلى الشاطئ حتى هجم عليهم أهالى « علقام »[٣] فقتلوهم عن آخرهم ؛ فلما علم نابليون بنبأ هذه الحادثة أمر بإحراق القرية عقاباً لها على اعتدائها ، فأحرقها الجنود وخربوها ولم يبقوا منها بيتاً قائماً[٤] ، ثم فكر نابليون فى اتخاذ طريقة فعلية لحماية المواصلات النيلية ، فشرع فى إنشاء أسطول نيلى مسلح ألفه من السفن الصغيرة الحربية التى نجت من كارثة أبو قير ، ومن المراكب المصرية التى استولى عليها الفرنسيون وسلحوها بالمدافع ، وجعل قواعد هذا الأسطول وسفنه فى موانئ بولاق ومصر القديمة ورشيد ودمياط والوجه القبلى

وفى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ أصدر أمره بتسيير دوريات من السفن الحربية فى فرعى النيل تتولى كل منها حراسة الملاحة فى قطاعات محدودة ؛ ففى فرع رشيد ثلاث منهن ، جعلت الأولى

---

(١) لم يطل بقاء سوسى بمصر بعد هذه الإصابة ، وصرح له نابليون بمغادرتها للاستشفاء بأوروبا ، فسافر على ظهر سفينة أفلتت من مراقبة الأسطول البريطانى ، ولكنها اضطرت إلى الرسو على شواطئ جزيرة صقلية فقتل أهل الجزيرة ركاب السفينة ومنهم سوسى ، وقد عين نابليون بدله القومسير دور Daure مديراً لمهمات الجيش

(٢) هو الذى أشرنا إليه فى الفصل الخامس ص ١٤٨

(٣) من بلاد مركز كوم حماده الآن

(٤) جاء فى جريدة (كوريبه دليجبت) بالعدد الصادر فى ٢٠ فركتيدور (٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨) نبأ هذه الواقعة ، وقالت الجريدة إن الجنرال لانوس Lanausse هو الذى تولى إحراق علقام ، وإن عدد الجنود الذين قتلوا مع الكابتن جوليان خمسة عشر جنديا

بين رشيد والرحمانية ، والثانية بين الرحمانية والطرانة[1] ، والثالثة بين الطرانة وبولاق

وفى فرع دمياط ثلاث أخرى : الأولى من دمياط إلى المنصورة ، والثانية من المنصورة إلى ميت غمر ، والثالثة من ميت غمر إلى بولاق ، وكل دورية مؤلفة من ثلاث أو أربع سفن مسلحة بقيادة ضابط بحرى نيطت به حراسة المواصلات فى القطاع الذى هو فيه ، وعليه أن يطوّف بسفنه ، وأن يرسل للقيادة البحرية فى كل فرصة تقريراً عما يحدث فى قطاعه ، وهو مسؤول عن الحوادث التى تقع فى ناحيته ؛ وخصص عدة سفن مسلحة لتجوب النيل فى الوجه القبلى وتحمى مواصلات الجنرال ديزيه Desaix وتحرس نقل الغلال إلى القاهرة

وقد لقى الفرنسيون أشد الجهد فى استخدام النوتية المصريين فى مراكبهم ، لامتناع الكثير منهم واستعصائهم أن يخدموا المحتلين فى نافعة أو ضارّة

تدخل العلماء

وبياناتهم للشعب

فى خلال المدة التى ساد فيها حكم الإرهاب وأبطل الديوان تدخل كبار العلماء (أعضاء الديوان) وتوسطوا لدى نابليون ليعيد الطمأنينة إلى النفوس ، فطلب إليهم نابليون كتابة بيان للأهالى ينكرون فيه الثورة ويذكرون عواقبها من قتل المصريين ونهب بيوتهم وتدميرها، وينصحون الأهالى بالإخلاد إلى السكينة تفادياً من الهلاك

البيان الأول

وإليك نص هذا البيان كما ورد فى الجبرتى :

« نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نعوذ بالله من الفتن ، ماظهر منها وما بطن ، ونبرأ إلى الله من الساعين فى الأرض بالفساد ، نعرّف أهل مصر المحروسة أن طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية ، بعد ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت ألطاف الله الخفية ، وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته وارتفعت هذه البلية ، لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة إلى الفقراء والمساكين ، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم ألا تحرّكوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا

(١) من بلاد مركز كوم حماده الآن

الأشرار ، ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لايقرؤون العواقب ، لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم ، فإن الله سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء ويحكم مايريد ، ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قُتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم أن لاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم ، وادفعوا الخراج الذى عليكم ، والدين النصيحة ، والسلام »

كتب هذا البيان بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، وهذا يوافق ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، لكن الجبرتى يقول إن تاريخه أول جمادى الثانية ، وهذا خطأ ، لأن أول جمادى الثانية يوافق ١٠ نوفبر ، ولا يمكن أن يكون تاريخ المنشور ١٠ نوفبر لأنه مطبوع فى جريدة (كوربيه دليجبت) بالعدد الصادر فى ١٠ برومير من السنة السابعة (٣١ أكتوبر سنة ١٧٩٨) أى قبل ١٠ نوفبر بعشرة أيام

ومذكور فى الصيغة الفرنسية للبيان المنشور فى جريدة (كوربيه دليجبت) إن تاريخه الهجرى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، وهذا يوافق ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، فتاريخ المنشور هو إذن ١٤ جمادى الأولى لا أول جمادى الثانية كما يقول الجبرتى

والظاهر أن هذا البيان لم يكن له الأثر المطلوب فى تهدئة الخواطر وإقرار النفوس ، لأن فكرة الثورة والمقاومة كانت قد عمت الأقاليم ، وذاعت الإشاعات وتواترت الأنباء بأن سلطان تركيا قد جاهر الفرنسيين بالعداء وأعد جيشاً لإخراجهم من مصر ، ووردت مكاتبات من أحمد باشا الجزار والى عكا وأبى بكر باشا الوالى وإبراهيم بك تؤيد هذه الإشاعات ، وتحرض المصريين على الثورة

فطلب نابليون من علماء القاهرة أن ينشروا بياناً ثانياً يوزع فى الأقاليم لتهدئة الخواطر وتكذيب تلك الإشاعات (التى كانت فى الواقع صحيحة) ، فأذاع العلماء هذا البيان فى اليوم الثامن من شهر جمادى الثانية (الموافق ١٧ نوفبر سنة ١٧٩٨) وأرسلت منه نسخ كثيرة للبلاد وألصقوا منها بالخطط والأسواق

وظاهر من البيان الثانى أن العلماء ينسبون هذه الإشاعات إلى المماليك الذين يذيعونها لإثارة القلاقل بعد ما طردوا من الديار المصرية ، وقد أطرى العلماء فى بيانهم نابليون وصفاته ، وصوروه صديقاً لسلطان تركيا عدواً لخصومه ، ثم نصحوا للمصريين فى بيانهم ألا يقاوموا الجنود الفرنسية فيستهدفوا لأنواع الأذى والانتقام ، ورغبوا إليهم فى دفع الخراج ، وأعلنوا الناس أنهم اتفقوا مع نابليون على ألا ينازع أحداً فى دينه ، ولا يعارضهم فى شريعة الأسلام ،

وأن يرفع المظالم والمغارم عن الناس ويقتصر على أخذ الخراج

البيان الثانى

وهذا نص البيان الثانى كما ورد فى الجبرتى :

« نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نخبركم ياأهل المدائن والأمصار من المؤمنين ، ويا سكان الأرياف من العربان والفلاحين ، أن إبراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات ، إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات ، وأدعوا أنها من حضرة مولانا السلطان ، ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان ، وبسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد واغتاظوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ويتركوا عيالهم وأوطانهم ، فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساوية ، لأجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية ، وذلك لشدة ماحصل من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ، ولو كانوا فى هذه الأوراق صادقين ، بأنها من حضرة سلطان السلاطين ، لأرسلها جهاراً مع أغوات (رؤساء جند) معينين . ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الإفرنجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم ، ويبغضون المشركين وطبيعتهم ، أحباب لمولانا السلطان قائمين بنصرته ، وأصدقاء له ، ملازمون لمودته ، وعشرته ومعونته ، يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه ، ولذلك بين الفرنساوية والمسكوف غاية العداوة الشديدة من أجل عداوة المسكوف القبيحة الرديئة ، والطائفة الفرنساوية يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلادهم إن شاء الله تعالى ولا يبقون منهم بقية ، فننصحكم أيها الأقاليم المصرية ، أنكم لاتحركو الفتن ولا الشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية ، بشىء من أنواع الأذية ، فيحصل لكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام المفسدين ، ولاتطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فتصبحوا على مافعلتم نادمين ؛ وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين ، لتكونوا بأوطانكم سالمين ، وعلى أموالكم وعيالكم آمنين مطمئنين ، لأن حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابرته اتفق معنا على أنه لاينازع أحداً فى دين الإسلام ، ولايعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام ، ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، ويقتصر على أخذ الخراج ، ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم ، فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم ومراد ، وارجعوا إلى مالك الملك وخالق العباد ، فقد قال نبيه ورسوله الأكرم: الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم ، عليه أفضل الصلاة والسلام »

هذه بيانات كبار العلماء للشعب عقب إخماد ثورة القاهرة ، ولا حاجة بنا إلى تبيان ما بها من الأغلاط والعبارات الركيكة ، والأفكار السخيفة ، فإن مجرد تلاوتها يغنى عن البيان ، وإذا كان المراد منها إسداء النصح للشعب بالتزام السكينة لما نزل به من الأهوال فى خلال الثورة وبعد إخمادها ، فإن للنصح والإرشاد أساليب أرقى من تلك البيانات المملوءة نفاقاً وسخفاً ، ولقد نشرناها بنصوصها لأنها من الوثائق التاريخية لذلك العصر ، ولتعرف منها الفرق بين موقف كبار العلماء فى بياناتهم للشعب وموقف أواسط العلماء فى قيادتهم للثورة

ومن الواجب تقريراً لحقيقة واقعة أن نقول إن هذه البيانات وغيرها مما نشر خلال الحملة الفرنسية على لسان العلماء قد أمليت تحت تأثير الضغط والإرهاب ، وهذا ظاهر مما ذكره الجبرتى عن طريقة تحريرها ، فقد قال عن البيان الأول : « واستهل شهر جمادى الثانية بيوم السبت (سنة ١٢١٣)، وفيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها إلى البلاد وألصقوا منها نسخاً بالأسواق والشوارع » ، وظاهر أنه يقصد الفرنسيين بكلمة « كتبوا» كما هو سياق العبارة فى الكتاب ؛ وقال عن البيان الثانى : « وفيه كتبوا عدة أوراق وأرسلوا منها نسخاً للبلاد وألصقوا منها بالأخطاط والأسواق ، وذلك على لسان المشايخ أيضاً ».

وقال عن البيانات التى نشرت باسم الديوان أثناء الحملة على سوريا[1] لما وردت الأخبار باحتلال الفرنسيين يافا ، وجاءت رسالة نابليون بتفاصيل هذا الاحتلال : « اجتمع أعضاء الديوان فقرأ عليهم تلك الرسالة بعد تعريبها وترصيفها على هذه الكيفية وهى عن لسان رؤساء الديوان إلى الكافة وذلك بإلزامهم وأمرهم بذلك » ، وعبارة الجبرتى هنا صريحة فى الإلزام والأمر

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نشير إلى ما ورد فى المراجع الفرنسية من أن الشيخ محمد المهدى سكرتير الديوان كان يتولى صوغ المنشورات التى يريد نابليون إذاعتها على لسان الديوان فى قالب عربى مسجع ، ولعل هذا هو السبب فى امتداح نابليون للشيخ المهدى وتفضيله على باقى الأعضاء ، فقال عنه فى مذكراته : « إنه أذكى علماء الأزهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علماً وأصغرهم سناً[2] » ، وقد ذكر الجبرتى عن المنشور الذى أذاعه نابليون على لسان الديوان عقب عودته من الحملة على سوريا « أنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » ، والإشارة هنا إلى الشيخ المهدى لا محالة ، لأنه باتفاق المراجع الفرنسية هو الواضع لمنشور نابليون فى قالبه

(١) راجع الفصل الثانى من الجزء الثانى من كتابنا

(٢) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

العربى ، ولأن الثابت فى رسالة نابليون التى بعث بها من يافا بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ إلى المسيو بوسليج مدير الشؤون المـالية بالقاهرة أثناء الحملة على سوريا قوله فيها : « عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشورات التى يبعث بها فانتور Vanture إلى الديوان ، وأن تضيفوا إليها المحسنات والتنميقات التى يرى الشيخ المهدى إدخالها عليها ، وأن تنشروها فى أنحاء مصر [١] » فلم يبق شك فى أن الشيخ المهدى هو الذى كان يتولى كتابة المنشورات التى كان يوعز بها الفرنسيون [٢]

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٠٢٨

(٢) بسطنا الـكلام فى ترجمة الشيخ المهدى والأفراد النابهين من أعضاء الديوان ودراسة شخصياتهم فى الفصل الرابع عشر من الجزء الثانى

الفصل الرابع عشر

فى المنوفية والغربية

عرفت مما كتبناه فى الفصل الحادى عشر أن نابليون عيّن الجنرال زايونشك Zayonchek قومنداناً للمنوفية ، والجنرال فوجيير Fugières قومنداناً للغربية ليتوليا إخضاع المديريتين ، فلننظر كيف أدّيا مهمتهما

سبق الجنرال زايونشك زميله إلى مقر وظيفته ، وكانت تعليمات نابليون تقضى بأن يسافر الجنرال فوجيير إلى محل عمله من طريق قليوب فمنوف فالمحلة الكبرى ، وأن يكون على اتصال مستمر بالجنرال زايونشك بمنوف والجنرال فيال بالمنصورة والجنرال بيرب بالرحمانية ليتعاونوا على توطيد سلطة الجمهورية الفرنسية فى هذه المديريات ، وأصدر تعليماته بأن يجردوا الأهالى من السلاح ، ويصادروا خيلهم ويعتقلوا أعيانهم رهائن ، كل ذلك لإخضاع البلاد وإلقاء الرهبة فيها ، وإذا تأملت رسائل نابليون إلى قواده رأيت فيها معنى الشدة والصرامة يأمر بهما فى إخضاع البلاد ، فلا يعسر علينا أن نفهم لماذا تأججت نار الكراهة فى نفوس الأهالى ، كتب نابليون إلى الجنرال زايونشك بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ ينبئه بسفر الجنرال فوجيير، ويقرّه على إعدام خمسة من الأهالى فى كل قرية من القرى الثائرة ، ويقول فى رسالته : « أصدروا أوامركم بأن تقدم لكم كل قرية جوادين من خير الجياد ، وأيّما قرية لم تفعل ومضت خمسة أيام من إعلانها بالأمر ضربت عليها غرامة ألف ريال ، وإن هذه لهى الطريقة الفعالة للحصول على خمسمائة من الجياد تسد من حاجتكم ، وعليكم عند طلب الخيل أن تطلبوا كذلك عدتها من الركاب واللجام لتتوافر لكم فى الحال فرقة من الخيالة ، فإنها الوسيلة الوحيدة لإخضاع هذه البلاد[1] »

المقاومة فى غمرين وتتا

سار الجنرال فوجيير من القاهرة مساء ٥ أغسطس ١٧٩٨ وقصد إلى منوف ، ثم غادرها قاصداً الغربية يوم ١٣ أغسطس ، وبعد مسير ساعة اصطدم بقريتى غمرين وتتا[2]

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٧١

(٢) بلدتان متجاورتان شمالى منوف

ثار أهل القريتين ، وحملوا السلاح ، وأغلقوا الأبواب فى وجه الجنود ، فحاول الجنرال فوجيير عبثاً أن يكره البلدين على فتح أبوابهما فلم يستطع ، ولما أعيته الحيل طلب المدد من الجنرال زايونشك الذى كان مرابطاً بمنوف ، فأمده بقوة من جنوده وتعاونت القوتان على إخضاع القريتين بعد ما دافع أهلهما دفاعاً شديداً ، واشتد القتال بخاصة فى غمرين واشتبك الأهالى والجنود فى طرقاتها ، فانهمرت فيها الدماء ، وغطيت الأرض بجثث القتلى ، قال الكابتن فيروس Ferus (١) يصف هذا الدفاع : « جاءنا المدد ، وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين ، فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين ، وقتلنا من الأعداء (الأهالى) من أربعمائة إلى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام ، أما خسائر الفرنسيين فكانت قتيلا واحداً واثنى عشر جريحاً ، ولم تكن عندنا فؤوس ، فكان ذلك من الأسباب التى أخرتنا عن اقتحام أبواب القرية »

فانظر إلى هذا الوصف ، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال فى مقاتلة الفرنسيين ودفاعهم ، وهذا لعمرى من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب فى الدفاع عن كيانه ، وأبلغ منه أن الشهادة به جاءت من عدو ، وسترى فى خلال الوقائع التى نأتى عليها فى الفصول التالية أن النساء كن فى بعض البلاد يشاركن الرجال فى مقاومة الفرنسيين

استولى الفرنسيون أولا على غمرين ، ثم قصدوا إلى تتا فاستولوا عليها ، وأضرموا النار فى القريتين عقابا لهما على الثورة

ونفدت ذخيرة الجنرال فوجيير فى محاربته لبلدتى غمرين وتتا ، فعاد إلى منوف ينتظر المدد وبقى هناك ثمانية أيام ، ولما كان الفيضان قد بدأ يغرق الطرق فقد نزل بجنوده فى السفن ووصل إلى المحلة الكبرى من طريق ترعة مليج ، واستقر بها

المحلة الكبرى

كانت المحلة الكبرى عاصمة الغربية ، وهى يومئذ أكبر بلاد الدلتا فى اتساعها ومركزها الصناعى ، واشتهرت فى ذلك العصر (كشهرتها الآن) بنسيج الأقمشة الحريرية والقطنية ، فكان الحرير الخام يرد إليها من سوريا عن طريق دمياط ، ثم يغزل خيوطا وتنسج منه الأقمشة الحريرية المختلفة ألوانها ، كتب المسيو جالوا Jallois احد مهندسى الحملة الفرنسية رسالة عن

(١) من رسالة له إلى الجنرال كافاريللى فى ١٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقد ذكر نابليون فى رسالته إلى الديركتوار بتاريخ ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ واقعة (غمرين) بايجاز ونشرت رسالته فى مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٨٨

رحلته فى الدلتا وصف فيها المحلة الكبرى وذكر صناعة الحرير بها فقال : « إن معظم الحرير الذى يلبسه النساء فى مصر ينسج فى مصانع المحلة الكبرى ، ويصنع فيها أيضاً المناديل التى يغطى بها النساء رؤوسهن والقمصان والبشاكير[١] » ، وقال المسيو جيرار Girard وكيل إدارة الرى فى عهد الحملة الفرنسية ، إن منسوجات المحلة الكبرى يتخذ منها ستائر الشبابيك وأغطية المقاعد والأرائك والوسائد وأغطية الموائد الموشاة بأسلاك الذهب والفضة ، والأحزمة الحريرية والملاءات المسماة (بالملس) ، وكانت هذه المنسوجات تصدر عن المحلة إلى سائر أنحاء القطر المصرى وبلاد السلطنة العثمانية ، قال : وكانت تنسج فيها الأقمشة القطنية ، وكان عمال نسيج القطن قبل الحملة الفرنسية يبلغ عددهم فيها ألفى عامل فنزل عددهم مدة الحملة إلى خمسمائة[٢] ، وهذا يدلك على تقهقر البلاد من الوجهة الاقتصادية فى عهد الحملة الفرنسية

وقد رابط الجنرال فوجيير فى المحلة الكبرى ، ثم انتقل منها فى خلال الحملة إلى سمنود التى اتخذها الفرنسيون عاصمة لمديرية الغربية ، وفضلوها على المحلة لوقوعها على النيل وسهولة اتخاذها مركزاً للمواصلات النيلية والحركات العسكرية .

الثــــــــورة فى طنطا

كانت طنطا كما هى الآن أكبر بلاد الدلتا من الوجهة التجارية ، بلغ عدد سكانها فى ذلك العصر عشرة آلاف نسمة ، كما قدرهم المسيو جالوا[٣] ، وترجع مكانتها إلى مركزها التجارى ، وإلى ضريح السيد أحمد البدوى ، ومواسمه المعروفة ، فكان يزورها سنوياً فى أيام المولد الأحمدى نحو مائة ألف زائر من مختلف المدن والأقطار

ظهرت أعراض الهياج والثورة فى طنطا أوائل أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أى ضريبة أو غرامة تفرض عليهم

فأبلغ الجنرال فوجيير إلى نابليون حالة المدينة فى رسالة له بتاريخ ٦ أكتوبر ، وقال إن امتناعهم راجع إلى نياتهم العدائية وكراهيتهم للحكومة ، وإنهم يؤوون بعض المماليك فيستترون بينهم ويحرضونهم على التمرد والثورة

وكان الفرنسيون ينظرون إلى طنطا كمدينة مقدسة عند المسلمين ، تلى مكة والمدينة فى الأهمية ، ويستشعرون احترامها محافظة على إحساس الأهالى ، فتحاشوا أول أمرهم أن يرسلوا

---

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس عشر
(٢) تخطيط مصر الجزء السابع عشر
(٣) تخطيط مصر الجزء الخامس عشر

إليها قوة من الجنود كيلا يصطدموا بالأهالى ، أو يعتدوا على الشعائر الدينية فتثور ثائرتهم ، ولكن الجنرال فوجيير رأى روح الهياج والتمرد تقوى وتشتد ، فأرسل إليها كتيبة من الجنود بقيادة الكولونل لوفيفر ، وعهد إليها اعتقال زعماء المدينة وأخذهم رهائن ، وكلفها كذلك أن تخضع الأهالى فيما جاورها ، وفى البلاد الواقعة على طريق الجنود وأخذ الرهائن منها ، وكان دعاة الثورة فى القرى يحرضون الأهالى على عصيان الفرنسيين

وصل الكولونل لوفيفر تجاه طنطا يوم ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ورابط بجنوده وكلف حاكمها سليم الشوربجى أن ينفذ إليه أربعة من كبراء المدينة يكونون رهائن ، فجاءه بأربعة من أئمة مسجد السيد أحمد البدوى ، ورفض أكابر المشايخ أن يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسى موثقاً بالمحافظة على السكينة فى طنطا ، وكان المولد قائماً فى ذلك اليوم ، وقد تجمع فيه خلق كثير من أرجاء البلاد ، فلم يكد « لوفيفر » ينزل الرهائن الأربعة إلى المراكب ، ليبعث بهم إلى القاهرة ، حتى هرعت الجماهير مسلحين بالبنادق والحراب يصيحون صيحات الغضب والسخط ، رافعين الرايات والبيارق ، فلما رأوها أهالى البلاد المجاورة أقبلوا من كل حدب وانضموا إلى الثائرين ، وفيهم ١٥٠ من فرسان العرب ، فاندفعت هذه الجموع على كتيبة الجنرال لوفيفر ، وكادت تأخذ المراكب التى معها ، فقابلتها الكتيبة بنار شديدة من البنادق الحديثة ، فانهزمت الجموع إلى المدينة ، وعادت غير مرة تهاجمها ثم ترتد إلى داخل البلد ، ورأى الكولونل لوفيفر أن لا سبيل إلى تعقب الثائرين فى مدينة كبيرة كطنطا ، لقلة عدد جنوده وافتقاره إلى المدفعية ، فلزم خطة الدفاع ، واقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بجنوده ، وعلى الدفاع عن مراكبه ، وتمكن من إنزال معظم قوته بالسفن ومعهم الرهائن ، ثم أقلعت سفنه وترك قوة من رجاله على شاطئ الترعة لمنع الثوار أن يلحقوا به ، فظلوا يدافعونهم حتى جن الليل ، فانسحب الثوار بعد معركة دامت أربع ساعات ، وقد قدر الجنرال فوجيير عدد الثوار بعدة آلاف ، وقدر خسائرهم بثلثمائة بين قتيل وجريح ، وطلب من نابليون معاقبة أهالى طنطا لأن معظم الثوار كانوا منها ، وألح فى طلب المدد من الرجال والمدافع لإخضاعهم

ولكن نابليون جنح إلى الحكمة ، وآثر أن يأخذ الثائرين بالحسنى ، لأنه كان يخشى عاقبة انفجار الهياج فى مدينة لها حرمتها عند الأهلين ، فلم يوافق الجنرال فوجيير على طلبه وأرسل إليه بتاريخ ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول :

« لقد علمت بمزيد الأسف ما حدث فى طنطا ، على أنى راغب فى احترام هذه المدينة ،

وأعتبر تخريب هذا المكان المقدس فى نظر الشرق كارثة كبرى ، على أنى سأكتب إلى أهالى طنطا ، وسأطلب من الديوان العام أن يكتب إليهم ، وإنى راغب فى أن تنتهى الحادثة بالمفاوضة على صلح ووئام »

وكان الجنرال فوجيير قد نبه نابليون إلى أن الثوار قد استعانوا بالعرب ، فكلفه نابليون أن يأخذ الرهائن منهم لإخضاعهم ، وإن لم يذعنوا فلينكل بهم

وقد عزم نابليون على تجريد الحملة عليهم بقيادة الجنرال لانوس Lanausse الذى عين قومنداناً لمديرية المنوفية خلفاً للجنرال زايونشك[1] ، فناط به قيادة الحملة وفيها جنوده وجنود الجنرال فوجيير ، وأمره أن يسير إلى العرب فى سنباط ، حيث يرابطون بها ويحاربهم ، وينتزع منهم الرهائن والأسلحة

احتلال عشما

كان الجنرال لانوس يهاجم حينئذ قرية عشما[2] لإخضاع زعيمها المشهور فى ذلك العهد بسطوته وشدة بأسه ، واسمه « أبو شعير » ، وقد اتهمه الفرنسيون بعدائه لهم وممالأته على الجنود ، فجرد الجنرال لانوس حملة عليه ، وسار ليلة ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قاصداً قرية عشما فى كتيبة من الجنود ، فوصلها الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وفاجأ مخفرين من المخافر التى وضعها أبو شعير حول القرية لحراستها ، فتخطاهما حتى وصل إلى مدخل البلد ، وهناك التقى بمخفر ثالث أطلق رجاله الرصاص على الفرنسيين ، لكن الجنرال لانوس تمكن من تطويق القرية بالجنود ، ومحاصرة منزل أبى شعير الذى وصفه لانوس بأنه قصر محصن تحصيناً تاماً بالنسبة لحالة البلاد ، وقد علم أبو شعير بوصول الفرنسيين ، فركب فى رهط من رجاله استعداداً للقتال ، وسعى لانوس فى أخذه بالحسنى ، ولكنه أجاب بإطلاق الرصاص على الفرنسيين ، فأمر الجنرال لانوس رجاله باقتحام أسوار القصر ، وأدرك (أبو شعير) أنه واقع لا محالة فى أسر الفرنسيين ، فأمر جنوده أن يطلقوا النار على الجنود ليشغلهم عن نفسه ويلوذ بالفرار ، وقد تمكن من تسلق الأسوار ، ثم ألقى بنفسه فى الترعة وقطعها سباحة ، ولكنه لم يكد يصل إلى عُدْوَتها الأخرى حتى أصابته رصاصة جندلته ، والظاهر أن الفرنسيين عدوا قتل أبى شعير انتصاراً كبيراً ، فقد ابتهج له الجنرال لانوس ، وأرسل إلى نابليون بتاريخ ٢٣ أكتوبر ينبئه بمصرعه ، ويذكر عنه أنه لحق الجيش الفرنسى منه أذى

---

(١) نقل زايونشك قومنداناً لبنى سويف

(٢) من بلاد مركز شبين الكوم

كبير ، وأنهم وجدوا بمنزله بعض شارات للضباط الفرنسيين ، ولعل هذا هو سبب اتهام الفرنسيين إياه بالسطو ، وهى تهمة ينسبونها لمعظم من حاربوهم أو قاوموهم ، وقد ذكر لانوس عن أبى شعير أنه كان واسع الثروة ، وأن له مزارع واسعة ، وأنه يمتلك عشرين قرية ، وأنه كان فى سطوة ، وإذا مشى سار معه ألف ومائتا رجل فى سلاحهم ، واعترف لانوس فى رسالته لنابليون أنه لولا مفاجأته لأبى شعير فى قريته لما استطاع أن يظهر عليه ، ولو هو علم بمقدم الفرنسيين وأعدّ لملاقاتهم لأصابهم منه جهد وشدة وأذى ، وقد استولى لانوس على ما وجده فى القصر من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع وعدد كبير من البنادق[1] ، وأحصى ممتلكاته فى عشما والقرى الأخرى ، ولكنه لقى مقاومة شديدة من الأهالى فى سلامون وسرسنا ، وكادوا يقتلون مترجم الجنرال والمباشر الذى كان يرافقه ؛ وألقى لانوس القبض على اثنين من إخوة أبى شعير وبعض حاشيته ، وأرسلهم إلى نابليون ليقررهم عن المكان الذى خبأ فيه أبو شعير أمواله إذ لم يعثر عليها ، وأشار على نابليون فى رسالته بأن يقتلهم بعد ذلك لما ارتكبوه من الاعتداء ، وطلب منه أن يمده بقوة من الفرسان ، وقد أشار الجبرتى إلى واقعة احتلال عشما بقوله :

« وفى ١٨ جماد الأولى سنة ١٢١٣[2] ضربوا كفر عشما وقتلوا كبيرها المسمى بابن شعير ونهبوا داره ومتاعه وبهائمه ، وكان شيئاً كثيراً جداً ، وأحضروا إخوته وأولاده وقتلوهم ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخاً عوضاً عن أبيهم[3] » ، ويلاحظ على رواية الجبرتى أنه جعل تاريخ الواقعة ١٨ جمادى الأولى أى ٢٨ أكتوبر ، والواقع أن مهاجمة كفر عشما كانت ليلة ٢٠ أكتوبر كما يؤخذ من رسالة الجنرال لانوس إلى نابليون

وكانت الملاحة فى الترع بدأت تتعطل لنقص مياه النيل ، على حين أن المواصلات فى البر متعذرة ، فتأخرت الحملة التى كلف بها الجنرال لانوس إلى أوائل نوفمبر حتى جاءه المدد من القاهرة بقيادة الجنرال ڤو Veaux

سار الجنرال ڤو ومعه كتيبة من الجنود من القاهرة يوم ٧ نوفمبر ، فوصل إلى منوف من طريق قليوب وترعة الفرعونية ، وكان فى أعمال حملة لانوس إخضاع مدينة طنطا ، وقد كرر نابليون لهذه المناسبة وصاياه باحترام مساجد هذه المدينة ، فأرسل الجنرال برتييه رئيس أركان

---

(١) رسالة لانوس إلى نابليون فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٢) يوافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٣) الجبرتى الجزء الثالث

حربه إلى الجنرال لانوس بتاريخ ٦ نوفمبر لمناسبة سفر الجنرال فو يقول: « يجب المسير بقوات كبيرة إلى طنطا ، ولما كان لهذه المدينة حرمة كبيرة عند المسلمين فمن الواجب ألا تمسّ المساجد والمقامات التى بها »

ولما وصل المدد إلى الجنرال لانوس سار بجنوده وأوقع بكثير من القرى المحاذية للنيل بحجة مهاجمتها للسفن الفرنسية على فرع رشيد ، وبلغ طنطا دون أن يلقى مقاومة ، وأمكنه أن يحصّل بعض الضرائب ، وشتت قوات العرب التى كانت تشد أزْر الثوار لكنه لم يستطع أن يقهرها أو يتغلب عليها ، ثم عاد إلى منوف

الفصل الخامس عشر

فى الدقهلية[1] ودمياط

على أثر تعيين الجنرال فيال Vial قومنداناً لمديريتى المنصورة ودمياط فى أوائل أغسطس سنة ١٧٩٨ [2] مضى بفرقته إلى المديريتين لإخضاعهما ، فقصد أولا إلى المنصورة ومكث بها قليلا وترك بها حامية تحتلها ، ثم تابع سيره إلى دمياط ليجعلها مقراً لفرقته فاحتلها واحتل عزبة البرج

واقعة المنصورة

ائتمر أهالى المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية واتفقوا على الفتك بهم ، فبينما كان الجنود فى معسكرهم يوم ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالى البلاد المجاورة ، وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ، ووافقوهم على الفتك بجنود الحامية ، فهاجموا الجند ، ونادت المدينة كلها بالثورة رجالا ونساء ، وكان النساء يحرضن أزواجهن على أن يثوروا بالفرنسيين [3] ، ولما شعر الجنود بالخطر امتنعوا فى معسكرهم فحاصره الثائرون وشرعوا فى دكه وأشعلوا فيه النار ، فاضطر الجنود إلى إخلائه هاربين وانحدروا إلى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفن أن يحملوهم ، فالتجأوا إلى البر وقصدوا إلى دمياط ، ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلوهم عن آخرهم [4] ، وكان من الناجين امرأة أحد الضباط وابنتها فأبقى عليهما الثوار ولم يمسوهما بسوء ،

---

(١) كانت مديرية الدقهلية ، تعرف بمديرية المنصورة ، ولم يكن اسم الدقهلية شائعاً فى ذلك العصر ، ومع ذلك فهو الاسم الذى عرفت به قديماً ، فقد سميت باسم الدقهلية فى خطط المقريزى (الجزء الأول) ، وذكرها بهذا الاسم القاضى يحيى بن الجيعان فى كتابه (التحفة السنية بأسماء الديار المصرية) الذى يتضمن تخطيط مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وذكرها كذلك الرحالة فانسليب Vansleb الذى جاء مصر سنة ١٦٧٢ باسم كاشفية (مديرية) الدقهلية ، فيؤخذ من ذلك أن تسميتها باسم (مديرية المنصورة) لم يكن مألوفا إلا فى القرن الثامن عشر ، ولم يذكرها الجبرتى باسم الدقهلية إلا مرة واحدة ، وقد جرينا فى سياق الكلام على ما كان معروفا فى ذلك العصر وهو (مديرية المنصورة) .

(٢) انظر ص ٢٠٠

(٣) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية . ريبو . الجزء الثالث

(٤) جاء فى يوميات الجنرال « لوجييه » Laugier أنه عثر على جندى جريح من جنود حامية المنصورة كان مختفيا فى إحدى القرى فقص عليه الحادثة ، وكتب لوجييه بها تقريراً وهو لا يخرج فى مجموعه عما ذكرناه ، ويقول المسيو « شابرول » Chabrol أحد مهندسى الحملة الفرنسية فى بحثه المنشور بكتاب =

ويقول ريبو[١] ان الفتاة قد اشتراها شيخ العرب (أبوقوره) وتزوج بها فلبثت عنده حتى مات عنها سنة ١٨٠٨ فى عهد محمد على باشا وبقيت حافظة عهده قائمة على تربية أولادها منه بعد وفاته ، وقد أيد كلوت بك هـذه الرواية فى كتابه [٢] مع اختلاف فى بعض وقائعها ، وهو يقول إن هذه الواقعة حصلت عندما شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر ، على أنه لم تحصل وقائع فى المنصورة عند جلاء الفرنسيين ، وكلوت بك يُرجع إليه فيما حققه وشاهده بنفسه ، ويقول إنه سمع بنبأ هذه الواقعة حينما كان كبير أطباء الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا ، فزار دار أبى قورة بميت العامل [٣] سنة ١٨٣٤ ، أى بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة من الواقعة ، ونزل بها « وكان قصراً فسيحاً قائماً بالقرب من مساكن العرب » ، وقابل زوجة أبى قورة الفرنسية وابنها ، قال يصف هذه المقابلة : «وقد أحسن ابنها لقائى وأكرم مثواى ، ولما عرف أننى فرنسى الجنس ذكر لى والدته وقال إنها فرنسية ، فكاشفته رغبتى فى لقائها ، وكانت ذريعتى إلى ذلك مهنة الطب التى أقوم بها ، فلما بلغت خدرها تلقتنى محيية باللغة الفرنسية ، وتبينت أنها إيطالية الجنس ، وعلمت منها فعلا أنها ولدت بمدينة البندقية ، وأن والدها كان تاجر قبعات اسمه بارتولى ، وأن والدتها كانت تسمى مرجريت ، وأن اسمها هى جوليا ، وأن العربان سبوها وهى خارجة من المنصورة إذ أركبوها جوادا وانطلقوا يطوون بها الفدافد والسباسب حتى بلغوا بها فى المساء داراً كبيرة التقت فيها برجل يغطيه من الرأس إلى القدمين حرام أبيض ، وأن هذا الرجل بذل لها من مظاهر العطف والميل مالا يوصف ، وأنه جردها من ثيابها الأوروبية ليلبسها بدلا منها ثوباً شرقياً فضفاضاً ، ثم سلمها من الحلى والجواهر ما قيمته ستمائة كيس،أى ما يعدل مائة ألف فرنك تقريبا . وجعل فى خدمتها عدداً كبيراً من العبيد والجوارى ، وذلك الرجل هو الزعيم (أبو قوره) الذى كان مشهوراً بالشوكة والجاه الطويل ، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كانا يضجرانها ، فكانت لاتكف عن البكاء وتعرب بالقول والإشارة والصياح عن رغبتها فى العودة إلى ذويها ، ومع هذا فلم ينقض أحد عشر شهراً حتى رزقت غلاما ، فهدأ شعور الأمومة نحو وليدها ثائرة التذمر والاستياء

= تخطيط مصر الجزء الثانى عشر أن عدد جنود حامية المنصورة كان ١٢٠ مقاتلا وأن العرب أسروا اثنين منهم وفر ثالث وهؤلاء الثلاثة هم الذين نجوا من القتل ، ويقول الكابتن ساباتييه Sabatier أحد ضباط فرقة الجنرال فيال التى زحفت على المنصورة ثم تابعت سيرها إلى دمياط إن عدد جنود الحامية الذين تركهم الجنرال فيال بالمنصورة ١٦٠ مقاتلا

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر الجزء الثانى

(٣) من بلاد مركز أجا الآن

ولطف من أسرها فى هذا المكان ، فلم يسعها إلا احتماله والرضاء به ، ولما مات زوجها ، وكانت توليه الحب الصادق وتعيش معه فى بحبوحة الهناء والنعيم ، أكرهت على التزوج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تلقاه فى أخيه المرحوم من حسن الرعاية وجميل العطف »[١]

وذكر كلوت بك ما كان عليه (أبو قوره) من الجاه والثراء فقال : إنه كان يقاوم سلطة المماليك مدة حكمهم ، وكانت له السيادة فى إقليم المنصورة وقتئذ ، وكان يملك أربعاً وأربعين قرية ، وبضعة آلاف من الجمال ، وقطعاناً لا عداد لها من الأغنام ، وأكثر من خمسمائة عبد وجارية من الأرقاء .

والآن نعود إلى الكلام عن واقعة المنصورة ونتائجها :

أشعلت هذه الواقعة نار الثورة والهياج فى البلاد المجاورة ، وكادت الثورة تستفحل ويتسع مداها ، لولا وصول الجنرال دوجا Dugua الذى عينه نابليون قومنداناً لمديرية المنصورة[٢]

وصل دوجا وجنوده جنوبى المنصورة يومى ١٧ و ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فعلم عند وصوله بما حل بجنود الحامية ، وكان أهل المدينة يتوقعون انتقاماً شديداً ، فكتب الأعيان رسالة إلى ديوان القاهرة يبرأون من الاعتداء على الجنود ، وينسبون ذلك إلى الفلاحين والعرب الذين اقتحموا المدينة يوم الواقعة ، وذهب قاضى المنصورة خصيصاً إلى القاهرة ليدافع عن مسلك سكان المدينة ، وقد علم نابليون بنبأ الحادثة ، وجاءته رسالة أعيان المنصورة التى كتبوها إلى الديوان ، فبعث إلى الجنرال دوجا يطلب منه عقاب أهالى المنصورة عقاباً شديداً ، ويأمره أن يقتل تسعة أو عشرة من أعيانها[٣]

وكان الجنرال دوجا معروفاً بين قواد نابليون بالحكمة والأناة وحسن السياسة ، فاستعمل الحكمة فى توقيع العقاب وإعادة النظام فى المدينة ، وأراد أن يتحقق من المعتدين حتى لا يأخذ بريئاً بمذنب ، وقد تبين له من الفحص عن أمرهم أن معظم المعتدين من البلاد المجاورة ، وأن زعماء المحرضين على قتل الحامية قد غادروا المنصورة ، ومنهم رجلان كانت لهما شهرة فى تلك الجهات بالسطوة والجاه وشدة البأس ، وهما الأمير مصطفى وعلى العديسى ، فاكتفى الجنرال دوجا بالحكم على اثنين من أهالى المنصورة بالإعدام ، لثبوت اشتراكهما فى القتل ، وأنفذ الحكم فيهما وطافوا برأسيهما فى شوارع المدينة عبرة وإرهاباً ، وأخذ الجنرال دوجا

---

(١) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر . الجزء الثانى

(٢) راجع ص ٢٠٤ وهامشها

(٣) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٧٢

يتأهب لتعقب المعتدين فى بلاد البحر الصغير ، والقبض على الأمير مصطفى وعلى العديسى ، وتجريد حملة عسكرية لمعاقبة القرى التى اشتركت فى الاعتداء على الجنود

وكان الذعر قد استولى على المنصورة ، وهاجر كثير من أهلها فراراً بأنفسهم من اتهامهم فى واقعة قتل الحامية ، وتعطلت التجارة وركدت أسواق المدينة ، فطلب الجنرال دوجا من نابليون أن يأذن له إذا لم يظفر بالمعتدين فى إعلان العفو ليعود الأهالى إلى أعمالهم ، بشرط أن لا يتناول العفو أهل القرى المجاورة الذين اشتركوا فى الواقعة ، وكان غرض الجنرال دوجا أن يؤخر معاقبة سكان هذه القرى إلى أن تصل القوة الكافية ، وينحسر الفيضان الذى كان يتلف الطرق ويعطل المواصلات

أقر نابليون الجنرال دوجا على خطته ، وأرسل له فى ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ يأذنه أن يمنح المدينة العفو ، وطلب إليه أن يستخدم ما يراه لإقرار الطمأنينة ، وإعادة الأعمال سيرتها الأولى ، وكلفه فى الوقت نفسه أن يكتب إلى أعيان البلاد المجاورة التى اشترك أهلها فى قتل الحامية الفرنسية ، يطلب أن يسلموا المعتدين منهم وإلا استهدفوا لإحراق قراهم بالنار

وطلب إليه إخضاع بلاد مديرية المنصورة ، وأخذ رهائن من كل قرية اشترك أهلها فى الاعتداء على الجنود ، ثم إحراق القرى التى يرى أنها كانت أبلغ فى الاعتداء ؛ وأمر نابليون بفرض غرامة ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة عقاباً لهم على سوء صنيعهم ، وفرض ألفى ريال خاصة على السيد على الشناوى أحد أعيان المدينة ، ثم ألفى ريال على القرى التى اعتدت على الجنود[١]

وقد لقى الفرنسيون عناء كبيراً فى إخضاع مديرية المنصورة ، فقد اشتدت فيها المقاومة ، وامتنع كثير من البلاد عن دفع الضرائب ، ويقول ريبو[٢] إن محصلى الأموال الأميرية كانوا إذا ذهبوا إلى القرى لجباية الضرائب أو مصادرة أملاك المماليك يقابلون بالرصاص رمياً ، أو بالعصى ضرباً ، وفى بعض الأحيان كانوا يصحبون بعض الخفراء لحراستهم ، فلا يعصمهم ذلك أن يلقوا مثل هذه المقابلة ، وعطل الفيضان حركات نقل الجنود فى البر ، فساعد هذا العامل على فيضان روح الثورة فى القرى ، واضطر الجنرال دوجا إلى تأخير ما عهد إليه من إخضاع ذلك الإقليم ، ومعاقبة القرى التى ثارت فى وجه الجيش ، أو التى اشتركت فى قتل الحامية الفرنسية بالمنصورة

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠١

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع

الحملة على سنباط وميت غمر

كانت مهمة الجنرال دوجا أن يكتشف الجهات التي عزم على تجريد الحملة عليها قبل أن يغامر فيها وكانت بلدة (سنباط)[1] من القرى التي شاركت بلاد الدقهلية فى الثورة ، فاتخذها الجنرال دوجا أول هدف له ، وهى وإن كانت فى مديرية الغربية إلا أنه رأى أن يبدأ بمهاجمتها لسهولة الوصول إليها بطريق النيل ، وكانت أوامر نابليون تقضى بإحراق هذه البلدة ، وكان الجنرال مورا Murat قومندان القليوبية مكلفاً معاونة الجنرال دوجا فى إخضاع إقليم المنصورة فانتقل من بنها إلى ميت غمر فى أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ لمعاقبة العرب النازلين فى تلك الجهة وبخاصة فى دنديط[2] ممن توجهت عليهم تهمة الاشتراك فى واقعة المنصورة ، وكان منوطاً به كذلك تجريد الأهالى من السلاح ، على أنه لم يستطع إنفاذ هذه المهمة ، وكتب إلى نابليون فى ٤ سبتمبر يسأله العدول عن هذه المهمة الشاقة ، ويقول فى خطابه : « إنى أعتقد أن سياسة تجريد الأهالى من السلاح طريقة ضارة وغير حكيمة ، إذ أرى أن العرب المزارعين مسلحون وتسليحهم مفيد ، لأنهم يحمون البلاد من سطوات البدو الرحل ويحفظون الأمن فى هذه الجهات ، وصعبٌ من الآن إلى وقت لا يزال بعيداً أن نسلبهم السلاح دون أن نوقع الحرج فى صدورهم ، وندفعهم إلى الثورة كما حدث فى مديريات أخرى ، لذلك أعتقد أنكم ترون ما أراه فى الانتظار بهم حتى يستقر نظام الحكم الجديد ، وما هو الآن خطأ يكون يومئذ صواباً »

هاجم الجنرال مورا فى شهر سبتمبر قوة من العرب فى دنديط بالقرب من ميت غمر ، فهزمهم وشتت جمعهم ، بعد أن قتل بعضهم وجرح رئيسهم ، واستولى منهم على ٢٠٠٠ رأس من الغنم

أما فى سنباط فقد أنفذ الجنرال دوجا الجنرال فردييه Verdier لمعاقبة العرب النازلين بها ، فغادر فردييه المنصورة يوم ١٢ سبتمبر بطريق النيل فى ٥٥٠ جندياً ، فالتقى على مقربة من سنباط بقوة من العرب ، فهزمهم واستولى على خيامهم وماشيتهم ومتاعهم[3] ، غير أن العرب تمكنوا من الإفلات ، فلم يقعوا فى أيدى الفرنسيين ، ولاذوا بالتلال القائمة حول سنباط ، وأرادوا أن يقاوموا القوة الفرنسية ، لكنهم نكصوا أمامها وألقوا بأنفسهم فى النيل ، وذهبوا يسبحون ونجا منهم من نجا ، وعادت القوة الفرنسية إلى المنصورة

---

(١) بمركز زفتى الآن

(٢) من بلاد مركز ميت غمر

(٣) كتبت جريدة (كورييه دليجيت) بالعدد الثامن أن معركة سنباط انتهت بإحراق القرية ، وخسر العرب فيها خمسمائة قتيل عدا من غرق منهم ، واستولى الفرنسيون على ستة آلاف رأس من الغنم

ثم تجددت الاضطرابات فى منطقة ميت غمر ودنديط وميت الفرماوى فى شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وباتت المواصلات النيلية فى فرع دمياط مهددة ، فعهد نابليون إلى الجنرال مورا والجنرال لانوس بالتعاون على إخماد حركة الثورة فى تلك المنطقة

التقى القائدان بالنيل عند بنها[(١)] وسارت قواتهما من الجنود بالمراكب قاصدين إلى ميت غمر فأرسوا على شاطئ النيل بالقرب منها ، وساروا قاصدين مهاجمة الثوار الذين احتشدوا فى (دنديط) ، وكان الجنرال مورا يتولى قيادة الميمنة والجنرال لانوس يقود الميسرة ، فسار الجنود الفرنسية بنظامهم الحربى لمهاجمة الثوار فى معقلهم ، وكان السير متعذراً ، لأن الثوار قطعوا جسور الترع فغمرت المياه الأراضى ووحل الجنود فى الطرق والمستنقعات ، ولما بلغت جموعهم دنديط ، انسحب منها الثوار إلى (ميت الفرماوى) ، وهناك امتنعوا بها وكان معهم مدفعان فقاوموا هجوم الفرنسيين مقاومة شديدة ، ثم اضطروا إلى الارتداد عن القرية ، فاستولى عليها الفرنسيون وعلى المدفعين اللذين كانا بها ، واعتصم الثوار بالتلال القريبة منها ، فتعقبهم الفرنسيون وأجلوهم عنها ، ثم استمر الثوار فى انسحابهم حتى بلغوا (الهوابر) وعجز الفرنسيون عن متابعتهم لما لحقهم من الإعياء ، ولما غمر الأرض من مياه الفيضان ، فرجعوا أدراجهم إلى ميت غمر

فيضان الثورة

كان طائف الثورة يطوف فى مختلف البلاد بحيث كانت كلما أخمدت فى جهة انبعثت فى جهة أخرى ، قال ريبو فى هذا الصدد : « كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس ، كلما أخمدها السيف والنار فى ناحية ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى آخر »

وقال فى موضع آخر يصف حالة الشعب النفسية ومركز الفرنسيين : «إن مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية ، فأخذت تنتفض وتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط فى مصر ونحتلها احتلالا عسكرياً ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الإقناع ، وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الإمتزاج بين الغالب والمغلوب عسراً بعيد الاحتمال ، فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة ، وقمع كل ثورة ومكافأة من يخدم

(١) يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٨

السلطة الفرنسية ، ولإدراك هذه الغـاية وزع بونابارت الجيش على مختلف أنحاء القطر لإخضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة ، وكان قواد الفرق فضلا عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الإشراف على الأعمال الإدارية والمـالية في مديرياتهم ، ويراقبون جباية الأموال والغرامات ، ويشرفون على مجالس الدواوين فى الأقاليم حتى لا تتعدى اختصاصها »[١]

الحملة على البحر الصغير

اهتم نابليون بإخضاع بلاد البحر الصغير ، الـكائنة بين المنصورة وبحيرة المنزلة وارتياد الجهات الموصلة إلى البحيرة ، وكان يرمى من جهة إلى إخضـاع تلك البلاد ، ومن جهة أخرى إلى تأمين المواصلات بين دمياط والمنصورة والصالحية وبلبيس حتى يطمئن على حدود مصر الشرقية ، وقد بعث إلى الجنرال دوجا فى هذا الصدد بعدة رسائل تظهر مبلغ اهتمامه بهذا القطاع[٢]

جرّد الجنرال دوجا حملة عسكرية لإخضاع البحر الصغير ومعاقبة القرى الثائرة فى هذا الإقليم ، وأنفذ لهـذا الغرض الجنرال داماس Damas والجنرال دستنج Destaing فى قوة من الجنود الفرنسية ورسم لهما الخطة التى يتبعانها ، فـكان أمره للجنرال داماس أن يمضى رأساً إلى بحيرة المنزلة لارتيادها وإخضاعها ، وعهد إلى الجنرال دستنج معاقبة بلدتى « منية محلة دمنة » و « القباب الـكبرى » الواقعتين على بحر أشمون[٣] إذ جاهر أهلهما بالعصيان والامتناع عن دفع الضرائب والغرامات التى فرضت عليهم

حسن طوبار

وكان لهذه المهمة شأن وخطر فى تلك الجهات ، لما امتد فى أنحائها من أسباب الثورة والهياج ، ولظهور جماعة من زعماء الأهالى يحرضون الناس على مقاومة الفرنسيين ، وقد تـكرر فى كثير من رسائل وتقارير القواد الفرنسيين فى مديريتى المنصورة ودمياط اسم « حسن طوبار » شيخ بلد المنزلة فى ذلك الحـين كزعيم للمحرضين ، وخصم عنيد لا يستهان به ، ومدبّر

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) كتب نابليون فى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ إلى الجنرال دوجا يقول : « أرجوك يا مواطنى الجنرال أن تخبرنى بالطريق الذى أزمعت السير فيه للوصول من المنصورة إلى بلبيس ومن المنصورة إلى الصالحية ، وبأية طريقة يمكن نقل المدفعية والفرسان فى هذه الجهة ، وما هى أسماء القرى الواقعة على النيل فى إقليم المنصورة ، وما هى نتيجة اكتشافكم للترع الثلاث التى تأخذ من النيل وتصب فى بحيرة المنزلة »

(٣) هو الاسم الذى كان يطلق على الترعة الـكبيرة المعروفة الآن بالبحر الصغير

لحركات المقاومة فى هذه الجهات، كما تردد اسم الأمير مصطفى وعلى العديسى كمحرضين فى واقعة الاعتداء على حامية المنصورة

كان حسن طوبار زعيماً لإقليم المنزلة ، وكان هذا الإقليم جياشاً بمتاعب كثيرة للفرنسيين ، كتب ريبو فى كتابه يصف سكان هذه الجهات بقوله : « إن مديرية المنصورة التى كانت مسرحاً للاضطرابات ، تتصل ببحيرة المنزلة ، وهى بحيرة كبيرة تقع بين دمياط وبيلوز القديمة (الطينة) ، والجهات المجاورة لهذه البحيرة ، وكذلك الجزر التى بها ، يسكنها قوم أشداء ذوو نخوة ولهم جَلَد وصبر ، وهم أشد بأساً وقوة من سائر المصريين ، ثم هم أغنياء بما ينالون من الصيد ، ولهم فى البحيرة خمسمائة أو ستمائة مركب[1] تجعل لهم السيادة فى البحيرة ، ولهؤلاء الجزائريين أربعون رئيساً منهم ، وكل هؤلاء الرؤساء يتبعون حسن طوبار شيخ بلد المنزلة ، وهو الزعيم الأكبر لهذه المنطقة »[2]

ويقول الجنرال أندريوسى Andreossi[3] الذى ارتاد بحيرة المنزلة وقدم عنها تقريراً إلى المجمع العلمى بمصر[4]: « إن لسكان هذه الشواطىء أربعين رئيساً يتبعون الشيخ حسن طوبار الذى احتكر الصيد فى البحر لقاء جعل للحكومة ، وحسن طوبار من أكبر أغنياء القطر المصرى ، وربما كان أغناهم ، وهو من المنزلة ، وفى أسرته مشيخة البلد يتوارثونها من أربعة أو خمسة أجيال ، وله سلطة واسعة تقوم على مكانته فى النفوس ، وثروته وعصبيته من ذوى قرباه وأتباعه ، وعلى مؤازرة العرب الذين يقطعهم الأراضى ليزرعوها ويغدق على روسائهم بالهدايا والتحف »

سير الحملة على البحر الصغير

بدأت تتحرك الحملة على البحر الصغير من المنصورة يوم ١٦ من سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ويهمنا قبل أن نصف خط سيرها أن ننقل هنا بعض التعليمات التى أصدرها الجنرال دوجا لكل من الجنرالين داماس ودستنج ليتبعاها ، فإن فى هذه التعليمات صورة حية لحالة البلاد فى ذلك العصر وحالة الشعب النفسية ، قال دوجا فيما عهد به :

« منية محلة دمنه والقباب الكبرى — هاتان القريتان واقعتان تحت تأثير رجلين يجب أسرهما ، وهما على العديسى من المنية والأمير مصطفى من القباب ، وقد وصلتنى رسالة

(١) يقول الجنرال لوجيه Laugier فى يومياته إن عدد المراكب التى ببحيرة المنزلة فى ذلك العصر يبلغ الألف

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع

(٣) أحد قواد الحملة الفرنسية ، انظر ما كتبناه عنه بالفصل الرابع ص ١٠٤

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الحادى عشر

من الجنرال فيال Vial (قومندان مديرية دمياط) ينسب إليهما تهمة الإتصال بالشيخ حسن طوبار شيخ بلد المنزلة وانتظارهما النجدة منه ، فيجب ألا يترك له الوقت لإمدادهما ، ومن ثمّ يجب مهاجمة المنية والقباب أسرع ما تمكن السرعة ، ثم احتلال موقع عسكرى بين القباب ودموه السباخ [1] يحول بين الرجلين وبين كل مدد يأتيهما ، وإذا قاوم الأهالى وجب سحقهم وسحق قراهم ، وإذا سلموا بدون إطلاق النار فيجب عليهم أن يسلموا فى الحال عشرين رهينة منهم ، وأن يسلموا على العديسى والأمير مصطفى ، ويسلموا كذلك جميع أسلحتهم وعشرين جواداً وثلاثين من الماشية ، ويغرموا ثلاثة أمثال الضريبة المفروضة عليهم ، وإذا رأيتم بعض القرى تتخذ السلاح لمؤازرة المنية والقباب ، فاضربوا فى أهلها وخذوهم أخذ الأعداء أعداءهم ؛ وإذا انتهت الحملة على المنية والقباب بإعادة السكينة والخضوع ، فعلى الجنرال دستنج أن يعود إلى المنصورة فيمن معه من الجنود ، أما إذا ظهرت الثورة فى بلاد أخرى فعليكم أن تتابعوا سيركم لإخضاعها »

« تعليمات خاصة للجنرال داماس — إن مهمة الجنرال داماس هى أولا مساعدة الجنرال دستنج فى معاقبة منية محلة دمنة والقباب الكبرى ، وعلى ذلك يتبع التعليمات السابقة فهى لهما جميعا ؛ وثانياً عليه أن يمر فى بحر أشمون (البحر الصغير) إلى بحيرة المنزلة ويقيس عمقه على طول البحر ، ويخضع البلاد الواقعة على شاطئيه ، وينتزع رهائن من كل البلاد التى لم تدفع الضرائب المفروضة عليها ، أو تسلم الخيل المطلوبة منها

« إن الجنرال فيال منزعج من مقاصد الشيخ حسن طوبار شيخ بلد المنزلة ، ومن حشده عدداً كبيراً من المراكب فى المطرية ، فإذا كان هذا صحيحاً فمن الواجب أسر الشيخ حسن طوبار وتحطيم أسطوله ، وعلى الجنرال داماس أن يجمع كل ما يمكن العلم به من غور بحيرة المنزلة والترع التى تصب فيها ، والبلاد الدانية من مصبها ، والفتحات التى تصل البحيرة بالبحر الأبيض ، وعمقها وعرضها ، وطبيعة الجزر الكائنة بالبحيره وسكانها ، ثم يعود إلى المنصورة فى طريق أشمون (البحر الصغير) ، وعليه أن يتبين طريق الصالحية (جنوبى بحيرة المنزلة) والطريقة التى يمكن بها جمع السفن فى بحيرة المنزلة لنقل فرقة عسكرية إلى صان »

تنفيذاً لهذه التعليمات تحرك الجنرالان داماس ودستنج على رأس الجنود الفرنسية من المنصورة يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة مساءً ، وساروا بالبحر الصغير على ظهر

(١) منية محلة دمنة ، والقباب الكبرى ، ودموه السباخ من بلاد مركز دكرنس وهي واقعة على البحر الصغير (بحر أشمون)

السفن ، فأرسوا ليلا على مقربة من منية محلة دمنة ، وشعر أهالى المنية باقتراب الحملة فأخلوا بلدتهم ؛ وفى فجر اليوم التالى أنزل القائدان الجنود إلى البر وزحفوا على المنية فكانت خالية من السكان ، فتابعوا السير إلى القباب الكبرى ، فإذا هى كذلك خالية من أهلها ، وقد كلف الجنرال داماس مشايخ بعض القرى المجاورة أن يبلغوا أهالى القريتين أن يعودوا فإن القوة لا تنالهم بشر إذا دفعوا الضرائب المفروضة عليهم ، وهنالك افترق القائدان الفرنسيان ، فرجع الجنرال دستنج إلى المنصورة من طريق بحر أشمون ، ومضى الجنرال داماس إلى المنزلة تنفيذاً للمهمة التى كلف القيام بها ومعه من الجنود نحو ثلثمائة جندى بأسلحتهم وذخيرتهم ، ولما بدأ الجنرال داماس سيره جاءته رسالة من الجنرال دوجا أنه موافيه بعدد من الجند ، فانتظر داماس فى المرساة[1] حتى جاءه المدد ليلا ، وفى اليوم التالى سار بجنوده وواصل السير وانتظر غير قليل فى ميت السودان[2] فالدراكسة[3] لتموين جنوده ، ثم وصل مساء إلى برنبال الجديدة[4] وكان الجنرال دستنج قد وصل فى صباح هذا اليوم إلى المنصورة

معركة الجمالية[5]

عسكر الجنود ليلا فى برنبال الجديدة ، وغادروها قبل شروق الشمس ، فوصلوا بحراً تجاه (الجمالية) فى نحو الساعة العاشرة صباحاً ، فوحلت سفنهم فى بحر أشمون من قلة المياه ، وانتهزها الأهالى فهاجموا السفن الفرنسية وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك فى هذا الهجوم أهالى الجمالية ، فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وابلا من الحجارة من أعلى سور بلدتهم ، فأمر الجنرال داماس بإنزال الجنود إلى البر لرد هجوم الأهالى ، وأمكنه أن يفرق الجموع التى أحدقت بالقوة الفرنسية ، ولكنه بعد قتال أربع ساعات انسحب من الموقع الذى نزل به ، ورأى أنه لا يستطيع الثبات به ولا متابعة السير فى بحر أشمون ، فأضرم النار فى الجمالية وعاد أدراجه إلى المنصورة ومعه جرحاه وقتلاه

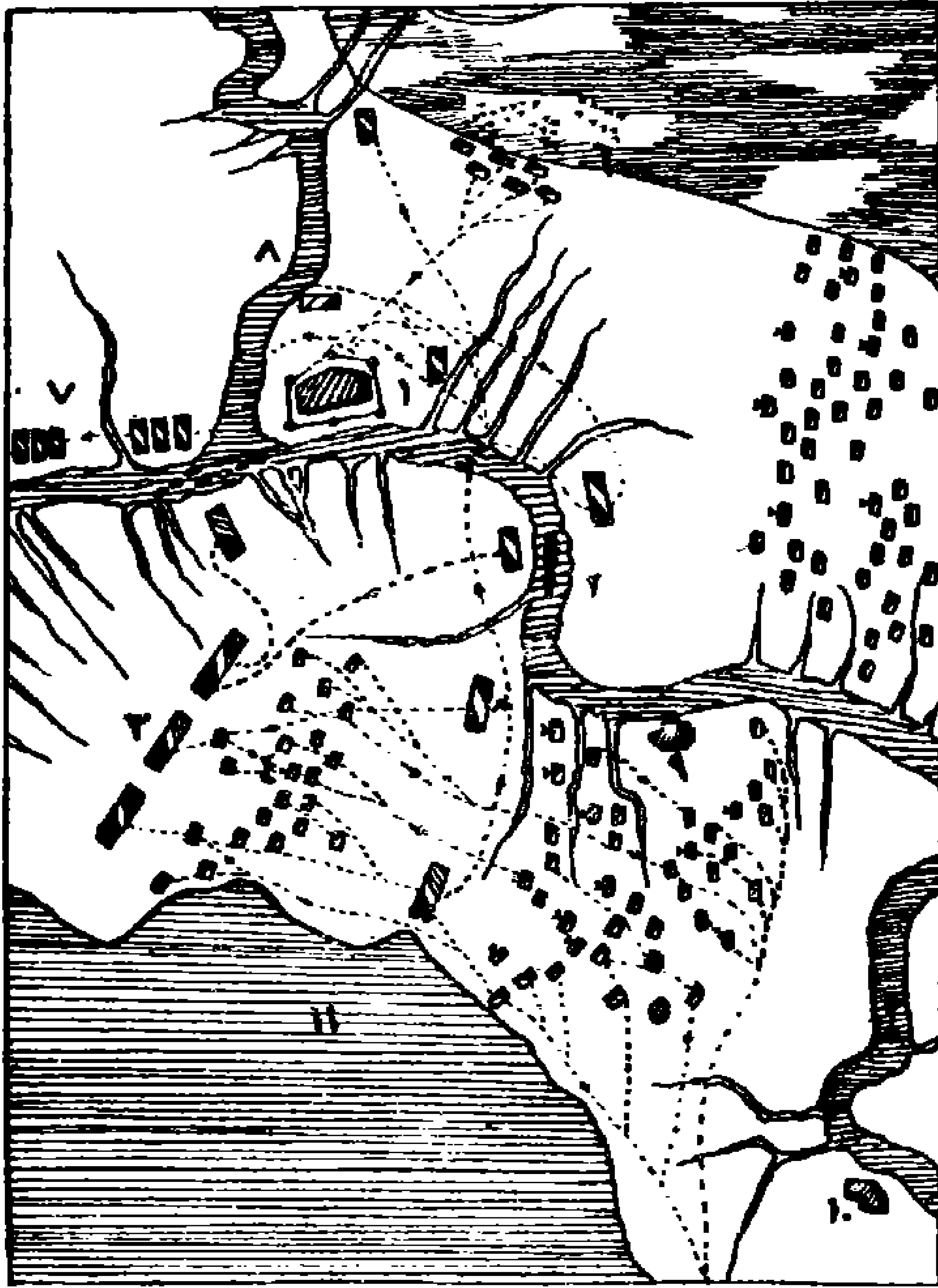
سلك الجنرال داماس فى عودته إلى المنصورة طريق البحر الصغير ، ومر فى طريقه بميت سلسيل[6] فأمر بإحراقها ، وكان أهلها قد تمردوا وأخلوا بلدتهم ، وأوغلوا بعيداً عنها بحيث كانت تفصلهم مياه الفيضان والمستنقعات عن خط سير الحملة ، فلم يستطع داماس اللحاق بهم

كانت معركة الجمالية ذات شأن وخطر ، وصفها الضابط جازلاس Gaslas من ضباط كتيبة الجنرال داماس فى تقريره عنها ، قال :

---

(١) و (٢) و (٣) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير
(٤) و (٥) و (٦) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير

خريطة معركة الجمالية



١ — الجمالية والسور الذى كان يحيط بها
٢ — بحر أشمون (البحر الصغير) وفيه السفن المقلة للجنود
٣ — المواقع الأولى التى نزل بها الجنود الفرنسية لمقاومة هجمات الأهالى
٤ — جموع الأهالى الذين هاجموا الجنود الفرنسية
٥ — انسحاب الأهالى بعد كسر هجمتهم الأولى
٦ — انسحاب الثوار من الجمالية والتجاؤهم إلى المستنقعات
٧ — انسحاب الفرنسيين إلى المنصورة بعد انتهاء المعركة
٨ — ترعة الجمالية
٩ — ميت شريف
١٠ — المواجد
١١ — بركة مياه

عن خريطة مودعة فى محفوظات وزارة الحربية الفرنسية سنة ١٨٠٠
نشرها القومندان دى لاجونكيير سنة ١٨٩٩

« لما وصلنا بحراً تجاه الجمالية ، وهى قرية كبيرة قوية على الشاطئ الغربى من بحر أشمون ، فوجئت السفن التى كانت تقل الجنود بعاصفة من الأحجار والرصاص انهالت من أسوار البلدة وبيوتها ، وفى الوقت نفسه رأينا جموعاً كثيرة من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصى (الشماريخ) تهرع من الجهات المجاورة مسرعة إلى مهاجمتنا ، وكان بعضهم راكبين الخيل ، وأكثرهم مشاة ، فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة ، ولكنا لم نؤخذ على غرة ، ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقى المقابل للقرية ، وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الأعداء (الأهالى) ، فرأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون إلى أن يصبحوا فى وسط جنودنا ، لكن الجنود حاربوهم ببسالة ؛ وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصى يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنّة رماحنا ، وصدر لى الأمر بإطلاق النار على الأعداء المهاجمين ، فأطلقنا النار عليهم وفرقنا هذه الجموع بعد أن تركت الميدان مغطى بجثث القتلى ، ولقد تمكن بعضهم أن يعبروا الترعة ثانية ويمتنعوا فى الجمالية ، وهى قرية محاطة بالأسوار تحميها ترعة أشمون (البحر الصغير) من جهة ، والمستنقعات التى تغمرها المياه من جهة أخرى ، فأمرنى الجنرال داماس أن آخذ القوة الكافية وأستولى

عنوة على القرية ، فعبرنا الترعة بجسر أقمناه على عجل ، ووزعت جنودى ، فعهدت إلى جزء منهم رد الهجمات الآتية من خارج القرية ، وهجمت بقوتى على القرية ، واقتحمنا الباب الكبير رغم مقاومة أهلها الذين دافعوا عنها دفاعاً قوياً ، فاستولينا على جزء من القرية ، ولكن الأهالى ظلوا يدافعون عن الجزء الآخر ممتنعين فى البيوت والشوارع ، وهجم الثوار على القوة التى دخلت القرية ، ولكن صدتهم البنادق والحراب ، وحصر جزء منهم فى القرية وتمكن جماعة آخرون أن يتسللوا منها فتلقتهم القوة المرابطة حولها ، ونجا منهم من ألقوا بأنفسهم فى المستنقعات وذهبوا سباحة يحملون أسلحتهم »

وقدر جازلاس خسائر الفرنسيين فى هذه المعركة بخمسة قتلى وخمسة عشر جريحاً ، وقدر خسائر الأهالى بخمسمائة (١)

انتهت معركة الجمالية بإحراق البلدة وانسحاب الفرنسيين ، وعادت قوة الجنرال داماس إلى المنصورة يوم ٢١ سبتمبر بعد أن مرت وهى راجعة بالكردى ومنية محلة دمنة ، وكان الأهالى فى معظم القرى التى مر بها الجيش يخلون بلادهم خوفاً من انتقام الفرنسيين ، بحيث كان الجيش يصلها فلا يجدها إلا خالية

عود إلى حسن طوبار

لم توفق الحملة الأولى على البحر الصغير فى إتمام مهمتها ، وبقى حسن طوبار قوياً يثير البلاد ويستفز الناس للمقاومة ، وكان الفرنسيون يحسبون له حساباً كبيراً ، ويسعون بمختلف الوسائل أن يخضعوه أو يجتذبوه إلى صفوفهم ، وقد اتصل به الجنرال فيال Vial فى دمياط ، وأظهر له حسن طوبار استياءه مما بلغه من إحراق الفرنسيين للجمالية ، وقال إن هذا العمل سيئة عليه فى هذه الجهات ، لأن أهالى الجمالية يعتبرون أنفسهم فى حمايته ، وقد أبلغ حسن طوبار الجنرال فيال أن ما أحدثه فى نفسه إحراق الجمالية من القلق والهم يمنعه من مقابلته ، وأرسل نابليون من القاهرة بعض الهدايا إلى الجنرال فيال ليقدمها باسمه إلى حسن طوبار يستميله بها ، فكتب فيال إلى الشيخ حسن يدعوه إلى الحضور لتسلم هذه الهدايا فأبى حذراً من أن تكون الهدايا وسيلة للقبض عليه

وكان حسن طوبار يخادع الفرنسيين عن خططه ومقاصده ، فقد أرسل له الجنرال داماس

---

(١) أشار نابليون إلى واقعة الجمالية فى رسالته إلى الديركتوار بتاريخ ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ بقوله : « بلغ الجنرال داماس الجمالية فهجمت قوة من العرب منضمين إلى الفلاحين على جنودنا ، فاتخذت التدابير الحربية التى انتهت برد هذا الهجوم ، وامتاز الضابط جازلاس فى هذه الواقعة »

أثناء حملته بالبحر الصغير يدعوه إليه ، فأجاب الرسول إنه لا يأبى دفع الضرائب العادية ، على أن يتركه الفرنسيون حراً ولا يعرضوا له بسوء ، وفى الوقت نفسه كان حسن طوبار يستعد للقتال ، ويرسل عياله وأمواله إلى عزة[1] ، ومما زاد الفرنسيين ريباً فى مقاصده أنهم علموا نبأ حركة يقوم بها الأتراك فى عكا بسواحل سوريا ، إذ يجمعون هناك السفن بقصد الإغارة على بحيرة المنزلة من طريق فم الديبة[2] ، وأن هذا هو السبب فى حشد الشيخ حسن طوبار كل ما نالته يده من السفن فى بحيرة المنزلة ، ليشترك فى تلك الحملة البحرية ، وتواترت الأخبار فى ذلك الحين بأنه متفق مع إبراهيم بك زعيم المماليك الذى كان مرابطاً بفلول جيشه فى جنوب سوريا ، وأنهما على اتصال مستمر لمقاومة الفرنسيين ، فحسن طوبار كان يشعل نار الثورة فى مختلف البلاد الواقعة بين دمياط والمنزلة والمنصورة ، وبينما كان يثير الأهالى فى بلاد البحر الصغير ، كان فى الوقت نفسه يجمع مراكبه فى بحيرة المنزلة لمهاجمة دمياط ، وكان الرجل فى نظر الفرنسيين عنواناً للمقاومة والعصيان

جاء فى يوميات الجنرال لوجييه « لقد تأكدنا أن حسن طوبار كان يجوب بنفسه البلاد الواقعة على بحر أشمون يحرض الأهالى على الثورة ، وكان يرسل إلى بعض البلاد الأخرى رسله وأتباعه لتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين ، وأنه هو الذى دبر واقعة الجمالية ، غير أنه من الصعب أن نلقى يدنا على هذا الرجل مع نفوذه العظيم بين الأهالى ، وأن فى استطاعته أن يحشد علينا قوات كبيرة جداً ، وقد جاءتنا الأخبار أن أهالى بعض القرى الواقعة على النيل أطلقت النار على السفن المقلة للجنود الفرنسية ، وأن الدلائل تدل على أن الثورة عامة ، ومن المحقق أننا كنا نستهدف لأخطار بالغة لو تشجع الثوار بانتصار يضرم فى قلوبهم نار الحماسة »

فى دمياط

كانت دمياط (كما هى الآن) من أهم بلاد القطر المصرى من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وكانت مركزاً تجارياً وصناعياً كبيراً ، تصدر منها متاجر البلاد وترد إليها وارداتها القادمة من سوريا وقبرص والأناضول وتركيا واليونان وفرنسا ، وبها كثير من الوكائل والخانات القائمة آثارها إلى اليوم ، واشتهرت بتجارة الأرز والأقمشة والمنسوجات والخشب ، وكانت تزاحم الإسكندرية فى مركزها التجارى ، واشتهرت هى والقرى المحيطة بها بصناعة الأقمشة ، إذ تنسج بها أحسن منسوجات القماش والحرير والتيل بالقطر المصرى

---

(١) يوميات الجنرال داماس بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٢) من فتحات بحيرة المنزلة على البحر الأبيض المتوسط

قدر « ريبو » عدد سكان دمياط فى ذلك العصر بستين ألف نسمة [١]، ويلوح لنا أن هـذا التقدير فيه شيء من المبالغة ، لأن المسيو جومار أحد مهندسى الحملة الفرنسية يقدرهم بعشرين ألفاً [٢] ، وإحصاؤه أقرب إلى الثقة لأنه جاب أنحاء مصر ودرس أحوالها عن كثب بخلاف المسيو « ريبو » ؛ ويقول كلوت بك فى كتابه [٣] إن عدد سكان دمياط فى عصر محمد على كان يتراوح بين ٢٥ و٣٠ ألفاً فى الوقت الذى وضع فيه كلوت بك كتابه ، أى حوالى سنة ١٨٤٠ ، ومن المحقق أن دمياط كانت إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ثانى بلد فى القطر المصرى بعد القاهرة فى عدد السكان ، ويقول الدكتور ديجنت كبير أطباء الحملة الفرنسية فى كتابه [٤] إن عدد سكان دمياط كان وقتئذ يزيد على ضعف سكان المنصورة

امتدت شعلة الثورة إلى دمياط ، وظهرت علائم الاضطراب والهياج حولهـا من أوائل سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فأرسل الجنرال فيـال إلى الجنرال دوجا ينذره بقرب هجوم الثوار على المدينة ويطلب المدد ، وينبئ بأن حسن طوبار يحشد أسطولا كبيراً فى بحيرة المنزلة لمهاجمة المدينة

وقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، واشترك فيه أهالى البلاد المجـاورة لدمياط ، واشترك فيه أيضاً أسطول حسن طوبار الذى تحرك فى بحيرة المنزلة قاصداً شطوط دمياط ، فوصل إلى (غيط النصارى) شرق المدينة ، والتقى الأهالى القادمون من القرى بالنازلين من السفن ، وكانوا مسلحين بالبنادق والرماح ، وساروا قاصدين دمياط لمهاجمة قوة الجنرال فيال ، فقتلوا الحراس الفرنسيين المرابطين فى المخـافر الأمامية للمدينة ، وظل القتال متواصلا ليلة ١٦ سبتمبر إلى أن رتب الجنرال قواته ، فتحول موقفه من الدفاع إلى الهجوم ، وتمكن من التغلب على الثوار ، وردهم على أعقابهم بعد ما كبدهم خسائر جسيمة ، وانسحب معظمهم إلى شاطئ البحيرة ، فركبوا السفن التى كانت تنتظرهم ، واتجهت فرقة منهم إلى قرية (الشعراء) [٥] فتحصنوا بها ، وهذه القرية من دمياط على مرمى المدفع ، فاتخذها الثوار معسكراً لهم وجاءهم المدد من بحيرة المنزلة ، وفى خلال ثورة دمياط قام أهالى عزبة البرج وثاروا بالحامية الفرنسية فقتلوا من أدركوهم من رجالها ، ولما علموا فى اليوم التالى أن ثورة دمياط أخمـدت

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع
(٢) تخطيط مصر الجزء التاسع
(٣) لمحة عامة إلى مصر الجزء الأول
(٤) التاريخ الطبى لجيش الشرق
(٥) جنوبى دمياط على مقربة من البحيرة والآن على ترعة الشرقاوية

وأن الفرنسيين لابد آتون للاقتصاص منهم أخلوا البلدة بعيالهم ونسائهم ، وانحدروا فى المراكب قاصدين إلى سواحل سوريا ، وقد أنفذ الجنرال فيال حملة على تلك البلدة فوجدتها خالية من السكان ، فنهبتها وأحرقتها وعادت إلى دمياط

واقعة الشعراء

تشجع الجنرال فيال بالمدد الذى جاءه من المنصورة وبحضور الجنرال اندريوسى الذى أوفده نابليون ليوطد سلطة الجمهورية فى تلك الأصقاع ، فتقدم الفرنسيون يوم ٢٠ سبتمبر للاستيلاء على (الشعراء) ، وكان يدافع عنها نحو ١٥٠٠ من الثوار ، تحميهم البحيرة من جانب والنيل من جانب آخر ، فاقتحم الجنود القرية واستولوا عليها عنوة ، ونهبوها وأضرموا فيها النار ، واستولوا على مدفعين للأهالى وعلى السفن التى كانت على مقربة من الشعراء ، ويقول الجنرال لوجييه فى يومياته إن الثوار خسروا فى هذه المعركة نحو خمسين قتيلا ؛ ويقول ريبو إن الفرنسيين خسروا اثنى عشر قتيلا وثلاثين جريحا (١)

تفاقم الثورة وفظائع الجنرال فيال

تفاقمت الثورة فى البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط ، وتعددت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية المقلة للجنود فى النيل ، وقتل فى خلال هذه الحوادث بعض الجنود والبحارة ، وكانت قرية ميت الخولى الواقعة على النيل أكثر القرى اعتداء على السفن ، فقام الجنرال فيال من دمياط فى خلال شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ونزل بطريق النيل ومعه القوة الكافية من الجنود لمعاقبة البلاد التى هاجمت السفن ، لكنه أسرف فى التنكيل ولم يفرق بين القرى الثائرة والقرى الآمنة الهادئة ، وأوقع بها كلها نهباً وإحراقاً ؛ مر أولا بالظاهرية (٢)

(١) ذكر نابليون فى منشور من منشوراته العسكرية (بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨) واقعة الشعراء ، ولكنه بالغ فى وصفها ، إذ ذكر أن عدد الثوار فيها كان عشرة آلاف ، وأن خسائرهم بلغت ١٥٠٠ قتيل وغريق ، وهذا المنشور وارد فى مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٨٠ ، وليس من المعقول أن يحتشد فى (الشعراء) عشرة آلاف ثائر مهما كان عدد المدد الذى جاء من البلاد المجاورة أو من بحيرة المنزلة ، وبالتالى لا يعقل أن تبلغ خسائر الأهالى ١٥٠٠ قتيل ، والظاهر أن هذه المبالغة راجعة إلى الإحصاء المكذوب الذى أورده الجنرال فيال فى رسالته إلى نابليون عن المعركة لينتحل لنفسه فخراً لا يستحقه ، ولتعظم منزلته عند نابليون ، على أن فيال هذا ذكر فى رسالة له إلى الجنرال دوجا عن هذه الواقعة أن عدد قتلى الثوار فيها لم يزد على ثلثمائة ، وفى هذا أيضاً مبالغة ، والواقع أن الجنرال فيال كان معروفا عنه المبالغة والإغراق فى رسائله وتقاريره ، وقد أشار الجنرال (لوجييه) فى يومياته إلى مبالغاته ، وذكر بالذات أرقامه عن واقعة الشعراء فقال فى هذا الصدد : « إن الجنرال فيال بالغ فى تقريره مبالغة مدهشة ، فجعل خسائر الأعداء (الأهالى) ١٥٠٠ قتيل فى حين أن خسارتهم لم تبلغ خمسين قتيلا » وهذا الإحصاء هو الذى اعتمدنا عليه

(٢) بمديرية الغربية على الشاطئ الغربى لفرع دمياط شمالى شربين وتسمى الضهرية

فوجدها خالية من السكان لأن أهلها أخلوها قبل أن تصل إليهم الجنود الفرنسية كيلا يستهدفوا للانتقام ؛ ثم بلغ كفر المياسرة فوجدها كذلك خالية من سكانها ، ومر بالزرقا فوجدمشايخ البلد قد لاذوا بالفرار ، ووصل إلى ميت الخولى التى كان أهلها أكثر اشتراكا فى الاعتداء على الجنود ، فإذا هم قدأخلوا بلدهم ، وكانت قرية كبيرة محصنة محاطة بسور يحيط به خندق ، فاستولى الجنرال فيال على المدينة وعلى ماوجد فيها من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع قديمة وأمر جنوده بنهب البلدة وإحراقها

واستمر فى طريقه بالنيل وأراد أن يفاجئ بقوته قرية الأحمدية الواقعة بالبر الغربى ، ولكن أهلها أخلوها قبل مجيئه ، ثم اتجه إلى شرمساح بالبر الشرقى ، وعاد منها إلى كفر الزعاتره ، وهى آخر بلدة حط بها أثقاله فى هذه الرحلة ، فوجد فيها بعض الأهالى الآمنين بعد أن هجرها معظمهم ، ثم عاد إلى دمياط فوصلها ليلة ١٤ أكتوبر ومعه بعض الرهائن من أعيان البلاد ، فأرسلهم مخفورين إلى القاهرة

اعترف الجنرال فيال فى رسالته إلى الجنرال دوجا بأنه الآمر بنهب ميت الخولى انتقاماً من الأهالى لاعتدائهم على الجنود الفرنسيين ، وقد لامه نابليون على هــذا الأمر وأرسل له يقول : « لقد استأت من نهب قرية ميت الخولى وكان يكفى تجريدها من السلاح »(١)

وكتب الجنرال لوجييه فى يومياته يصف المساوئ التى ارتكبها الجنرال فيال فى اقتصاصه من ميت الخولى والقرى المجاورة :

« فى اليوم الذى عاد فيه الجنود إلى دمياط بعد هذا النهب كانت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مولد باع فيه الجنود الفرنسية إلى الأروام مانالته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشى والطيور والثيران والبقر والخيول والحمير والغنم والدجاج والأوز ... وكثيراً من قطع الذهب والفضة التى كانت حلياً للنساء »

وقد أمر نابليون الجنرال دوجا بالانتقال إلى دمياط لمواجهــة الحالة الثورية فيها ، وكانت فظائع الجنرال فيال وجنوده قد أجّجت فى النفوس نار الكراهية واستفزت الأهالى للأخذ بالثار ، والاستماتة فى مقاومة الفرنسيين

وأرسل نابليون إلى دمياط بعض السفن المسلحة لتكون عند أمر الجنرال دوجا فى بحيرة المنزلة ، ولتضمن بسط سيادة الفرنسيين فيها ، على أن مركز الفرنسيين فى جهات دمياط والمنزلة ظل مزعزعا وسلطتهم مردودة فى معظم البلاد ؛ كتب الجنرال لوجييه فى يومياته يقول :

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٧٦

« لم تتحسن الحالة كثيراً عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لأول مرة إلى دمياط ، والسلطة الفرنسية مازالت منكورة فى معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية ، وفى دمياط نفسها التى تعتبر من أعظم بلاد القطر المصرى لايأمن الجندى الفرنسى على حياته إذا هو ذهب إلى حىّ الوطنيين ، والحامية الفرنسية مقصاة فى حى الأروام »

الحملة الثانية على البحر الصغير

رأى نابليون أن نفوذ حسن طوبار يخلق للفرنسيين كثيراً من المصاعب ، ويزعزع سلطتهم فى جهات البحر الصغير والمنزلة ، ويثير فى نفوس الأهالى روح الثورة ، فعزم أن يجرد عليه حملة ثانية لإخضاعه والاستيلاء على المنزلة ، وكان لا يفتأ يهتم بتوطيد سلطة فرنسا فى البلاد الواقعة بين النيل (فرع دمياط) وبرزخ السويس ، لأنها الجبهة الشرقية للقطر المصرى ، لذلك كان يفكر فى تحصين بعض المواقع فى تلك الجهات لحماية حدود مصر وتأمين مواصلات الجيش ، ولكن حوادث الثورة التى شبت فى تلك البلاد عطلت وقتاً ما تنفيذ مشروعه

على أن نابليون أدرك عواقب هذا التأخير ، فأوفد الجنرال أندريوسى Andreossi ليقوم بتحصين مصبّ النيل ، واتخاذ دمياط موقعاً حربياً منيعاً ، ودراسة بحيرة المنزلة ليتعرف إلى أى حد يمكن استخدامها فى حالة الهجوم على مصر من جهة سوريا ، أو الهجوم على سوريا من مصر ، وطلب منه أن يمضى فى اكتشافه لبحيرة المنزلة حتى آثار مدينة بيلوز القديمة الواقعة فى نهاية البحيرة شرقاً ، ودراسة فتحاتها على البحر الأبيض المتوسط ، والتحقق مما إذا كانت السفن الإنجليزية أو العثمانية تستطيع الدخول إلى بحيرة المنزلة وإنزال الجنود على شواطئها ، وتقدير المسافة بين بيلوز والصالحية ، وأصحبه ببعض المهندسين فى مهمته بدمياط وبحيرة المنزلة، ثم أرسل إلى الجنرال رينييه قومندان الشرقية بأن يعاون الجنرال أندريوسى فى مهمته

وصل الجنرال أندريوسى إلى دمياط ، فألفى مركز الفرنسيين مزعزعا ، وتعذر عليه أن يرتاد بحيرة المنزلة ، لأن الثورة التى شبت فى القرى المجاورة لها كان من نتائجها أن أوغل أصحاب المراكب فى عرض البحيرة بحيث لم يجد مركباً منها ، وكتب إلى نابليون يخبره أن لا سبيل إلى تسلط الفرنسيين على بحيرة المنزلة ، إلا بعد سحق حسن طوبار والقضاء على قوته الكبيرة ، فبالاستيلاء على مدينة المنزلة التى يسكنها تصبح مركزاً حربياً للحركات العسكرية فى البحيرة ، وتكون ملتقى المواصلات الحربية بين المنصورة ودمياط وميت غمر والصالحية وبيلوز

أرسل نابليون المدد إلى الجنرال دوجا ، وكلفه بتجريد حملة عسكرية على مدينة المنزلة ،

للاستيلاء عليها ، وإرسال كتيبة أخرى إلى الجنرال أندريوسي للاستيلاء على جميع الجزائر الواقعة فى بحيرة المنزلة ، وشدد عليه فى هذه الرسالة أن يأخذ حسن طوبار ولو بالخديعة[١] ، وأن يرسله إلى القاهرة ، وأوصاه كذلك بالقسوة على الثائرين ، وإخضاع البلاد الكائنة بين المنصورة ودمياط إخضاعاً تاماً ، وأوصاه « بتجريد القرى من السلاح ، وقطع الرؤوس ، وأخذ الرهائن[٢] »

التقى الجنرال أندريوسى فى دمياط بالجنرال دوجا الذى جاءها من المنصورة بعد ما نصبه نابليون قومنداناً للمديريتين ، فتبين له أن مركز الفرنسيين مضطرب ، وأن سوء إدارة الجنرال فيال وقسوته كان لهما أثر فى اضطراب الحالة واختلالها ، فقد ثبت أنه كان يهاجم القرى الآمنة وهى مطمئنة لم ترفع السلاح فى وجه الفرنسيين ، ولا يفرق بينها وبين القرى الثائرة ، وكان يصادر الأهالى ويرهقهم بالإتاوات والغرامات ، ونسب إليه بعض زملائه أنه احتكر تجارة الخمور فى دمياط

سير الحملة والاستيلاء على المنزلة .

وضع الجنرال دوجا أثناء تعهده لدمياط خطة الحملة التى أمر نابليون بتجريدها على جهات المنزلة لإخضاع حسن طوبار ، فاتفق مع الجنرال أندريوسى على أن يقصد هذا الأخير إلى مدينة المنزلة بطريق البحيرة على ظهر المراكب التى جمعها لهذا الغرض ، وأن تسير إليها قوة أخرى بقيادة الجنرال داماس Damas بطريق البر من المنصورة ، فتطبق القوتان على المدينة من البر والبحر ، وبذلك يقضى على مقاومة حسن طوبار ، وكانت الخطة المرسومة تقضى بأن يبدأ الجنرال أندريوسى بالإقلاع بسفنه وجنوده قبل أن تتحرك القوة الأخرى من المنصورة بأربع وعشرين ساعة

تحركت قوة الجنرال داماس من المنصورة يوم ٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة صباحا ، فأقلت السفن قسما من الجنود وسار القسم الآخر براً محاذياً المراكب ثم عرجت على بحر أشمون (البحر الصغير) الذى كان يتفرع من النيل على مقربة من المنصورة[٣]

وصف الجنرال لوجييه Laugier أحد قواد هذه التجريدة فى يومياته تفاصيل هذه الحملة ، قال يصف البلاد التى مر بها :

(١) رسالة نابليون إلى الجنرال دوجا فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ . مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٧٤

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٧٤

(٣) الآن يتفرع من ترعة المنصورية

« دخلت السفن ترعة أشمون ، وهذه الترعة واسعة وعميقة جداً ، على أنهـا تضيق كلما اقتربت من مصبها ببحيرة المنزلة ، وهى تخترق بلاداً غاية فى الخصوبة ، وعلى شاطئيها غرست أشجار الجميز الباسقة وأشجار أخرى تدانيها فى العلو ، ولم نجد فى القطر المصرى جهة كثيرة الشبه بفرنسا مثل هذه الجهة ، فبعثت فينا هذه المشابهة الشجو والحنين إلى الوطن ، والمسافة بين المنصورة والمنزلة تبلغ عشرين فرسخاً عددنا بها خمساً وأربعين قرية كلها آهلة بالسكان »

سارت الكتيبة حتى وصلت إلى منية محلة دمنة ، ولم تلق فى طريقها مقاومة تذكر لأن القسوة التى استعملها الجنرال داماس فى حملته الأولى وما أصاب أهالى الجمالية من الخسائر قد أضعف روح المقاومة ومال بهم إلى الإخلاد ودفع الضرائب المطلوبة منهم ، فكانت كل قرية دفعت ما عليها من الضريبة ترسل من أهلها رجلا يحمل الوصل بالدفع فينتظر مرور الحملة ، فإذا أقبلت رأت هذا الرجل واقفاً لا يتحرك وقد جعل الوصل فى رأس « نبوت » رفعه لهم ليروه ، والقرية التى لم تدفع ما عليها تبادر إلى الدفع

ثم وصلت الحملة إلى أشمون[1] فى منتصف الساعة السابعة مساء فعسكرت ليلها ، وفى اليوم التالى (٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨) قبل شروق الشمس تابعت سيرها بعد أن أرجع الجنرال داماس إلى المنصورة تسعة من مراكبه الكبيرة التى لم تستطع مواصلة السير لأن الترعة بدأت من هذه النقطة تضيق ويقل عمقها ويتعذر سير المراكب فيها ، ثم وصلت إلى (الكردى) ، وهناك جاء وفد من المنزلة يقصد مقابلة قائد الحملة للمفاوضة مع الفرنسيين ، ويطلب ضماناً بألا يعاملهم الجيش الفرنسى معاملة الأعداء ، ويظهر أن هذا الوفد جاء بإيعاز من الشيخ حسن طوبار لما استيقن بأنه هو المقصود بهذه الحملة العسكرية ، وبالرغم من أن الوفد يعلم مبلغ كراهية الفرنسيين لحسن طوبار ، فإنه لما سئل عن مقاصده أثنوا عليه أحسن الثناء ، وقد كتب لهم الجنرال داماس تصريحاً بضمانة أرواح الأهالى إذا سلكوا مع الجيش مسلك الولاء

قال الجنرال لوجييه فى يومياته : « فى كل جهة مررنا بها من المنصورة إلى المنزلة كنا نسمع ثناء الأهالى على حسن طوبار ، وهو محبوب منهم حباً شديداً ، وهو غنى تقدر ثروته بالملايين (من الفرنكات) ، يملك الأراضى الواسعة ومصانع نسج القطن ومصانع الصباغة والمتاجر الكثيرة »

احتلال المنزلة

وفى يوم ٦ أكتوبر سمع جنود الحملة قبيل الفجر أصوات طلقات البنادق آتية من مدى

(١) من بلاد مركز دكرنس ومعروفة الآن بأشمون الرمان

بعيد ، وتبين لهم من اتجاه الصوت أن معركة نشبت على مقربة من دمياط ، فسارعت الحملة إلى المنزلة [١] فوصلت تجاهها الساعة العاشرة صباحا ، وكان الأهالى ومعهم حسن طوبار قد أخلوها ولم يبق بها إلا الشيوخ الذين لايقدرون على السير والعجائز من النساء ؛ فدخل الجنود المدينة دون مقاومة وجابوا طرقاتها وأزقتها ، واستوقف نظرهم منازل حسن طوبار التى كانت تسترعى النظر لسعتها وجمال منظرها وبنائها على الطراز الشرقى ، وكانت مقفلة الأبواب خالية من السكان ، وقد أراد بعض الضباط ومنهم الجنرال لوجييه أن يدخلوها فقيل لهم من الأهالى إن مفاتيح الأبواب غير موجودة ففتحوا مدخل أحدها ولكنهم لاحظوا أن انتهاك حرمة مساكن حسن طوبار يثير غضب الأهالى فانسحبوا منها[٢] ، واحتلوا داراً جعلوها المعسكر العام للحملة ، وبالرغم من الضمانة التى كتبها الجنرال داماس لوفد المنزلة فإن الجنود قد نهبوا البيوت واشتد الصخب وعلت الشكوى ، فاضطر الجنرال داماس إلى إصدار أوامره المشددة لمنع النهب ورد الجنود إلى النظام ، وبذلك تم للجنرال داماس احتلال المنزلة

أما أسطول الجنرال أندريوسى فقد أخفق فى مهمته إخفاقاً شديداً ، ذلك أن مراكبه أقلعت من دمياط يوم ٣ أكتوبر قبيل الفجر تقل جنوده المجهزين بالأسلحة والمدافع ، وكان عدد هذه المراكب ١٦ سفينة منها ثلاث سفن حربية

خرجت السفن من بوغاز دمياط ثم عرجت على فم الديبة فمرت منه إلى بحيرة المنزلة ، وقطعت هذه المرحلة فى ثمانى ساعات ، ثم اتجه الجنرال أندريوسى بقوته صوب المطرية ، ولكنهم شاهدوا فى نحو الساعة الثالثة مساء أسطولا من المراكب الشراعية متجهاً نحو الشرق تحجبه عن القوة الفرنسية الجزائر التى فى البحيرة ، فواصلت سفن الجنرال أندريوسى المسير حتى اقتربت من المطرية ، وقبل أن تصل إليها خرجت مراكب الأهالى فجأة من خلف الجزر التى تحجبها ، وأقبلت على السفن الفرنسية قاصدة الاصطدام بها وإغراقها ، فأدرك الجنرال أندريوسى خطورة الموقف وخشى عواقب الاصطدام ، لأن المراكب المصرية كانت تبلغ مائة مركب ، فنكص راجعاً إلى دمياط وأطلقت المراكب المصرية النار على السفن الفرنسية ، فأجابت هذه بإطلاق الرصاص من البنادق والمدافع التى بها ، وأخذت فى الوقت نفسه تتراجع تفادياً من الاصطدام بمراكب الأهالى ، وكانت هذه تتعقب السفن الفرنسية قاصدة

(١) يبلغ عدد سكان المنزلة فى ذلك العصر نحو ألفى نسمة كما قدرهم الجنرال أندريوسى فى تقريره الذى قدمه إلى المجمع العلمى ، وذكر عنها أن بها مصانع لنسيج الحرير والكريشة والملايات وبها بعض مصانع الأقمشة

(٢) يوميات الجنرال لوجييه

احتلال دمياط ، ورست بالقرب من « المنية »[١] ، لـكن القوة الفرنسية أطلقت النار عليها فنبهت الدوريات الفرنسية التى كانت تتولى حراسة ضواحى دمياط ، فأقبلت لنجدة الجنرال أندريوسى ، وظل بحارة المراكب الأهلية يناوشون السفن الفرنسية إلى أن انسحبوا فى نصف الليل وتركوا سفينة تراقب حركات الفرنسيين ، وظلت هذه السفينة على مرأى من سكان دمياط طول يوم ٤ أكتوبر ، وفى يوم ٨ أكتوبر أعادت المراكب الأهلية كرة الهجوم على دمياط ، ولـكن نار المدفعية الفرنسية والسفن الحربية ردتها عن المدينة

كانت حركة المراكب المصرية خطيرة واسعة المدى ، وكادت تكون وخيمة العواقب على الفرنسيين لو لم يحبطها احتلال الجنرال داماس لمدينة المنزلة ، فقد كانت الخطة الموضوعة بالاتفاق بين أهالى المطرية والمنزلة أن يحتلوا دمياط بحراً بطريق بحيرة المنزلة ، والظاهر أن المائة السفينة التى شاهدها الجنرال أندريوسى فى البحيرة كانت تحمل المتطوعين من الأهالى لهذا الغرض ، لـكن القوة الفرنسية ردتهم عن دمياط ، ثم جاء احتلال الفرنسيين للمنزلة فأحبط خطة الحملة البحرية التى نظمها أهالي المنزلة والمطرية ، وقد كان الفرنسيون جادين فى احتلال هاتين المدينتين لأنهما يضمنان لمن يستولى عليهما السيادة فى البحيرة، فالمطرية بأسطولها المؤلف من المراكب الشراعية ، والمنزلة بقوة حسن طوبار ونفوذه ، كانتا مفتاح هذه السيادة ، فسقوط المنزلة فى يد الفرنسيين شلّ خطة المقاومة التى وضعها حسن طوبار وأشياعه ، على أن هذه الخطة كانت محكمة التدبير لدرجة أن الجنرال أندريوسى كتب عنها كثيراً فى رسائله لنابليون ، ومما قاله فى هذا الصدد : « إن استبسال العدو فى الهجوم على دمياط يثبت أهمية هذا الموقع ، ويظهر أن الأنباء التى كانت وصلتنا عن قرب هجوم أهل المطرية والمنزلة على دمياط ، وانتظار حسن طوبار المدد من سوريا لم تكن بعيدة عن الحقيقة ، لأنى لا أعتقد أن الهجوم الذى فوجئنا به فى البحيرة يستطيع أن يقوم به جماعة من الصيادين ، فلا يمكن لمثل هؤلاء أن ينظموا مثل هذا الهجوم ويحكموه بمثل الحالة التى شاهدناها[٢] »

احتلال المطرية

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال المنزلة ، سقطت المطرية فى أيديهم واحتلتها قوة الـكولونل جازلاس Gazlas ، ثم وصلت إليها السفن الفرنسية من طريق بحيرة المنزلة بعد أن أخلاها أهلها وغادروها على ظهر مراكبهم

(١) جنوبى دمياط بغرب

(٢) رسالة الجنرال أندريوسى إلى نابليون فى ٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨

قضى احتلال المنزلة والمطرية على قوة المقاومة التى كان يديرها حسن طوبار ، فلم يجد أمامه سوى الهجرة إلى غزة ، وبذلك انتهت تلك الحركة الواسعة المدى التى أقلقت بال الفرنسيين زمناً ، وطويت صحيفة مقاومة ذلك الرجل الذى أزعج قواد الجيش الفرنسى وتردد اسمه فى تقاريرهم ورسائلهم ، وورد اسمه غير مرة فى رسائل نابليون الخالدة كعنوان للمقاومة الأهلية القوية ، وقد ظل بعد هجرته إلى غزة مصدر قلق للفرنسيين ، وخشوا أن يفكر فى الرجوع إلى شواطئ دمياط وبحيرة المنزلة ويستأنف مقاومته ، وجاءتهم أنباء بأنه يعد فعلا قوة من المشاة فى غزة عزم على نقلها فى خمسين سفينة يحتل بها دمياط ، ولكن لم يتحقق شىء من هذا العزم ، كتب الجنرال دوجا إلى نابليون فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ينقل إليه هذه الأخبار ، ولكن نابليون لم يعرها اهتماماً ، وكتب إلى الجنرال دوجا يقول له :

« أما عن مشروع حسن طوبار فى الإقلاع بسفنه لاحتلال دمياط ، فمن المستبعد أن يفكر فى إنفاذ هذا المشروع بسفنه ورجاله المشاة دون فرسان ولا مدفعية ، وإذا أقدم على ذلك فهذا هو الطيش بعينه »

وقد عاد حسن طوبار إلى مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية على سوريا ، وتعهد بالتزام السكينة والهدوء فى منطقته[1] ؛ ولكن يؤخذ من رسائل الجنرال كليبر أن السلطات الفرنسية لم تكن تثق به ولا تطمئن إليه ، وكان كليبر فى عهد قيادته العامة يوصى الجنرال فردييه Verdier بمداراته ومراقبة حركاته[2] إلى أن مات سنة ١٨٠٠ ، ونشرت جريدة (كوريبه دليجبت) نبأ وفاته فى العدد ٧٥ الصادر فى ٩ ترميدور من السنة الثامنة (٢٨ يوليه سنة ١٨٠٠) وقالت عنه ما خلاصته : « فى ١٠ مسيدور (٢٩ يونيه) مات فجأة حسن طوبار كبير مشايخ إقليم المنزلة مصاباً بالسكتة القلبية ، وكان هذا الرجل عظيم المكانة لأصله العريق وغناه الواسع وقد هاجر من بلاده فى الأشهر الأولى من الحملة وعاد إليها بعد الزحف على سوريا ، وأذن له الجنرال بونابرت فى الرجوع إلى مصر ، فأذعن من يومئذ وأخلد للسكون ، وقد خلفه فى شياخة إقليم المنزلة أخوه شلبى طوبار »

---

(١) جاء فى جريدة (كوريبه دليجبت) وهى الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية بالعدد الصادر فى ٢٦ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية (يوليه سنة ١٧٩٩) أن حسن طوبار قدم خضوعه فى أوائل شهر مسيدور (يونيه) وأبقى ابنه رهينة لدى الفرنسيين ليضمن إذعانه ، وجاء فى رسالة نابليون إلى الجنرال كليبر (حاكم منطقة دمياط وقتئذ) بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ أن حسن طوبار ترك ابنه بالقاهرة فى مساء ذلك اليوم رهينة على أن يسافر هو إلى دمياط

(٢) رسائل كليبر إلى الجنرال فردييه بتاريخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٩ و ٢٢ مايو سنة ١٨٠٠

هذا ولا يزال حسن طوبار يذكره كبار السن إلى الآن فى جهات البحر الصغير والمنزلة ويسمونه « حسن طوبار الكبير الذى حارب الفرنسيس »

تحصين منطقة دمياط

عنى الفرنسيون بتحصين منطقة دمياط فأنشأوا قلعة بعزبة البرج[١]، وقلعتين على مدخل البوغاز شرقاً وغرباً ، وأقاموا كذلك طابية بالديبة على مدخل بحيرة المنزلة غربى أشتوم الجميل ، وأخرى على فتحة أم مفرج من فتحات البحيرة ، وطابية ببوغاز البرلس

ويظهر لنا أن قلاع عزبة البرج والبوغاز أقامها الفرنسيون على أنقاض القلاع القديمة التى كانت بها ، فقد ذكر الرحالة فانسليب Vansleb أنه لما جاء إلى مصر ونزل بدمياط سنة ١٦٧٢ شاهد عند مدخل البوغاز قلعة قديمة مقامة بالبر الشرقى للنيل ، كانت فى حالة تهدم وأبراجها متخربة وفيها بعض المدافع لحماية البوغاز ، وأن هذه القلعة على بضع خطوات من بلدة سماها فانسليب قرية البوغاز ، وحقيقة اسمها قرية (عزبة البرج) لأنه يقول إن هذه البلدة يسكنها قباطين السفن والبحارة الذين يصحبون المراكب فى دخولها النيل أو خروجها منه ، والمعروف أن هذه البلدة هى عزبة البرج ، ويقول فانسليب أيضاً إنه شاهد فى هذه القرية أساس قلعة لم تتم ، وشاهد بالبر الغربى قلعة أخرى لحماية البوغاز[٢] ، وفى خريطة المسيو بول لوكاس Paul Lucas التى خططها سنة ١٧١٧ رسم حصنين قائمين على جانبى بوغاز دمياط شرقاً وغرباً[٣] ، وقال السائح الفرنسى جرانجيه Granger الذى جاء مصر سنة ١٧٣٠ إنه شاهد هذين الحصنين فى تلك السنة[٤] ، وتكلم عنهما المسيو تيبودو Thibaudeau فى كتابه فقال إنهما كانا موجودين قبل الحملة الفرنسية ورممهما الفرنسيون ونصبوا فيهما المدفع[٥]، وكذلك يقول الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية[٦] إنهما كانا قائمين قبل الحملة ويقول عنهما : « إن هذين الحصنين أعدّا لحماية مدخل البوغاز ، وإن الغرض من قلعة عزبة البرج منع السفن من دخول النيل ومنع العدو من التقدم إلى دمياط براً إذا رسى على البر الشرقى»

---

(١) الواقعه بالبر الشرقى للنيل تجاه رأس البر الآن
(٢) رحلة فى مصر للرحالة فانسليب
(٣) رحلات المسيو بول لوكاس فى مصر
(٤) رحلة فى مصر للمسيو جرانجيه
(٥) تاريخ نابليون بونابرت ، حملة مصر الجزء الثانى طبع سنة ١٨٢٨
(٦) فى كتابه (مصر بعد معركة عين شمس)

وإليك ما ذكره العلامة على باشا مبارك عن هـذه الحصون والاستحكامات وما زاد عليها فى عهد محمد على باشا وعباس باشا الأول وإسماعيل باشا :

« قد أنشأ المرحوم عباس باشا سكة عسكرية من المدينة (دمياط) إلى البوغاز عرضها اثنا عشر مترا فى طول ستة عشر ألف متر تمر فى وسط المزارع على جملة قرى منها عزبة الخياطة وعزبة اللحم والحملة وعزبة الشيخ ضرغام ، حتى تصل إلى قلعة البوغاز الكبرى التى أنشئت زمن دخول الفرنساوية أرض مصر فى القرية القديمة المسماة بقرية البرج ، التى هدمها بنوبارت سرعسكر الفرنساوية لقيام أهلها ليلا على عساكره وذبحوا منهم جملة ، وبنى بأنقاضها تلك القلعة ، ولم يبق من آثارها إلا الجامع الذى بوسطها ومنزل صغير به الآن حكمدارها ، ومن إنشاء المرحوم عباس باشا أيضاً القشلاق الكبير الذى هناك على شاطئ النيل ، وجملة مخازن للبارود والمهمات العسكرية ، وصهريج كاف لشرب العساكر المرابطين بتلك القلعة مع أهل عزبة البرج الجديدة التى فى شمال القلعة ؛ ومن إنشائه أيضاً عمارة الكرنتينة ومحل الجمرك فى جنوب القلعة على شاطئ النيل ، وفى جهتى البوغاز شرقاً وغرباً قلعتان أنشئتا فى زمن الفرنساوية بصورة الاستحكامات الدائمة الموافقة لأسلحة ذلك الوقت القريبة المرمى الضعيفة التأثير ، وكانت قلعة الغرب مبنية بشكل سور مستدير محيط بالبرج القديم المستدير الذى به مقام الشيخ يوسف فى محل يعرف برأس البر ، ثم إن ساحل البر من بوغاز دمياط إلى بورت سعيد لم يكن به قلاع سوى قلعة (الديبة) القديمة التى بنيت فى زمن الفرنساوية بشكل بلانقة مربعة وفى وسطها برج مربع شاهق يرى من مسافة بعيدة ، وبينها وبين بوغاز دمياط اثنان وثلاثون ألف متر ، وكانت على شريط الساحل القليل العرض الفاصل بين المالح وبحيرة المنزلة للحماية من دخول المراكب من أشتوم الديبة القديم ، وكذا الساحل الغربى من بوغاز دمياط لبوغاز بحيرة البرلس لم يكن به قلاع سوى قلعة بوغاز البرلس الغربية المحاذية لسراية طبوز أغلى حاكم البرلس سابقاً ، وهى أيضاً أنشئت فى زمن الفرنساوية بشكل بلانقة مربعة ذات أبراج مستديرة ، وكان إنشاؤها بمعرفة الأمير (الجنرال) مينو الذى تقلد إمارة مصر بعد موت الأمير (الجنرال) كليبر كما دلت عليه النقوش التى وجدت على بابها ، وقد حفظ مع أنقاضها التى وضعت فى بنـاء القلعة الجديدة ، وكانت أماكن تلك القلاع قبل دخول الفرنساوية مراكز للمرابطين للمدافعة ، فلمـا رأوا أن مواقعها هى أعظم النقط اللائقة للاستحكامات بنوا فيها تلك القلاع ، فمحيت معالمها القديمة ما عدا برج ولى الله الشيخ يوسف المرابط فإنه لم يزل إلى الآن ، وفى زمن المرحوم محمد على باشا قد رممت تلك القلاع وأجرى فيها بعض عمارات ، وكذلك فى زمن

المرحوم عباس باشا ، فإنه أنشأ أربعة أبراج فى غربى بوغاز دمياط بينه وبين أشتوم الجمعة وهو مصب فرع بحر شبين ، وأنشأ أيضاً برجاً فوق أشتوم الجميل فى شرق قلعة الديبة ، وجميع ذلك كان بمعرفة جليسٍ بك مدير عموم الاستحكامات المصرية ، وفى زمن الخديوى إسماعيل باشا قد أوصلت السكة الحديد والتلغرافات إلى السنانية ، وأنشأ بها جملة مبان عسكرية ، منها قشلاق الفوريقة الجديدة المنشأة مع جملة فوريقات فى زمن العزيز محمد على باشا ، جعل لإقامة ألاى بيادة بعد ما أضاف إليه جملة مبان كافية للوازمه ، ثم أنشأ قشلاقاً آخر بجهة السنانية قريباً من محطة السكة الحديد ، وأنشأ فى غربيه اسبتالية للعسكر تسع خمسمائة سرير ، وأوصل خط التلغراف إلى قلعة العزبة الكبرى وإلى قلاع البوغاز ، وأجرى بقلعة العزبة الكبرى جملة عمارات وترميمات بداخلها وخارجها مع تجديد استرات خنادقها وبناء خطوط نيرانها القديمة وتسميك درواتها حسب أصلها حتى صارت تقاوم مقذوفات العدو ، وعمّر الجامع القديم الذى فى وسطها والمنزل الذى هنــاك ، وأنشأ حول كل من القلاع القديمة والأبراج قلاعاً حصينة أقوى من تلك القلاع القديمة بأوضاع مغايرة لها ، كما أنشأ جملة قلاع من هذا القبيل على عموم السواحل وجعلها من أعظم القلاع الحصينة لأجل مقاومة الأسلحة الجديدة البعيدة المرمى الشديدة التأثير ، وجعل لها قشلاقات لإقامة العساكر المرابطين بها ، ومخازن عظيمة للبارود والجلل والمهمات ، ولزيادة تحصينها جعلها فى أسفل الدراوى السميكة بحيث تأمن من تأثير مقذوفات العدو ، كما أنه وضع فى جميع هذه القلاع المدافع العظيمة الكافية ذات العيار الكبير والمرمى البعيد المعروفة باسم مخترعها (أرمسترنج) الإنـكليزى ، وجميع هذه الاستحكامات والعمائر جار على حسب التصميمات المعمولة بمعرفة أمير اللواء محمد باشا المرعشلى باشمهندس عموم الاستحكامات وقتئذ »[١]

(١) الخطط التوفيقية للعلامة على باشا مبارك الجزء الحادى عشر

الفصل السادس عشر

المقاومة فى الوجه القبلى

فرّ مراد بك من معركة الأهرم منهزماً أمام الجيش الفرنسى ، وكان نابليون يحسب لقوته حساباً كبيراً ، فعهد بعد انتهاء المعركة وقبل أن يدخل القاهرة إلى الجنرال ديزيه Desaix احتلال المنطقة الواقعة جنوبى الجيزة وإقامة الاستحكامات والمواقع اتقاء لهجوم مراد بك ، ولكن مراد بك لم يفكر فى الهجوم بل اتجه بفلول جيشه إلى الصعيد ليكون بعيداً عن هجمات نابليون ، وقصد إلى الفيوم واستقر عند ناحية البهنسا ، ولحق به المماليك الذين لم يرضوا أن يتبعوا إبراهيم بك فى فراره إلى سوريا

لم يفكر مراد بك فى مقاومة الجيش الفرنسى مقاومة جدية ، بل معظم مالقى الفرنسيون فى الصعيد إنما نالهم من الأهالى الذين شدّوا أزر المماليك فى مقاومة الجيش الفرنسى ، ولولا هذا التأييد وتلك المؤازرة لما سُمع للمماليك صوت ولا انبعثت لهم حركة بعد هزيمة إمبابه

اعتزم نابليون إخضاع الوجه القبلى إذ رأى أن بقاء قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية ، ويكون مثابة للمقاومة الأهلية ، ويعطل الملاحة فى النيل ، ويحبس الغلال عن الوجه البحرى فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة ، وقد تعطلت الملاحة فى النيل فعلا فى الشهور الأولى من احتلال القاهرة ، وحبس مراد بك فى الوجه القبلى السفن المحملة غلالا إلى القاهرة ، فاعتزم نابليون احتلال الصعيد ، على أنه أراد قبل تجريد جيشه أن يسعى إلى الاتفاق مع مراد بك على أن يترك له مديرية جرجا ومايليها إلى الشلال ، ويكون تابعاً للحكومة الفرنسية ، فيؤدى الخراج الذى كان يخرج من هذه الجهات ؛ وكان المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا فى مصر رسول المفاوضة بينهما ، فبعث إليه نابليون بتعليماته فى الرسالة الآتية :

« المعسكر العام بالقاهرة فى ١٤ ترميدور من السنة السادسة (أول أغسطس سنة ١٧٩٨)

« إلى المواطن روستى ، عليك أن تذهب سراً إلى مراد بك ، وتخبره بأنك قدّمت لى الرسول الذى أوفده إلىّ ، وأن هذا الرسول قد ترك فى نفسى أثراً سيئاً بثرثرته وأقواله الطائشة ، على أننى أدركت أنه قد يجيء الوقت الذى أرى فيه من مصلحتى أن أنتفع بخدمات

مراد بك ، وأن أتخذه عضداً أميناً لى ، فلتخبره أنى أقبل إذا تم الاتفاق بيننا أن تبقى مديرية جرجا حيازته على أن ينسحب إليها فى مدى خمسة أيام وألا أرسل إليها من ناحيتى أيّا من الجنود ، وعلك أن تبلغه كذلك أنه إذا تم الاتفاق مبدئياً على هذه الشروط فمن المحتمل إذا ازددت معرفة به وثقة بمقاصده أن أعاهـده على مزايا أكبر ، وعليك أن توقع وإياه على معاهدة اتفاق تكتب باللغتين الفرنسية والعربية وتكون مؤلفة على وجه التقريب من الشروط الآتية

المادة الأولى — يستبقى مراد بك معه خمسمائة أو ستمائة من الفرسان تكون عدته فى حكم مديرية جرجا من شلال أسوان إلى مايلى جرجا شمالا بنصف فرسخ ، وعليه أن يجعلها فى مأمن من هجمات العرب

المادة الثانية — يعترف مراد بك بأن يكون فى حكم المديرية المذكورة تابعاً لفرنسا ، وأن يدفع لخزانة الجيش الخراج الذى كان يجبى منها

المـادة الثالثة — يتعهد القائد العام من ناحيته بأن لاتحتل جنوده أى جهة من مديرية جرجا وأن يترك إدارتها لمراد بك

المادة الرابعة — على مراد بك أن يمضى برجاله إلى ماوراء حدود مديرية جرجا فى مدى خمسة أيام ، ولا يسوغ لأحد من أتباعه أن يتخطى هذه الحدود إلى مديرية أخرى إلا بإذن من القائد العام [1] »

تلك هى التعليمات التى عهد بها نابليون إلى القنصل روستى ، ومنها يتبين أن نابليون كان راغباً فى الاتفاق مع مراد بك ، وهذا ينافى ما أعلنه فى منشوراته وبياناته للمصريين من أنه إنما جاء مصر لمحاربة المماليك وثل عرشهم ، وأنه لا يستريح ولا يهدأ له بال إلا إذا قضى على دولتهم ومحاهم من الوجود ؛ ولنا أن نستنتج من ذلك أنه كان يخاطب المصريين بلغة ، والمماليك بلغة أخرى ، ولعمرى إن اللغتين مشتقتان من نبعة واحدة ، هى نبعة الفتح ولغة الاستعمار ، تلك اللغة التى مهما اختلفت أساليبها فأنها تؤدى معنى واحداً لا يتغير ، وهو إخضاع مصر وجعلها مطية للمطامع الاستعمارية

وقد زوّد نابليون القنصل روستى بتفويض كتابى يخوله حق توقيع المعاهدة مع مراد بك ، وإليك نص التفويض :

« إن القائد العام مدفوعا بعواطف الإنسانية التى كانت على الدوام رائده فى أعماله يخول

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢١

للمواطن روستى سلطة المفاوضة مع مراد بك ، والاتفاق معه على شروط معاهدة تنهى حالة الحرب بينهما ، والتوقيع على هذه المعاهدة[١] »

والظاهر أن مراد بك كان معتزاً بقوته معتقداً أنه باعتصامه فى الوجه القبلى لا يستطيع الفرنسيون أن ينالوا منه منالا ، وبخاصة إذا وثق من معاضدة الأهالى وتأييدهم ، فرفض شروط الصلح ، أو بعبارة أخرى رفض التسليم ، فعزم نابليون على تجريد الجيش للقضاء على قوته من جهة ، وإخضاع سكان الوجه القبلى من جهة أخرى ، وإذا تتبعت خطوات الجيش الفرنسى فى الحملة على الصعيد وجدت أنه أفلح فى القضاء على قوة مراد بك ، ولكنه أخفق فى الغرض الثانى وهو إخضاع الأهالى

جعل نابليون الجنرال ديزيه قائداً للحملة على الوجه القبلى ، وكانت الحملة مؤلفة من نحو خمسة آلاف[٢] من المشاة والفرسان والمدفعية والمهندسين مزودين بالأسلحة والذخائر والمدافع الحديثة والسفن الحربية ، وقد ظل الجنرال ديزيه مرابطا فى الجيزة يترقب الفرصة للبدء فى القتال ؛ فلما بلغ الفيضان حداً مناسباً صدرت له الأوامر بالزحف ، وكانت مهمته عسرة شاقة ، فقد دلت وقائع الوجه القبلى على أن المقاومة التى لقيها الجيش الفرنسى فى أنحائه كانت أشد ما أصاب الفرنسيين فى مصر ، لأن طبيعة البلاد فى الصعيد ، وبعد المسافات ، وصعوبة المواصلات ، وأخلاق السكان ، جعلت الجيش الفرنسى يقابل حركات ثورية ذات صبغة حربية منظمة ؛ قال القومندان دى لاجونكيير فى هذا الصدد : « إن المقاومة التى لقيتها الجنود الفرنسية فى الوجه البحرى كانت فى الغالب ذات صبغة محلية ، ولكن فرقة الجنرال ديزيه هى التى اضطرت أن تواجه حركات حربية حقيقية[٣] »

تحرك الحملة — احتلال بنى سويف

أقلعت السفن بالحملة من مصر القديمة والجيزة فى أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ تحرسها بعض السفن المسلحة ، وسار جزء من الحملة على شاطىء النيل ، فوصلت إلى (اطفيح) واستراحت قليلا ، وهناك انضمت إليها كتيبة الجنرال رامبون Rampon الذى كان يرابط باطفيح من قبل ، ثم أقلعت السفن من اطفيح ووصلت يوم ٣١ أغسطس إلى بنى سويف واحتلتها بدون مقاومة ، وبقى بها الجنرال ديزيه عدة أيام يستطلع أخبار المماليك وينتظر

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٢
(٢) هذا الإحصاء مأخوذ من مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين
(٣) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث

وصول الذخائر والمؤونة من القاهرة ، وهناك علم أن مراد بك مرابط فى ناحية البهنسا بين بحر يوسف والجبل ، وأنه جمع أسطوله فى هذا البحر يحمل زاده ومؤونته وذخيرته

وكان لا بد للوصول إلى موقع مراد بك على بحر يوسف والاستيلاء على أسطوله أن تمضى الحملة فى النيل إلى ديروط ، وهى مأخذ بحر يوسف (١) ومن ثم تنحدر فيه إلى أن تلتقى بقوة المماليك ، فتحركت من بنى سويف يوم ٤ سبتمبر صباحاً ، ووصلت فى مساء يوم ٥ تجاه (أبو جرج) ، وكانت أهم مدينة فى المديرية بعد بنى سويف (٢)

احتلال البهنسا

عزم ديزيه على أن يكشف مواقع مراد بك وأن يفاجئه براً فى البهنسا ، فنزل إلى البر تجاه (أبو جرج) ومعه جزء من الجيش ، وسارت القوة براً حتى وصلت إلى البهنسا الواقعة على بحر يوسف ، وقبل أن تصل إليها شعر مراد بك باقترابها ، فأمر بانسحاب أسطوله إلى أسيوط حتى لا يقع فى أيدى الفرنسيين ، وأخلى البهنسا ، فاحتلها ديزيه واستولى فيها على عدة مراكب للمماليك لم تستطع اللحاق بالأسطول ، وأخذ ما بها من الذخيرة والغلال ، وعلم أن مراد بك انسحب إلى اللاهون (٣) ورابط بها ، وأن محمد بك الألفى يرابط فى منتصف الطريق بين البهنسا واللاهون ، وأن أسطول مراد بك سار إلى أسيوط

عادت فرقة الاستطلاع إلى (أبو جرج) يوم ٧ سبتمبر ، ثم تحركت الحملة كلها صاعدة فى النيل ، ووصلت إلى المنيا فى مساء ٩ سبتمبر ، وفى يوم ١٠ منه وصلت تجاه ملوى وتابعت طريقها حتى وصلت يوم ١٢ سبتمبر تجاه ديروط ، حيث يتفرع بحر يوسف

تعقب أسطول المماليك إلى أسيوط

عزم ديزيه أن يستمر جنوباً حتى أسيوط ليستولى على أسطول مراد بك ، وقد علم أن معظم بحارته من الأروام الذين يمكنه استمالتهم إليه ، فدس إليهم رسله لهذا الغرض (٤)

ترك الجنرال ديزيه قسما من قوته فى ديروط على مدخل بحر يوسف لاحتلال هذا الموقع ومراقبة الملاحة فى النيل ، وانتظار الكتيبة التى استولت على مراكب المماليك فى بحر يوسف ، ومضى إلى الجنوب ومعه جزء من جيشه فى السفن قاصداً إلى أسيوط

---

(١) يتفرع الآن بحر يوسف من الترعة الإبراهيمية عند ديروط
(٢) كانت (أبو جرج) تتبع مديرية بنى سويف ، وهى الآن من بلاد مركز بنى مزار بمديرية المنيا
(٣) عند مدخل مديرية الفيوم حيث القناطر المنشأة باسمها عند فتحة الجبل التى يمر منها بحر يوسف
(٤) رسالة ديزيه إلى نابليون فى ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

فوصل إليها يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فلم يجد أسطول المماليك ولم يوفق إلى الاستيلاء عليه ، إذ تمكن قبل وصول ديزيه من الإفلات قاصداً جرجا ، ولم ير ديزيه من الصواب أن يمضى فى زحفه مخافة أن يبتعد عن بقية جنوده الذين كانوا يرابطون على مدخل بحر يوسف

رجوع ديزيه إلى الفيوم

عزم ديزيه على أن يرجع إلى ديروط ، فكانت رحلته الأسيوطية عقيمة لأنه لم يظفر بأسطول المماليك ولا واجه قوتهم ، وأضاعت عليه هذه الرحلة ثمانية أيام اغتنمها مراد بك ليقوى صفوفه فى الفيوم ، وانحاز إليه عدد كبير من الأهالى وحالفوه على الفرنسيين ، واتخذ هو وحلفاؤه معسكرهم فى اللاهون

ثم وصل ديزيه إلى ديروط يوم ٢١ سبتمبر وبقى بها ثلاثة أيام ينظم الحملة على الفيوم ، وألقت السفن الفرنسية مراسيها فى النيل ولم تستطع السير فى بحر يوسف ، وأخذت سفينتان منها تتبعان فى النيل عن بعد سير الحملة الفرنسية فى بحر يوسف إلى بنى سويف ، وبقيت السفن الأخرى تجوب النيل ما بين منفلوط وملوى والمنيا لتراقب تصدير الغلال من هذه البلاد إلى القاهرة

لم تكن الحملة على الفيوم سهلة التنفيذ ، فإن الملاحة فى بحر يوسف كانت شاقة لضيق البحر ، فضلا عن استهداف المراكب الفرنسية من الجانبين لهجمات الأهالى والمماليك

وقد بدأت المراكب الفرنسية تسير فى بحر يوسف يوم ٢٤ سبتمبر قبيل شروق الشمس ، وكان سيرها محفوفاً بالمصاعب لكثرة تعاريج بحر يوسف ، ولهبوب الرياح من الصحراء ، وقلة غور المياه فيه ، فكان الجنود يضطرون إلى جر المراكب بالحبال

وصلت فرقة الجنرال ديزيه إلى البهنسا يوم أول أكتوبر ، وهناك علموا أن مراد بك مرابط بجهة اللاهون ، فتابعت السفن سيرها حتى اشتبكت بطلائع المماليك والأهالى فى ٣ أكتوبر بناحية (القايات) ، وكانت هذه الطلائع مكونة من ١٥٠ من العرب و ١٥٠ من المماليك ، فاضطر الجنرال ديزيه إلى إنزال كتيبة من جنوده إلى الشاطئ ، ونزل هو بنفسه لمحاربة المهاجمين وتشتيتهم ، ثم أخذت الكتيبة تسير على الشاطئ حذاء السفن لحراستها

وفى اليوم التالى كانت قوة من الأهالى والمماليك تترقب السفن على شاطئ البحر لتطلق عليها النار ، ولم يستطع الجنرال ديزيه إنزال جنوده إلى الشاطئ ، لأن مياه الفيضان كانت تغمر الأرض هناك ، فاضطر إلى التراجع على مسافة نصف فرسخ ، ليتمكن من اختيار مكان

ينزل به جنود الفرقة جميعها ، وسارت الفرقة بطريق البر بعيداً عن الشاطئ ، واتجهت صوب المماليك والأهالى ، فانسحب هؤلاء وكانوا تحت قيادة محمد بك الألفى

واقعة سدمنت

٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

واصلت الفرقة سيرها براً فى اليوم التالى — ٥ أكتوبر — فشاهد الجنرال ديزيه عن بعد جيش مراد بك مرابطا فى المرتفعات المشرفة على بحر يوسف ، فأراد أن يهاجمه ، لكن مراد بك تقهقر شمالا ، وتعقبه ديزيه طول النهار فلم يستطع اللحاق به ، إذ كان جنوده قد أنهكهم التعب من سيرهم فى رمال الصحراء

وفى يوم ٦ أكتوبر بدأ الأهالى والمماليك يناوشون طلائع الجيش الفرنسى ، فأقبل الجيش يهجم عليهم ولكنهم انسحبوا ليرابطوا فى مواقع حصينة ، وفى صباح اليوم التالى (٧ أكتوبر) أخذت الفرقة تتابع سيرها حتى اقتربت من « سدمنت » وهى بلدة صغيرة واقعة غربى بحر يوسف[١] ، وهناك التقى الجمعان على مقربة من هذا البلد ، ودارت معركة من أشد المعارك هولا ، كادت تُسحق فيها قوات ديزيه لولا قوة المدفعية الفرنسية

كان مراد بك قد جمع قوة كبيرة من أهالى الفيوم فرساناً ومشاة ، وتحصن فى آكام سدمنت ، وكان هو وحلفاؤه المصريون قد أعدوا معدات الهجوم ، وقوى أملهم فى سحق الجيش الفرنسى لقلة عدد جنوده بالنسبة إليهم ، ولمغامرته فى الصحراء وفى بلاد معادية بعيداً عن قواعده الحربية

كان عدد المماليك والمصريين فى هذه الموقعة يزيد على ضعف الجيش الفرنسى ، وكانوا يحتلون مرتفعات حصينة ، ولكن فرقة ديزيه امتازت بالنظام الحربى ، وكفاية القيادة ، وقوة المدفعية ، وكثرة الذخيرة ، فلما اقتربت الفرقة هجم عليها الأهالى والمماليك منحدرين من المرتفعات التى كانوا يعتصمون بها ، وكان عدد الفرسان من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف فارس ، هجموا على قرع الطبول بحماسة عظيمة ، وأحاطوا بجيش الجنرال ديزيه من كل صوب ، وكانوا أكثر عدداً وأشد حماسة من الأعداء ، لكن نار المدافع الفرنسية فتكت بهم فتكا ذريعاً وكسرت هجمتهم ، فأعادوا الكرة ثانية وثالثة بمثل الحمية التى هجموا بها

(١) فى الجنوب الغربى للاهون ، وهى متصلة بالجبل الغربى وتابعة الآن لمركز بنى سويف وتسمى (سدمنت الجبل)

أول مرة ، ودامت الموقعة عدة ساعات لا تخمد حماسة المهاجين ولا يضعف أملهم فى النصر ، وكان مراد بك قد نصب على أكمة تشرف على ميدان القتال ثمانية مدافع أخذت تطلق النار على الجنود الفرنسية ، فأوقعت بهم خسائر جسيمة ، وكادت تدور الدائرة على الجيش الفرنسى لو لا أن أمر ديزيه بالهجوم العام على مصدر الخطر ، فهجم جنوده على موقع المدافع وإنقضوا على رجالها وقتلوا بعضهم وأجلوا البعض الآخر ، وهجمت جموع الأهالى والمماليك مرة أخرى على الجيش الفرنسى وأنزلوا بالفرنسيين خسائر فادحة ، ولكنهم اضطروا إلى التقهقر بعد ما أفنت نيران المدافع والبنادق عدداً كبيراً منهم ، وتركوا فى الميدان أربعة مدافع غنمها الفرنسيون ، وانتهت الواقعة بانتصار الجنرال ديزيه ، وبلغت خسائر الفرنسيين كما قدرهم الجنرال برتييه Bertheir ٣٤٠ قتيلا و ١٥٠ جريحاً ، ويقدر الجنرال ديزيه خسائر المصريين بأربعمائة قتيل

سميت هذه المعركة واقعة « سدمنت » وهى تعد فى تاريخ الحملة الفرنسية من المعارك المهمة التى كان لها أثر كبير فى سير القتال وتطور الأحوال ، وهى تلى واقعة الأهرام فى الأهمية ، لأنها قضت على آمال مراد بك فى أن ينتصر فى معركة منظمة ، وفتحت أمام ديزيه إقليم الفيوم الغنى بمزروعاته

تغير وجه القتال بعد هذه المعركة ، فصارت الحرب مقاومات محلية تتجدد تبعاً للأحوال والمفاجآت ، وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطراً على الجيش الفرنسى من المعارك المنظمة

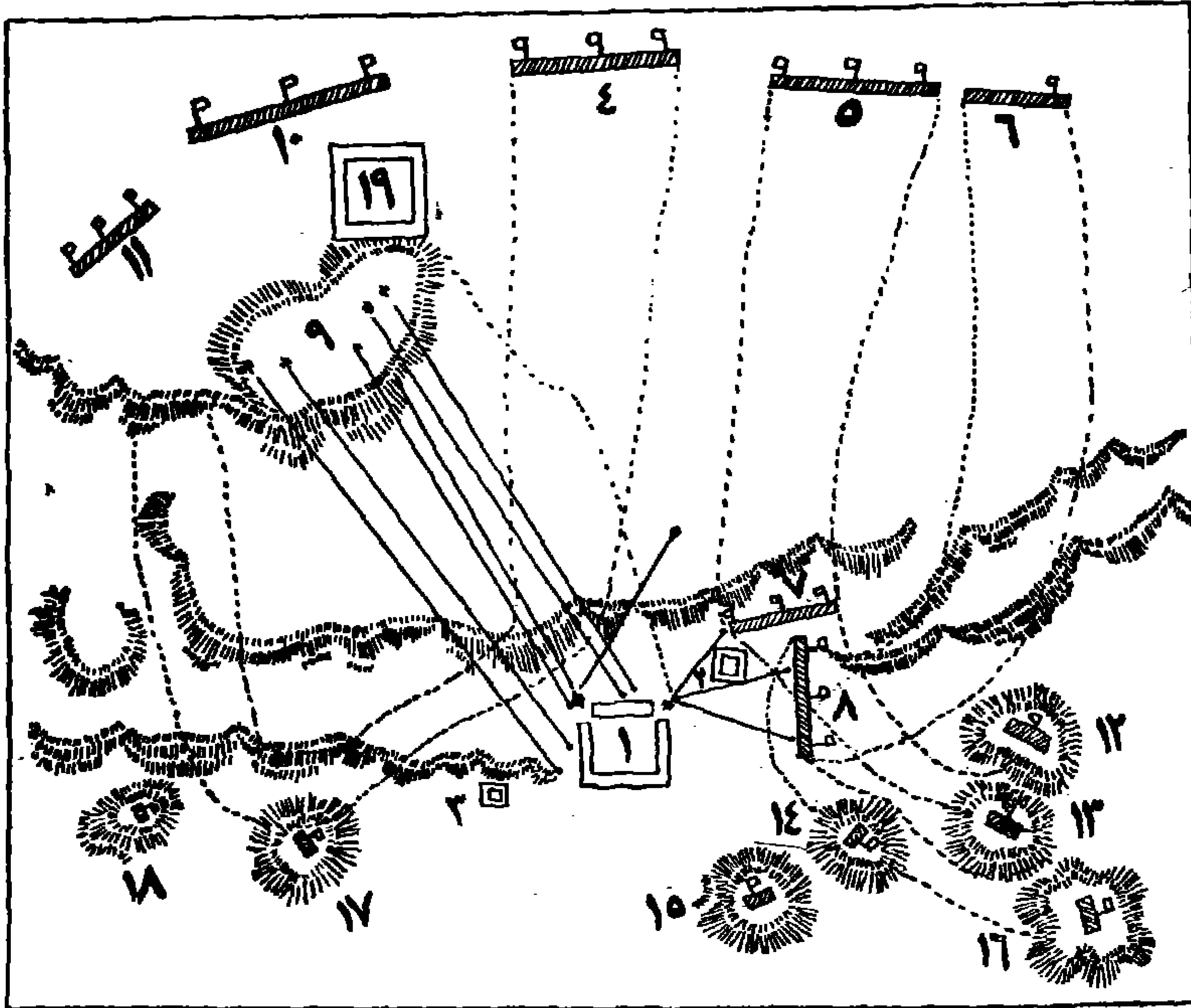
قال ريبو يصف هذا التطور : « إن مراد بك قد أخذ عن العرب حرب المناوشات والمعارك المتفرقة ، فلم يهدأ للفرنسيين بال ولم يستقر لهم قرار خلال الحملة على الصعيد ، بل كانوا هدفاً للمفاجآت والمعارك غير المنتظرة

« وكان هذا النوع من الحرب أشد خطراً على الفرنسيين من المعارك المنظمة لأنهم فقدوا الراحة والطمأنينة ، واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات والرحلات المنهكة للقوى ، دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال »

انسحب مراد بك وحلفاؤه غرباً ، وأوغلوا فى الصحراء حتى استقروا وراء بركة « الغرق » وهى بركة كبيرة واقعة جنوبى الفيوم بغرب[1] ، واحتل ديزيه فى اليوم نفسه قرية سدمنت ، وتكبد الفرنسيون متاعب شاقة فى هذه المعركة ، وأضناهم السير فى الرمال وعلى التلال والآكام القائمة بتلك الجهات ، فلم يفكر ديزيه فى اللحاق بمراد بك ، وعزم على إراحة

(١) فى الجنوب الغربى لقرية (الغرق السلطانى) بمركز إطسا الآن

خريطة معركة سدمنت



نقلا عن خريطة قديمة مودعة فى محفوظات وزارة الحربية الفرنسية منذ سنة ١٨٠٠
نشرها القومندان دى لاجونـكيير سنة ١٨٩٩

(١) موقف جيش الجنرال ديزيه عند التأهب للقتال

(٢ و ٣) طلائع جيش ديزيه

(٤ و ٥ و ٦) موقف جيش مراد بك عند تأهبه للهجوم

(٧ و ٨) هجوم جيش مراد بك على طلائع الميمنة

(٩) مدافع مراد بك

(١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨) هجوم جيش مراد بك على الجيش الفرنسى

(١٩) موقف جيش ديزيه بعد استيلائه على مدافع المماليك وانسحاب قوات مراد بك



معركة سدمنت — ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ — كما رسمها المسيو فيفان دينون فى حينها ، وهذه الصورة تمثل هجوم الفرنسيين على الأكمة التى بها مدافع مراد بك واختراقهم الوادى الذى يفصل بين الجيشين وتركهم جرحاهم على الأكمة التى كانوا يرابطون بها ، وهجوم المصريين على تلك الأكمة ، وترى فى الصورة جرحى الفرنسيين وقد تولاهم الرعب لاقتراب الفرسان المصريين من الأكمة ، وأحد الجرحى يحاول عبثاً أن يحمل زميلاجريحا ، وآخر يغطى وجهه بسترته حتى لا يشهد هجوم الفرسان المصريين ولا يرى الموت بعينيه

جنوده من الأهوال التى كابدوها ، وسار بهم إلى اللاهون ، وقرّ هناك ينتظر الفرصة ليعاود كرة الهجوم على الأهالى والمماليك

وعسكر هو وجنوده فى اللاهون من ٩ إلى ١٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، واستراحوا فى خلالها ، وأرسل الجرحى منهم إلى القاهرة ، ثم سار قاصداً مدينة الفيوم عاصمة المديرية ، فوصلها يوم رحيله ولم يبق بها إلا بضعة أيام ، ثم أخلاها خوفاً على مواصلات جيشه أن تنقطع إذا ابتعد كثيراً عن النيل ، ولأنه علم أن المماليك والعرب لما تحققوا وجوده فى مدينة الفيوم عزموا على الرجوع إلى معقلهم الأول فى سدمنت على بحر يوسف ، وبذلك يتهددون مواصلات الجيش الفرنسى ، فعاد ديزيه إلى اللاهون يوم ١٦ أكتوبر ، واعتزم أن يعاود تعقب المماليك والأهالى ، لكنه وجد صعوبة كبرى فى تعقبهم ، لأن ماء الفيضان كان فى ذلك الحين يغمر البلاد فيحول دون تقدم الجيش واتصاله بالقرى ، وكانت المؤن والزاد قد نقصت ، والأمراض فتكت بالجنود ولاسيما الرمد

فتك الرمد بالجنود

فتك الرمد بعدد كبير من الجنود ، وكانت مياه بحر يوسف ورداءة الطقس والمتاعب التى لقيها الجنود من السير فى الرمال أهم الأسباب فى انتشار هذا المرض بينهم ، وقد فتك بهم فتكا ذريعاً ، وأصيب به لأول مرة ثمانمائة جندى ضربةً واحدة ، وأخذ يستفحل حتى أصبح خطراً على الجيش الفرنسى أعظم من خطر المعارك والحروب ، كتب الجنرال ديزيه إلى نابليون فى رسالة له من اللاهون بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول :

«إن أمراض العيون هنا كارثة فظيعة حلت بالجيش ، فقد حرمتنى الانتفاع بألف وأربعمائة من رجالى ، واضطررت أن أسحب منهم وراء الجيش مائة فقدوا بصرهم تماماً ، ولا يمكننى ان أتعقب مراد بك إلا إذا سُد النقص فى صفوف جيشى ، وبلغ عدد الفرقة ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد أنشأتُ هنا مستشفى لثلثمائة مريض ، وأرسلت إلى النيل أربعمائة مريض آخرين ، ومن الواجب الإسراع فى سد النقص كيما أستطيع تعقب مراد بك ، فإن بحر يوسف بعد قليل من الأيام لا يعود صالحا للملاحة إذ تجف المياه فيه ، وإن مركزنا هنا محفوف بالمتاعب ، ولو كانت الحملة التى أقودها على ضفاف النيل لهان الأمر ، ولكنى أحارب فى الصحراء حيث لا توجد طرق للمواصلات ، ولا وسائل للنقل ، حتى ولا للجنود المرضى » ، وبقى ديزيه فى اللاهون ينتظر تعليمات نابليون



منظر آخر لمعركة سدمنت — ٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ (نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون)
منظر الأكمة التى اضطر الفرنسيون أن يخلوها ويتركوا بها جرحاهم ليهجموا على مواقع مراد بك ، وترى فى الصورة أحد الجنود الفرنسيين يترك زميله جريحاً وقد تعلق بسترته نخلعها لينجو بنفسه من الموت ، وترى عن بعد موقع الأكمة التى بها مراد بك

الموقف الحربى فى بنى سويف والفيوم والمنيا

لم يكن انتصار الفرنسيين فى واقعة سدمنت ليوطد مركزهم فى الوجه القبلى ، وبالرغم من أن الجيش الفرنسى قد فتح فى طريقه ثلاث مديريات ، وهى : بني سويف والمنيا والفيوم ، وهزم مراد بك هزيمة كبرى ، فإن الحالة ظلت مضطربة فى تلك المديريات ، وسلطة الفرنسيين تكاد تكون مجهولة عند الأهالى ، ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الأحوال أن يحصلوا من تلك المديريات على ما يلزمهم من الغلال والجياد ؛ فقد حدث أن الجنرال ديزيه ترك بعض رجاله فى بنى سويف للقيام على شحن الغلال ، وفى أثناء حملته النيلية إلى أسيوط هجم الثوار على بنى سويف وأسروا هؤلاء الرجال واستولوا على الغلال التى وجدوها ، وعين نابليون الجنرال (زايونشك) قومندانا لمديرية بنى سويف فى أوائل اكتوبر ، وأرسل معه كتيبة من الجنود وكلفه تنظيم هذه المديرية ، وكلف الجنرال ديزيه تنظيم مديريتى المنيا والفيوم

أما فى المنيا فكانت الحالة أكثر اضطراباً وأقل استقراراً ، وكانت سفينة فرنسية حربية تجوب هذه الجهات وتحمى القوة التى بالشاطئ من هجمات الأهالى ، ونزلت بالمنيا فصيلة من الجنود ليتزودوا منها وأبوا أن يدفعوا ثمن ما اشتروه ، فثار الفلاحون الذين كانوا بالسوق وقتلوا من الجنود خمسة وجرحوا منهم ثمانية ، وكاد يستشرى الهياج لو لا الحكمة من سكان البندر ، وأصدر الجنرال ديزيه لمناسبة هذه الحادثة أمراً مشدداً بقمع كل نهب يقع من الجنود وإحالة كل من يثبت عليه أنه اغتصب شيئاً من الأهالى على مجلس عسكرى لمحاكمته طبقاً للقوانين العسكرية

ولم تكن حملة الجنرال ديزيه فى بحر يوسف على اتصال بالسفن الفرنسية التى بقيت فى النيل ، فقد انقطعت المواصلات بينهما منذ نزل الفرنسيون بسفنهم من ديروط ، ولم تتصل إلا بعد أن استقرت الحملة فى اللاهون حيث شرع الجنرال ديزيه فى إيجاد الصلة بالنيل ليتمكن من إرسال الجرحى والمرضى إلى القاهرة ، ومن تلقى المدد والمؤن والذخائر ، وليستطيع الاتصال بالقوات الفرنسية فى بنى سويف والمنيا

وكان نابليون شديد الرغبة فى أن يتعقب ديزيه قوات الأهالى والمماليك للقضاء عليها ، وقد حمل ياوره ديروك Duroc أمره إلى ديزيه بأن يهاجم مراد بك ويقضى على جيشه قبل نهاية الفيضان ، لكن ثورة القاهرة التى نشبت فى ٢١ أكتوبر حالت دون سفر ديروك ، وفى خلال ذلك وصلت رسالة ديزيه المؤرخة ٢٠ أكتوبر ، فأدرك نابليون مبلغ ما عاناه الجنود الفرنسيون من المتاعب والمشاق وحاجتهم إلى الراحة ، فأرسل إليه يطلب منه اختيار

موقع صالح ليعسكر فيه الجنود ، وكلفه إخضاع مديريات بنى سويف والمنيا والفيوم

وكانت مهمة الجنرال ديزيه شاقة ، لأن المماليك والأهالى قد رابطوا فى الصحراء فلا تستطيع القوات الفرنسية أن تحيط بهم ، وكان الأهالى لاينفكون يناوشون هذه القوات فى اللاهون

فتكت المعارك والأمراض بالجنود الفرنسية فتكا ذريعاً ، فنزل عددهم إلى الألفين ، ولم يكن فى استطاعة ديزيه أن يخضع بنى سويف والمنيا والفيوم بهذا العدد لبعد المسافات بين البلاد وما غمر الأرض من الفيضان ، فلا يسهل أن ينتقل الجنود من بلد إلى بلد ، ولأن الجنود قد أنهكهم التعب ، فاختار مدينة الفيوم ليستقر فيها مع فرقته

احتلال مدينة الفيوم

وإخماد الثورة فى القرى المجاورة

انتقلت فرقة الجنرال ديزيه إلى مدينة الفيوم فى أواخر أكتوبر سنة ١٧٩٨ طلباً للراحة من عناء المعارك والمناوشات [١]، وعسكر الجنود فى حديقة كبيرة شمالى المدينة ، وأقاموا على بحر يوسف جسراً من المراكب المتلاصقة لانتقال الجنود بين الشاطئين

وأخذ الجنرال ديزيه ينتظر المدد من نابليون ويستعد لاستئناف الهجوم على مراد بك ، وشرع ينظم الإدارة فى مديرية الفيوم ويجمع الخيول من القرى لأن الحملة كانت تنقصها قوة الفرسان ، لكن مياه الفيضان كانت تعطل حركات الجنود فى هذه المديرية ، فلقى ديزيه عنتاً شديداً فى تحصيل الضرائب ومصادرة الغلال وجمع الخيول من القرى ، وزاد فى متاعبه أن معظم القرى قد أمسك أهلها فلم يبذلوا شيئاً مما كان يطلب منهم ، وأحس ديزيه روح التمرد والعصيان ، فعزم على تجريد حملة عسكرية لإخضاع القرى وإكراهها على تسليم ما يفرض عليها ، وقد عزا الفرنسيون هذه الحالة الثورية إلى تحريض مراد بك ، وقال الجنرال دونزلو Donzelot فى رسالته إلى الجنرال برتييه [٢] إنه تحقق أن مراد بك أوفد على كاشف ومعه

(١) كانت مدينة الفيوم كما هى الآن من أمهات مدن القطر ، بلغ عدد سكانها فى ذلك العصر خمسة آلاف نسمة ، ويقول كلوت بك إن عدد سكانها فى عصر محمد على بلغ ١٢٠٠٠ واشتهرت بنسيج الصوف والقطن والكتان ، وامتازت بجودة صوفها الأبيض وتفوقت به فى صناعة شيلان الصوف البيضاء التى كانت ترسل منها كميات كبيرة إلى القاهرة والوجه البحرى ، ويقول المسيو جومار Jomard أحد مهندسى الحملة الفرنسية إن القوافل التى كانت تسير من الفيوم إلى القاهرة كانت تحمل معها كل أسبوع ألفى شال مما يصنع فى مدينة الفيوم

(٢) رسالة دنزلو إلى برتييه فى ١١ نوفبر سنة ١٧٩٨

١٥٠ من المماليك لتحريض البلاد على الثورة وتنظيم المقاومة ، وسواء أصحت رواية دنزلو وكان التحريض أو كانت البلاد مستعدة للمقاومة من تلقاء نفسها ، فما لا جدال فيه أن روح الثورة قد سرت فى القرى ، والأقرب إلى الواقع أن هذه الروح طبيعية ولولاها لما وجد المماليك ذلك العدد الجمّ من الأهالى يدأبون على مناوشة الحملة الفرنسية والكيْد لها

ولما بدأت مياه الفيضان تنحسر عن البلاد وأرْخَتْ عن حركات الجنود اعتزم ديزيه أن يجرد حملة على القرى الثائرة ، فترك فى مدينة الفيوم كتيبة من الجنود تقوم على حراسة معسكر الفرقة ، وسار بباقى العسكر يوم ٦ نوفمبر لإخماد حركات الهياج والثورة ، فأخضع فى طريقه (مطرطارس)[١] و(سيله)[٢] و(سرسنا)[٣] ؛ ولقى الفرنسيون مقاومة شديدة من أهالى سرسنا ، فقد تأهبوا للقتال وعلى رأسهم على كاشف ، ولكنهم لم يجدوا القوة على مقاومة نيران الفرنسيين فانسحبوا من القرية واستولى الفرنسيون عليها ، وتجمع الأهالى بعيداً عنها على مرمى المدفع وانضم إليهم جماعة من العرب ، فأمر الجنرال ديزيه بإطلاق النار عليهم فشتت جمعهم ، وتبادل الفريقان الضرب وأطلق الأهالى بنادقهم فجاوبهم الفرنسيون بضرب المدافع فانسحبوا وأوغلوا فى الصحراء ، ونهب الفرنسيون القرية وأضرموا فيها النار [٤] ، ثم تابعت الحملة سيرها فوصلت تجاه قرية الروضة[٥] وكان الليل قد أقبل فعسكرت الحملة بالقرب من الروبيات[٦]

أذعنت هذه القرى وسلمت الإتاوات المطلوبة منها ولكن الأهالى والمماليك رأوا انشغال الفرنسيين بإخضاع هذه القرى فهاجموا مدينة الفيوم يوم ٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ مهاجمة شديدة ، فاضطرت الحملة أن ترجع إلى عاصمة المديرية

هجوم الثوار على مدينة الفيوم

وتفصيل هـذا الهجوم أن الأهالى من الفلاحين والعرب ثاروا فى القرى وعزموا أن يستولوا على مدينة الفيوم ، ففى ٨ نوفمبر الساعة الثامنة صباحا ظهرت أمام المدينة طلائع الثوار ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبلت جموعهم وهجموا على معسكر الجنود ، فتأهبت القوة الفرنسية للقتال ، وكان قائدها الجنرال روبان Robin مصاباً بالرمد فأناب ، عنه الكولونل هبلر Hoppler ، وفى منتصف الساعة الثانية عشرة هجم الثوار على أسوار المدينة تتقدمهم

---

(١) و (٣) من بلاد مركز سنورس

(٢) بمركز الفيوم

(٤) رسالة دنزلو إلى الجنرال برتييه فى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٥) و (٦) بمركز سنورس

طبول الحرب وعلى رأسهم قواد من المماليك ، وكانت الدوريات الفرنسية تحرس بعض مداخل المدينة ، فدافعت عنها دفاعاً شديداً ، لكنها انثنت على أعقابها إلى الداخل واقتحم الثوار الشوارع يريدون منزل على كاشف وفيه الجنود الفرنسيون ، وكان عدد المهاجمين كثيراً قدّرهم الجنرال ديزيه فى تقريره بثلاثة آلاف مقاتل ، ويقول ريبو[١] : « إنهم خمسمائة من المماليك ، ومعهم فصيلة من فرسان العرب وألفان من الفلاحين » ؛ فلما وصلوا إلى المنزل تقاذف الرصاص بين الفريقين ، وكان موقع الفرنسيين منيعاً لأن هذا المنزل كان محكم التحصين ، فكان الجنود يطلقون النار من النوافذ ومن فوق الأسطحة ، وبذلك أصلوا المهاجمين ناراً شديدة ردّتهم على أعقابهم فانسحبوا تاركين عدداً كبيراً من القتلى ، ثم جاءهم المدد فاستأنفوا الهجوم فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، ولكنهم ارتدوا ثانية أمام نار الجنود الفرنسية ، وأخفق الهجوم ، وغطيت الشوارع بجثث القتلى والجرحى ، وبلغ عدد القتلى من الأهالى نحو مائتين وكان عدد الجرحى كبيراً ، أما المماليك فإنهم لم يخسروا غير أربعة قتلى وعشرة جرحى ، وكانت خسائر الفرنسيين قليلة فإنهم لزموا خطة الدفاع وكانوا متحصنين لا مكشوفين ، فخسروا أربعة قتلى و١٦ جريحاً

يتبين من هذه المقابلة أن الأهالى هم الذين تحملوا معظم الخسائر وكان منهم أكثر الضحايا ، فى حين أن المماليك لم يخسروا إلا عدداً ضئيلا جداً ، وقد ثبت من هذه الواقعة وغيرها أن هؤلاء المماليك كانوا يضنّون بأنفسهم ويحرصون على أرواحهم فى ميدان الحرب والقتال[٢]

ولم تكن هذه المقاصد لتخفى على الأهالى ، فإنهم أدركوا أن القوم لا يريدون إلا أن يتخذوهم مطية لقضاء لباناتهم فأسقطوا الثقة فيهم ، وكانت هذه الحالة النفسية من أهمّ الأسباب التى قضت على نفوذ المماليك وسلطتهم فى البلاد ، فلم تقم لهم بعد الحملة الفرنسية قائمة

موقف ديزيه فى الوجه القبلى

رجع ديزيه إلى مدينة الفيوم بعد أن أخفق هجوم الثوار عليها ، على أن هذا الهجوم كان دليلا على استهانة الثوار بالقوة الفرنسية وتجرئهم عليها ، فأدرك ديزيه أن قلة جنوده كانت من أهمّ أسباب الحالة الثورية التى ذاعت فى البلاد ، ورأى أن لا سبيل إلى المغامرة فى فتح الوجه القبلى إلا إذا جاءه المدد الكافى للقيام بهذه الحملة الطويلة المدى ، فآثر الانتظار

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) جاء فى تقرير الجنرال ديزيه عن هذه الواقعة : « إن المماليك على جانب عظيم من الحذر والحرص فهم لا يستهدفون للقتل بل يعرضون غيرهم للخطر »

ووضع الحاميات الكافية فى البلاد التى يحتلها لإخضاع وقمع الثورات التى عسى أن تشب فيها ، وكانت المعارك والأمراض قد أفرغت من صفوفه ، فكان لا بد له من سدّ هذا النقص الكبير

كان ديزيه يلحّ قبل هجوم الثوار على الفيوم فى طلب المدد من نابليون ، فكلف نابليون الجنرال بليار الذى كان فى ذلك الحين قومنداناً للجيزة أن يسير بقوته إلى الفيوم ، وكان الجنرال أندريوسى قد عاد من مهمته بالمنزلة فجعله قومنداناً للجيزة

وسار بليار من الجيزة بالقوة التى كانت معه ، فوصل يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٧٩٨ إلى (الزاوية) [١] ، وهناك وصلته أنباء انتصار فرقة الجنرال ديزيه على القرى الثائرة ، فاستراح فى الزاوية ينتظر تعليمات الجنرال ديزيه ، فأمره أن يبقى فى بنى سويف ليعاون الجنرال زايونشك فى مهمته ، ذلك أن ديزيه قد تلقى من بنى سويف أنباء تدل على أن فيها استعداداً لثورة كالثورة التى شبت فى الفيوم ، فرأى من الحكمة أن يبقى الجنرال بليار فى بنى سويف لتوطيد سلطة الفرنسيين بها ، على أن مركزهم فى بنى سويف كان أقوى منه فى الفيوم لوجود السفن الفرنسية الحربية فى النيل

وكان ديزيه لا يفتأ يطلب المدد والمدفعية والذخائر والمهمات من نابليون ، وقد ألحّ فى طلب قوة كبيرة من الفرسان ، لأنها الوسيلة الوحيدة للتغلب على قوات المقاومة فى الوجه القبلى ، وبدونها لا يزال يستطيع الأهالى والمماليك يفلتون من الجيش الفرنسى ، فلا يستطيع اللحاق بهم ولا تعقبهم فى الصحراء ، وتبقى قوتهم تتحين الفرص لمناوشة الفرنسيين وإرهاقهم وتكبيدهم ما يستطيعون من الخسائر ، وكان إخضاع الصعيد من أهمّ المقاصد التى وجّه إليها نابليون اهتمامه ، وبخاصة بعد أن شحّت الغلال فى القاهرة والوجه البحرى ، فإن انقطاع المواصلات مع الصعيد منع ورود الغلال ، وكان سبباً فى ارتفاع أسعارها ارتفاعاً أدّى إلى تذمر الناس وهياج الخواطر فى مصر

كتب المسيو (بوسليج) مدير الشؤون المالية فى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨ إلى نابليون رسالة عن أزمة القمح فى القاهرة قال فيها : « من الضرورى إرسال المراكب إلى الصعيد لجلب القمح ، وأقلّ ما فى هذه الطريقة من الفوائد أنها تهدئ خواطر الجمهور ، لأن من الواجب ألا تستهدف مدينة كبيرة مثل القاهرة لأزمة الأقوات ، وألا ترتفع فيها أسعار القمح ليستطيع الفقراء أن يعيشوا ويجدوا قوتهم » ؛ وكتب إليه المسيو (سوسى) مدير

(١) شمالى بنى سويف

مهمات الجيش فى ١٤ نوفمبر يقترح جلب الغلال من مديرية بنى سويف إلى أن يصل القمح من المديريات الأخرى فى الصعيد ، لأن حالة الهياج فيها قد تؤخر كثيراً ورود الغلال منها ، من أجل ذلك عنى نابليون بإرسال المدد إلى الجنرال ديزيه ، وعين الجنرال بليار قومندانا لمديرية بنى سويف بدلا من الجنرال زايونشك الذى مرض وعاد إلى القاهرة ، وأمر باتخاذ بنى سويف نقطة ارتكاز للجيش الفرنسى ، وأنشأ مستشفى للجنود بها وتحصينها لتكون بمنجاة من هجمات الأهالى والعرب[(١)]

اعتزم الجنرال ديزيه بعد إخماد ثورة الفيوم أن يعود إلى بنى سويف والمنيا لقمع حركات الهياج فيها وجباية الضرائب من البلاد ، فانتقل بفرقته إلى بنى سويف ووصل إليها فى ٢٢ نوفمبر ، حيث ضم إليه قوة الجنرال بليار ، وغادر مديرية الفيوم دون أن يصنع شيئاً فيها من جهة إدارتها أو تنظيمها ، واعترف فى رسالته لنابليون قبل أن يغادر الفيوم أنه لم ينشئ فيها «ديوانا» طبقاً للتعليمات التى أصدرها نابليون لقواد المديريات ، لأنه لم يترك فيها القوة الفرنسية الكافية لمراقبة هذا الديوان ، وأنه ترك الحالة فيها كما كانت[(٢)] ، وأنفذ إليها نابليون الأدجودان جنرال بوييه Boyer ومعه كتيبة من الجنود لمراقبة الأحوال فى مديرية الفيوم وتنظيمها ، وجباية الخراج فيها

تلقى المدد واستئناف الحملة على الوجه القبلى

بقيت الفرقة فى بنى سويف نحو أربعة أسابيع فى انتظار المدد وإتمام الاستعداد لاستئناف الحملة على الصعيد ، وقد اضطر الجنرال ديزيه أن يقوم فى خلال هذه المدة[(٣)] إلى القاهرة ليتعجل النجدة ، وكان نابليون فى ذلك الحين منهمكا فى إعداد المعدات للحملة على سوريا[(٤)] ، على أنه قد أمده بقوة من ١٢٠٠ من الفرسان بقيادة الجنرال دافو Davout[(٥)] وبضع مئات من المشاة ، وزوده بالمدافع والذخائر وست سفن حربية منها السفينة (إيتاليا) سفينة نابليون الخاصة التى كان يركبها فى النيل

عاد الجنرال ديزيه من القاهرة مزوداً بهذا المدد وعازماً على أن يكتسح الصعيد بقوته ، فوصل إلى بنى سويف يوم ٩ ديسمبر على ظهر السفينة « إيتاليا » ، وفى اليوم التالى وصلت

---

(١) أمر نابليون فى ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٢) رسالة ديزيه إلى نابليون فى ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٣) كان سفره يوم أول ديسمبر سنة ١٧٩٨ وقد أناب عنه فى قيادة الفرقة الجنرال بليار

(٤) انظر الفصل الثانى من الجزء الثانى

(٥) الذى صار فيما بعد مارشالا واشتهر فى حروب الإمبراطورية النابليونية

قوة الفرسان بطريق البر ، ثم وصلت السفن التي تحمل مهمات الحملة وذخائرها ، وفي يوم ١٥ ديسمبر كانت الحملة على تمام الاستعداد للزحف ، فكان عددها أربعة آلاف مقاتل مزودين بالمدافع والذخائر ومعهم أسطول من السفن الحربية المسلحة بالمدافع الحديثة الطراز ، وكان القائد العام لهذه الحملة الجنرال ديزيه ، ومن خيرة قوادها الجنرال فريان Friant ، والجنرال بليار Belliard ، والجنرال دافو Davout قائد الفرسان ، والكولونل لاتورنرى Latournerie قومندان المدفعية ، والأدجودان جنرال دنزلو Donzelot والكولونل راباس Rabasse

سير الحملة من بنى سويف إلى جرجا

تحركت الحملة من بنى سويف براً على الشاطئ الأيسر للنيل ، واتخذت المراكب سبيلها فى النهر حذاء الحملة تحمل الأقوات والذخائر والمهمات

وقد كان توغل الجنود فى الوجه القبلى محفوفاً بالمتاعب والأخطار ، لأن الجيش كلما سار جنوبا ابتعد عن القاهرة التى كانت مركز القوة الفرنسية ، وتغلغل فى بلاد مجهولة منه وبين أقوام يكرهونه ويتربصون به ريب المنون

قال الجنرال دافو فى مذكراته عن الحملة على الصعيد : « إننا نستهدف لأخطار كثيرة كلما أوغلنا فى بلاد يحمل جميع أهلها السلاح »

سارت الحملة من بنى سويف يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٧٩٨ بعد أن تركت فيها قوة من مائتى جندى وبعض السفن المسلحة لحراسة المواصلات مع القاهرة ، ووصلت ليلا إلى (البرانقة) على البر الغربى للنيل

وفى الصباح استأنفت السير فبلغت (ببا) ، وسارت منها قاصدة (الفشن) ، وقبل أن تصل إليها استراحت لتنتظر قدوم المدفعية ، وكانت طلائع الفرقة ترابط على مقربة من قرية (الفقاعى)(١)

حادثة (الفقاعى)

وقد حدث بقرب (الفقاعى) حادث دهش له الجنرال ديزيه وكبار الضباط الفرنسيين ، ذلك أنه بينما كان الجنود ينتظرون وصول بقية الجيش تقدم أحد غلمان القرية وتغفل بعض جنود الدراجون فاستولى على بنادقهم ، فرآه جندى آخر وتعقبه وهو يعدو حاملا بندقية إلى أن أدركه وضربه بالسيف على ذراعه وساقه جريحاً إلى الجنرال ديزيه للإقتصاص منه ، فسأله الجنرال عما دعاه إلى ارتكاب هذا العمل ، فأجاب الغلام رابط الجأش ناظراً إلى السماء : إن

---

(١) من بلاد مركز ببا بالبر الغربى للنيل

الله القادر على كل شيء قد أمره بذلك ؛ فسأله الجنرال عمن حرضه على فعلته ، فقال لم يحرضني أحد وإنما ألهمني الله أن أفعل ما فعلت ، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال له في هدوء وثبات : دونك رأسي فاقطعوه ! فدهش الجنرال من شجاعته ، واكتفى بأن يجلد بالسوط ثلاثين جلدة ، فجلد الغلام لايتأوه ولا يتململ حتى استوفى الثلاثين سوطا ، ولم تكن سنه تتجاوز الثانية عشرة ، وقد قص الجنرال بليار حكايته في يومياته قائلا إن هذا الغلام إذا عني بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال ؛ وروى المسيو فيفان دينون حكاية هذا الغلام في رحلته ، وهي تتفق في جوهرها مع رواية الجنرال بليار وإن اختلفت في بعض التفاصيل ، غير أنه قال إن الجنرال ديزيه عفى عن هذا الغلام ولم يأمر بعقابه ، ورواية الجنرال بليار في يومياته أدعى إلى الثقة لأنها قاصرة على سرد الواقعة وخالية من عبارات التصور والتخيل التي وردت في رواية المسيو دينون ، وقد رسم هذه الحادثة في كتابه (١) ونقلنا عنه هذا الرسم (ص ٣٠٣)

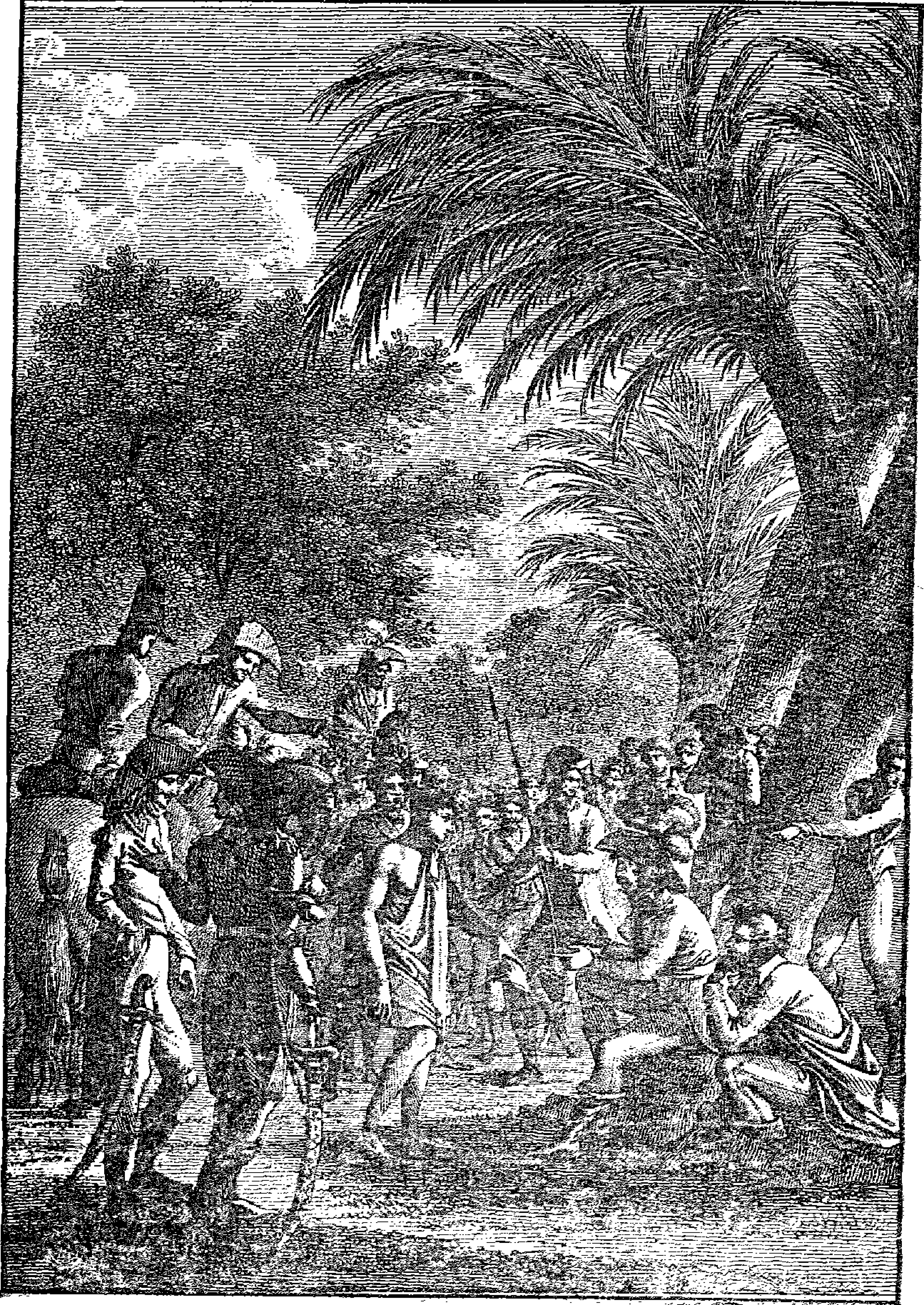
وصل الجيش إلى (الفشن) يوم ١٧ ديسمبر ، ثم ابتعد عن النيل وقصد شاطئ بحر يوسف يتعقب المماليك وحلفاءهم الأهالي ، لكن مراد بك استطاع أن يتراجع قبل أن يدركه الجيش الفرنسي ، وظل الجيش يتعقبه ثلاثة أيام يتنقل من قرية إلى قرية دون أن يفوز منه بطائل ، فعاد إلى شاطئ النيل ووصل إلى المنيا يوم ٢٠ ديسمبر ، وكان المماليك قد غادروها قبل قدومهم ببضع ساعات تاركين بها سفنهم وكانت واحدة منها مسلحة بثلاثة من المدافع ، والمراكب الأخرى بها بعض المدافع القديمة وبعض الأقوات والذخائر فغنمها الفرنسيون

ثم سار الجيش من المنيا مبتعداً قليلا عن النيل فمرّ ببني أحمد ، فريدة ، فكوم الزهير ، ثم عرج على النيل ووصل إلى (ساقية موسى) ، ثم إلى (ملوى) وكانت كما هي الآن من أهم مدن الوجه القبلي ، وصفها الجنرال بليار في يومياته بأنها مدينة كبيرة وأنها أجمل ما رآه من المدن في رحلته ، ذات شوارع واسعة مستقيمة وبيوت منتظمة ، وقد وجد الفرنسيون فيها ثمانية مدافع كان الأهالي يقذفون منها الجلل على المراكب الفرنسية حيث شرعوا في تحصين المدينة وإقامة سور لحمايتها ، فاستولى الفرنسيون على تلك المدافع ، واستمر الجيش في زحفه فمرّ بطوخ ، فتانوف ، فديروط ، فالقوصية

احتلال أسيوط

وفي صباح يوم ٢٤ ديسمبر قام الجيش من القوصية يريد أسيوط فاحتلها يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨

(١) رحلة في الوجه البحري ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابارت للمسيو فيفان دينون



حادثة الفقاعى (كما رسمها فى حينها المسيو فيفان دينون)

وترى الجنرال ديزيه جالساً تحت الشجرة يستجوب غلام القرية لمحاكمته
والغلام يجيبه بشجاعة ورباطة جأش

كانت أسيوط ، ولم تزل ، أهمّ مدن الوجه القبلي ، بها القصور المشيّدة ، والأبنية الجميلة والقيساريات والمتاجر الواسعة ، وهي عاصمة مديرية أسيوط التي كان عدد سكانها في ذلك الحين نحو مائتي ألف نسمة (١) ، وكانت تبعد عن شاطئ النيل بنحو ١٢٠٠ متر ، ومیناؤها (الحمراء) متصلة بها بجسر يعلو مياه الفيضان ، وكان في غربيها تلول عالية تقع بينها وبين الجبل ، وهي آثار مبانٍ قديمة وعليها بيوت المماليك ، فكانت تلك البيوت مرتفعة عن المدينة تشرف عليها ، ولذلك اختارها الفرنسيون لإقامة جنودهم ، واتخذها الجنرال ديزيه معسكراً للجيش ؛ وكان في الجهة البحرية للمدينة حدائق ذات بهجة ، وقد اشتهرت أسيوط بنسيج أقمشة الكتان ومصنوعات الخشب والعاج والأبنوس والخرتيت والفخار وصناعة الجلد وعصير السيرج وتصدير النطرون ، وكانت مركزاً لتجارة السودان والواحات وبلاد المغرب ، يَرِد إليها التبر وريش النعام وسن الفيل والتمر الهندي والجلود وملح الصودا ، وتصل إليها في كل سنة قافلة من دارفور على مسيرة أربعين يوما تشتمل على نحو ألف وخمسمائة من الإبل بأحمالها من بضائع تلك الجهات ، فيبيعونها ويستبدلونها من البضائع المصرية فيحصل بذلك رواج عظيم لأسيوط ، هذه نظرة عامة إلى المدينة وقت أن احتلها الجيش الفرنسي

انسحب المماليك من أسيوط بعد أن أغرقوا سفينة مسلحة من أسطولهم ، وتركوا ست سفن أعجلهم عنها ما كانوا فيه ، فلم يأخذوها ولم يغرقوها ، فاستولى الفرنسيون عليها وعلى ما فيها من الأقوات والذخائر ، ثم سار الجيش من أسيوط يوم ٢٦ ديسمبر وانقسم إلى فرقتين ، فرقة بقيادة الجنرال فريان أخذت طريق سفح الجبل ، والفرقة الأخرى المؤلفة من الفرسان ومن كتيبة الجنرال بليار أوغلت في السهل ، ثم التقتا في (الغنايم) فاحتلتها ونهبها الجنود (٢)

غادر الجيش (الغنايم) ووصل في زحفه إلى (فزارة) وعسكر في غابة على مقربة منها ، وفي يوم ٢٨ ديسمبر وصل إلى (بلصفورة) ، وفي ٢٩ غادرها وحاذى النيل عند (المنشاة) ، ثم مر

---

(١) الآن ٩٨١٠٠٠ نسمة

(٢) قال الجنرال بليار في يومياته عن الغنائم :

« إنها قرية كبيرة جدا تحيط بها غابة من النخيل وهي على مسيرة خمس دقائق من الترعة السوهاجية وقد نهبها الجنود نهبا تاما ، ودافعهم الأهالي عن أنفسهم وقتلوا بعض الجنود ، وقد أرسلت قوة لإعادة النظام في القرية فأطبق عليها الفلاحون واشتبك الفريقان فقتل واحد من الأهالي وجرح اثنان من الجنود »

وقال بليار عن قرى الوجه القبلي بمقارنتها بالوجه البحري :

« يظهر أن بلاد الوجه القبلي أكثر تنظيما من بلاد الوجه البحري فالطرق معتنى بها وكذلك الترع ، وفي مفاوز الطرق أسبلة على مسافات معينة يقوم عليها بعض الأهالي يسقون الناس من مائها ، والقرى من المنيا إلى ما بعد ملوى لا تكتنفها المزابل والقاذورات بمقدار ما رأينا حول غيرها »

بالخارفة ، فالنويرات ، فطوخ المسيرات ، فأولاد حمزة ، إلى أن وصل إلى جرجا فى اليوم نفسه فعسكر حول المدينة ، وكان أسطول مراد بك قد غادرها قبل أن يصل الفرنسيون

وهكذا قطع جيش الجنرال ديزيه المسافة من بنى سويف إلى جرجا فى ثلاثة عشر يوماً (من ١٦ إلى ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨) كان فى خلالها يطارد جيش مراد بك من بلد إلى بلد دون أن ينال منه منالا

حطّ الجيش الفرنسى أثقاله بجرجا ليستريح الجنود من عناء تلك الرحلة التى أنهكت قواهم ، ولينتظر وصول المراكب التى بها ذخائره ومهماته ومؤونته ، وقد تعطل سيرها وتأخرت عن متابعة الجيش لهبوط المياه واختلاف الريح ، ومرض من الجنود نحو ٢٠٠ جندى ، وأمر الجنرال ديزيه بترحيل من لا يرجى شفاؤهم إلى القاهرة لـكيلا يكونوا عالة على الجيش

ورأى ديزيه أن لا يغامر بجيشه فيما وراء جرجا لأنه أصبح بعيداً عن مدينة القاهرة ، ووجد فى جرجا مدينة كبيرة فى وسط مديرية خصبة تصلح لتموين الجيش ، فرأى من الحـكمة أن يستقر بها حتى يصل أسطوله ويتأهب لاستئناف الإيغال فى الصعيد(١)

الثورة فيما بين

أسيوط وجرجا

كان ديزيه يتوقع قدوم أسطوله إلى جرجا بعد أيام معدودات ، ولـكنه تأخر فى الوصول فاضطر أن يبقى بها مدة ثلاثة أسابيع دون أن يزحف أو يعمل عملا ، وكان تأخره مدعاة لتنظيم قوة المقاومة فى البلاد التى لم يفتحها ، وسريان روح الثورة فى المدن التى فتحها ، فصارت البلاد فيما بين أسيوط وجرجا شعلة من الهياج والثورة

شبت الثورة فى نحو أربعين بلداً ، وانضوى إلى علمها نحو سبعة آلاف من الأهالى ، فانتهز مراد بك هذه الفرصة ليلم شعثه ويضم إليه الأعوان والأنصار من أهل البلاد ، وأرسل يستنجد بأشراف مكة وعرب ينبع وجدة ، وأنفذ رسله إلى النوبة يستنفرون الناس لمقاومة الفرنسيين ، وأرسل إلى حسن بك الجداوى الذى كان مقيما فى إسنا ، وكان بينهما من قبل عداء قديم ، يعرض عليه الصلح ليتحدا على محاربة الفرنسيين ، فلبى الجداوى دعوة الصلح وانضم إلى خصمه القديم لمحاربة العدو الجديد

---

(١) كانت جرجا مع أنها أصغر من أسيوط تعتبر فى ذلك العصر عاصمة الصعيد لأنها قاعدة مديرية جرجا أكبر مديريات الوجه القبلى ، وكانت الغلال فيها وافرة والأسعار منخفضة ، وموقعها فى منتصف المسافة بين القاهرة وأسوان يجعلها مركزا تجاريا على جانب كبير من الأهمية

واجه الفرنسيون فى الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة المدى ، ولكنهم عاجلوها قبل أن تجتمع قواها وتتحد عناصرها ، وغلبوا قواتها المبعثرة ، معتمدين على نظامهم الحربى ، ومدافعهم القوية وبنادقهم الحديثة ، فكانت المعارك التى نشبت بينهم وبين الأهالى أشبه بمذابح ، فتكت فيها نيران المدافع والبنادق بجموع من الأهالى محرومين من النظام ، غير مزودين إلا بأسلحة قديمة

معركة سوهاج

٣ يناير سنة ١٧٩٩

كلف ديزيه الجنرال دافو قمع هذه الثورة ، فقام من جرجا على رأس فرسانه ، ووصل إلى سوهاج يوم ٣ يناير سنة ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين ، قدرهم الجنرال دافو بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحراب ، يشد أزرهم سبعمائة من الفرسان ، ونشب القتال بين الفريقين ، ولكن الأهالى على كثرة عددهم لم يكونوا معتادين خوض المعارك الحديثة ، فأصلتهم فرقة الفرسان ناراً حامية ، تراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى كما يقدرهم الجنرال ديزيه ، وعاد الجنرال دافو إلى جرجا

كانت هذه الواقعة كارثة أصابت الأهالى ، وكان طبيعيا أن تفضى إلى إرهاب البلاد الأخرى وإخماد الثورة فيها ، لكنها على العكس لم تكسر شوكة الثائرين ، ولم تثنهم عن عزمهم ، واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط ، قادمين رجالا وركباناً من مديريات المنيا وبنى سويف والفيوم ، فكلف ديزيه الجنرال دافو التوجه ليهاجم هذه الجموع ، وليطمئن على الأسطول الفرنسى الذى انقطعت أخباره وتأخر وصوله إلى جرجا ، وكان مركز هذا الأسطول محفوفاً بالمخاطر ، لأنه كان يتسحب فى النيل بين بلاد ثائرة وجموع هائجة

معركة طهطا

٨ يناير سنة ١٧٩٩

سار (دافو) على رأس فرقة الفرسان فوصل تجاه طهطا يوم ٨ يناير ، فوجد عدداً من الأهالى يبلغون نحو ثمانمائة فارس يقصدون مهاجمة الفرنسيين ، فاقترب منهم جيش الجنرال دافو يتحداهم للقتال ، فتقهقروا وأخلوا له الطريق ، فترجل الجنود الفرنسيون تجاه طهطا واستراحوا ساعتين ، ثم استأنفوا سيرهم فتبعهم فرسان الأهالى عن بعد ، وأخذت جموع

الثوار تخرج من القرى مشاة وركباناً وتنضم إليهم ، فازداد عددهم حتى بلغ عدد الفرسان منهم ألفى فارس كما يقدرهم الجنرال دافو ، وهجم الثوار على مؤخرة الجيش الفرنسى ، فأمر الجنرال دافو بإطلاق النار عليهم ، ففتكت بهم فتكا ذريعاً ، وخسر الأهالى عدداً كبيراً من القتلى قدرهم الضابط راباس Rabasse [١] ١٥٠ قتيلا من الفرسان وثمانمائة من المشاة [٢] ، وانسحبوا من ميدان القتال ، وانتقم الفرنسيون انتقاماً فظيعاً من القرى التى أطلقت عليهم النار ، فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها [٣]

تابع الجنرال دافو سيره فوصل بفرسانه إلى أسيوط يوم ١١ يناير ، ووجد السفن الفرنسية راسية تجاه المدينة ولم تكن وصلت إلا صباح ذلك اليوم ، ثم قفل راجعاً إلى جرجا

وصل الأسطول إلى جرجا يوم ١٨ يناير حاملا الذخائر والأقوات لفرقة الجنرال ديزيه ومدداً من ١٥٠ جندى ، فاعتزم ديزيه أن يسير بجنوده جنوباً ليشتبك مع مراد بك فى معركة فاصلة

معركة سمهـــود

٢٢ يناير سنة ١٧٩٩

زادت قوة مراد بك بانضمام الأهالى الثائرين إليه وقدوم عرب جدة وينبع الذين أتوا من سواحل البحر الأحمر لنجدته ، وانضم إليه كذلك عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى من البكوات المماليك ذوى النفوذ والعصبية

كان مع مراد بك من المقاتلة ١٥٠٠ مملوك ، والباقون من الأهالى الذين انضموا إليه من جميع البلاد ، ويقدر نابليون عددهم فى مذكراته بسبعة آلاف من الفرسان المصريين وثلاثة آلاف من المشاة ، وألفين من عرب ينبع وجدة بقيادة الشريف حسن ، فجيش مراد بك كان إذن مؤلفاً من نحو ١٢٫٠٠٠ مقاتل ، وهى قوة لايستهان بها لو كان لها قيادة صالحة مدبرة

علم ديزيه أن هذه القوة مرابطة فى سمهود [٤] الواقعة على ترعة بهجورة، فانتقل إليها بجيشه ، وكان عدده نحو خمسة آلاف مزودين بالمدافع والبنادق الحديثة ، وهناك التقى بجيش

(١) رئيس أركان حرب الجنرال دافو

(٢) قدر نابليون فى رسالته إلى الديركتوار خسائر المصريين فى معركتى سوهاج وطهطا بألفين من القتلى

(٣) رسالة دافو إلى نابليون فى ١٢ يناير سنة ١٧٩٩

(٤) بلدة بمركز فرشوط بمديرية قنا واقعة بقرب الجبل الغربى

مراد بك فى صبيحة يوم ٢٢ يناير ، ونشبت معركة حامية الوطيس بين الفريقين استعد لها الجنرال ديزيه استعداداً عظيما ليضمن لجيشه الفوز فيها ، فرتب المشاة وجعل منهم مربعين تحميهما المدافع وتتألف منهما ميمنة الجيش وميسرته ، فكانت الميمنة بقيادة الجنرال فريان ، والميسرة بقيادة الجنرال بليار [1] ، وفرقة الفرسان فى القلب على شكل مربع بقيادة الجنرال دافو ، فهجمت المربعات الثلاثة تحميها المدافع من زواياها

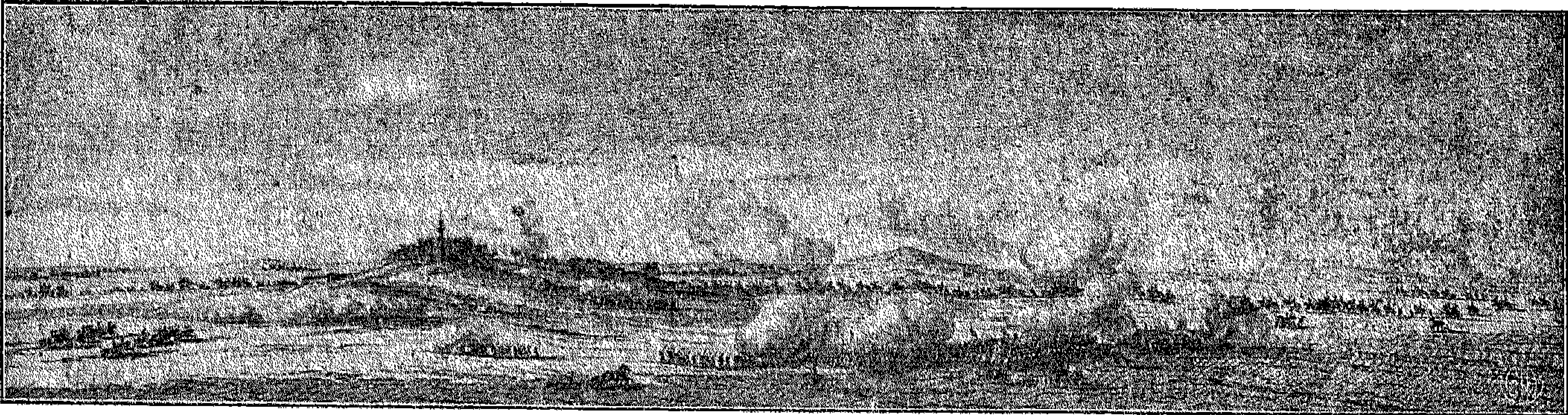
بهذا الترتيب قابل الجيش الفرنسى قوات مراد بك التى كانت أكثر عدداً ولكن ينقصها النظام والمدفعية ومقدرة القيادة ، فلا غرو أن انتهت الواقعة بهزيمة مراد بك وانسحابه بفلول جيشه جنوبا قاصداً فرشوط ، وترى فى الرسم ص ٣٠٩ صورة معركة سمهود كما رسمها المسيو فيفان دينون الذى شاهدها ، وتجد فى الصورة المربعات الثلاثة التى تتألف منها القوات الفرنسية تهاجم قرية سمهود حيث كان يرابط جيش مراد بك ، وهذه الصورة تمثل نظام جيش نابليون وطريقة هجومه فى معارك مصر

الوصول إلى أسوان

أول فبراير سنة ١٧٩٩

لا تقل واقعة سمهود شأناً عن معركة سدمنت ومعركة الأهرام فى كونها أكسبت الجيش الفرنسى النصر فى ميدان القتال ، وفتحت أمامه الطريق لاحتلال البلاد ، فاستطاع الجيش الفرنسى بعد هذه المعركة أن يستأنف زحفه جنوباً ، وأخذ يطارد جيش مراد بك حتى وصل إلى فرشوط ، وهناك اضطر إلى الوقوف قليلا حتى يستريح الجنود الذين أجهدهم السير ، ثم غادر (فرشوط) متابعاً سيره حتى وصل إلى (هو) ثم إلى (الوقف) وبلغ (دندره) فى ٢٤ يناير ومرّ قريباً من أطلالها ، وكان المسيو فيفان دينون (الذى نقلنا عنه بعض رسومه) يرافق الحملة ، فشاهد مع لفيف من ضباط الجيش آثار دندره القديمة ، فبهرتهم عظمتها ، ووقفوا مبهوتين أمام جمالها وجلالها ، وفى ذلك يقول الكولونل لاتورنرى Latournerie قومندان المدفعية فى تلك الحملة بعد أن شاهد معبد دندره : « من يوم أن قدمت إلى مصر وأنا أعيش مريضاً حزيناً ، ولكن دندره قد شفتنى من سقامى ، والآن لا آسف على شىء وأنا فى مصر ، ومهما لقيت فيها منذ اليوم فإن هذه المشاهد تردّ إلىّ الحياة والسرور »

(١) اختلفت رواية المراجع الفرنسية فى قائدى الميمنة والميسرة ، على أننا اعتمدنا على التقرير الذى كتبه الجنرال ديزيه عن المعركة وبعث به إلى نابليون وفيه يقول : إنه جعل على الميمنة الجنرال فريان وعلى الميسرة الجنرال بليار ، وكذلك يقول نابليون فى رسالته إلى الديركتوار عن واقعة سمهود



معركة سمهود (٢٢ يناير سنة ١٧٩٩) كما رسمها المسيو فيفان دينون وكان من شهودها

وترى فى الصورة الكتائب الثلاث التى يتألف منها الجيش الفرنسى تهاجم القرية على شكل مربعات تحميها المدافع من زواياها ، فالجناح الأيمن بقيادة الجنرال فريان ، والجناح الأيسر بقيادة الجنرال بليار وبينهما كتيبة الفرسان بقيادة الجنرال دافو ، وجنود مراد بك يحاولون الإحاطة بالمربعات فتصدهم نيران المدافع الفرنسية

واصلت الفرقة سيرها مارة بالقرى الواقعة على البر الغربى للنيل ، فلم تلق بها مقاومة ، وعسكرت من ٢٥ إلى ٢٦ يناير فى (دنفيق) ، ثم وصلت إلى (طيبة) ذات الآثار الخالدة ، التى أشاد بذكرها هومير وهيرودوت ، وحدّث عن جلالها سترابون Strabon وديودور الصقلى ، وتغنى بعظمتها الشعراء والمؤرخون على تعاقب الأجيال والعصور ، فشاهد ديزيه وأركان حربه والمسيو فيفان دينون آثار الفراعنة ومقابر الملوك الماثلة فيها دلائل عزّهم وعظمتهم ، والنيل ينساب وسط تلك الآثار الناطقة بما كان لبلادنا فى الزمن السالف من مدنية عظيمة ومجد أثيل

غادر الجيش طيبة ، وأسرع يتعقب المماليك ، فوصل إلى (أرمنت) يوم ٢٦ يناير ، وغادرها فى اليوم التالى محاذيا النيل ، ووصل يوم ٢٧ يناير إلى إسنا [١] وكان مراد بك قد غادرها قبل وصول الجيش الفرنسى ، فترك فيها ديزيه الجنرال فريان وكتيبة من الجنود لإخضاع البلاد ، وسار جنوبا حتى وصل إلى (إدفو) يوم ٢٩ يناير ، ثم وصل يوم أول فبراير [٢] تجاه أسوان ، فاجتاز الفرنسيون النيل ووصلوا إلى البر الشرقى حيث توجد أسوان فاحتلوها ، واستولوا فيها على مراكب المماليك ، وبذلك تم للجيش الفرنسى احتلال الصعيد بأكمله

لكن فلول جيش مراد بك أفلتت من تطويق الجيش وانسحبت إلى ماوراء الشلال ، وعسكرت طلائعه على مسيرة أربعة فراسخ من أسوان ، فكان وجودهم من بواعث قلق الفرنسيين على سلطانهم فى الوجه القبلى ، فاعتزم الجنرال بليار مطاردتهم فى بلاد النوبة وإقامة الحصون فى أسوان

لم يطل ديزيه مكثه فى أسوان أكثر من يومين ، ثم غادرها تاركا بها الجنرال بليار ووصل إلى إسنا يوم ٩ فبراير ، وعزم على اتخاذها مؤقتاً معسكراً لجيشه ليرقب حالة الوجه القبلى

لم يكد الجنرال ديزيه يستقر فى إسنا حتى عاد جماعة من المماليك بقيادة عثمان بك حسن واستقروا على شاطئ النيل الشرقى فى منتصف المسافة بين أسوان وإسنا ، وكاد وجودهم يهدد مواصلات الجيش الفرنسى ، فأرسل الجنرال بليار كتيبة من جنوده لمطاردتهم ، فاستقرت

---

(١) كانت إسنا من أهم مدن الصعيد تقصد إليها القوافل القادمة من السودان ودارفور وسنار ، وتتخذها سوقا لها ومحطة تنزل بها فاكتسبت بذلك مكانة كبيرة ، وكان بها أكبر سوق للجمال ، وكانت (ولم تزل) مركزاً صناعيا لنسيج الصوف والقطن وصنع الملاءات وعصير الزيت وعمل الفخار ، وكانت بسبب بعدها عن العاصمة كالملجأ للماليك المغضوب عليهم من ولاة الأمور بالقاهرة ، وسكن بها وقتئذ حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن وصالح بك خصوم مراد بك القدماء ، وكان بأقصى المدينة حديقة جميلة لحسن بك الجداوى اتخذها الفرنسيون مقراً لاجتماعاتهم كما اتخذوا منزل حسن بك الجداوى مقرا لإقامتهم

(٢) اعتمدنا فى بيان هذا التاريخ على تقرير الجنرال ديزيه عن حركات الجيش الفرنسى فى الصعيد

هذه الكتيبة فى (دراو [1]) بالبر الشرقى للنيل شمالى أسوان ، ثم عادت إلى أسوان بعد أن ابتعد رجال عثمان بك عن شاطئ النيل

كانت مهمة الجنرال بليار فى أسوان أن يمنع عودة المماليك من وراء الشلال ويضطرهم إلى البقاء فى بلاد النوبة حيث يتسرب اليأس إلى نفوسهم فى تلك البلاد النائية ، فظل بليار يرقب حركاتهم ، وبقيت فلول المماليك فى حالة ضنك شديد ، مشتتين بالقرب من النيل قريباً من الدِّرّ وإبريم [2] وعلى بعد نحو مائتى كيلو متر من جنوب أسوان

على أن طلائع المماليك أخذت تناوش المخافر الفرنسية على مقربة من أسوان ، فذهب بليار لمطاردتهم مع كتيبة من جنوده ، وتعقبهم حتى انسحبوا جنوب دهميت [3] ، وأوغلوا ثانية فى بلاد النوبة ؛ ورأى الجنرال بليار أن يحول دون رجوعهم بتخريب تلك المنطقة لكيلا يستطيع المماليك أن يقيموا بها ويتخذوها مركزاً لمناوشة الفرنسيين ، فاقتلع مزروعاتها ، ونهب مافيها من الماشية ، واعتزم أيضاً احتلال جزيرة (أنس الوجود) والجزر الواقعة فى شلال أسوان ليأمن على سلامة الجيش الفرنسى

المقاومة فى جزيرة فيله

فى ٦ فبراير سنة ١٧٩٩ قصد بليار إلى جزيرة فيله (أنس الوجود) فى كتيبة من مائتى جندى ، فرست عند الشلال وسارت على الشاطئ الأيمن للنيل ، ولما صارت تجاه جزيرة فيله أراد الفرنسيون أن يعبروا النيل إليها على مراكب الأهالى ، فلم يقبل أحد منهم أن يسلم فى مركبه ، وعاد بليار أدراجه إلى أسوان ، وبعد بضعة أيام استأنف تحقيق عزمه فلقى مقاومة شديدة من النوبيين فى جزيرة فيله (أنس الوجود) وجزيرة الحساه ، قال الجنرال بليار فى يومياته يصف هذه المقاومة :

« حمل الأهالى أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء ، ويحثون التراب فى وجوهنا ؛ أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر ، وكنت قد أحضرت معى مدفعاً لإخضاعهم ، فدعوتهم إلى الصلح والسلام ، فكان جوابهم أنهم لايقبلون منا كلاماً ، وأنهم لايفرون من أمامنا كما يفر المماليك ، واستأنفوا إطلاق الرصاص ، فجرح ثلاثة من رجالنا ، ولم يكن لدينا مراكب نصل بها إلى الجزيرة ، وحاولنا أن

(١) من بلاد مركز أسوان
(٢) من بلاد مركز الدر الآن بمديرية أسوان
(٣) بمركز أسوان

نتخذ من جذوع النخل طوفا ينقل الجنود ولكن المياه غمرته ، فاضطررنا أن نرجئ احتلال الجزيرة ، وبقيت الجنود ترابط يوم ١٩ فبراير على شاطئ النيل تجاه الجزيرة ، واستجلبت من أسوان بعض ألواح الخشب للعبور عليها

« وفى اليوم التالى وصلنا إلى الجزيرة ، فأطلق علينا الفلاحون الرصاص ولكن لم يصب أحد من الجنود ، ثم فروا تاركين مواشيهم ومؤونتهم واحتللنا الجزيرة

« وفى ٢١ فبراير احتللنا الجزر الأخرى المجاورة لجزيرة فيله ، والتى اشترك أهلها فى الثورة ، ثم عاد الجنود وبقيت فصيلة منهم لتستولى على مؤونة الأهالى من التمر ، وكانت نتيجة هذين اليومين أن قتل من الأهالى ثلاثون رجلا ، واستولينا على ٢٠٠ بندقية و ٢٠٠ طبنجة وسيف ، وشىء كثير من التمر واللحم والمؤونة »

تم للفرنسيين احتلال الجزر الواقعة فى شلال أسوان ، واطمأنوا على حدود مصر ، وأخذ الجنرال بليار يحصن أسوان وعزم على إقامة قلعة فيها

تجدد القتال بين جرجا وأسوان

كانت خطة الفرنسيين الحربية اتخاذ أسوان موقعاً حصيناً لقطع الطريق على المماليك إذا هموا بالخروج من مكمنهم فى بلاد النوبة ومعاودة الهجوم على الجيش الفرنسى ، لكن المماليك أحبطوا هذه الخطة باجتيازهم الصحراء غربا ومواصلة السير شمالا إلى أن صاروا حذاء جرجا وأسيوط ، واعتزموا الهجوم على الجيش الفرنسى هناك ، وتهديد المواصلات بين كتائب الجيش فيما بين أسيوط وأسوان ، كما أن بعض فلول المماليك بقيادة حسن بك الجداوى ومحمد بك الألفى بعد أن فروا أمام جيش ديزيه لم يواصلوا السير إلى ما وراء الشلال ، وانفصلوا فى الطريق ضاربين فى الصحراء ، يترقبون الفرص ليعودوا إلى شاطئ النيل

علم الجنرال بليار بهذه الحركة فاعتزم أن يتعقب المماليك فى البر الغربى ، فأخلى أسوان ليلة ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ وسار بجنوده بالبر الغربى للنيل يتعقب مراد بك ، ولكنه لم يدركه لأن المماليك كانوا أسرع منه فى السير

وصل بليار إلى إسنا يوم ٢٨ فبراير ، وهناك تلقى تعليمات ديزيه لمواجهة هذه الحركة الهجومية التى قام بها المماليك ، وفيما كان ديزيه فى إسنا علم أن جماعات من عرب الحجاز جاءوا لنجدة المصريين، وأنهم ينوون احتلال قنا لقطع مواصلات الجيش الفرنسى ، وأن عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى ورجالهما تحركوا بالبر الشرقى قبالة (أدفو) ، فعهد إلى الجنرال

فريان احتلال قنا للامتناع بهـا ومنع اتصال العرب بالنيل ، وجعله قومندانا لمديرية جرجا ، وأنفذ كذلك الجنرال دافو لمطاردة قوات حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن قبالة أدفو

معركة الردسـيـة

١١ فبراير سنة ١٧٩٩

عبر الجنرال دافو النيل وسار بالبر الشرقى قاصـداً مهاجمة جموع الأهالى والمماليك الذين يقودهم حسن بك الجدّاوى وعثمان بك حسن ، فالتقى بهم يوم ١١ فبراير بالردسية [١]، واصطدم الفريقان وكلاهما من الفرسان فى معركة شديدة دامت ثلاث ساعات ، اشتبك فيها المقاتلون وجهاً لوجه ، فكانت هذه المعركة قريبة الشبه بمعركة الصالحية ، استعمل فيها السلاح الأبيض، فخسر الفرنسيون خسـارة جسيمة ، وبلغ عدد قتلاهم ٣٧ قتيلا من بينهم الضابط فونتت Fontette ، وبلغ عدد جرحاهم ٤٤ كما قدّرهم الأدجودان جنرال دنزلو ، وكانت خسائر المماليك والأهالى لا تقلّ عن خسارة الفرنسيين ، وكان من جرحاهم عثمان بك حسن ؛ وانتهت المعركة بانسحاب المماليك إلى الصحراء فى طريق القصير ، واستطاع حسن بك الجداوى أن ينقذ رجاله ومؤونته من الوقوع فى قبضة الفرنسيين ، فلم يكن الفوز لأحد الفريقين على الآخر ، وبقيت قوة المماليك والأهالى سليمة تترقب الفرصة لمعاودة الـكرة [٢]

معركة قنا

١٢ فبراير سنة ١٧٩٩

أما فى جهة قنـا فقد سار إليها الجنرال فريان قاصداً الامتناع بها لأن موقعها على جانب عظيم من الأهمية ، وإليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير ، وهى ممر القوافل الذاهبة من القطر المصرى إلى الحجاز أو التى ترِد منه عن طريق القصير ، وقد سبقته إليها طلائع جنوده بقيادة الضابط كونرو Conroux وعددهم نحو خمسمائة مقـاتل ، ولم يكد يعلم عرب الحجاز والأهالى باحتلال الفرنسيين لها حتى هجموا عليها قبيل منتصف ليـلة ١٣ فبراير ،

---

(١) بلدة واقعة بالبر الشرقى للنيل جنوبى أدفو الواقعة على البر الغربى

(٢) يقول ريبو إن هذه المعركة وقعت بالقرب من الأقصر يوم ١٢ فبراير ويسميها معركة الأقصر ، ويسميها ديزيه معركة طيبة ، ويقول أيضا إنها وقعت يوم ١٢ فبراير وكذلك المسيو (شوانى) فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية ، على أنه برجوعنا إلى بيانات الجنرال دافو الذى قاد المعركة وبيانات الـكولونل لاسال Lassale الذى اشترك فيها تبين لنا جلياً أن المعركة وقعت بالردسية يوم ١١ فبراير

ولكن الفرنسيين ردّوا هجومهم على المدينة وأوقعوا بهم خسارة جسيمة ، وجرح الضابط كونرو فى هذا القتال جرحاً بليغاً ، فتنحّى عن قيادة الجنود للضابط دروسن Drosen فناله ما نال صاحبه

وصل الجنرال فريان بعد انتهاء المعركة فأقام المخافر حول المدينة وعلى مداخل الطرق الموصلة إلى النيل لمنع الثوار من استئناف هجومهم ، واستطاع الشريف حسن الذى كان يقود عرب الحجاز أن يلمّ شعثه ، وانضم إليه الأهالى المسلحون من سكان البر الشرقى للنيل فرابطوا بالقرب من (أبو مناع) (١)

معركة (أبو مناع)

١٧ فبراير سنة ١٧٩٩

ولم تثنهم هزيمة ١٢ — ١٣ فبراير عن عزمهم على مواصلة القتال ، فسار إليهم الجنرال فريان بجنوده فأدركهم فى قرية (أبو مناع) ، وهناك دارت معركة أخرى تغلبت فيها المدفعية على البنادق والأسلحة القديمة التى كان يستعملها الأهالى وعرب الحجاز ، فقتل عدد كبير منهم ، واستولى الفرنسيون على (أبو مناع) وأضرموا النار فيها وفى القرى المجاورة لها ونهبوها

وقصد الجنرال فريان بعد هذه المعركة إلى جرجا تنفيذاً لتعليمات الجنرال ديزيه ، فوصلها يوم ٢١ فبراير سنة ١٧٩٩

معركة إسنا

٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩

وفى غضون ذلك أخذ مراد بك يتأهب للحملة على مواقع الفرنسيين على النيل ، ففى ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ أقبل ومعه قوة من سبعمائة من الفرسان ، وعدد حاشد من النوبيين قاصدين مهاجمة الحامية الفرنسية فى إسنا ، فاشتبك الفريقان فى معركة دامت ساعة من الزمن ، وانتهت بتقهقر مراد بك ورجاله إلى (أرمنت)

---

(١) شمالى دشنا بغرب بالقرب من الجبل الشرقى تبعد عن النيل مسيرة ساعة ونصف

الفصل السابع عشر

استمرار المقـــاومة

فى الوجه القبـلى

لم يتم للفرنسيين إخضاع الوجه القبلى على الرغم من انتصاراتهم العسكرية واحتلالهم معظم بلدانه ، بل ظل مركزهم مضطرباً ونفوذهم مزعزعاً ، وتحرّج موقفهم من الوجهة الحربية ، لأنهم بعد أن احتلوا مدن الصعيد أصبح جيشهم مبعثراً على طول النيل ، ولم يكن سلطانهم يتعدى المدن التى لهم بهـا حاميات ، ولم يكن من السهل على الجيش الفرنسى إخضاع بلاد متباعدة تفصلها المسافات المترامية كبلاد الوجه القبلى

كانت روح المقاومة تسود سـكان القرى والمدن ، فلم يكن الأهالى يدَعون فرصة تمرّ دون أن يثوروا فى وجه السلطة الفرنسية ، وكانوا من هذه الوجهة متصلين بالبقية الباقيــة من جيش المماليك ، تعاونهم طوائف العرب القادمين من القصير ، فاجتمعت هذه القوى الثلاث واتحدت على مهاجمة الحاميات الفرنسية فى المدن ، وقطع مواصلات الجيش الفرنسى فى النيل بمهاجمة السفن التى تحمل الجنود والذخائر والأقوات ، ولذلك تحرّج مركز الجيش الفرنسى ، وتعددت المناوشات والمعارك والمفاجآت ، وبكل ذلك لم يستقرّ له قرار فى تلك الجهات

كان الجنرال ديزيه مقيما فى إسنا التى اتخذها معسكره العام من اليوم التاسع من شهر فبراير سـنة ١٧٩٩[١] وظل بها يرقب الحال ويتتبع حركات الاضطرابات فى الصعيد ، ثم غادرها قاصداً إلى (قوص) ، وقد شعر بحرج الموقف ، وأفضى إلى نابليون قبل ارتحـاله إلى سوريا بالمصاعب التى تـكتنفه ، وطلب منه المدد ليتمكن من إخضاع الوجه القبلى ، قال فى رسالة له كتبها فى قوص يصف فيها دقة موقفه :

« إننا نسير بلا انقطاع ، وقد سـاءت حالة الجنود فى ملابسهم وأحذيتهم ، ولم نستطع للآن أن نجمع إلا النزر اليسير من أموال الميرى على الرغم من الجهود التى بذلناها ، وإن دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم ، وإنّ علينا أن نحارب ثلاث قوات مجتمعة وهم العرب

---

(١) انظر ص ٣١٠ الفصل السابق

القادمون من القصير ، والمماليك ، والأهالى ، فليس من السهل إخضاع هذه البلاد ، ومن الضرورى لنجاح الحملة على الوجه القبلى أن ترسلوا لنا أولا ذخيرة كبيرة من الرصاص ، وكثيراً من الأحذية ، وأرجو أن تنفذوا إلى أسيوط القوات التى فى الفيوم وبنى سويف[١] مع إيجاد حامية مستديمة فى المنيا ، وبذلك يتم لنا احتلال أهم المواقع على النيل فلا يستطيع أعداؤنا أن يصلوا إليها ، ويضطرون إلى الشرود فى الصحراء حيث لا يستطيعون العيش ؛ إننا هنا كأننا فى أقصى الدنيا ، وإن حالتنا محزنة ، والملاحة فى النيل تكتنفها الأخطار ، وهاءنذا فى قوص أنتظر مراكب قامت من إسنا منذ ستة أيام ولم تستطع الوصول إلى هنا ، ولو كان لدينا من السفن الحربية والذخائر أكثر مما عندنا لتحسنت حالتنا »

هذا ما كتبه ديزيه إلى نابليون ، ومن قبل كتب إليه غير مرة يطلب المدد ، ولكن نابليون كان مشغولا بالحملة على سوريا ، فأخذ معه ما استطاع أخذه من القوات والذخائر ، ولم يرسل لديزيه إلا النزر اليسير منها ، فاضطر ديزيه أن يكتفى بقواته لاستمرار الحملة على الوجه القبلى ومواجهة الاضطرابات فيها ، ولم يجد ما يسد به النقص الذى وقع فى صفوفه من المعارك والأمراض

موقف المماليك

بقى الجنرال ديزيه عدة أيام فى قوص يرسم الخطط التى تقتضيها ضرورات الموقف العسكرى ، وترك لكل من الجنرال بليار والجنرال فريان حرية العمل ، كل فى جهته لمواجهة الهجمات التى استهدفت لها جبهة القتال الطويلة ، ثم اعتزم أن يواصل سيره شمالاً قاصداً إلى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الثورات التى ظهرت فيها ، وكان يعتقد أنه سيواجه قوات كبيرة من مماليك مراد بك ومحمد بك الألفى ؛ على أن المماليك كعادتهم لم يستهدفوا لمواجهة الجيش الفرنسى وتركوا عبء القتال على عاتق الأهالى ، فقد بقى مراد بك فى الواحة بعيداً عن ضربات ديزيه وجنوده ، وانسحب محمد بك الألفى إلى أخميم ، ولحق به عثمان بك حسن ، وأخذ المماليك من أتباعهم يبحثون عن ملجأ لهم فى القرى والمدن ، وباع كثير منهم سلاحهم للأهالى ، وعرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموهم إليهم ، وقد ذكر ريبو[٢] حوادث معينة لهذا التحول ، منها أن أحد مماليك عثمان بك حسن طلب من ضباط الجيش الفرنسى أن يأخذوه

(١) أرسل دنزلو إلى الجنرال برتييه فى ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ من قوص ينصح بإرسال حاميات جديدة إلى الفيوم وبنى سويف لتحل محل الجنود التى ترسل إلى أسيوط حتى لا تخلو هذه المواقع من جنود فيحتلها المماليك وحلفاؤهم (الأهالى)

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الخامس

إليهم ، وحجته أنه قبل أن يكون مملوكا كان مجريا (من سكان المجر) ومن فرسان الجيش النمسوى ، فأسره الأتراك فى بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكا ، فقبل الفرنسيون خدمته وانضم إلى صفوفهم ، ودخل آخرون فى الجيش الفرنسى زاعمين أنهم كانوا جنوداً فى الجيش النمسوى وأسرهم الأتراك وأرسلوا إلى الاستانة ثم نقلوا إلى مصر ، وصاروا فى عداد المماليك ، ويقول « ريبو » : إن الفرنسيين قد قبلوهم فى صفوفهم وصاروا من رجالهم الأمناء الشجعان !! ويدخل فى هذا السياق أن نابليون جنّد فى صفوف الجيش الفرنسى جميع المماليك الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة ، وألحقهم بالجيش ليتدربوا على القتال فى صفوفه

فمقاومة المماليك قد تلاشت إذن أمام الجيش الفرنسى ، وتنفس الفرنسيون الصعداء للقضاء على خصم كان يخلق لهم المتاعب ، على أن مقاومة الأهالى كانت أشد وأنكى ، وأعظم أثراً فى إضعاف مركز الفرنسيين فى الوجه القبلى

تحرك ديزيه من قوص يوم ٢ مارس سنة ١٧٩٩ ، وانتقل إلى الشاطئ الأيسر للنيل قاصداً أسيوط ، وضم إلى جيشه فى الطريق الوحدات التى كانت موزعة على طول النهر ، وترك وراءه أسطول السفن الفرنسية بقيادة القومندان موراندى Morandi تتبعه عن بعد ، وتسير مبطئة لاختلاف الريح

ناط الجنرال ديزيه قبل سيره من قوص بالجنرال بليار مهمة إخضاع مصر العليا ، من قنا إلى أسوان ، وطلب منه إبقاء خمسمائة جندى فى إسنا واتخاذها مركزاً عسكرياً حصينا لمراقبة البلاد شمالا وجنوبا ، وتوزيع الوحدات المتحركة على البلاد الواقعة على النيل ، وكلفه التقدم إلى قنا وجعلها مركزاً حصينا لمراقبة طريق القصير وطريق النيل

معركة (الصوامعة)

٥ مارس سنة ١٧٩٩

علم ديزيه فى طريقه إلى أسيوط أن الأهالى ثاروا بقيادة مشايخ البلاد بالقرب من طهطا ، فعهد إلى الجنرال فريان مهاجمة الثائرين ، فالتقى بهم فى الصوامعة[١] يوم ٥ مارس ، وألفى نار الثورة مشتعلة بها ، ووجد نحو ثلاثة آلاف من الفلاحين يحتلونها ، فهجم على المدينة بجنوده واحتلها ودفع الثوار إلى النيل ، فقتل منهم عدد كبير قدرهم الجنرال ديزيه بألف قتيل وغريق

وصل ديزيه إلى أسيوط يوم ٨ مارس بعد أن وزع قواته على طول النيل فى إسنا وقنا

(١) الصوامعة جنوبى طهطا ، وهى واردة بهذا الاسم فى تقرير الجنرال ديزيه عن معارك الوجه القبلى

وفرشوط وجرجا وطهطا وأسيوط ، فاتخذ من هذه المدن مراكز للحاميات الفرنسية ، ورتب وحدات متحركة تجوب البلاد الواقعة بينها لإخضاعها ، وقمع حركات الثورة التى تبدو فيها

كارثة السفن الفرنسية فى النيل

٣ مارس سنة ١٧٩٩

سبق الجنرال ديزيه عند سفره من قوص أسطوله الذى كان يسير ببطء فى النيل ، ليلحق بالجيش فى أسيوط ، وبعدت الشقة بينهما ، فانتهز الأهالى هذه الفرصة لمهاجمة الأسطول ، وكان عدده نحو ١٢ سفينة حربية تقل ذخائر الجيش ومؤونته ، تتقدمها السفينة الحربية « إيتاليا »

هاجم الأهالى هذه السفن فى يوم ٣ مارس سنة ١٧٩٩ على مقربة من قرية « بارود[1] » وأطلقوا عليها الرصاص ، فأجابت السفينة الحربية « إيتاليـا » على هجمات الأهالى بإطلاق المدافع ، فقتلت منهم عدداً كثيراً ، لـكن الأهالى ومعهم العرب القادمون من القصير تجمعوا وازداد عددهم ، ونزلوا النيل سباحة وهجموا على السفن فاستولوا عليها عنوة ، وأفرغوا شحنتها من الذخائر على شاطئ النيل ، ثم ركبوها وقصدوا إلى السفينة الحربية «إيتاليا» للاستيلاء عليها ، وكان يقودها القومندان موراندى Morandi فضاعف إطلاق الرصاص على المهاجمين ، ولـكنه رأى رجال مدفعيته قد أثخنتهم الجراح على ظهر السفينة ، ورأى من جهـة أخرى جموع الأهالى من الشاطئ الأيسر يتحفزون للهجوم عليه ، ففكر فى الانسحاب ، ولـكن الريح عاكسته فجنحت سفينته ، وإذ ذاك هرع إليها الأهالى والعرب من كل صوب وحدب ، وصعدوا على ظهرها ، فتحقق موراندى الخطر المحدق به ، ولـكنه أبى التسليم ، فأشعل النار فى مستودع البـارود وألقى هو ورجاله بأنفسهم فى اليم قاصدين النجاة ، وانفجر مستودع البارود فنسف السفينة نسفا ، وتفجرت شظايا القنابل على الشاطئ فقتلت عدداً كثيراً من الأهالى ، ولـكن الباقين منهم قاتلوا موراندى ورجاله فى اليم ، فمات مثخناً بجراحه ، وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر السفينة « إيتاليا » وعلى ظهر السفن الأخرى ، وكانت خسارة الفرنسيين جسيمة ، فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمائة قتيل ، وهى أكبر خسارة منى بها الجيش الفرنسى فى الحملة على الوجه القبلى

كانت السفينة « إيتاليا » قبل أن تستخدم فى الحملة على الوجه القبلى سفينة نابليون الخاصة التى كان يركبها فى النيل بالقاهرة ، وقد وصلت إليه أنباء هذه الـكارثة وهو فى حملته على سوريا أثناء حصاره لعكا ، فحزن حزناً شديداً على ما أصاب الفرنسيين فيها ، ومما يؤثر عنه أنه تشاءم

(١) على الشاطئ الشرقى للنيل جنوبى قنا بالقرب من قوص وتسمى (نجع البارود)

من فقد السفينة « إيتاليا » ، وتوقع أن تكون هذه الكارثة نذيراً بتقلص ظل فرنسا عن البلاد الإيتالية لتشابه الاسم ، فقال لمن حوله متأثراً : « إن فرنسا قد فقدت إيتاليا ، إن شعورى لايكذبنى »

من أسوان إلى قوص

كانت مهمة الجنرال بليار فى القطاع الذى كلف حمايته شاقة محفوفة بالمكاره ، فقد أخلى أسوان يوم ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ لإخضاع الحركات العدائية التى ظهرت على شاطئ النيل شمالا ، فوصل إلى إسنا يوم ٢٨ فبراير ، وبعد أن تلقى تعليمات ديزيه سافر من إسنا يوم ٢ مارس بعد أن ترك بها قوة من أربعمائة جندى بقيادة الضابط فاليت Valette وكلفه تحصين منزل حسن بك الجداوى ليكون معقلا للحامية الفرنسية

وكان يرافق بليار فى مسيره بعض السفن تحمل الأقوات والذخائر والجنود والجرحى والمرضى ، فوصل مساء ٢ مارس إلى (إلى الزريقات) [١]

وعسكر تلك الليلة هناك ، وفى اليوم التالى وصل إلى (أرمنت) وعسكر بها إلى اليوم السادس ، وفى هذا اليوم سارع قاصداً إلى قنا ليدفع مناوشات الأهالى على طول النيل ، وقد وصلته الأنباء بأنهم يتجمعون على مقربة من بارود ، ولما وصل إلى قرية «قولا» [٢] عبر النيل بجنوده وأخذ طريقه بالبر الشرقى ، ووصل إلى (قوص) يوم ٨ مارس ، وهناك تحقق من الكارثة التى حلت بأسطول السفن الفرنسية ببارود ، وعلم أن الأهالى وعرب الحجاز (والمماليك) يستعدون لملاقاته بعد أن تزودوا من الذخائر والمدافع التى استولوا عليها فى معركة بارود النيلية

معركة قفط

٨ مارس سنة ١٧٩٩

سار بليار قاصداً موقع الأهالى والعرب على مقربة من قفط ، وهناك التقى بجموعهم الذين كانوا يرابطون فى السهل وعددهم نحو ثلاثة آلاف من الأهالى وعرب الحجاز ، و ٣٥٠ إلى ٤٠٠ من المماليك ، والتقى الجمعان فى سهل قفط يوم ٨ مارس سنة ١٧٩٩ ، فكانت معركة حامية الوطيس ، اشتبك فيها المقاتلون وجهاً لوجه ، وانتهت بهزيمة الأهالى والعرب وانسحابهم إلى أبنود

---

(١) جنوبى أرمنت بغرب (٢) شمالى الأقصر

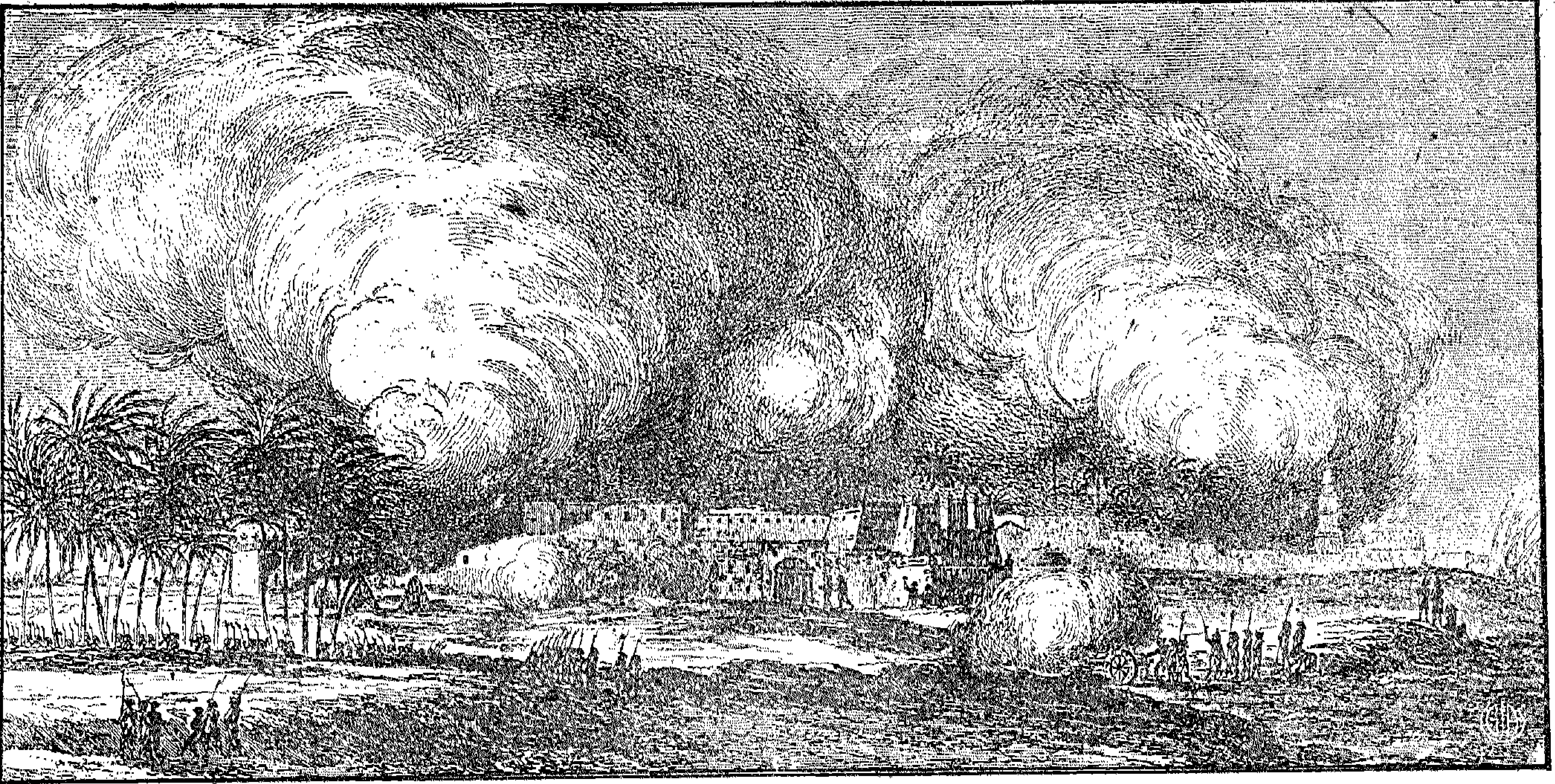
معركة أبنود

٨ — ٩ — ١٠ مارس سنة ١٧٩٩

وواصل الاهالى والعرب انسحابهم وهم يدافعون دفاعا شديداً عن كل قرية وكل مكان ارتدوا إليه ، فلما وصلوا إلى أبنود تحصنوا فيها ونصبوا بها المدافع الفرنسية التى غنموها فى واقعة بارود النيلية ، وأخـذوا يطلقون النار منها ففتكت بالفرنسيين فتكا شديداً ، وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة فى صفوف المصريين ، وقد أدرك الجنرال بليـار لفوره أن موقفه أصبح محفوفا بالخطر ، وأن منشأ الخطر وجود المدافع الفرنسية فى يد المصريين ، فوجه قوة جيشه كلهـا للاستيلاء على هذه المدافع ، ونجح فى خطته فاسترجع الفرنسيون مدافعهم وجردوا المصريين من أقوى سلاح كان فى يدهم

واشتد القتال بين الفريقين ، وانسحب الأهالى والعرب إلى منازل القرية فتجدد القتال فى طرقاتها وبيوتها ، ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب عليهم إلا بعد أن أضرموا النار فى منازل القرية كلها ، فأصبحت البلدة شعلة من الجحيم ، وتصاعد اللهب إلى عنان السماء ، واستحالت القرية إلى أكوام من الخرائب ، وبالرغم مما حل بها من الحريق والدمار فقد امتنع الاهالى والعرب فى قصر حصين كان فيما مضى مقراً لـكشاف المماليك ، وفى مسجد يجاوره جمعوا فيه الذخيرة التى غنموها من الفرنسيين ، فاشتد القتال حول هـذا المنزل والمسجد المجاور له ، وتبادل الفريقان إطلاق النار إلى أن جنّ الليل وتـكبد الفرنسيون خسائر جسيمة ، فـكفوا عن الضرب بعد أن أحرقوا المسجد ، وأخذوا يحاصرون المنزل طول الليل ويستعدون لاستئناف القتال فى اليوم التالى ، ونصبوا المدافع بحيث تشرف عليه ؛ أما المماليك فقد لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيداً لم يأتوا شيئاً ولم يعملوا عملا ما ، وعسكروا فى الصحراء ، ذلك كان شأنهم فى كل المعارك التى اشتد فيهـا القتال ، فـكانوا يضنون بأرواحهم ويعرضون الأهالى فداء وضحية

استؤنف القتال فى اليوم التالى (يوم ٩ مارس) ، فأعاد الفرنسيون ضرب القصر بالمدافع ، وهنا أقبل مدد من الأهالى والمماليك لرفع الحصار عن هـذا القصر ، فردهم الفرنسيون على أعقابهم ، وشددوا الحصار والضرب إلى أن تمـكنوا من دخول إحدى ساحاته ، فأضرموا النار فى بنائه ليـكرهوا من فيه على التسليم ، فاشتعلت النار فى غرف القصر ، وأوشك لهيبها ودخانها أن يخنق المحصورين ، فنزلوا إلى ساحته واستمروا يقاتلون الفرنسيين بشجاعة اعترف بها بليار فى رسالته إلى الجنرال ديزيه ، إلى أن جن الليل وكان قد قتل كثير منهم ، وتمـكن بعضهم أن



معركة أبنود — ٨ — ٩ — ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ — (نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون)
والصورة توضح إضرام الفرنسيين النار فى أبنود أثناء المعركة ، وترى النار مشتعلة فى القصر الحصين الذى كان الثوار ممتنعين فيه وفى المسجد المجاور له بعد أن أحرق الفرنسيون بيوت القرية

ينسلوا تحت الظلام فأفلتوا من الحصار ونجوا بأنفسهم من النار المشتعلة .

وفى صباح اليوم الثالث للمعركة (يوم ١٠ مارس) اقتحم الفرنسيون القصر فوجدوا الباقين به نحو ثلاثين قد أقعدهم الإعياء ونالتهم الجراح ، ومع ما كانوا فيه من الهلاك فإنهم استمروا على المقاومة إلى أن قتل الفرنسيون معظمهم

وبعد انتهاء المعركة تظاهر مماليك عثمان بك حسن بالرغبة فى القتال كذباً ودعوى ، وكانوا أثناء القتال جامدين ، فسار إليهم الجنرال بليار قاصداً مهاجمتهم ، وما أسرع ما فروا فى الصحراء ، فتركهم وعاد إلى أبنود

وجد الفرنسيون فى القصر جانباً من الذخائر التى فقدوها فى معركة بارود النيلية ، وكان الأهالى والعرب قد استنفدوا جزءاً منها ، وكذلك استرد الفرنسيون المدافع التى كان الأهالى قد انتزعوها من السفن الفرنسية ، واستولوا على ست رايات ، منها اثنتان للحجازيين

وقدر بليار خسارة الأهالى وحلفائهم الحجازيين بخمسمائة أو ستمائة قتيل ، وثمانية إلى عشرة من المماليك ، وكثير من الجرحى ، وقدر خسائر الفرنسيين بنحو ٣٥ قتيلا و١٣٤ جريحاً ، وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا وأطولها مدة ، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة ، وكان حريق أبنود وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت فى معارك الحملة الفرنسية

وتجد صورة حريق أبنود ص ٣٢١ كما رسمه المسيو دينون الذى شاهد المعركة

حالة الشعب النفسية

بالرغم من انتصار الفرنسيين فى معركة أبنود فقد أنهكهم القتال ونالتهم الخسائر الجسيمة ونفدت ذخائرهم ، وأصبح من المتعذر على الجنرال بليار متابعة القتال لفداحة الخسائر ، ومما زاد موقفه حرجاً الروح العدائيــة التى سادت الأهالى فى تلك الجهات بحيث كان الفرنسيون يشعرون أنهم محاطون بالأعداء من كل جانب ، وأن لا سبيل إلى استبقاء سلطتهم إلا بقوة السيف والنار ، وقد شعر قواد الجيش بتلك الحالة النفسية ، وأفضوا بها إلى القيادة العليا فى رسائلهم وتقاريرهم ، ودونوها فى مذكراتهم

قال الجنرال بليار فى يومياته : «إن كل القرى التى نجتازها نجدها خالية من السكان لأنهم يخلون قراهم قبل أن نصل إليها »

وقال فى رسالة إلى الجنرال ديزيه عن معركة أبنود : « إننا نعيش هنا عيشة ضنكا فإن جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها ، ولا نجد فيها شيئاً من القوت ، ولا نرى فلاحاً واحداً

بدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا ، ولا أدرى السبب فى هذه الحالة ، على أننا مع ذلك لا نعمل عملا ضاراً فى البلاد التى نجتازها »

وقال ديزيه فى رسالة إلى نابليون(١) :

« ليس لدى معلومات ولا أخبار عن الجنرال بليار ، ولكنهم يؤكدون لى أنه حارب الأهالى والمماليك وعرب مكة وهزمهم واسترد الذخائر والسفن التى اضطر جنودنا إلى التخلى عنها ؛ إن البلاد فى ثورة ، وليس من السهل أن نتبادل الرسائل بسرعة ، وإنى أطلب الذخائر من القاهرة فقد نفدت ذخائرنا ، وسأزحف على شاطئ النيل الأيمن لاكتساحه وطرد المماليك وحلفائهم ، على أنى لا أكتمكم الحقيقة ، وهى أننا مع ذلك لا نكون سادة البلاد ، لأننا إذا أخلينا بلدة لحظة واحدة من الجنود عادت إلى حالتها القديمة »

وكتب الأدجودان جنرال دنزلو إلى الجنرال برتييه من أسيوط فى ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة يستعجل بها المدد ، قال فيها :

« إذا لم تتفضلوا بإرسال الأدوية إلينا فإن مرضانا الذين يزداد عددهم كل يوم سيموتون من البؤس والعذاب ، ويحق لى أن أتساءل هل نحن فى منفى سحيق بالصعيد فلا يذكرنا أحد ؟ إنى أكرر لكم أننا فى بلاد أصعب مراساً من مديرية المنصورة ، وإذا سرنا إلى جهة من الجهات ظهرت الثورات فى الأماكن التى يخليها الجنود ، فعلينا أن نكون دائماً على أهبة الزحف والتدمير ، فمتى تنتهى هذه الحالة ؟ »

ورجع بليار بعد معركة أبنود قاصداً إلى قنا فوصلها يوم ١٢ مارس سنة ١٧٩٩ وأخذ فى تحصينها ، واختار منزلا كبيراً لأحد المماليك فاتخذه حصناً يشرف على المدينة وعلى النيل وجعله معسكراً للجنود ، وأخذ يبعث بالرسائل إلى الجنرال ديزيه لينبئه بموقفه ، ولكن رسله جميعاً قتلهم الأهالى فى الطريق ولم ينج منهم إلا واحد بلغ أسيوط برسالته

رجوع ديزيه إلى قنا

أما الجنرال ديزيه فكان فى أسيوط يرقب الحالة وينتظر رسائل بليار التى أبطأت عليه كثيراً ، إلى أن وصلته يوم ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة منه ينبئه فيها بكارثة السفن الفرنسية فى بارود ، ثم انتصار الفرنسيين فى معركة أبنود ، ولم يخفف هذا الانتصار شيئاً من عظم الكارثة النيلية ، فإنها فضلا عما لحق الفرنسيين فيها من خسارة الأنفس والأرواح قد أفقدتهم أعظم مستودع للذخيرة التى كانت تحملها السفن ؛ فأرسل ديزيه يستعجل المدد والذخيرة من

(١) رسالة ديزيه إلى نابليون من أسيوط فى ١٧ مارس سنة ١٧٩٩

القاهرة ، واعتزم أن يسير جنوباً إلى قنا ليشدّ أزر الجنرال بليـار ويقمع حركات الثورة التى ظهرت فى البلاد وبخاصة الواقعة على الجانب الأيمن للنيل

ترك ديزيه حامية فى أسيوط وغادرها يوم ١٨ مارس بجنوده ، وجعـل طريقه على البر الشرقى ، وحمل مؤونته وذخيرته فى النيل ، وسارت الجنود على الشاطئ فوصل قبالة طهطا يوم ٢٠ مارس ، ثم إلى أخميم يوم ٢١ ، ثم قبالة جرجا يوم ٢٣ مارس ، وبقى عدة أيام فى بلاد أحد المشايخ الذين اشتهروا بمقاومة الفرنسيين وهو الشيخ (عبد المنعم) للتنـكيل به ، فأمر بقطع نخيله وإضرام النار فى القرى التابعة له

ووصل يوم ٢٧ مارس إلى قنا ، فالتقى فيها بالجنرال بليار وأخذا يعدّان العدّة لاستئناف القتال وإخضاع البلاد

معركة (بئر عنبر)

٢ أبريل سنة ١٧٩٩

وصل ديزيه إلى قنا فشدد وصوله عزائم الجنود ، وأخذ يتأهب لسحق المقاومة التى كانت تقلق الفرنسيين

إن انتصارات الفرنسيين لم تـكسر شوكة البـلاد ولم تضع حداً للمقاومة الأهلية ، فإن الأهالى وحلفاءهم من العرب والمماليك كانوا يجمعون فلولهم بعد المعارك التى هزمهم فيها الجيش الفرنسى ثم يعودون لإثارة المقاومة واستئناف الهجوم ، وكل معركة تترك لهم ثأراً على الفرنسيين ، وبذلك لا تنقضى معركة إلا ولّدت معركة جديدة

كتب الجنرال ديزيه يصف هذا التطور : « إن طبيعة الحرب فى الوجه القبلى قد تغيرت ، لقد هزمنا الأعداء (الأهالى وحلفاءهم) فى كل مكان ، ولـكننا لم نسحقهم ، ومن الواجب أن نصل إلى هذا الغرض ، وللوصول إليه سأنظم وحدات متحركة لأكره الأعداء على أن يظلوا منقطعين فى الصحراء المقفرة ، أو على الأقل نضطرهم لقطع مسافات شاسعة ليصلوا إلى المناطق المزروعة »

شرع ديزيه يوجه قواته لسـحق رجال حسن بك الجداوى الذين انسحبوا بعد معركة أبنود إلى جهة (الجطة) فى طريق القصير ، فجمع فى هذه الحملة كتيبة من ١٥٠٠ من خيرة جنوده واتجه جنوباً محاذياً البر الشرقى للنيل ضارباً فى الصحراء فوصلت الفرقة إلى (كفرأسما) وهى قرية صغيرة فى سفح الجبل ، ثم وصلت إلى (بئر عنبر) وهى بلدة واقعة على الطريق

الذاهب من قنا إلى القصير ، ثم وصلت إلى (المقربية) [١] وعسكرت تجاهها ، وكان ديزيه يرمى إلى قطع الطريق على رجال حسن بك الجداوى حتى لا يصلوا إلى النيل بأحد الطريقين الموصلين إليه من (الجطة) ، وهما طريق بئر عنبر وطريق (حجازه) [٢] الواقعة جنوبى قوص بقرب الجبل الشرقى ، فاحتل بئر عنبر وعهد إلى بليار باحتلال حجازه فاحتلها ، وبذلك تم للفرنسيين احتلال رأسى الطريقين الموصلين إلى النيل ، وأخذ الجنرال بليار وهو فى حجازه يستطلع حركات المماليك وحلفائهم الذين كانوا فى (الجطة) يتحفزون للتقدم يريدون النيل ، فلما علم ديزيه بمقصدهم سار بجنوده فى صباح يوم ٢ أبريل لمنازلتهم

فلما كان على مسيرة ساعة من (بئر عنبر) التقت طلائع جيشه من الفرسان بقوة المماليك والأهالى يقودهم حسن بك الجداوى ويعاونه عثمان بك حسن ، وكان عددهم نحو خمسمائة من المماليك وألف من الأهالى كما يقدرهم الجنرال ديفيرنوا **Desvernois** [٣] فى مذكراته

فدارت معركة شديدة بين الفريقين بالقرب من (بئر عنبر) تلقت فيها كتيبة الفرسان صدمة الهجوم وتأخر المشاة عن المعركة لوعورة الطريق وصعوبة السير فى الرمال ، وكان يتولى قيادة الجيش الفرنسى الجنرال ديزيه ، يعاونه الجنرال دافو ، وقتل فى المعركة عدد من الضباط الفرنسيين منهم الكولونل دوبليسى **Duplessis** والضابط بوفاتييه **Bouvatier** ، وبلغت خسائر الفرنسيين ٤٤ قتيلا و ٢٠ جريحاً ، وهى خسارة كبيرة تدل على اشتداد القتال فى تلك المعركة

ويقول الجنرال ديفورنوا فى مذكراته ان ديزيه قد استهدف للخطر وكاد يُقضى عليه لولا أن افتداه الكولونول دوبليسى بحياته ، وانتهت المعركة بانسحاب المماليك وحلفائهم إلى (الجطة) فى طريق القصير بقيادة حسن بك الجداوى ، لكن حسن بك لم يبق بالجطة طويلا وارتدّ جنوبا قاصداً إلى أسوان

وترى فى الرسم ص ٣٢٦ صورة معركة (بئر عنبر) ومقتل الكولونيل دوبليسى كما رسمها المسيو فيفان دينون وكان من شهودها

أما الجنرال بليار فقد كان مرابطاً فى (حجازه) ليقطع طريق الانسحاب على المماليك وحلفائهم ، ولكن هؤلاء مضوا فى طريق الردسية يقصدون إلى النيل فتبعهم بليار بجنوده

---

(١) جنوبى قفط

(٢) وهناك طريق ثالث يصل من الجطة إلى الردسية ولكنه طريق بعيد الشقة وعر المسالك قليل الآبار

(٣) من ضباط جيش ديزيه



مقتل الكولونل دوبليسى فى معركة بئر عنبر — ٢ أبريل سنة ١٧٩٩ — (نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون)
وترى فى الصورة الكولونل دوبليسى يهجم على عثمان بك حسن وكلاهما راكبا جواده فعاجله أحد فرسان عثمان بك
بطعنة رمح أودت بحياته

ووصل إلى الردسية يوم ٨ أبريل غير أنه لم يدركهم وكانوا غادروها قبل قدومه قاصدين إلى أسوان ، وهذه هى المرة الثانية التى انسحب فيها المماليك إلى أسوان ، وخشى بليار أن يغامر بمن معه من الجنود فى متابعتهم فى الصحراء فعدل عن اللحاق بهم واستدعاه الجنرال ديزيه ليرابط فى قنا التى كانت موقعاً عسكرياً على جانب عظيم من الأهمية

تجدد الثورة بين قنا وجرجا

عاد بليار إلى قنا بعد أن ترك حاميات من الجنود فى قوص وإسنا ، وقبل أن يصل إلى قنا غادرها الجنرال دافو إلى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الحركات الثورية التى تجددت فيها ، ذلك أن الجنرال ديزيه قد وصلته الأنباء أن الأهالى والمماليك قد انتهزوا فرصة خلو البلاد من القوات الكافية فاستأنفوا حركاتهم الثورية فى مديرية جرجا ، وأن جموع الثائرين من الأهالى وحلفائهم العرب والمماليك احتشدوا بالبر الشرقى لقطع مواصلات الجيش الفرنسى ، فأنفذ الجنرال دافو بفرسانه لإخضاع البلاد الثائرة فيما بين قنا وجرجا ، وعهد إلى الكولونل موراند Morand قومندان مديرية جرجا باحتلال الأكمات المشرفة على النيل قبالة جرجا ليأخذ الطريق على الثائرين إذا أرادوا عبور النيل

واقعة برديس
٦ أبريل سنة ١٧٩٩

تحرك الجنرال دافو ووصل إلى دشنا ، فشعر الأهالى بخطر الإحداق بهم فعبروا النيل شمالى برديس وصاروا بالبر الغربى ، فسار إليهم موراند والتقى بهم فى ٦ أبريل على مقربة من برديس وكانوا جموعاً كثيرة من الأهالى والعرب تجمعوا فى برديس متأهبين للقتال ، وانضم إليهم سكان القرى المجاورة ، فتبادل الفريقان إطلاق الرصاص بشدة ، وهجم الأهالى والعرب على جنود موراند مرتين ، فعجز موراند عن اقتحام هذه الجموع وتقهقر إلى جرجا ليحمى مواقع الفرنسيين بها

واقعة جرجا
٧ أبريل سنة ١٧٩٩

شجع تقهقر موراند الأهالى والمماليك فتابعوا هجومهم ومضوا قاصدين احتلال جرجا ، وتضاعف عددهم فى الطريق بمن كان ينضم إليهم من سكان البلاد التى مروا بها ، فقدر الجنرال دافو عددهم بثلاثة آلاف من الفلاحين تجمعوا من القرى المجاورة يعاونهم جماعة من المماليك

وعرب الحجاز ، وهجموا على جرجا يوم ٧ أبريل وتمكن فريق منهم من الدخول فيها ، لكن الحامية الفرنسية بقيادة موراند صدتهم عنها بعد قتال عنيف ، وخسر المهاجمون عدداً من القتلى قدّره الجنرال دافو بمائة وخمسين قتيلا ، كما قدر خسائر الفرنسيين بستة من القتلى و ١١ جريحاً

واقعة جهينة

١٠ أبريل سنة ١٧٩٩

امتدت الثورة إلى طهطا فاستولى الثوار عليها ، وسرت إلى القرى المجاورة فأقبل الضابط لاسال Lassale بجنوده قادما من أسيوط والتقى بالثوار يوم ١٠ أبريل فى جهينة [١] وحاصرها الفرنسيون وضربوها بالمدافع ، ودار قتال شديد داخل البلد وامتنع الثائرون فى دار حصينة بها اتخذوها معقلا وقاوموا بها عدة ساعات ، ثم اقتحم الفرنسيون تلك الدار واستولوا عليها وقتلوا من صادفوهم بها من الأهالى والعرب ، وقدر دافو عددهم بثلثمائة من القتلى

الثورة فى بنى عدىّ

وصل الجنرال دافو إلى جرجا ثم إلى طهطا وعلم بنبأ هاتين المعركتين فتابع سيره إلى أسيوط ووصلها يوم ١٦ أبريل ، وهناك رأى أن الثورة امتدت إلى أسيوط وسرت إليها من فلول الأهالى والعرب الذين انهزموا فى جرجا وجهينة وانسحبوا شمالا يحميهم أهالى القرى التى فى طريقهم حتى وصلوا قريبا من أسيوط ومعهم نحو مائتين من المماليك ، فأخذوا يحرضون الناس على الثورة ويستحثونهم لقتال الفرنسيين ، وكانت خطتهم محكمة التدبير واسعة المدى كما اعترف بذلك ديزيه فى تقريره إلى نابليون ؛ واتخذ الثوار (بنى عدىّ) معسكراً للثورة ، وهى بلدة كبيرة واقعة على طرف الصحراء غربى منفلوط وعلى طريق الواحة التى كان مراد بك لاجئاً إليها ، وكان لهذه البلدة أهمية كبيرة بالنسبة لموقعها وعدد سكانها وثروتها [٢] واشتهر أهلها من قديم الزمن بالقوة وشدة البأس فكانوا فى عهد المماليك يقاومون

---

(١) جنوبى طهطا ، ذكر المرحوم على باشا مبارك فى خططه التوفيقية موقعها فى مديرية جرجا ، وقال عنها : « إن أهلها أكثر من عشرة آلاف نفس من عرب جهينة القبيلة المشهورة ولهم كرم زائد وشهامة وفصاحة لسان وذكاء وفطنة وثبات جنان » ، وهى واقعة على الترعة السوهاجية

(٢) يقول دافو فى رسالته إلى الجنرال دوجا عن (بنى عدى) «إنها من أكبر بلاد الوجه القبلى سكاناً وأغناها وأعظمها مكانة ، وإن الثورة عمت فيها من أقصاها إلى أقصاها ، وإن أهلها كانوا يرسلون جماعات منهم إلى شاطئ النيل لمهاجمة السفن الفرنسية » ، وذكر العلامة على باشا مبارك بنى عدى فى الجزء السابع من خططه فقال عنها « إنها بلدة كبيرة من قسم (مركز) منفلوط بحافة بساط الجبل غربى منفلوط وهى ثلاث =

مظالمهم فاتخذها الثوار مركزاً لهم واجتمع بها ثلاثة آلاف من الأهالى مسلحين وانضم إليهم ٤٥٠ من العرب المصريين وثلثمائة من المماليك

كانت هذه القوة لايستهان بها ، فسار دافو بجنوده قاصداً بنى عدى للاستيلاء عليها وقمع الثورة فيها ، فلما وصل إليها (يوم ١٨ أبريل سنة ١٧٩٩) ألفى أهلها جميعاً يحملون السلاح ويتحفزون للوثبة والقتال ، وكان المماليك لم يزالوا فى الصحراء بعيداً عن بنى عدى ، فعهد دافو إلى الكولونل بينون Pinon باحتلال غابة تحصنت بها طلائع الأهالى ، فتمكن من إجلائهم عنها وارتدوا إلى المدينة ، فتعقبهم الكولونل بينون ولما اقترب من المدينة أطلق الأهالى الرصاص على الجنود من المنازل ، فأصيب بينون برصاصة أردته قتيلا ، فعين دافو الضابط راباس Rabasse بدلا منه ، فاستمر الجنود بقيادة راباس يقاتلون الأهالى ، وهنا حضر المماليك لنجدتهم ولكن لم يكد راباس يتحول إليهم ليمنع اتصالهم بالأهالى حتى ارتدوا لأول صدمة وانسحبوا راجعين إلى الواحة التى قدموا منها وتركوا الأهالى وحدهم يتلقون هجمات الجيش الفرنسى ، فاشتبك الفريقان فى معركة حامية دارت رحاها فى طرقات بنى عدى وفى بيوتها التى حصنها الأهالى وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود ، فلقى الجيش الفرنسى ببنى عدى من المقاومة مالم يلق مثلها فى كثير من البلاد

استمر القتال إلى الليل ، وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنيران الفرنسية على مقاومة الأهالى ، ذلك أن الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على بنى عدى لجأوا إلى وسيلة الحريق التى اتبعوها فى أبنود وغيرها ، فأضرموا النار فيها فامتدت إلى بيوتها كافة ، وأصبحت البلدة

ـــ قرى القبلية والوسطى والبحرية ، وأبنيتها بالآجر واللبن وبها جوامع كثيرة عامرة وهى طريق الواحات وعلى مسيرة ثلاثة أيام ، وإليها ترد محصولاتها من التمر والأرز والنيلة ، ومنها ترسل إلى القاهرة وفيها تنسج أحرمة الصوف والأقمشة الصوفية الجيدة » وهى مشهورة إلى اليوم بصناعة الأكلة المتينة والأحرمة الجيدة ، وقال على باشا مبارك عن أهلها : « إنهم قوم كرام ذوو همم عالية وذكاء وفطنة وفصاحة ، قيل إنهم من قبيلة بنى عدى المشهورة القرشية ، وهى أيضاً مشهورة بالعلماء من قديم الزمن ، والأزهر لا يخلو أبداً منهم ، ومنهم المدرسون والمؤلفون قديماً وحديثاً » ، وذكر من بينهم الشيخ على العدوى المالكى وأورد ترجمته نقلا عن الجبرتى فى وفيات سنة ١١٨٩ هجرية ، قال عنه الجبرتى : «إنه كان شديد الشكيمة يصدع بالحق ويأمر بالمعروف ويحب الاجتهاد فى طلب العلم ، وكان ينهى عن شرب الدخان ويمنع من شربه بحضرته ، وكان إذا دخل منزلا من منازل الأمراء ، ورأى من يشرب الدخان نهاه عن شربه فينتهى فى الحال ، وشاع عنه ذلك حتى ترك الناس شربه بحضرته ، ودخل يوما على على بك الكبير (وهو على ما تعرف من السطوة وشدة البأس) فأخبروه قبل وصول الشيخ إلى مجلسه ، فرفع الشبك من يده وأمر بإخفائه من وجهه . ولما مات على بك الكبير واستقل بإمارة مصر محمد بك أبو الذهب كان يعظمه ويحبه ولا يرد شفاعته

كأنون من نار ، وبهذه الوسيلة تغلب الجيش الفرنسى على مقاومة بنى عدى ، واحتلها الجنود وأمعنوا فى أهلها قتلا ونهباً

قال الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية فى مذكراته : « أصبحت بنى عدى أكواماً من الخرائب ، وتكدست القتلى فى شوارعها ، ولم تقع مجزرة أشد هولا مما حل ببنى عدى »

وقدر الجنرال دافو عدد القتلى من الأهالى بألفى قتيل ، ويقدرهم ديزيه فى تقريره إلى نابليون بنحو ثلاثة آلاف ، والواقع أن معظمهم مات من الحريق الذى أضرمه الفرنسيون فى البلدة ، وقد احتل الجنود البيوت بحجة التفتيش عن الثائرين ، فنهبوا ما تصل إليه أيدى اللصوص ، وكانت بنى عدى مشهورة بما كان يأتيها من أموال القوافل القادمة إليها وما كان يحفظه فيها أعيان البلاد المجاورة من الودائع ، فنهبها الفرنسيون واستولوا على صناديق كاملة مملوءة بالذهب والمال

قال دافو عن النهب الذى وقع فى بنى عدى : « إن الغنائم التى استولى عليها الجنود قد عوضتهم ما فقدوه ، وكثير منهم كان نصيبه ١٥ ألف فرنك وبعضهم ٢٠ ألف فرنك ذهبا »

وقال ديزيه : « إن غنيمة جنودنا كانت عظيمة ، وكثيرون استولى الواحد منهم على عدة آلاف ريال »

رواية الجبرتى عن ثورة بنى عدى

وصلت أخبار فظائع الفرنسيين فى بنى عدى إلى القاهرة ، فكتب عنها الجبرتى ما يلى (فى حوادث شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣) :

« حضر إلى مصر الأكثر من عسكر الفرنسيس الذين كانوا بالجهة القبلية ، وضربوا فى حال رجوعهم بنى عدى بلدة من بلاد الصعيد مشهورة ، وكان أهلها ممتنعين عليهم فى دفع المال والكلف (الغرامات) ويرون فى أنفسهم الكثرة والقوة والمنعة ، فخرجوا عليهم وقاتلوهم ، فملك عليهم الفرنسيس تلا عالياً وضربوا عليهم بالمدافع فأتلفوهم وأحرقوا جرونهم ، ثم كبسوا عليهم وأسرفوا فى قتلهم ونهبهم ، وأخذوا شيئاً كثيراً وأموالا عظيمة وودائع جسيمة للغز (المماليك) وغيرهم من مساتير أهل البلاد القبلية لظن منعتهم ، وكذلك فعلوا بالميمون »

ولهذه المناسبة نقول إن الجبرتى لم يعن كثيراً بحوادث المقاومة فى الصعيد ، ولم يذكر عنها إلا نبذاً ضئيلة متقطعة حكى فيها ما كان يسمعه من أفواه بعض المسافرين ، وهى ليست ذات قيمة وليس فيها الدقة والاستقراء اللذان امتاز بهما الجبرتى فى سرد حوادث القاهرة

على أنه لا يفوتنا التنويه بأن الجبرتى فى إشارته إلى موقف المماليك فى الوجه القبلى رماهم

بالجبن وعدم الثبات فى ميادين القتال ، فقد ذكر فى حوادث شعبان سنة ١٢١٣ أن السفار (المسافرين) أخبروا « بأن مراد بك ومن معه ترفعوا (ابتعدوا) إلى قبلى ووصلوا إلى عقبة الهواء ، وكلما قرب منهم عسكر الفرنساوية انتقلوا وقبّلوا ، ولقد داخلهم من الفرنساوية خوف شديد ، ولم يقع بينهم ملاقاة ولا قتال » ، وذكر فى موطن آخر فى حوادث شعبان أيضاً : « وركب الغز وحاربوا الفرنسيس فلم يثبت الغز كعادتهم وانهزموا » ؛ وقال عن مراد بك : « إنه يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط فى الإقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر فى حرب باشرها أبداً ، على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور ، كما قال القائل : أسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامة(١) »

فى المنيا وبنى سويف

امتدت الثورة إلى مديريتى المنيا وبنى سويف ، فسار دافو إلى المنيا لإخمادها ومر الجيش فى طريقه ببعض القرى ، فكان الأهالى يمتنعون البتة عن مساعدته ، أو إمداده بالأقوات التى يطلبها ، فأخذ ينكل بالقرى والبلاد بحجة أنها فى حالة ثورة ، وكان أكثرها استهدافا لانتقام الفرنسيين فى هذه الرحلة بلدة (أبو جرج)

واقعة (أبو جرج)

وصل الجيش إلى (أبو جرج) فأرسل الجنرال دافو من قبله رسولا إلى أهلها ليقدموا المؤونة للجنود ، فرفض شيخ البلد (العمدة) أن يقدم شيئاً ، فأرسل دافو رسولا آخر ، فرده الأهالى خائباً ، فأمر بمحاصرة البلدة وإضرام النار فيها انتقاماً من أهلها ، وأقبل الأهالى من القرى المجاورة يحملون السلاح لنجدة أبوجرج ، فامتلأت بهم المزارع ، وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص ، واستمر القتال ساعتين ، وأضرم الجنود النار فى البلدة فالتهمت مساكنها واحترق بها كثير من أهلها ، ويقدر الجنرال ديزيه عدد القتلى من أهالى أبوجرج بألف قتيل

الثورة فى المنيا

كان الجنرال ديتريس(٢) قائداً للحامية الفرنسية فى المنيا ، وقبل أن يصل الجنرال دافو إليها شبت الثورة فى البلاد المجاورة لها ، فواجهها الجنرال ديتريس بالقوات التى تحت قيادته ، ونشبت معارك ثلاث فى ثلاثة أيام متوالية تحت أسوار مدينة المنيا

اليوم الأول — ففى ٢٣ أبريل سنة ١٧٩٩ تجمهر نحو ٤٠٠ من الأهالى ومثلهم من

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث (٢) من قواد فرقة الجنرال ديزيه

عرب الحجاز فى قرية (طهنشا) [١] جنوبى المنيا واستعدوا للهجوم على الحامية الفرنسية فى المنيا وأرسل زعيمهم إلى شيخ بلد المنيا يطلب مظاهرتهم على عدوهم ، فلما علم الجنرال ديتريس بنبأ هذا الهجوم عزم على أخذهم قبل أن يهاجموه فترك فى المنيا فصيلة صغيرة من العسكر وخرج بباقى الجنود وقصد إلى معسكر الثائرين بالقرب من (تلّة) [٢] التى تبعد عن المنيا غرباً بنحو ثلاثة كيلومترات ، فلما اقترب منهم الجنرال ديتريس برزوا من معسكرهم لمقاتلته ، فدارت معركة بين الفريقين بدأت بالإحداق بالجنود الفرنسية ولكن الجنرال ديتريس جعل من قوته مربعاً على الطريقة الفرنسية وسلط مدافعه على جموع الثائرين واستمر القتال أربع ساعات ثم انسحب الفرنسيون فتعقبهم الثائرون قاصدين المنيا ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام أسوار المدينة وكان الليل قد أقبل فارتدوا إلى (تلة) ، وانتهز الجنرال ديتريس فرصة الليل فرتب مخافره واستعد لليوم الثانى

اليوم الثانى — وفى اليوم الثانى وقف الجنرال ديتريس بجنوده خارج المدينة فى موقع منيع تحميه المقابر والحدائق ، وأوقف الرماة خلف أكمات عالية ، وأقبل الثائرون يصيحون صيحات القتال ويتقدمون بشجاعة وإقدام ، وكان عددهم قد زاد بمن انضم إليهم من سكان القرى الواقعة على شاطئ النيل ومن رهط من المماليك قدموا من الجنوب ، فامتلأ السهل المجاور للمدينة على مسافة فرسخ بالمقاتلين ودارت المعركة من جديد ، وكان الفرنسيون متخذين خطة الدفاع فاستمروا يدفعون الهجمات مدة ساعتين ، ولكن الفصيلة التى كانت تدافع عن الباب الشمالى للمدينة اضطرت تحت ضغط الثائرين إلى الارتداد داخل البلد والالتجاء إلى معسكر الحامية فاضطر الجنرال ديتريس إلى اللحاق بهم ، وفى هذا الوقت تمكن الثائرون من إقتحام باب آخر من أبواب المدينة فدخلوها يتدفقون من كل صوب وملأوا الشوارع ، لكن الجنرال ديتريس جمع رجاله وأمرهم بإطلاق النار وأرسل فصائله إلى أهم شوارع المدينة لاحتلالها ، فتمكن بذلك من ردّ الثائرين بعد أن حلت بهم الخسائر الجسيمة ، وفى نحو الساعة الأولى بعد الظهر عادت السلطة إلى قبضة الفرنسيين وانسحب الثائرون

اليوم الثالث — ظن الفرنسيون أنهم أصبحوا فى مأمن من هجومهم ، ولكن فى صباح اليوم التالى (يوم ٢٥ أبريل) أقبل أربعمائة فارس من العرب يظاهرهم جماعة من المماليك وهاجموا الفرنسيين وكادت تدور الدائرة عليهم لولا وصول الجنرال دافو بقواته فهزم الثوار وعادت السكينة إلى المدينة

(١) و (٢) من بلاد مركز المنيا

ومما ساعد الجنرال ديتريس على رد هجمات الثائرين أن معظم أهالى البندر ومشايخه لم ينضموا إليهم ، ويقول ديتريس فى رسالته إلى الجنرال دوجا إن حامية المنيا سلمت من القتل بفضل مشايخ البلد فى المنيا والفريق الأكبر من أهلها وإنهم لو حملوا السلاح فى وجه الفرنسيين لما بقى منهم أحد[1] ، ويؤخذ من ذلك أن طائفة من أهالى المنيا قد انضموا إلى الثائرين وبقى الفريق الأكبر منهم على الحياد ، وقد أعلن الجنرال ديتريس مكافأة أهل المنيا بإنقاص المال المفروض عليهم فى ذلك العام بمقدار الثلث ، وقرر حمل هذا الثلث على قرى ثلاث من البلاد التى اشتركت فى الثورة

الثورة فى أطفيح

وصل الجنرال دافو بفرسانه إلى المنيا كما قلنا وتابع سيره إلى بنى سويف ، ومن هناك عزم على عبور النيل لقمع الثورة التى ظهرت فى مديرية اطفيح ، ولكن الجنرال دوجا أرسل يستدعيه على عجل إلى القاهرة إذ بدأت الحالة تضطرب فيها من أجل حركات الهياج التى ظهرت فى بعض أنحاء الوجه البحرى[2] وكانت القوات الفرنسية قد نقص عددها فى القاهرة والوجه البحرى عامة لما أخذه معه نابليون من الجنود فى حملته على سوريا ، فاضطر دافو أن يعود من فوره إلى القاهرة فأحدثت عودته نقصاً فى صفوف الجنود الفرنسية فى الصعيد

وأرسل الجنرال ديزيه إلى الجنرال دوجا يشكو من عواقب استدعاء الجنرال دافو وفرسانه إذ كان أكثر اعتماده فى قمع الحركات الثورية فى الصعيد على فرقة الفرسان هذه ، وقد نبهه فى رسالته إلى الخطر الذى يتهدد الفرنسيين فى بنى سويف وأن وجود الجنرال دافو ضرورى لهذه المديرية

حركات الجنرال ديزيه

كان ديزيه مقيما فى قنا حينما أنفذ الجنرال دافو لقمع الثورة فى مديريات جرجا وأسيوط والمنيا ، فلما وصلته أنباء معركتى برديس وجرجا ورأى فيها خطورة الثورة عزم على مغادرة قنا واللحاق بدافو ليساعده فى مهمته ، فناط بالجنرال بليار قيادة الحركات العسكرية فى قنا وإدارة مديرية طيبة (قنا) وغادر هو قنا يوم ١٣ أبريل سنة ١٧٩٩ فسار بجنوده براً ونقل المؤن والذخائر على السفن ومشت الفرقة متئدة لترافق السفن ولا تبتعد عنها ، ويظهر أن

---

(١) رسالة ديتريس إلى الجنرال دوجا فى ٢٧ أبريل سنة ١٧٩٩
(٢) انظر الفصل الثالث من الجزء الثانى

الجنرال ديزيه قد اعتبر بما حل بالسفن الفرنسية من قبل إذا هى تخلفت عن جنود البر ، فآثر أن يحاذيها بجنوده على الشاطىء ، ولم يصل إلى جرجا إلا يوم ١٧ أبريل مساء ، فأرسل منها تعليماته إلى الجنرال بليار كلفه فيها مواصلة العمل على سحق حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن ورجالهما ، ونصح إليه أن يجمع ثلثمائة هجين لنقل جنوده إلى الجهات التى تظهر فيها الحركات الثورية ، وبذلك تطوى له المسافات طياً ، وأمره أن يحتل القصير ويوطد السلطة الفرنسية على سواحل البحر الأحمر وأن ينظم مديرية طيبة تنظيما بالغاً ويجمع أموال الميرى وينظم الشرطة بها ، وأوصاه بالصرامة والقسوة فى إخضاع الأهالى ، قال فى رسالته فى هذا الصدد : « إن هذه هى الوسيله التى نحصل بها على شىء من النفوذ والسلطة والطمأنينة ، وعليك أن تأمر بقطع رأس كل من لايطيع أوامرك من مشايخ البلاد (العمد) وقطع النخيل وإحراق القرى الثائرة وأن تتحرى وتبحث لمعرفة القرى التى اشتركت فى الهجوم على سفننا وفى المذبحة التى أودت برفاقنا التعساء (فى بارود) وأن تعاقبوهم بأشد مايمكن من القسوة ، وأن تفرضوا عليها غرامة لاتقل عن عشرة آلاف ريال »

مشروع الحملة على القصير

وعنى ديزيه أشد العناية بالحملة على القصير فكتب عدة رسائل يستحث فيها الجنرال بليار لإنفاذها إذ يرى فيها طريقة فعالة فى إرساخ قدم الفرنسيين فى الوجه القبلى ، فالقصير هو الثغر الوحيد الواقع على البحر الأحمر الذى يصل منه المدد إلى بلاد الوجه القبلى ، فمنه جاء عرب الحجاز الذين شدوا أزر الأهالى فى مقاومة الفرنسيين ، وكان الإنجليز يترددون من آن لآخر على هذا الثغر ، فانزعج الفرنسيون من هذه الحركات وعزم ديزيه على احتلال هذا الموقع لسد المدخل إلى الوجه القبلى

تنظيم البريد

ورأى ديزيه وهو فى جرجا أن ينظم البريد بين الحاميات الفرنسية ليجعل بينها اتصالا مستمراً يقيها المفاجآت ، وناط حمل البريد بفرسان مسلحين يقطعون مراحل محدودة ويتغيرون عند كل مرحلة إلى أن تصل الرسائل إلى الجهة المقصودة ، وأمر أن يسافر البريد كل يوم من جرجا حتى يصل إلى قنا وقسم المسافة بين جرجا وقنا إلى المراحل الآتية :

من جرجا إلى برديس ، من برديس إلى فرشوط ، من فرشوط إلى هو ، من هو إلى دشنا ، من دشنا إلى السمطا ، من السمطا إلى قنا ، وطلب ديزيه من بليار أن ينظم البريد

على هذه الطريقة من قنا إلى إسنا ، وكلفه أن يأمر (قائمقام) كل بندر أن يكون معداً لنقل البريد يومياً فى منطقته

اعتقال الرهائن

سار ديزيه من جرجا يوم ١٨ أبريل قاصداً إلى أسيوط ، فمر بالمنشاة فسوهاج فطهطا فالغنايم ، وقضى أياماً يتفقد أحوال تلك البلاد ويدبر الوسائل لإخضاعها ، ثم وصل يوم ١٥ مايو إلى أسيوط فاتخذها مركزاً لقيادته ، وقضى عدة أسابيع فى إعداد الوسائل والتدابير لإخضاع البلاد وتنظيم قوات الشرطة ، وقد رأى فى رحلته الأخيرة بمديريتى جرجا وأسيوط أن الحاميات الفرنسية لا قبل لها بإخضاع الأهالى فلجأ إلى اعتقال بعض الأعيان بصفة رهائن من كل بلد ليكونوا مسئولين عن الحوادث والاضطرابات فى بلادهم ، وبلغ عدد هؤلاء الرهائن الذين اعتقلهم من جرجا وما يليها إلى أسيوط مائتى رجل من الأعيان أبقاهم أسرى فى أسيوط وكتب إلى الجنرال بليار يوصيه باعتقال الرهائن من منطقته وأن يكون عددهم أكثر ما يبلغه الإمكان

وقد كان لدى ديزيه من التدابير الحربية الهامة احتلال القصير وتجريد حملة من الهجانة لمحاربة مرادبك وكان لا يزال مرابطا فى الصحراء، ومطاردة مماليك حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن فى جهات أسوان ؛ ومع أن مراد بك لم يكن معه من فلول المماليك سوى عدد يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة مملوك ، فإن ديزيه لم يكن لديه القوة الكافية لغزوه فى معقله ، وكان استدعاء الجنرال دافو وفرسانه إلى القاهرة قد أضعف قوة الجيش الفرنسى فى الصعيد ، وآل بها إلى النقص

واقعة أسوان

١٦ مايو سنة ١٧٩٩

انسحبت فلول حسن بك الجداوى بعد معركة بئر عنبر[١] جنوباً إلى ما وراء الشلال ولما آنست من الجنود الفرنسية ضعفاً اقتربت من أسوان مترقبة الفرصة لاحتلالها ومناوشة الحاميات الفرنسية على النيل ، وكان الضابط إبلر Eppler مرابطاً فى إسنا بكتيبة من خمسمائة جندى يراقب حركات حسن بك الجداوى ويمنع عودته من وراء الشلال ، على أن حسن بك تقدم برجاله واحتلوا أسوان وامتنعوا بها وتقدمت طلائعهم شمالا فوصلوا إلى (دراو) ، فسار إليهم الكابتن رينو Renaud من أدفو بكتيبة من الجنود ولكنه لم يدركهم

(١) انظر ص ٣٢٤

بدراو فتعقبهم إلى أن التقى بهم على بعد فرسخين إلى جنوبى أسوان ، فنشبت بين الفريقين يوم ١٦ مايو معركة شديدة جرح فيها حسن بك الجدواى جرحاً بالغاً وأصيب عثمان بك حسن وانتهت المعركة بهزيمة المماليك بعد أن فقدوا خمسين قتيلا وستين جريحاً وفاز الفرنسيون عليهم فوزاً عظيما وصفه نابليون فى مذكراته التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين بأنه «أجمل انتصار فى حملة مصر» ، ويقول نابليون إن الفرنسيين قد حاربوا فى هذه المعركة جمعاً مؤلفاً من ١٨٠ من المماليك و ٧٠٠ من العرب و ٣٠٠ من الأهالى ؛ ويقول الجنرال بليار فى رسالة عن هذه المعركة إن الفرنسيين خسروا فيها ثلاثة قتلى و ١٥ جريحاً

انسحبت فلول المماليك بعد هذه المعركة إلى ما وراء أسوان على مسيرة يومين ، مضعضعة القوى ، وهذه هى المرة الثالثة التى انسحب فيها المماليك إلى ما وراء الشلال منذ ابتداء الحملة على الوجه القبلى ، ولم يبق من رؤساء المماليك بعد هـذه الهزيمة سوى مراد بك وحـده بلا حول ولا قوة ، معتصما بالواحة الخارجة التى تبعد عن أسيوط ثلاثة أيام

احتلال القصير

٢٩ مايو سنة ١٧٩٩

اطمأن الفرنسيون بعد هذه المعركة على موقفهم الحربى فانتهز الجنرال بليار هـذه الفرصة لتجريد حملة على القصير بعد أن أعد لها المعدات الـكافية ، فسار من قنا يوم ٢٦ مايو ومعه الجنود والمدافع والجمال لنقل الجنود والمؤونة والذخائر فوصلت الحملة إلى القصير واحتلتها يوم ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩ (٢٤ ذى الحجة سنة ١٢١٣) واحتلت قلعتها بدون مقاومة(١)

غادر الجنرال بليار القصير يوم أول يونيه ، وترك بها الجنرال دنزلو Donzelot ومعـه قوة من الجنود فى عتادهم من المدفعية والذخائر وعاد هو إلى قنا

وقد طرب الفرنسيون لاحتلال ميناء القصير التى تعد مفتاح الوجه القبلى من طريق البحر الأحمر ، واعتبروا احتلالها ختام الحركات الحربية التى تم بهـا فتح الصعيد ، وكافأ

---

(١) كتب الجنرال بليار من القصير إلى الجنرال ديزيه رسالة بتاريخ ٣٠ مايو سـنة ١٧٩٩ عن احتلال القصير قال فيها : « إن القصير واقعة على البحر الأحمر وعلى طرف الصحراء ، وهى قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها من أربعمائة إلى خمسمائة نسمة ، وقد قابلنا بها مشايخ البلد وكان من بين سكانها من اشترك فى واقعة ابنود ففروا إلى الصحراء ، أما قلعة القصير فهى لا بأس بها وهى متسلطة على البلدة وبعيدة عن البحر بحيث لا تصل إليها مدافع البوارج الإنجليزية التى تستطيع أن ترسو تجاهها ، والقلعة محتاجة إلى ما يصلحها وقد تـكفل بذلك الجنرال دنزلو وسيبذل فى القصير غاية جهده لجعلها موقعا حصينا فى مأمن من الطوارئ »

نابليون كلا من الجنرال ديزيه والجنرال بليار والجنرال فريان على حسن بلائهم فى الحملة على الصعيد ، فأهدى الجنرال ديزيه سيفاً جميلا مكتوباً على صفحته « فتح مصر العليا » ، وأهدى الجنرال بليار سيفاً مكتوباً عليه : « معركة أبنود — فتح القصير » ، وأهدى الجنرال فريان سيفاً آخر .

وعزم ديزيه أن يجرد حملة من أسيوط على الواحة التى كان مراد بك مرابطاً بها ، لكن مراد بك غادرها مخترقا الصحراء شمالا عازماً على اللحاق بالمهدى فى البحيرة ، لما علم بانتصاراته الأولى[1] ، فعدل ديزيه عن تجريد حملة على الواحة واطمأن على سلطته فى الصعيد

الحالة النفسية للشعب

على أن هذه السلطة كانت على الدوام مهددة ، وكان الأهالى متحفزين للانتقاض على الحاميات الفرنسية كلما سنحت لهم الفرصة بحيث لم ترسخ دعائم السلطة الفرنسية فى تلك الأصقاع ، بالرغم من انتصارات ديزيه وجنوده ، وبالرغم من وسائل القسوة والإرهاب التى اتبعوها فى إخضاع البلاد

كتب نابليون إلى حكومة الديركتوار تقريراً عن الحملة على الوجه القبلى أرسله من القاهرة بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ عقب عودته من سوريا ، قال فيه :

« إن احتلال القصير والسويس والعريش قد أقفل طريق الوصول إلى مصر من جهة البحر الأحمر وسوريا إقفالا محكما ، كما أن تحصين الإسكندرية ورشيدودمياط يحبط كل هجوم من البحر الأبيض المتوسط ، ويضمن إلى ما شاء الله للجمهورية الفرنسية امتلاك مصر ، تلك البقعة الجميلة فى العالم التى ستكون للحضارة أكبر أثر فى إنهاضها وإحياء عظمتها القومية ، ولاغرو فهى أقدم بلاد عرفها التاريخ ، لقد انسحب مراد بك مع البقية الباقية من رجاله إلى الواحة ، وسنطرده من هناك ، وحسن بك الجداوى هو الآن على مسيرة ١٥ يوماً جنوبى الشلال ، وقد أخضعنا معظم القبائل ، وأخذنا منها الرهائن ، وبدأ الفلاحون يدركون الحقائق ، ولا يستمعون لتحريض أعدائنا . على أن القلاع العديدة التى أنشأناها ما بين مرحلة وأخرى كفيلة بإخضاعهم إذا تنكرت منهم النية أو ساءت مقاصدهم »

فنابليون يعترف فى تقريره بأن القوة المسلحة هى الأداة التى يعتمد عليها فى توطيد السلطة الفرنسية فى تلك الأصقاع ، وهذا ينطبق تماماً على رأى الجنرال ديزيه فى رسائله إلى نابليون وإلى الجنرال دوجا ، فقد كتب إلى نابليون يقول : « إننا دائماً محاطون بالأعداء ، وإن صعوبة

---

(١) انظر الفصل الثالث من الجزء الثانى

المواصلات المهددة غالباً بالانقطاع وبعد المسافات تمنعني من أن أكتب لك عن أخبارنا بمقدار ما أرغب ، إننا في حاجة إلى الجنود ، لأن فرقتي قد أنهكها التعب واجتاحتها الأمراض وبخاصة الرمد الذي انتشر بين الجنود انتشاراً فظيعاً ، وإن من الخطر أن نترك جهة واحدة في مصر العليا دون أن نحتلها بجنودنا ، وإننا لم نستطع أن نشتت أعداءنا إلا بمتاعب وحملات شاقة لا هوادة فيها ، والبلاد مع ذلك مستعدة للثورة إذا بدر منا ضعف أو تراجع ، وإني مضطر إلى إرهاق الجنود ، وجعلهم دائماً على سفر ، لأنهم الوسيلة التي نستطيع بها تحصيل الضرائب »

وكتب إلى الجنرال دوجا[1] يقول : « إن الحالة لم تتغير ، والبلاد من إسنا إلى أسيوط هي في الوقت الحاضر هادئة ، ولكني لم أبلغ هذا الهدوء إلا من وسائل القسوة ومتابعة الحملات المستمرة المنهكة للقوى ، وسأجوب البلاد من أسيوط إلى المنيا وأجمع ما انكسر من الضرائب ، وأنتزع الرهائن من جميع القرى كما فعلت في مديريتي أسيوط وجرجا ، ولا يدخلني الشك في أن هذه الطريقة والقوة المسلحة هما الدعامتان اللتان قامتا بالهدوء الحالي »

فالقوة المسلحة ، والقسوة ، والإرهاب، والفظائع ، هي الوسائل التي تذرع بها الفرنسيون لمكافحة قوات المقاومة في الصعيد ؛ وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات شتى لا عداد لها ، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال، وصار ديزيه يحارب حرباً لا نهاية لها ، في ميدان واسع مترامي الأطراف يمتد من الجيزة شمالا إلى أسوان جنوباً ، ومن القصير شرقا إلى واحات الصحراء الكبرى غربا ، دون أن يصل إلى إخضاع البلاد إخضاعا تاماً ، أو إقرار السلطة الفرنسية فيها

والآن وقد انتهينا من الكلام على المقاومة في الوجه القبلي ، فلننتقل إلى القاهرة والوجه البحري ، لنتبين الحوادث التي وقعت بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى[2] ، وموعدنا الجزء الثاني من الكتاب

---

(١) رسالة ديزيه إلى دوجا من أسيوط في ١٩ مايو سنة ١٧٩٩

(٢) عبرنا عنها بالأولى تمييزا لها عن ثورة القاهرة الثانية التي شبت في مارس سنة ١٨٠٠ والتي بسطنا الكلام عنها في الفصل التاسع من الجزء الثاني

الفصل الثامن عشر

وثائق تاريخيـــــة

وثيقة رقم ١

أعضـاء لجنة العلوم والفنون

الذين استصحبهم نابليون فى مصر

إحصاؤهم وبيان أسمائهم (انظر ص ٥٩)

(انظر ص ٥٩)

علمـاء الرياضيات

المسيو مونج Monge ، فوربيه Fourier ، كوستاز Costaz ، مالوس Malus ، ساى Say ، شاربو Charbaud ، مورى Moret ، كورانسز Corancez ، فوزو Fuzeau ، برنجيه Bringuet ، بوشار Bouchard

الفلك

نوى Nouet ، بوشان Beauchamp ، كينو Quesnot ، ميشـين الصغير Mechain fils

الميكانيكا والطيران

كونتى Conté ، كوتل Coutelle ، هاسنفرتز Hassenfratz ، لومون L'Homont ، أدنيس الـكبير Adnès père ، أدنيس الصغير Adnès fils ، سـيرو Sirop ، كوفرور Couvreur ، أيمى Aimé ، كولان Collin ، هيرو Hérault ، بلازانيه Plazanet

الكيمياء

برتوليه Berthollet ، ديكوتيل Descotils ، شـامبى الـكبير Champy père ، صامويل برنار Samuel Bernard ، بوتييـه Potier ، شامبى الصغير Champy fils ، رينو Regnault

طبقات الأرض والمعادن

دلوميو Dolomieu ، كوردييـــه Cordier ، روزيير Rozières ، فـكتور ديبوى Victor Dupuy

النباتات

نكتو Nectoux ، دليل Delile ، كوكبير Coquobert .

حياة الحيوان

جوفروا سان هيلير Geoffroy Saint Hilaire ، سافيني Savigny ، جيرار Gérard

الطب والجراحة

ديبوا Dubois ، بوكفيل Pouqueville ، لابات Labate ، لاسيبير Lacipière ، ديبوا الصغير Dubois fils ، بسيير Bessiéres دابيرون Daburon ، دويفر Dewèvre[1]

الصيدلة

روييه Royer ، بوديه Boudet ، روجان Roguin

الاقتصاد السياسى

بورين Bourienne ، دانجلى D'angely ، جلوتييه Gloutier ، تاليان Tallien ،

العاديات والآثار

بورليه Pourlier ، ريبول Ripault ، بانوزن Panuzen .

هندسة المعار

بروتان Protain ، نورى Norry ، بالزاك Balzac ، لوبير Le Père ، ديمولان Demoulin

التصوير

ريجو Rigo ، ردوتيه Redouté ، جولى Joly

الرسم

فيفان دينون Vivant Denon ، دوترتر Dutertre ، بورتال Portal ، كاكى Caquet بيرى Peré

هندسة الرى والقناطر والطرق

لوبير الكبير Le Père aine ، جيرار Girard ، (والاثنان كبيرا المهندسين) ، فاى

---

(١) لم يرد فى هذا البيان بعض الأطباء الذين ذكرهم الدكتور ديجنت كبير أطباء الحملة فى كتابه (التاريخ الطبي لجيش الشرق) وهم برويان Bruant ، سيريزول Ceresole ، باربيس Barbès ، رناتى Renati ، سافاريزى Savaresi ، فوتيه Vautier ، فرنك Frank ، سالز Salze ، بونيه Pugnet

Faye ، جالوا Jallois ، جراتيان لوبير Gratien Le Père ، سان جنيس Saint Genis ، لانـكرى Lancret ، فيفر Fèvre ، شابرول Chabrol ، رافينو دليل Raffeneau Delile أرنوليه Arnolet ، فافييه Favier ، ديبوا إيمى Dubois-Aymè ، دفيلييـه Devilliers ، مولين Moline ، مارتان Martin ، بودار Bodard ، ديفال Duval ، تيفينو Thevenot ،

الهندسة الجغرافية

تستفيود Testevuide (كبير المهندسين الجغرافيين) ، جاكوتان Jacotin ، سيمونل Simonel ، شوانى Schouani ، لاتويل Lathuille ، لفياد Lefeuillade ، برتر Bertre ، لسـين Lecesne ، بورجوا Bourgeois ، لدوك Le Duc ، دليون Dulion ، فورى Faurie ، ليفيـك L'Evèque ، لاروش Laroche ، جومار Jomard ، كورابوف Coraboeuf

الهندسة البحرية

بوشيه Boucher ، شومون Chaumont ، جرسليه Greslé ، فانسـان Vincent ، بونجان Bonjean

الهندسة الميكانيكية البحرية

سيسيل Cecile

هندسة الآلات الرياضية

لنوار الصغير Lenoir fils

صناعة الساعات

لومتر Lemaître

النقش

كاستى Casteix

الحفر

فوكيه Fouquet

الآداب

برسفال دجرانميزون Parseval De Grandmaison عضو الأكادمية الفرنسـية ،

أرنو Arnault عضو الأكاديمية الفرنسية [١] ، لروج Lerouge ، بنابن Bénaben

الموسيقى

فيلوتو Villoteau ، ريجيل Rigel

طلبة مدرسة الهندسة [٢]

كارستى Caristie ، دشانوا Duchanoy ، بوتيه Pottier ، جومار الصغير Jomard jeune ، فانسان Vincent ، فيار Viard ، اليبير Alibert

الترجمة

فانتور Venture ، ماجالون Magallon ، لوماكا L'Homaca ، أميدى جوبير Amedée Jaubert ، دلابورت De Laporte (والاثنان من تلاميذ مدرسة العلوم الشرقية بباريس) ، ريج Raige ، براسرفيش Bracervich ، بلتيت Belleteste

الطباعة العربية والفرنسية

مارسل Marcel مدير المطبعة ، بونتيس Puntis ، جالان Galland ، بودوان Bouduin بسون Besson من موظفى المطبعة [٣]

وقد اعتمدنا فى هذا البيان على إحصاء المسيو (ريبو) فى كتابه التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية بعد أن أضفنا إليه اسم (لومتر) فى صناعة الساعات ، فصار عدد الأعضاء ١٤٦ عضواً ، ولم يدخل فى هذا البيان بعض رجال العلوم ممن شغلوا مناصب فى جيش الحملة كالمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية ، والمسيو استيف مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية ، والدكتور ديجنت كبير أطباء الحملة ، والدكتور لارى كبير الجراحين ، وقد أوردنا ترجمة طائفة من هؤلاء الأعضاء بالفصل الرابع [٤]

وثم إحصاء آخر يزيد عن الإحصاء المتقدم ورد فى « يوميات » المسيو دفيلييه أحد مهندسى الحملة [٥] ، ذلك أنه أضاف إلى الأعضاء المتقدم ذكرهم نحو ثلاثين من القواد والضباط

---

(١) تخلف فى الطريق ولم يحضر إلى مصر

(٢) انتظم بعض طلبة مدرسة الهندسة فى سلك لجنة العلوم والفنون ونال بعضهم الأجازة النهائية للمدرسة وهم فى مصر بعد أن أدوا الامتحان أمام لجنة ألفها نابليون فى القاهرة لهذا الغرض من العلماء مونج ، وبرتوليه ، وفورييه

(٣) عدا نحو ١٨ عاملا من جامعى الحروف

(٤) ص ٩٤ وما بعدها

(٥) انظر ما كتبناه عنه ص ٩٨

الذين اشتركوا فى العمل مع أعضاء لجنة العلوم والفنون وكان بعضهم أعضاءً فى المجمع العلمى ، وبحسب إحصاء المسيو دفيلييه يبلغ عدد الأعضاء ١٧٥ عضواً وذلك عدا العمال الفنيين

وثيقة رقم ٢

شكر (الديوان) للمسيو (لوبير) كبير المهندسين على تعمير مقياس الروضة

(انظر ص ٥٩)

« من محفل الديوان العالى بمصر المحروسة »

« خطاباً إلى حضرة الستويان[(١)] الخواجا لوبر رئيس المهندسين وفقه الله تعالى إلى الخير آمين

« أما بعد الدعاء لكم بخير إنه بلغ الناس حسن صنيعكم وصواب تدبيركم وإتقان هندستكم فى تشييد وتعمير مقياس النيل السعيد الذى يعم نفعه ويشمل خيره فى القريب والبعيد ، فإن إقليم مصر أجلّ الأقاليم وأبهج الأراضى أجمعين ، وخيره وزروعه تعم سائر الأقطار وينتفع بها الآدميون والمواشى والطيور والوحوش فى القفار ، ومعين خيره وأساس نعمته هذا النيل المبارك الذى هو أفضل البحار والأنهار ، فهد هندستم وأتقنتم محل رحاله وأساس قياسه وبنيانه ، فكانت هذه مزية منكم وثمرة ونتيجة من نتائج أفكاركم الغزيرة فرحت بها الناس أجمعين ، وشكروا إحسان حضرة سر العسكر الكبير[(٢)] ، وعلموا كمال عقلكم بسبب ما أتقنتموه وأحكمتموه فى هذا المحل الشامل نفعه والمشهور فى سائر الأقطار ، شكر الله معروفكم والسلام ختام »

مسجل بالديوان	الفقير	الفقير
فى ٧ شعبان	محمد المهدى	عبد الله الشرقاوى
سنة ١٢١٥[(٣)]	كاتم سر الديوان	رئيس الديوان[(٤)]

(١) مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Citoyen ومعناها « مواطن » كما بينا ذلك بهامش ص ٧٦
(٢) الجنرال منو
(٣) يوافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠ وهذا التاريخ يقع فى عهد قيادة الجنرال منو
(٤) نقلنا هذا الخطاب بنصه العربى عن كتاب (تخطيط مصر) الجزء الخامس عشر

وثيقة رقم ٣

رسالة نابليون إلى أبى بكر باشا والى مصر قبل رسوم العمارة الفرنسية بالإسكندرية

(انظر ص ١٣٧)

« على ظهر البارجة (أوريان) فى ١٢ مسيدور من السنة السادسة (٣٠ يونيه سنة ١٧٩٨)

« إن حكومة الجمهورية الفرنسية قد طلبت غير مرة من الباب العالى عقاب بكوات مصر الذين كانوا يرهقون التجار الفرنسيين بمختلف أنواع الإيذاء والاعتداء ، وصرح الباب العالى بأن أولئك البكوات قد تمادوا فى أطماعهم وأهوائهم ، وتنكبوا سبيل العدالة والاستقامة ، وأنه لايقرهم على إساءة معاملة أصدقائه الفرنسيين الأوفياء ، ولا يراهم جديرين بعطفه وحمايته ، وعلى ذلك قد اعتزمت الجمهورية تجريد جيش جرّار للقضاء على مظالم البكوات المماليك ، كما اضطرت أن تجرد حملات فى خلال القرن الحالى على بكوات تونس والجزائر ، ويقينى أنك وأنت الذى يجب أن يكون حاكم البلاد ومع ذلك قد سلب منك البكوات كل حول ونفوذ وجعلوك فى القاهرة رهن إرادتهم لابد أن تقابل حضورى إلى هنا بالسرور والارتياح ولعله قد وصل الى علمك أنى ما حضرت بنيات عدائية نحو القرآن أو نحو السلطان وانك تعلم أن الأمة الفرنسية هى الحليفة الوحيدة للسلطان فى أوروبا ، فبادر إلى مقابلتى واشترك معى فى استنزال اللعنات على طائفة المماليك الممقوتة

بونابارت[1] »

وثيقة رقم ٤

رسالة نابليون إلى إدريس بك قومندان السفينة التركية فى الإسكندرية

(انظر ص ١٣٧)

« على ظهر البارجة (أوريان) فى ١٣ مسيدور من السنة السادسة (أول يوليه سنة ١٧٩٨)

« إن البكوات قد أرهقوا تجارنا بمختلف أنواع الإيذاء والتعدى ، وقد جئت لأطلب منهم حسابا عما فعلوا

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧١٩

« وسأكون غداً فى الإسكندرية ، ولا يساورك أى قلق من حضورى فإنك تابع لصديقنا الكبير السلطان ، فعليك أن تسلك الخطة التى تتفق مع هذه الصداقة ، أما إذا أتيت عملا عدائياً ضد الجيش الفرنسى فسأعاملك معاملة الأعداء أعداءهم ، وهنالك تقع التبعة عليك وحدك لأن ذلك أبعد ما يكون عن رغبتى وعواطفى بونابرت[1] »

وثيقة رقم ٥

منشور نابليون إلى الجنود

قبل رسو العمارة الفرنسية

(انظر ص ١٤٩)

« المعسكر العام على ظهر البارجة (أوريان) فى ٤ مسيدور من السنة السادسة (٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨)[2]

« أيها الجنود !

« إنكم ستخوضون غمار حملة لها آثار لاتحصى فى حضارة العالم وتجارته ، وستنالون من إنجلترا بضربة هى أشد مايصيبها فى الصميم إلى أن تتمكنوا من ضربها الضربة القاتلة

« سنجتاز فى هذه البلاد رحلات متعبة ، وسنخوض فيها معارك عدة ، على أن النصر سيكون حليفنا فى كل خطواتنا لأن العناية تلحظنا

« ولا تنقضى أيام معدودات على نزولنا إلى البر حتى نمحق المماليك الذين يناصرون التجارة الإنجليزية ويخصونها بالمساعدة ويرهقون تجارنا بمختلف الإتاوات والإهانات ويسومون سكان وادى النيل الظلم والاضطهاد

« إن الشعب الذى سنتصل به يدين بدين الإسلام وأول أركانه شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلا تعارضوهم فى دينهم وعاملوهم كما عاملتم اليهود وكما عاملتم الإيطاليين ، واحترموا مشايخهم ومفتيهم وأئمتهم كما احترمتم الربانيين والأحبار والقساوسة ، وليكن شعاركم فى معاملة المساجد والشعائر الدينية التى يأمر بها القرآن ذلك التسامح الذى كان رائدكم حيال الكنائس والصوامع والبيع والتعاليم الموسوية والمسيحية ، فإن الجيوش الرومانية كانت تحمى الأديان كلها على السواء

« وستجدون هنا عادات تختلف عن عادات أوروبا ، فعليكم أن تألفوها ، وإن الشعب

---

(١) مراسلات بونابارت الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٢١ .

(٢) أذيع على الجنود يوم ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨

الذى سنقيم بينه يعامل النساء على غير عاداتنا ، ولـكن الاعتداء على أعراض النساء فى كل بلد جريمة لايقدم عليها إلا الوحوش

« واعلموا أن النهب لايعود بالنفع إلا على طائفة قليلة من الناس ولـكنه يدنس شرفنا ويقضي على مواردنا ويجلب علينا كراهية الشعوب التى تقضى مصلحتنا بأن نـكسب ودها

« وإن أول بلدة ننزل بها قد بناها الإسكندر ، وسنجد عند كل خطوة نخطوها بهـا آثاراً مجيدة جديرة بأن تثير إعجاب الفرنسيين وغيرهم بونابارت[1] »

وثيقة رقم ٦
خطبة نابليون بالأزبكية
فى الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية
يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(انظر ص ٢١٠)

« أيها الجنود

« نحتفل اليوم بمستهل السنة السابعة للجمهورية

« منذ خمس سنوات خلت كان استقلال الشعب الفرنسي مهدداً ، ولـكنكم جاهدتم فاحتللتم (طولون) ، فـكان هذا الاحتلال فاتحة انهيار صرح الأعداء

« ولم ينقض عام حتى هزمتم النمسويين فى (ديجو)

« وفى السنة الثالثة رفعتم علم النصر فوق قمم جبال الألب

« ومنذ عامين كنتم تهاجمون (مانتو) وحزتم ذلك النصر الباهر فى (سان جورج)

« وفى العام المـاضى بلغتم منابع نهرى (الدراف) و (الايسونزو) بعد أن انتصرتم فى ألمانيا ، فمن كان يظن يومئذ أنـكم ستكونون اليوم على ضفاف النيل فى بطن القارة القـديمة

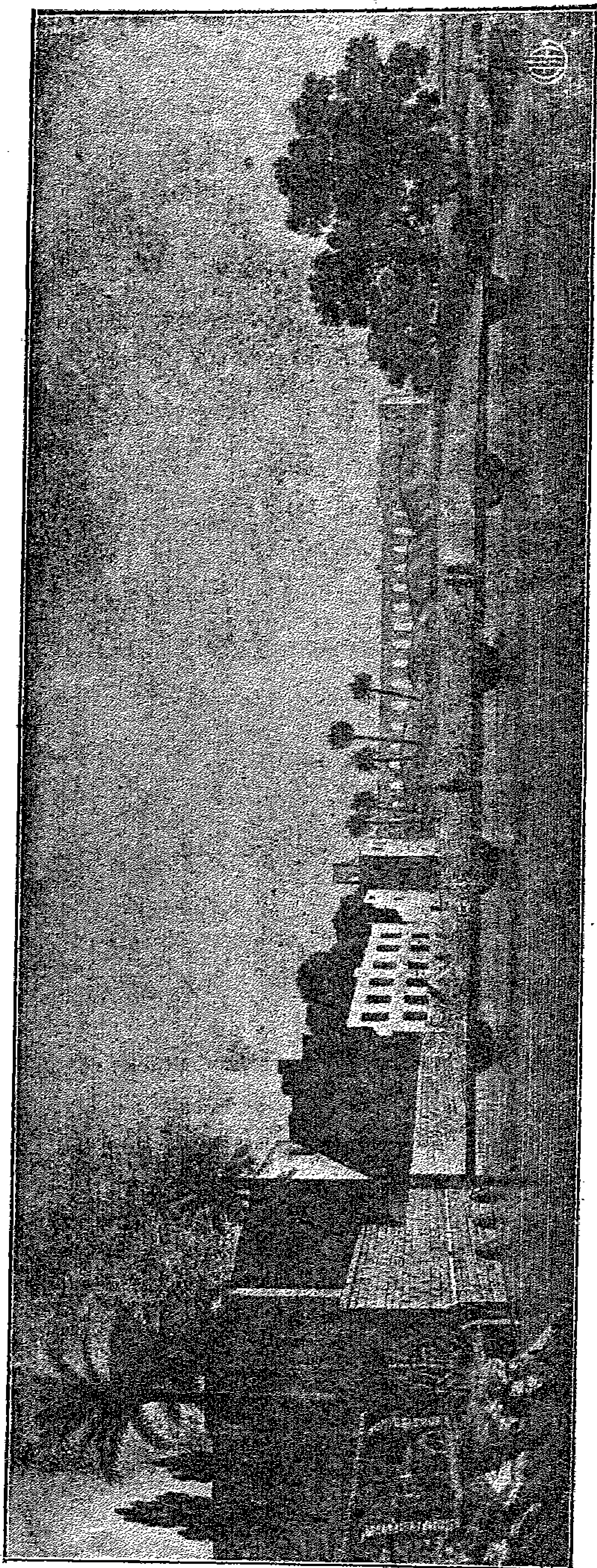
« إن الشعوب شاخصة إليـكم ترمقكم بأبصارها على اختلاف أجناسها ، يستوى فى ذلك الإنجليزى الذى ثقفته التجارة والفنون والبدوى الذى يعيش عيشة الغلظة والوحشية

« أيها الجنود

« إن مستقبلـكم مجيد لأنكم جديرون بما قمتم به من جلائل الأعمال وبما حزتم من الثناء ، ولئن كتب عليـكم الموت فستنالون موتاً شريفاً كدأب أولئك الأبطال الذين نقشت

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧١٠



جسر المراكب (الكوبرى) الذى أنشأه الفرنسيون بين القصر العينى والروضة (انظر ص ١١٣)

أسماؤهم على هذا الهرم ، وإذا عدتم إلى الوطن فإنكم ستعودون مكللين بتاج الفخار حائزين إعجاب الشعوب جميعاً

« مضى علينا ستة أشهر منذ برحنا القارة الأوروبية ومن يومئذ ونحن مغمورون على الدوام بسيل لا ينقطع من عواطف مواطنينا الذين ترمقنا أبصارهم فى كل آن ، فاليوم يشاركم فى هذا الاحتفال أربعون مليوناً من المواطنين يحتفلون بإقامة الحكم الدستورى ويتجهون إليكم بأفكارهم وعواطفهم ، ويذكرون فى احتفالهم أنهم مدينون لجهادكم ودمائكم بما يتمتعون به من السلام والطمأنينة ، والرخاء ، والحرية الوطنية

بونابارت[1] »

وثيقة رقم ٧

واقعة المنصورة

(انظر ص ٢٦٢)

ننشر هنا نص الأمر الذى أصدره نابليون بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ بفرض الغرامات على بعض البلاد وبخاصة المنصورة وأهلها

أمر

المعسكر العام بالقاهرة فى ١٤ فركتيدور من السنة السادسة (٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨)

بونابارت القائد العام يأمر بما هو آت :

المادة الأولى — توقف الغرامات التى ضربت على بلاد مديرية المنصورة

المادة الثانية — تدفع مدينة المنصورة غرامة قدرها ثلاثة آلاف ريال تفرض على الأغنياء من أهلها عقاباً لهم على سوء صنيعهم نحو جنودنا

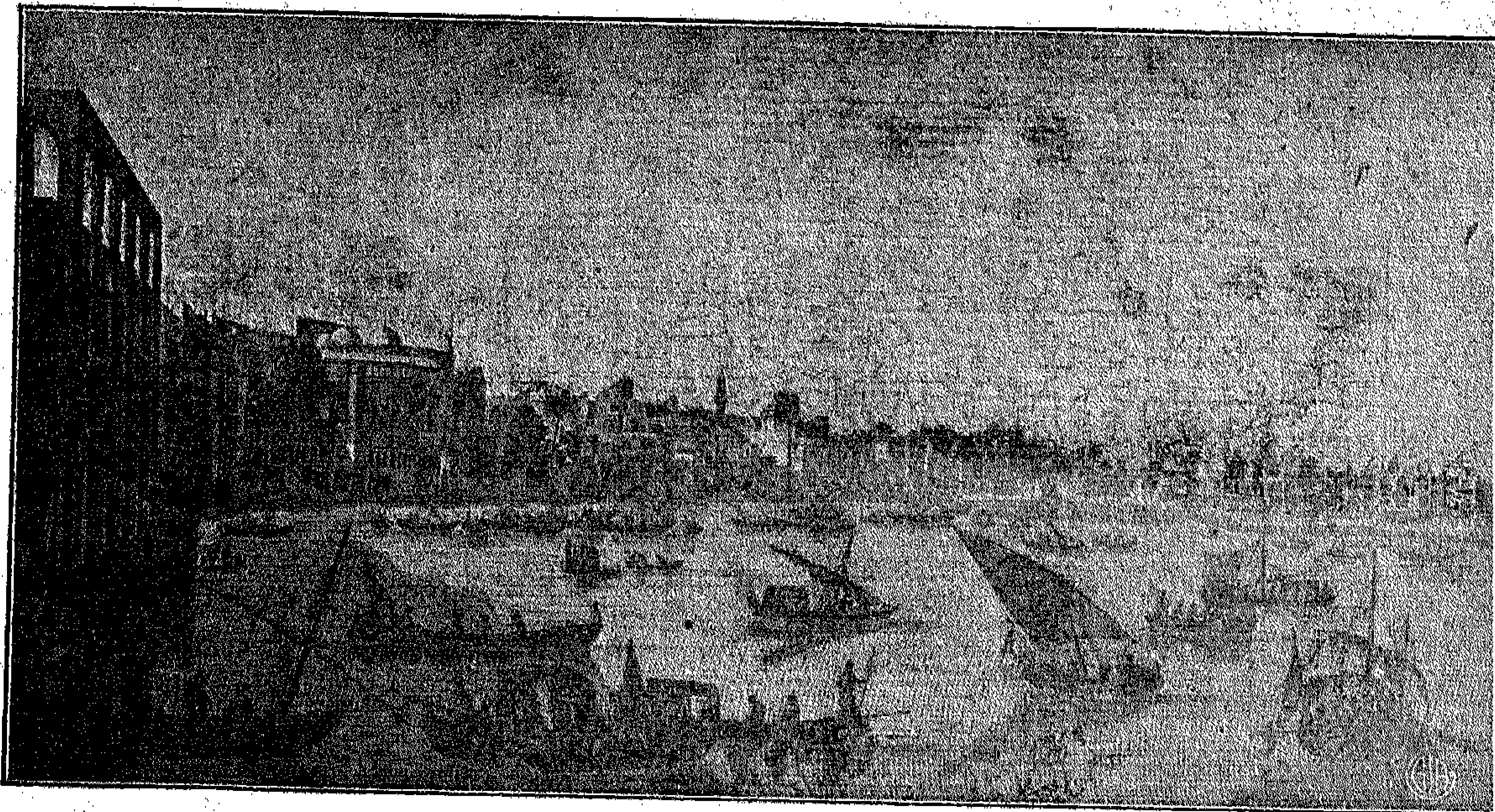
المادة الثالثة — يدفع السيد على الشناوى أحد أهالى المنصورة غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال ، وفى مقابل ذلك يُعطَى أماناً على نفسه وعلى أملاكه وأمواله

المادة الرابعة — تفرض غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال على أسوأ البلاد سلوكا فى مديرية المنصورة

المادة الخامسة — تفرض غرامة ٤٠٠٠ ريال بشكل سلفة على أغنياء التجار والأعيان فى المحلة الكبرى

المادة السادسة — تدفع هذه المبالغ إلى أمين خزانة فرقة الجنرال دوجا وتكون تحت

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٦٥



ميدان الأزبكية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت مياه النيل تغمره فى أيام الفيضان فيصير لجة يتنزه فيها الناس بالزوارق فى النهار والليل (انظر ص ٤٤)

تصرف مدير مهمات الجيش ، وعليه أن يخصصها لبناء أفران الجيش وإدارتها واستئجار المراكب والنفقات المطلوبة للفرقة

المادة السابعة — على كبير المباشرين تنفيذ هذا الأمر بونابارت[1]

هذا وقد بحثنا عن اسم (السيد على الشناوى) الوارد فى أمر نابليون وعن أسرته ، فتحققنا بعد الاطلاع على مستندات ووثائق خطية وحجج قديمة أنه الجد الثانى لعلى أفندى حسن الشناوى أحد أعيان المنصورة الحاليين ، وقد أطلعنا حضرته على (فرمان أمان) صادر لجده المذكور فى أوائل عهد محمد على باشا ومهور بختم محمد على (والى مصر) ومؤرخ ١٧ صفر سنة ١٢٢١ هجرية ، وهذا التاريخ يوافق ٧ مايوسنة ١٨٠٦ ، أى أن السيد على الشناوى المذكور نال (عهد الأمان) من نابليون ثم من محمد على ، والمدة بين العهدين لا تتجاوز ثمانى سنوات ، وقد آثرنا أن ننقل هنا عهد الأمان الصادر له من محمد على لأنه من مقارنة تاريخ الوثيقتين يتبين أنه هو المقصود بأمر نابليون المؤرخ سنة ١٧٩٨ ، وإليك نصه بألفاظه وعباراته القديمة المألوفة فى ذلك العصر :

« إعلاماً بها بالأمان الكافى إلى السيد على الشناوى بالمنصورة تحيطون علماً أننا قد عفونا عنكم وأعطيناكم الأمان الكافى ، أمان الله تعالى وأمان رسوله الكريم ثم أماننا السعيد ، ولم تخش من شىء جملة كافية ، وتكون مشغول بأسبابك وأحوالك ولم لك من طرفنا ومن طرف خلافنا إلا كل الحماية والصيانة ولم أحد يتعرض لك ولا يعارضك ، وتكون مطمئن القلب والخاطر ، اعلم واعتمده غايت الاعتماد

١٧ ص سنة ٢٢١ . محمد على والى مصر (ختم) »

واطلعنا على حجج أوقاف قديمة ترجع إلى عهد يقرب من تاريخ أمر نابليون ورد فيها اسم السيد على الشناوى المذكور موصوفاً « بفخر الأشراف المعظمين السيد الحاج على الشناوى من أعيان التجار بالمنصورة »

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠١

الفصل التاسع عشر

مراجع البحث

وصلنا إلى فصل من أهم فصول الكتاب ، وهو بيان مراجع البحث ، ونقصد منها المصادر الأصلية التى رجعنا إليها ، ونريد بالمصادر الأصلية الكتب والرسائل التى وضعها شهود العيان المعاصرون للحوادث التى أثبتناها ، وكذلك الوثائق التاريخية الخاصة بهذه الحوادث ، وسنذكر هذه المصادر مرتبة بحسب ترتيب الحوادث والفصول فى الجزءين الأول والثانى من الكتاب ، لأن هذين الجزءين يؤلفان حلقة واحدة ولها مصادر واحدة

عن نظام الحكم فى عهد المماليك

— تاريخ ابن إياس المعروف « ببدائع الزهور ووقائع الدهور » الجزء الثالث ، وابن إياس قد شهد الفتح العثمانى والسنوات الأولى من حكم الأتراك

— « الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة » لمحمد بن أبى سرور البكرى الصديقى ، ويحتوى أخبار ولاة مصر فى عهد الحكم العثمانى إلى سنة ١٠٥٤ هجرية ومن وليها من قضاة العسكر ، وقد أدرك المؤلف القرن السابع عشر وشهد الحكم التركى وكتب عنه لغاية سنة ١٠٥٥ هجرية (١٦٤٥ ميلادية)

— « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » له ، ويحتوى تاريخ مصر مع فذلكة من تاريخ الخليقة ، ونبذة من تاريخ الفرس والروم والخلفاء فالدول التى تعاقبت فى مصر إلى انتهاء الدولة الجركسية

— « المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية » له ، فى تاريخ سلاطين آل عثمان إلى غاية سنة ١٠٢٩ هجرية

رحلات الإفرنج

كذلك رجعنا إلى رحلات الإفرنج فى عهد الحكم العثمانى وما كتبوه فى وصف مصر ، ومعظمهم قد تكلم عما شهده من نظام الحكم فيها ، وإليك أهم الرحلات التى رجعنا إليها وبيان تواريخها :

— رحلة بيير بيلون Pierre Belon وهو طبيب فرنسى ، ساح فى مصر والشرق من سنة ١٥٤٦ إلى ١٥٤٩ ، وهى أول رحلة بعد الفتح العثمانى ، طبعت سنة ١٥٥٣

Singuilarité et choses mémorables trouvée en Grece, Asie, Judée, Egypte Arabie et autres pays etranagérs

— رحلة سيزار لامبرت César Lambert وهو تاجر فرنسى ، هبط إلى مصر سنة ١٦٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ١٦٣٢ ، وقد وصف فى رحلتـه ما شهده فى الإسكندرية والقـاهرة وبعض البلاد الأخرى ، وتكلم عن تجارة مصر ومالية الحكومة المصرية

— رحلة جاك ألبرت Jacques Albert سنة ١٦٣٤ ، نشرت فى كتابه (حالة مصر والحكومات التابعة لها)

'Etat de L'Egypte et des Gouvernements qui en dependent

— رحلة سانتوسيجوزى Sant Seguezzi سنة ١٦٣٥ ، وهو سائح إيطالى كتب عن (حالة مصر المالية وإراداتها) Etat des revenus De L'Egypte

رحلة تيفنو Thevenot فى الشرق

Relation d'un voyage fait au Levantin. Thevenot

تتضمن مشاهداته فى الأستانة وبعض بلاد السلطنة العثمانية والديار المصرية ، وكانت زيارته لمصر سنة ١٦٥٧ ، ورحلته من أهم الرحلات وأدقها

— رحلة بروتى وشارل فرانسوا دورليان Protaiset Charles-François d'Orléans فى الصعيد سنة ١٦٦٨

— رحلة نيبور Niebhur وهو رحالة دانمركى جاء مصر سـنة ١٦٧١ — ١٦٧٢ بأمر ملك الدانمرك ، وطبعت رحلته بعنوان — رحلة فى بلاد العرب وبعض البلاد المجاورة

— رحلة فانسليب Vanslep وهو سائح ألمانى المولد فرنسى التبعة زار مصر مرتين أهمهما سنة ١٦٧٢ — ١٦٧٣ Nouvelle relation d'un voyage fait en Egypte

— وصف مصر للمسيو دى ماييه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر ، وهذا الكتاب ليس برحلة ، وإنما هو مجموع رسائل كتبها المسيو دى مايبه فى وصف مصر حينما كان قنصلا لفرنسا بها سنة ١٦٩٢ ، وبقى متوليا هذا المنصب ست عشرة سنة ، تعلم فى خلالها العربية ، ودرس أحوال البلاد ، واتصل بعلمائها وأعيانها ، وكتب رسائل عنها نشرها القس لوما سكرييه Le Mascrier طبعت سنة ١٧٣٥

— رحلات المسيو بول لوكاس Paul Lucas وهو رحالة فرنسى زار مصر ثلاث مرات وله فيهـا ثلاث رحلات وله خريطة دقيقة عن مصر رسمها سنة ١٧١٧ ، واثنتان من هذه الرحلات بأمر الملك لويس الرابع عشر

— رحلة السائح الفرنسى جرانجيه Granger فى مصر سنة ١٧٣٠

Relation d'un Voyage fait en Egypte

— رسائل الأب سيكار Père Sicard الجزء الثانى ، وهو قسيس أقام بمصر عدة سنين عضواً فى إحـدى البعثات الدينية ومات بها سـنة ١٧٢٦ ، وله خريطة عن مصر رسمها بالقاهرة سنة ١٧٢٢

— رحلة نوردن Norden فى مصر والنوبة Voyage d'Egypte et de Nubie وهو قبطان فى البحرية الدانماركية ، ساح فى مصر من سنة ١٧٣٧ — ١٧٣٨ بأمر ملك الدانمرك ، وكتب عنها ثلاثة أجزاء ، وتعد رحلته من أهم الرحلات وأدقها وأوفاها ، ولهـا مصور ملحق بها فيه رسوم مدينة الإسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباى وقلعة (أبو قير) ورشيد والبحيرة ومصر القديمة وغيرها من مواقع مصر المهمة

— رحلة ريشار بوكوك Richard Pococke وهو رحالة إنجليزى جاء مصر سنة ١٧٣٧ أثناء سياحة نوردن

— الجزء الرابع من (مذكرات البارون دى توت عن الترك والتتار)

Mémoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares

وقد زار مصر موفداً من قبل الحـكومة الفرنسية لدرس أحوالها ، ووصفها فى الجزء الرابع من كتابه المذكور ، وفى هذا الجزء بيان رحلته إلى مصر فى أوائل عهد مراد بك وإبراهيم بك

— رحلة المسيو سونينى Sonnini سنة ١٧٧٧ وهو مهندس بالبحرية الفرنسية جاء مصر بأمر حكومة الملك لويس السادس عشر، وطبعت رحلته بعنوان (رحلة فى مصر العليا والوجه البحرى) Voyage dans la Haute et Basse Egypte

— رحلة المسيو سافارى المطبوعة باسم (رسائل عن مصر) Letters sur L'Egypte par Savary فى ثلاثة أجزاء وهو سائح فرنسى زار مصر سنة ١٧٧٧ وقضى بها ثلاث سنوات

— رحلة فولنى الـكاتب الفرنسى الشهير ساح فى مصر وسوريا سنوات ١٧٨٣ و١٧٨٤ و ١٧٨٥ فى جزئين Voyage en Syrie et en Egypte par Volny

— كتاب تخطيط مصر — شهد علماء الحملة الفرنسية نظم الحكم فى عهـد المماليك

وأدركوا بعضها وهو قائم ، وبعضها فى دور الاحتضار ، وأمكنهم أن يحققوا هذه النظم بما درسوه من وثائقها ، وما تلقوه من أفواه الذين عرفوها ومارسوها ، ودونوا نتائج تحقيقهم ومباحثهم فى كتاب تخطيط مصر (وسنعود إلى الكلام عليه فيما يلى) ، وإليك مواضع هذه المباحث من أجزاء الكتاب المذكور :

١ — نظام الضرائب العقارية فى أواخر عهد حكومة المماليك ، للمسيو لانكرى Lancret أحد مهندسى الحملة (الجزء الحادى عشر)

٢ — خلاصة تاريخ المماليك فى مصر من عهد ظهورهم إلى الحملة الفرنسية ، للمسيو دلابورت Delaporte أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون (الجزء الخامس عشر)

٣ — مالية مصر من عهد السلطان سليم إلى الحملة الفرنسية ، للمسيو استيف Estève مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية فى عهد الحملة الفرنسية (الجزء الثانى عشر)

٤ — عادات سكان مصر الحاليين للمسيو شابرول Chabrol ، وفيه بحث عن نظام الحكومة (الجزء الثانى عشر)

— تاريخ مصر من الفتح العربى إلى الحملة الفرنسية، للمسيو مارسل أحد علماء الحملة الفرنسية

عهد الحملة الفرنسية

أول مرجع اعتمدنا عليه هو كتاب الجبرتى مؤرخ مصر فى ذلك العهد ، وهو الكتاب الفذّ المسمى : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » فى أربعة أجزاء ، ولا يسعنا إلا أن نفرد للجبرتى وكتابه كلمة تنى بأهمية هذا الكتاب

الجبرتى وتاريخه

هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بن الشيخ حسن الجبرتى ، وكلاهما من نوابغ علماء الأزهر ، والشيخ حسن الجبرتى والد المترجم ، كان عالماً بالعلوم الرياضية وما إليها ، فوق تبحره فى علوم الأزهر ، وكانت إليه الرحلة من الأقطار البعيدة فى علم الفلك والعلوم الرياضية ، وقد كان لهذه العلوم أثر كبير فى تثقيف عقل الجبرتى ، ولولاها لما وفق إلى تأليف كتابه العظيم ، لأن دراسة التاريخ وتدوين الحوادث من الأمور التى لم تكن مألوفة فى ذلك العصر ، ولا يتجه إليها إلا عقلٌ راصد ، قد ألف أن يرصد ويدوّن

والجبرتى من أسرة يرجع أصلها إلى (جبرت) من بلاد زيلع بأراضى الحبشة ، ارتحل جده السابع « الشيخ عبد الرحمن » إلى مصر أوائل القرن العاشر للهجرة ، وجاور بالأزهر ،

وتولى مشيخة رواق الجبرتية ، واستوطنت أسرة الجبرتى مصر من ذلك العهد ، واشتهرت بخدمة العلم ، فكان أبوه وأجداده من العلماء ، وتتابعوا على مشيخة رواق الجبرتية نحو ثلاثة قرون

ولد الجبرتى سنة ١١٦٨ هجرية (١٧٥٦ ميلادية) ، وهذا التاريخ مستفاد مما ذكره هو فى ترجمة أبيه ، فقد روى أنه كان لأبيه زوجة صالحة توفيت سنة ١١٨٢ هجرية ، وأنه كان فى وقت وفاتها ابن أربع عشرة سنة ، وعلى ذلك يكون مولده سنة ١١٦٨

وقد أخذ العلم عن أبيه وعن غيره من علماء عصره ، وحضر دروس السيد مرتضى الزبيدى العالم اللغوى المشهور صاحب تاج العروس فى شرح القاموس ، وكان الجبرتى على فطنة وذكاء وواعية ، كما يدل على ذلك تاريخه ، ويقول هو إنه وعى الحوادث فى سن التمييز ، وأخذ يدون كتابه وهو فى سن الأربعين ، وقد أدرك أواخر القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل الثالث عشر (النصف الثانى من القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادى) ، وهو العصر الذى روى وقائعه رواية معاينة ونظر ، وإلى ذلك يشير بقوله فى فاتحة كتابه : « إنى كنت سوّدت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيه بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها »

وقد مهد لذلك بنظرة عامة إجمالية فى تاريخ مصر ، بعد ضعف الخلافة العباسية ، وانفراد الحكام والولاة بنواحى المملكة (بعد قتل المتوكل) ؛ وألم إلى عهد الطولونيين ، فالاخشيديين فالفاطميين فالأيوبيين ، فالمماليك البحرية فالمماليك الشراكسة ويسميهم ملوك الشراكسة

وبدأ بذكر حوادث مصر من ابتداء القرن الثانى عشر الهجرى (حوالى ١٦٨٩ ميلادية). ولما كانت الحوادث التى وقعت فى النصف الأول من القرن الثانى عشر لم يدركها بنفسه فقد رجع فيها إلى رواية من أدركهم ممن عاصروا تلك الحوادث ، وفى ذلك يقول : « واستطردتُ فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، من العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم »

وقد جمع مادوّنه من الحوادث مرتبة على السنين والشهور والأيام ، وإلى ذلك يشير بقوله : «فأحببت جمع شملها وتقييد شواردها فى أوراق متسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام ، ليسهل على الطالب النبيه المراجعة ، ويستفيد ما يرومه من المنفعة ، ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية ، فيتأسى إذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر إنما يتذكر أولو الألباب ، فإنها حوادث غريبة فى بابها ، متنوعة فى عجائبها ، وسميته (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) »

والحق أن الجبرتى عانى كثيراً فى جمع الحوادث ، وبخاصة التى وقعت من أوائل القرن الثانى عشر إلى الزمن الذى وعى فيه الحوادث ، لقلة المراجع ، ولم يجد كما يقول لتاريخ هذه المدة الطويلة سوى كتاب واحد لأحمد بن جلبى بن عبد الغنى ؛ يبتدئ من تاريخ الفتح العثمانى إلى سنة ١١٥٠ هجرية (١٧٣٧ ميلادية) ، ومع ذلك لم يستطع الرجوع إليه لضياع هذا الكتاب ، فاضطر أن يرجع إلى النقل من أفواه الشيوخ المتقدمين فى السن ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما نقش على أحجار مقابر المتوفين من أول القرن الثانى عشر إلى سنة ١١٧٠ (أى من سنة ١٦٨٩ إلى سنة ١٧٥٦ ميلادية) ، وأما الحوادث التى وقعت من سنة ١١٧١ (١٧٥٧ ميلادية) إلى سنة ١١٩٠ (١٧٧٦ ميلادية) فقد شهدها الجبرتى ، ودوّن وقائعها بعد حدوثها بعدة سنين ، وفى كل ذلك يقول : « فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما انتقش على أحجار ترب المقبورين ، وذلك من أول القرن (الثانى عشر) إلى السبعين ، وما بعدها (أى بعد سنة ١١٧٠) إلى التسعين أمور شدهدناها ، ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا أمور تعلقناها ، وقيدناها وسطرناها » ، وكذلك شهد الحوادث التى وقعت من سنة ١١٩١ إلى سنة ١٢٣٦ هجرية (١٧٧٧ — ١٨٢١ ميلادية) ودوّنها فى كتابه

فالجبرتى إذن شاهد عيان للحوادث التى وقعت بمصر من سنة ١٧٥٧ ميلادية إلى سنة ١٨٢١ ، وهى السنة التى ختم بها فى كتابه ، أما الحوادث التى سبقت هذه المدة فقد اعتمد فيها على النقل من كبار السن والرجوع إلى الوثائق المخطوطة

وتاريخ الجبرتى هو التاريخ الوحيد الذى يعول عليه لمعرفة أخبار مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولا يوجد مؤرخ غير الجبرتى كتب عن هذه الحوادث بمثل إسهابه وتحقيقه ؛ أما رجال الحملة الفرنسية وعلماؤها فقد دونوا ما شهدوه من الحوادث ، لكن مشاهداتهم واقعة على فترة وجيزة من الزمن لا تتجاوز فى الأرجح سنة واحدة (وهى السنة التى قضاها نابليون فى مصر) ، أو ثلاث سنوات على الأكثر ، ومع ذلك فكتابتهم فى الغالب مقتضبة ، يرى القارئ عليها مسحة العجلة ، بخلاف الجبرتى فإن كتابته تدل على الاستقراء والتمحيص ، وقلما يوجد كتاب فرنسى فى تاريخ الحملة الفرنسية لم يرجع إلى الجبرتى ولم ينقل عنه ، فهو مرجع متفق على أهميته إجماعا ، وكتابه يسمى فى معظم الكتب الفرنسية « يوميات عبد الرحمن »

وفضيلة الرجل فى تدوينه للحوادث أنه كان يتحرى الدقة والصدق ويتوخى الحق ، ولم

يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لأى إنسان مهما عظم نفوذه ، وإنك لتستطيع أن تتحقق نزاهة الجبرتى من مطالعة كتابه وإمعان النظر فيه ، وبخاصة فى تراجمه ، فإنك تراه يورد الحقائق غير غير متأثر بجاه من يكتب عنهم ، ذاكراً لكل منهم ماله وما عليه ، وقد صدق فى قوله عن كتابه : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى ، أو غرض جسمانى »

ويعد الجبرتى من كبار علماء الأزهر النابهين ، لذلك اختاره الجنرال (منو) لعضوية الديوان ضمن الأعضاء التسعة الذين عينهم فى أواخر عهد الحملة الفرنسية ، كما بسطنا ذلك مفصلا فى الجزء الثانى ، وقد ورد اسمه صراحة ضمن هؤلاء الأعضاء التسعة فى الوثائق الرسمية للحملة ، وذكر الجبرتى اسمه فى كتابه محوطاً بالإبهام ضمن هؤلاء التسعة ، لأنه عبر عن نفسه بقوله (وكاتبه) ، ومن هنا جاء الإبهام ؛ ذلك أن عبارة (وكاتبه) ، وردت محشورة ضمن أسماء أعضاء الديوان وجاءت بعد اسم الصاوى ، مما يدعو إلى الظن بأن المقصود كاتب الصاوى ، ولولا أننا رأينا اسم الجبرتى فى الوثائق الفرنسية للحملة لفاتنا أنه هو المقصود بكلمة (كاتبه) ، ولا ندرى هل اكتفى الجبرتى بالإشارة إلى نفسه بقوله (وكاتبه) تواضعاً أم إبهاماً ، ولو أراد الإيضاح لقال (وكاتب هذه السطور) ؛ وقد رأينا توقيعه ضمن أسماء أعضاء الديوان فى عهد (منو) بذيل رسالة ودية بعثوا بها إلى نابليون حينما كان قنصلا أول ونشرتها جريدة (الكوربيه دليجبت) فى العدد ٩١ الصادر فى ١٥ فريمير من السنة التاسعة (ديسمبر سنة ١٨٠٠) ، ولم نر لهذه الرسالة أثراً فى كتاب الجبرتى ، والمعروف أن الفرنسيين كانوا يختارون لعضوية الديوان أشهر العلماء وأنبههم فى مصر ليجعلوا له شيئاً من المكانة ، ولم تمنع الجبرتى عضويته للديوان أن يكتب باستقلال ونزاهة عن الفرنسيين وحكمهم ، ولو علموا أنه يقيد الحوادث والفظائع التى ارتكبها عمالهم ويدونها فى مسودات كتابه ، وأن هذا الكتاب سيكون أعظم مرجع فى وقائع الحملة الفرنسية ، لما فاتهم مصادرة هذه المسودات وإعدامها ، وظاهر من أسلوبه فى الكتاب أنه كان يكتب حسبما يملى عليه اعتقاده ، ولم يفته أن يذكر للفرنسيين ما فعلوه من خير ، فقد مدح اعتدالهم وعدالتهم فى محاكمة قتلة كليبر ، وذكر الإصلاحات التى أحدثوها فى مصر ، وعدد مساوئ الحكم التركى كما ذكر مساوئ الحكم الفرنسى ، ولم يفته شىء من سيئات حكم الأتراك ، ويكفيك فى بيانها ما ذكره عن مظالمهم بقوله إنها جعلت المصريين وخصوصاً الفلاحين يتمنون أحكام الفرنسيين

على أن من يتأمل فى كتاب الجبرتى لا يفوته ملاحظة أنه مع عدم تحيزه فى ذكر الحوادث

يميل بعض الميل إلى الأمراء المماليك ، وهذه الميول تبدو من خلال بعض أقواله بالرغم من أنه يحاول كتمانها ، ولعل هذه الميول البريئة ناشئة عن أنه كان على صلات من الود مع بعض البكوات المماليك ، وكان هو موضع احترامهم وإجلالهم ، وكان يسميهم « الأمراء المصريين » ؛ وقد أدرك مذبحة المماليك فى القلعة سنة ١٨١١ ، وكان له بين القتلى أصدقاء اتصل بهم بروابط الود ، فكان لهذه المذبحة أثر أليم فى نفسه ؛ وكان من جهة أخرى صديقاً لمحمد بك الألفى أحد زعماء المماليك ومعجباً به ، وترى دلائل إعجابه فى ترجمته له ، ومحمد بك الألفى هو خصم محمد على الألد ، فكل هذه الاعتبارات كان لها أثرها فى حكم الجبرتى على أوائل عصر محمد على باشا ، على أن حكمه هذا لا يمكن أن يؤخذ حجة فى مجموعه ، لأن من شروط صحة الحكم على عصر من العصور أن يتناوله المؤرخ بأكمله ، والجبرتى لم يدرك إلا أوائل حكم محمد على

ورغم تلك الملاحظة فإنه لا يسع من يدرس كتاب الجبرتى إلا الاعتقاد بنزاهته وبعده عن الهوى ، وتحريه الصدق فيما دوّنه ، وهذه الفضيلة هى أعظم مميزات الجبرتى ، وميزته الثانية هى كفايته فى تدوين الحوادث وما بذله من الجهد والصبر فى البحث والاستقراء

وللجبرتى الفضل الأكبر فى تدوين تاريخ مصر وحوادثها وتراجم رجالها فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولولاه لغابت عنا حوادث مصر فى تلك الحقبة الطويلة من الزمن ، ولصرنا منها فى ظلمة وحَيرة

وليس كتابه مرجعاً للحوادث التاريخية وحسب ، بل تجد فى خلال عباراته ومشاهداته صورة حية لحالة مصر الاجتماعية فى ذلك العصر ، ولولاه لكان مرجعنا فى ذلك أقوال الإفرنج الذين ساحوا فى مصر فى فترات مختلفة ، وهؤلاء لا يمكن التعويل على أقوالهم لأنهم لم يدرسوا الوسط الذى كتبوا عنه ، وأغلب كتاباتهم مبنية على المشاهدات الفجّة والآراء السطحية ، والروايات التى يلتقطونها من أفواه التراجمة ، ولذلك نرى كتبهم مملوءة بالأغلاط والسخافات ، ولا يصح أن يقام لها وزن بجانب كتاب الجبرتى الذى نشأ وقضى حياته فى مصر ، ودرس أحوالها وعرف دقائق الأمور فى حوادثها السياسية وأحوالها الاجتماعية ، وحسبك أنه شاهد عيان لحوادث خمسين عاما أو نحوها ، وأنه استقرأ حوادثها فى نحو خمسين عاما أخرى ، ولم يتوفر مثل هذا الاستقراء وهذه المشاهدة لعالم آخر ؛ ويكفيك أيضاً أنك تستطيع أن تجد تراجم رجال مصر فى العصر الذى كتب عنه الجبرتى ، وقلما تستطيع أن تقف على تراجم الوفيات بعد انتهاء كتابه ، ولو أن مؤرخاً قام بعد الجبرتى ودوّن حوادث مصر وترجم لرجالها من سنة ١٨٢٢ لما انقطعت سلسلة التاريخ بعد وفاته ، ولكان لدينا صورة

حية لحوادث مصر وأحوالها الاجتماعية وتاريخ رجالها من ذلك العهد إلى نهضة الصحافة المصرية ، التى صارت بمثابة سجلّ لحوادث البلاد ، فهذا النقص الذى نشعر به هو من أعظم الأدلة على فضل الجبرتى على التاريخ المصرى

أسلوب الجبرتى ولغته

يضربون المثل على انحطاط الكتابة فى ذلك العصر بأسلوب الجبرتى ولغته ، على أن الجبرتى لا يزعم أنه كاتب أديب ، وقد كانت الكتابة صناعة أدبية يقوم بها من توفروا على أسبابها من حفظ الرسائل والشعر وفنون الأدب المعروفة ، ومع أن الجبرتى من تلاميذ السيد مرتضى شارح القاموس فلم يفده السيد أكثر مما كان يفيده لو أعطاه كتاباً من أمهات كتب اللغة ، فوقعت فى تاريخه الأغلاط الكثيرة فى المفردات وفى العبارة وفى الأسلوب ، ويرجع كل ذلك إلى أنه لم يفرغ للأدب ولا مهَر فيه ، بل درس العلوم الشرعية والفلك والرياضة ، ثم عمد إلى التاريخ ، فسبيله الدقة والتمحيص ، والرصد والتوقيت ، والصبر والمعاناة ، والقيام أحسن القيام على تدوين الوقائع ، وذلك كله قد وفى الرجل به ، أما اللغة وتراكيبها وبدائعها فصناعة أخرى تحتاج إلى مثل الوقت الذى ألف كتابه فيه ، وأكبر الظن أنه مات عن مسودات كتاب لا عن كتاب ، فلو كان العمر قد امتد به لنقح وهذب ، وبحث وفتش ، وأضاف إلى صناعة التاريخ صناعة الكتابة ؛ على أن الرجل لم يكن قليل البضاعة فى الأدب ، فإن عباراته فى بعض المواطن تدل على أنه ضرب بسهم فى اللغة وأوضاعها ، لكنه لم يعن بالإنشاء والبلاغة ، فأسلوب الجبرتى أسلوب تقريرى لا شأن له بصناعة الترسل ولا بفنون الأدب ، وما يتفق فيه من محاسن اللغة والتعبير فمرجعه إلى المصطلحات والألفاظ الشرعية الجارية فى الفقه والحديث والتفسير والمعاملات ، والعبارات المحفوظة المتلقاة عن كتب الأدب ، وهذه المراجع هى مادة العلم واللغة فى ذلك العصر ، وظاهر لمن يحقق النظر فى كتاب الجبرتى من الوجهة اللغوية أنه لولا العلوم الشرعية وما يجرى فيها من اللغة وأوضاعها لبادت الكتابة العربية فى ذلك العصر ، ولكان تاريخ الجبرتى قد جاءنا فى لغة ليس فيها من العربية إلا حروفها .

ترجمة كتابه

وقد تُرجم كتاب الجبرتى للفرنسية مرتين : الأولى بقلم المسيو كاردان **Cardin** مترجم القنصلية الفرنسية بمصر المتوفى سنة ١٨٣٨ ، وهذه الترجمة قاصرة على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية ، وهى تحوى أغلاطاً كثيرة ، وقد طبعت سنة ١٨٣٨ ؛ أما الترجمة الصحيحة الوافية فهى لنخبة من أدباء مصر برآسة المرحوم شفيق بك منصور يكن ، وقد ظهرت فى

تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٨٩٦

وتُرجم الجزء الخاص بالحملة الفرنسية أيضاً إلى التركية

وفاة الجبرتى

اختلف الرواة فى تاريخ وفاة الجبرتى ، ففى بعض الروايات أنه توفى سنة ١٢٤١ هجرية ، على أن رواية المرحوم شفيق بك منصور يكن أقرب إلى الثقة ، لأنه حقق مسألة وفاته وتحرى عن ذريته لمناسبة ترجمة الكتاب إلى الفرنسية ، فكتب فى مقدمة الترجمة أنه توفى يوم ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧ هجرية (١٨ يونيه سنة ١٨٢٢) ، وقال عن ذريته : « إنه توفى تاركا غلاما وبنتا ، وإن الغلام مات عقب وَفاة والده بسنوات قليلة ، وإن البنت كانت لم تزل على قيد الحياة بالقاهرة حتى ظهور الترجمة الفرنسية للكتاب ، لكنها كانت تعيش نسياً منسيا » ، ولم يرو لنا أحد من معاصريها ماذا صارت إليه ، وهكذا درست عائلة الجبرتى بعد ما أحيا عميدها تاريخ مصر

ويستفاد من رواية شفيق بك منصور يكن أن كتاب الجبرتى ينتهى عند حوادث سنة ١٨٢١ ، وأنه لايوجد جزء خامس كما يروى البعض دوّن فيه حوادث السنوات التى أعقبت سنة ١٨٢١ ، إذأن تاريخ وفاته سنة ١٨٢٢ يقرب إلى الذهن أن مادوّنه ينتهى بنهاية الجزء الرابع من الكتاب

* * *

— كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » تأليف المعلم نقولا الترك من أدباء لبنان

ترجم المسيو ديجرانج Desgranges هذا الكتاب إلى الفرنسية ، ونشر الأصل العربى مع الترجمة فى كتاب واحد طبع فى باريس سنة ١٨٣٩ ، وذكر المسيو ديجرانج أنه قابل المعلم نقولا الترك المذكور وتعرف به ، وذكر عنه أنه ولد فى دير القمر سنة١٧٦٣ وتوفى بها سنة ١٨٢٨ ، وأبوه يوسف الترك ، وأصل عائلته من الاستانة ، وأنه كان فى خدمة الأمير بشير الشهابى الذى أوفده إلى مصر على عهد الحملة الفرنسية ، وقضى بها ثلاث سنوات شهد فى خلالها وقائع الحملة إلى جلاء الفرنسيين ، وجمع مشاهداته التى ألف منها كتابه ، فروايته من هذه الناحية رواية شاهد عيان ، وقد نقلنا عنه بعض مشاهداته وملاحظاته

(تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين)

هى رساله صغيرة ليس لها قيمة من الوجهة التاريخية ، وضعها الشيخ عبد الله الشرقاوى

رئيس الديوان فى عهد الحملة الفرنسية ، ويقول فى مقدمتها عن سبب وضعها ، إنه لما حضر يوسف باشا الصدر الأعظم إلى بلبيس فى شهر رمضان المعظم ١٢١٤ بعد حصول الصلح بينه وبين طائفة الفرنساوية فى قلعة العريش ، « وذهبت مع بعض علماء مصر لملاقاته ، طلب منى بعض الإخوان من أتباع ذلك الصدر الأعظم أن أجمع كتاباً متضمناً لواقعة الحال المذكورة ، فأجبته إلى ذلك »؛ وليس فى الرسالة عن واقعة الحال المذكورة سوى صحائف قليلة لا تغنى شيئاً ، وقد نقلنا عنها بعض فقرات مما شاهده الشيخ الشرقاوى بنفسه

الوثائق الفرنسية للحملة

— مراسلات نابليون Correspondances de Napoleon ، وهى مجموعة تحتوى جميع المراسلات والأوامر والقرارات والمنشورات والوثائق التى صدرت من نابليون فى جميع أدوار حياته ، وهى مرجع على جانب عظيم من الأهمية ، طبعت بأمر الإمبراطور نابليون الثالث فى اثنين وثلاثين مجلداً

— مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران Bertrand فى سانت هيلين ، القسم الخاص بمصر عنوانه : (حروب مصر وسوريا) فى جزءين

Campagnes d'Egypte et de Syrie

طبعت هذه المذكرات سنة ١٨٤٧ ، وهى مصدر كبير القيمة يحتوى على معلومات دقيقة عن حروب نابليون وسياسته ، ولكن فيها ملاحظة لا تفوت القارئ ، وهى أنها كمذكرات العظماء ورجال السياسة لا تخلو من نقطة ضعف ، منشؤها أنهم فى بعض المواطن يكتبون ليدافعوا عن أنفسهم أمام التاريخ وأمام الأجيال المقبلة ، فيحرفون بعض الوقائع فى سبيل هذه الغاية ، فمذكراتهم من هذه الناحية يجب أن تقابل بالتحفظ ، وأن تكون رواية الوقائع فيها محلا للبحث والتحقيق

— مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال جورجو Gourgaud ، وهى مذكرات أخرى أملاها على الجنرال المذكور أحد رفقائه فى المنفى ، نشرت سنة ١٨٢٣ ، وفيها معلومات لم ترد فى مذكرات برتران لكن هذه أوفى بياناً

— ذكر حروب الجنرال بونابارت فى مصر وسوريا

Relation des campagnes du Général Bonaparte en Egypte et en Syrie

وهو كتاب للجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، ضمنه تاريخ المعارك والحوادث التى وقعت فى مصر وسوريا ، من يوم وصول الحملة الفرنسية إلى انتهاء

معركة (أبو قير) البرية ، طبع قبل انتهاء الحملة الفرنسية ، والجنرال برتييه هو من رفاق نابليون فى حياته الحربية والسياسية ، وكان رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية فى إيطاليا ثم فى مصر ، وقد عاد إلى فرنسا صحبة نابليون بعد واقعة أبوقير البرية قبل انتهاء حوادث الحملة ، وتقلد وزارة الحربية عندما صار نابليون قنصلا أول ، ولازمه فى حروبه ، وكان موضع ثقته ، ورقاه مارشالا ثم دوقاً ثم أميراً ، لكنه تخلى عنه سنة ١٨١٤ بعد أن أفل نجمه ، ومات سنة ١٨١٥ ، ويقال إنه مات منتحراً

— مذكرات المارشال برتييه وهى مذكرات أكثر تفصيلا من كتابه

— تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر للمسيو مارتان فى جزءين طبع سنة ١٨١٥

Histiore de l'Expedition française en Egypte p. Martin

والمسيو مارتان هو أحد مهندسى الحملة الفرنسية وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وممن اشتركوا فى وضع كتاب (تخطيط مصر)

— مذكرات بوريين

Memoires de Bourienne sur Napoleon, le Consulat, l'Empire et la Restauration

وبوريين هو سكرتير نابليون الخاص ، نشر مذكراته سنة ١٨٣١ فى عشرة أجزاء(١) ، ومما يجدر ملاحظته أن هذه المذكرات مع أهميتها ودقة بياناتها يجب أن تقابل (فى بعض المواطن) بالتحفظ ، لأن المعروف عن بوريين أنه تنكر لنابليون لما أفل نجمه فى حروبه الأخيرة التى انتهت بأسره فى واقعة واترلو ، وانضم فى هذا العهد إلى خصومه من الملكيين وكافأوه على تنكره لسيده

— مذكرات الجنرال كليبر Carnet du general Kleber

— يوميات الجنرال كليبر Journal de general Kleber

— مذكرات الجنرال موران عن أعمال كليبر

Notes du general Morand sur les operation de general Kleber

— مذكرات (ميو) عن تاريخ حملة مصر وسوريا

Memoires pour servir à l'histoire des expeditions en Egypte et en Syrie p. J Miot

---

(١) أعيد طبعها فى خمسة أجزاء كل جزء يتناول جزءين من الطبعة الأولى

وميو هذا كان قومسيراً فى إدارة مهمات الحملة

— مصر بعد واقعة عين شمس

L'Egypte après la bataille d'Heliopolis

تأليف الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية ، طبع سنة ١٨٠٢ ، وهذا الكتاب يحتوى تاريخ حوادث مصر من نقض معاهدة العريش إلى جلاء الفرنسيين عن مصر ؛ وفيه فذلكة عن الحوادث التى وقعت فى عهد قيادة الجنرال كليبر ، فهو من هذه الجهة يعتبر مكملا لكتاب الجنرال برتييه ، لأن كتاب برتييه ينتهى بآخر عهد نابليون فى مصر ، وبدراسة الكتابين تتمثل لديك مجموعة حوادث الحملة الفرنسية كما يرويها قائدان من أهم قواد الحملة . والمعروف عن الجنرال رينييه أنه كان خصما لدوداً للجنرال منو Menou وكان بينهما خلاف شديد أشار إليه الجبرتى فى كتابه ، وقد أمر منو بطرده من الإسكندرية فى آخر عهد الحملة الفرنسية (وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى الجزء الثانى) ، فوضع رينييه كتابه ليدافع عن وجهة نظره وخططه الحربية التى عارض فيها منو ، على أن رينييه كان معتدلا فى شرح آرائه ، متحرياً الصدق فى سرد الوقائع ، معتمداً فى كتابه على الوثائق والبيانات الرسمية ، ويعتبر كتابه هذا من أهم وثائق الحملة الفرنسية ، وقد مات الجنرال رينييه سنة ١٨٠٤ ، وأعيد طبع الكتاب سنة ١٨٢٧ باسم مذكرات رينييه Memoires de Reynier

— جريدة (كوريبه دليجبت) Courier de l'Egypte وهى الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية ، وقد تكلمنا عليها ص ١١٠

— جريدة (لاديكاداجيبسيين) La Decade Egyptienne ، وقد تكلمنا عليها ص ١١٠

— رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابارت للمسيو فيفان دينون

Voyage dans La Basse et La Haute Egypte pendant les campagnes du general Bonabarte p. Vivant Denon

وقد تكلمنا على هذا الكتاب ومؤلفه ص ١٠٦

— التاريخ الطبى لجيش الشرق للدكتور ديجنيت كبير أطباء الحملة الفرنسية

Histoire mèdicale de L'Armèe d'Orient p. Desgenettes

— ذكريات ديجنيت Souvenirs de Desgenettes

— رسائل من مصر بقلم المسيو جوفروا سان هيلير أحد علماء الحملة ، وقد تكلمنا عنه ص ١٠٠ Lettres écrites d'Egypte p. Geffroy Saint Hilane

— مذكرات دفيلييه أحد مهندسى الحملة (يوميات وذكريات عن حملة مصر)
Journal et Souvenirs sur l'Expedition d'Egypte وقد تكلمنا عنها ص ٩٨

— مذكرات جالوا أحد مهندسى الحملة (انظر ص ٩٧)

Journal d'un ingenieur attaché à l'Expedition D'Egypte p. Jallois

— تاريخ حملة مصر Histoire de l'Expedition d'Egypte للمسيو نورى Norry أحد مهندسى الحملة ، وقد تكلمنا عنه وعن كتابه ص ٩٩

— يوميات مالوس Agenda de Malus (انظر ص ١٠٤) وهو ضابط كبير فى جيش الحملة وعضو بالمجمع العلمى، ومذكراته تتناول الحوادث من فبراير سنة ١٧٩٨ إلى يوليه سنة ١٨٠١ ، لكنها طبعت سنة ١٨٩٢

— وللجنرال مارمون Marmont أحد قواد الحملة رحله فى بعض بلاد أوروبا والشرق ، وكانت رحلته إلى مصر فى عهد محمد على باشا وقد دوّن فيها مشاهداته وذكرياته عن الحمله الفرنسية طبعت باسم (رحلة المارشال الدوق دى راجوز) Voyage du Marchal duc de Raguse وهو بذاته الجنرال مارمون الذى رقاه نابليون إلى لقب دوق ، فصار يعرف بالدوق دى راجوز ومنحه رتبة مارشال ، ثم غدر بسيده لما أفل نجمه ، وانحاز إلى أعدائه ، فعدّ عمله مضرب الأمثال فى الغدر ونقض العهد ، وقد طبعت رحلته سنة ١٨٣٧

— مذكرات دى نيلو سارجى أحد ضباط الحملة ، مات سنة ١٨٠٢ ، ونشرت مذكراته سنة ١٨٢٥

Memoires secrets et inedits pourservir à l'histoire contemporaine sur l'Expedition d'Egypte p. De Niello—Sargy

— صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى للمسيو جالان

Tableau de l'Egypte pendant la séjour de l'armée française p. Galland

طبعت سنة ١٨٠٤ فى جزءين ، والمسيو جالان هو أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وكان أديباً وموظفاً فى جريدة (الكوريبه دليجبت)

— جيش بونابارت فى مصر للقومندان جيترى

L'Armée de Bonaparte en Egypte p. Guitry

— بونابارت فى مصر للكابتن تورمان أحد ضباط الحملة

Bonaparte en Egypte p. Thurman

— يوميات الجنرال لوجييه Journal du Général Laugier

— يوميات الكونتر اميرال بلانكى دى شايلا أحد قواد العمارة الفرنسية

Journal du contre—Amiral Blanquet du Chayla

— يوميات الجنرال بليار Journal du general Belliard

— مذكرات الجنرال ديفرنوا Memoires du general baron Desvernois

— مذكرات سلكوسكى Notes de Sulkowsky

— مذكرات حربية للكولونل فيجو روسيليون

Memoires militaires du colonel Vigo Roussillon

مذكرات تاريخية عن حركات ومواقع فرقة الجنرال ديزيه للكابتن جاربيه من ضباط فرقة الهندسة

Memoires historiques des marches et position de la division de general Desaix p. le capitaine de genie Garbé

— ذكريات عن حملة مصر للفارس بيرمييه

Souvenirs de la campagne d'Egypte p. le chasseur Pierre Millet

— يوميات فارس عن مصر ، وهو أحد ضباط الحملة الفرنسية لم يذكر اسمه فى كتابه

Journal d'un dragon d'Egypte

— تاريخ حملة مصر وسوريا للمسيو أدير ، وهو ليس بشاهد عيان ، لكن كتابه راجعه الجنرال بوفيه Beauvais رئيس أركان حرب الجنرال رينيه

Histoire de l'Expedition d' Egypte et de Syrie p. Ader

— مذكرات جديدة عن الجيش الفرنسى فى مصر وسوريا لريكاردو ، نشرب سنة ١٨٤٨ بعد عهد طويل من الحوادث التى دونت فيها

Nouveaux memolres sur l'armée française en Egypte en Syrie p. Richardo

— مجموعة ميادين الوقائع والهجمات والمعارك التى فاز فيها بونابارت فى إيطاليا ومصر

Recueil de plans de batailles, attaques et combats gagnés p. Bonaparte en Italie et en Egypte

وهو كتاب لاثنين من ضباط أركان حرب نابليون ممن شهدوا وقائعه ، ولم يذكرا اسميهما فى الكتاب

— يوميات سافارى Carnet du chef d'escadron Savary أحد ضباط الحملة الفرنسية (وهو غير المسيو سافارى صاحب كتاب رسائل عن مصر) ، والضابط سافارى هو الذى صار فى عهد الإمبراطورية النابليونية الدوق روفيجو Duc de Rovigo وله مذكرات طبعت باسم مذكرات الدوق روفيجو Memoires du duc Rovigo

— يوميات عن الحملة الإنجليزية فى مصر للكبتن ولش Walsh أحد ضباط تلك الحملة

Journal of the late Campaign in Egypt

يتضمن حوادث الحملة الإنجليزية التى اشتركت مع الحملة العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر ، ويبدأ بسرد وقائع الحملة من يوم احتشاد الجيش الإنجليزى فى جبل طارق (نوفمبر سنة ١٨٠٠) إلى جلاء الفرنسيين عن مصر ، وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية

***

ولعلك تشعر معى بأسف عظيم عند ماتقارن بين ماتركه رجال السيف والقلم فى أوروبا من المذكرات والوثائق فى مختلف العصور ، وبين نقص تاريخنا من هذه الناحية ، ويزيدنا أسفا أن هذا النقص يلقى ظلاما حالكا على كثير من وقائع تاريخنا ويحول دون تعرف الحقائق فى كثير من أمهات الحوادث ، ولو عنى رجالنا ، بتدوين مذكراتهم وخواطرهم ومشاهداتهم وجمع الوثائق والمخطوطات التى توفروا عليها، وعنيت سلالتهم بالمحافظة عليها ونشرها كعناية القوم فى أوروبا، لكان فى ذلك أكبر خدمة لتاريخ مصر ولا كتسبت الآداب التاريخية فى بلادنا مادة تعد من أصول الفقه التاريخى

كتاب تخطيط مصر

Description De l'Egypte

هو الكتاب الخالد الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، يحتوى مجموعة أبحاثهم ومذكراتهم وخرائطهم ورسومهم واكتشافاتهم فى خلال السنوات الثلاث التى قضوها فى مصر ، وهو أعظم كتاب ظهر فى العصر الحديث عن تخطيط مصر ، أو هو دائرة معارف لمصر القديمة والحديثة إلى انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، يتناول تخطيط آثارها وبلدانها القديمة والحديثة ، وثغورها وسواحلها ونيلها وترعها ونباتها وحيوانها وطيورها وأسماكها وحشراتها ومعادنها وأحجارها وزراعتها وصناعتها وتجارتها وعلومها وفنونها وأخلاقها وعاداتها ، وهو وإن لم يكن تاريخاً لوقائع الحملة الفرنسية ، لكن بعض حوادثها وردت فيه خلال أبحاثه العلمية ، على أن

الكتاب لعظم قيمته لا يمكن أن يستغنى عن دراسته كل من يريد الكتابة فى تاريخ مصر من أى ناحية من نواحيه

بدأ علماء الحملة الفرنسية فى وضع هذا الكتاب وتبويبه من عهد رجوعهم إلى فرنسا ، فأخذوا يجمعون المباحث التى أتموها أثناء إقامتهم بمصر ، وينقحونها ويبنون عليها ، فقضوا فى تأليف الكتاب سبعة عشر عاماً ، ومات بعض مؤلفيه أثناء تأليفه

وكان وضع الكتاب وطبعه بطلب من الحكومة الفرنسية ، فقد أمر نابليون بعد عودة الحملة الفرنسية من مصر أن تجمع الأبحاث والخرائط والرسوم ، وجميع المذكرات الخاصة بالعلوم والفنون مما انتهى إليه علماء الحملة فى كتاب واحد يطبع بنفقة الحكومة ، وألفت لجنة من ثمانية من أكبر علماء الحمله ، اختارهم جماعة المؤلفين لتبويب الكتاب وجمع مواده وإخراجه ، وأعضاء هذه اللجنة هم : برتوليه Berthollet ، ومونج Monge ، وكونتى Conté ، وكوستاز Costaz ، وديجنيت Desgenettes ، وفورييه Fourier ، وجيرار Girard ، ولانكرى Lancret ، وضم إليهم فى خلال العمل دليل Delile وديفلييه Deviliers ، وجومار Jomard ، وجالو Jollais ، وتولى برتوليه رئاسة اللجنة ، وتداول سكرتاريتها على التعاقب المسيو لانكرى ثم جومار ثم جالو

وكان للجنة قوميسير فنى مندوب عن الحكومة ، يتولى تنظيم العمل وإنفاذه ، وهو المسيو كونتى Conté ، وبعد وفاته خلفه المسيو لانكرى ، وبعد وفاة الأخير خلفه المسيو جومار ، إلى أن تم ظهور الكتاب

وقد ظهرت الأجزاء الأولى من الكتاب سنة ١٨٠٩ ، واستمرت تظهر تباعاً إلى سنة ١٨٢٦ ، وأعيد طبع الكتاب من سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٢٩ ، وهى الطبعة الثانية ، وقد درسنا الكتاب فى طبعته الثانية للمسيو بانكوك ، وبلغ عدد ما بها من الخرائط والرسوم الكبيرة والصغيرة ثلاثة آلاف

والكتاب ينقسم إلى وضعين : قسم النصوص ، وقسم الخرائط والرسوم ، فالأول يحتوى مذكرات علماء الحملة وتقاريرهم ومشاهداتهم ، ويقع فى ستة وعشرين مجلدا ؛ والقسم الثانى فى أحد عشر مجلداً كبيراً تحتوى رسوم الآثار القديمة ورسوم مصر الحديثة ومدنها ومبانيها وصناعاتها وزراعتها وطبقات سكانها ، وكذلك رسوم حيوانها وطيورها وأسماكها وحشراتها ونباتها ومعادنها وأحجارها ، والخرائط الجغرافية عن مصر ومديرياتها وسواحلها وترعها وبحيراتها وصحاريها وجبالها ومدنها وثغورها ، وأسماء البلاد الكبيرة والصغيرة بالفرنسية والعربية

وينقسم من جهة الموضوعات إلى ثلاثة أقسام

(١) وصف مصر القديمة إلى عهد الفتح الإسلامى ، وفيه تخطيط دقيق مفصل لآثار مصر القديمة ، والبلاد القائمة بها تلك الآثار أو القريبة منها وحالتها ، القديمة والحديثة

(٢) وصف مصر الحديثة من الفتح الإسلامي إلى مشاهداتهم خلال الحملة الفرنسية

(٣) التاريخ الطبيعى لمصر

ولا يسع المطلع على هذا الكتاب العظيم إلا أن يقر بمقدرة علماء الحمله الفرنسية فى استيعاب الحقائق العلمية ، واستقصاء المشاهدات والمعلومات والبيانات الدقيقة التى جمعوها فى الفترة القصيرة التى قضوها فى مصر ، ويعجب بما تذرعوا به من الصبر والجلد لإتمام عملهم الجليل

مؤلفات جامعة

مستندة إلى الوثائق الرسمية وروايات شهود العيان

وثمّ كتب لم يكن أصحابها ممن شهدوا الوقائع التى دوّنوها ، إلا أنها أهم من كثير من المراجع المتقدمة (عدا كتاب تخطيط مصر) ، إذ كانت مستندة إلى وثائق رسمية ذات قيمة كبيرة ، وإلى روايات شهود العيان

وإليك بيان هذه الكتب :

— التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية فى مصر (فى عشرة أجزاء)

Histoir scientifique et militaire de l'Expedition française en Egypte

طبع من سنة ١٨٣٠ إلى ١٨٣٦

وهو كتاب جامع اشترك فى وضعه جماعة من علماء فرنسا بإدارة المسيو مارسل Marcel أحد علماء الحملة الفرنسية ، والمسيو ريبو Reybaud أحد كتاب فرنسا السياسيين ، والمسيو سانتين Santine ، واستعانوا على وضعه بالوثائق والمستندات والمخطوطات والمذكرات التى جمعها لفيف من قواد الحملة الفرنسية وعلمائها (وبعضهم ممن بقى على قيد الحياة حين وضع الكتاب) ، كمذكرات الجنرال بليار، ومراسلات الجنرال كليبر، ووثائق المسيو دور D'Aure مدير مهمات الحملة ، ووثائق الطبيبين الشهيرين لارى Larrey وديجينت ، ومذكرات العالم جوفروا سان هيلير عن تاريخ مصر الطبيعى ، ومذكرات بعض قواد الحملة ، والمخطوطات التى جمعها المسيو مارسل ، ووثائق المسيو بيروس Peyrusse سكرتير الجنرال كليبر الخاص ،

ووثائق المسيو بوسيلج Poussielgue مدير الشؤون المالية فى عهد الحملة ، وغير ذلك ؛ وكل هذه المصادر على جانب عظيم من الدقة والأهمية ، والكتاب فى عشرة أجزاء ، الجزء الأول خاص بمصر القديمة ، وقد تولى تحريره ريبو ومارسل والمركيز فورتيا دوربان ؛ والجزء الثانى خاص بتاريخ مصر من عهد الفتح الإسلامى إلى الحملة الفرنسية ، وتولى تحريره ريبو ومارسل ؛ والأجزاء الستة التالية خاصة بالحملة الفرنسية ، وقد تولى تحريرها ريبو وحده ، ولذلك جعلنا الإشارة فى كتابنا إلى هذه الأجزاء بكلمة « ريبو » ؛ والجزءان التاسع والعاشر عن تاريخ مصر من جلاء الفرنسيين ، وتولى تحريرهما فولابل

وقد وضع ريبو مقدمة الكتاب ، وهو صاحب القسط الأكبر فيه ، فيصح أن ينسب إليه والكتاب فضلا عن مكانته باعتباره أول وأكبر كتاب جامع لوقائع الحملة الفرنسية ، فإنه مستند إلى وثائق شهود العيان ؛ والمسيو مارسل أحد الذين اشتركوا فى تحريره ، كان فعلا شاهد عيان لحوادث الحملة ، وقد قدم المسيو جوفروا سان هيلير الكتاب إلى المجمع العلمى الفرنسى

— حملة مصر تأليف الكابتن (ثم القومندان) دى لاجونكيير

L'Expedition d'Egypte p. Le C. De la Jonquière

وهو فى خمسة مجلدات كبيرة ، نشر فيها المؤلف الوثائق الرسمية للحملة الفرنسية المودعة فى محفوظات وزارة الحربية الفرنسية ووزارات البحرية والخارجية ، وهو من أهم مراجع هذا العصر ، لكنه قاصر على مدة إقامة نابليون فى مصر ، وينتهى الجزء الخامس منه برحيله إلى فرنسا ، وقد ظهر الكتاب من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٧

ويوجد كتاب عن عهد الجنرال كليبر والجنرال منو إلى نهاية الحملة الفرنسية ، يصح أن يكون تكملة لكتاب القومندان دى لاجونكيير وهو :

— كتاب « الجنرال عبدالله منو والفترة الأخيرة لحملة مصر » (١٧٩٩ — ١٨٠١) لمؤلفه المسيو جورج ريجو

Le genéral Abdallah Menou et la derniere phase de l'Expedition d'Egypte p. George Rigault

ظهر هذا الكتاب سنة ١٩١١ فى جزء واحد ، واستند فيه مؤلفه إلى بعض الوثائق الرسمية ، وحاول أن يكون مكملا لكتاب القومندان دى لاجونكيير ، لكنه ليس بالتعمق ولا بالإسهاب اللذين تراهما فى كتاب دى لاجونكيير ، فضلا عن أنه ظاهر من أسلوب مؤلفه

أنه كان يكتب مدفوعاً بروح الانتصار لمنو ، والتحامل على كليبر ، فكتابه يعوزه الاعتدال الذى يكفل النَّصَفَة عند تحرى الحقائق

— كتاب الكونت باجول عن كليبر واسمه (كليبر — حياته ومراسلاته) .

Kleber, sa vie, sa correspondance p. le general comte Pajol

— كليبر ومنو فى مصر للمسيو روسو

Kleber et Menou en Egypte p. Fr. Rousseau

وهو مجموعة من الوثائق الخاصة بعهد قيادة الجنرال كليبر والجنرال منو فى مصر

عن المدة التى انقضت بعد جلاء الفرنسيين

إلى إسناد ولاية مصر إلى محمد على باشا

(المراجع العربية)

— الجبرتى وهو أهم مرجع ويفوق فى دقته جميع المراجع الفرنسية، وقد سبق الكلام عنه

(المراجع الأوروبية)

— تاريخ مصر فى حكم محمد على للمسيو فيلكس مانجان

Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly p. Felix Mengin

والمسيو فيلكس مانجان هو شاهد عيان للحوادث التى دوّنها فى كتابه من جلاء الفرنسيين إلى سنة ١٨٣٨ ، وكان مقيما بمصر موظفا سياسيا فى الوكالة الفرنسية بالقاهرة ، وكان صديقاً لمحمد على باشا ، واشترك فى بعض الحوادث التى دونها فى كتابه ، وكتابه من هذه الوجهة له قيمة كبيرة ، وهو من أهم مراجع تلك الحقبة من الزمن . ويقع فى ثلاثة أجزاء ، سرد فى الأول والثانى حوادث مصر من جلاء الفرنسيين إلى سنة ١٨٢٣ ، وهما اللذان يعتبران من مراجع الفترة التى بسطناها فى الجزء الثانى من كتابنا هذا ؛ أما الثالث من كتابه فجاء خاصاً بالحوادث التى وقعت من سنة ١٨٢٣ إلى سنة ١٨٣٨

— لمحة عامة إلى مصر للدكتور كلوت بك

Aperçu general sur l'Egypte p. Clot bey

فى جزءين ، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد مسعود بك

— ورجعنا كذلك فى بعض المواطن إلى (الخطط التوفيقية) للعلامة على باشا مبارك فى عشرين جزءاً ، وإلى كتاب (التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية) لمؤلفه اللواء المصرى محمد مختار باشا طبع سنة ١٣١١ هجرية

كلمة شكر

ولمناسبة مراجع البحث أرى واجباً علىّ أن أقدم جزيل شكرى لحضرات رجال دار الكتب الملكية بمصر على جميل الحفاوة وعظيم المساعدة والمعاونة التى لقيتها منهم فى البحث والمراجعة ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ أسعد براده بك مدير دار الكتب ، والأستاذ توفيق اسكاروس بك رئيس القسم الإفرنجى ، والأمين الأول الأستاذ على فكرى بك ، والأستاذ الفاضل الشيخ محمد عبد الرسول رئيس القسم العربى ، ومساعده الأديب المهذب محمد افندى جبر ، والأمينين الفاضلين خليفه أفندى قنديل وسيد أفندى عمر ؛ وأقدم مثل هذا الشكر إلى الأستاذ الألمى ، الشيخ أحمد أبى على ، أمين مكتبة الإسكندرية ، فلهم جميعاً منى عظيم الشكر والثناء

تصحيح خطأ

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨٠	١٣	تحت حجاب ، الفقر	تحت حجاب الفقر ،
١٣٢	١	من قريبٌ	من قريبٍ
١٣٥	٨	ومباغته	ومباغتته
١٧٩	١٨	نخده	نخذه
١٨٨	١	لما ظهر من له	لما ظهر له من
٣١٩	١١	الزريقات	الزيقات
٣٤٣	٦	ص ٥٩	ص ٩٥
٣٤٥	٨	ص ١٤٩	ص ٢٣٩

فهرست

الفصل الرابع

المجمع العلمى ٨٩

الفصل السابع

فى القاهرة ١٥٩

الفصل الثامن

عودٌ إلى الاسكندرية ١٧٦

الفصل التاسع

فى رشيد ١٨٩

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

المقاومة فى الوجه القبلى ٢٨٤

الفصل السابع عشر

استمرار المقاومة فى الوجه القبلى ٣١٥

فهرست الخرائط والرسوم

للمؤلف :

حقوق الشعب

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية

صحيفة من تاريخ النهضات القومية ، يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها طبع سنة ١٩٢٢

تاريخ الحركة القومية

الجزء الأول : يشتمل على ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى ولاية محمد على الكبير

عصر محمد على

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على

عصر إسماعيل

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل

الثورة العرابية

والاحتلال الإنجليزى

مصر والسودان

فى أوائل عهد الاحتلال

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢

مصطفى كامل

باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨

محمد فريد

رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٠٨ إلى سنة ١٩١٩

